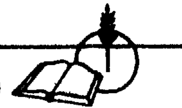
الخلافة الراشدة

خلاصة تاريخ ابن كثير

للقاضي الشيخ
محمد بن أحمد كنعان



مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م
بيروت — لبنان



يطلب من مكتبة المعارف ص. ب 1761 / 11 بيروت — لبنان



نَحْمدُ اللّٰهَ تعالى حمداً يوافي نِعَمَه ويُكافيء مَزيده، وصَلّى اللّٰهُ وسَلَّمَ على سيِّدنا ونبينا محمد، سيِّد الأولين والآخرين، وعلى الخلفاء الراشدين المهديِّين، وآله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فهذا هو الجزء الرابع من كتابنا: «خلاصة البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، متضمناً «تاريخ الخلافة الراشدة»، من بدايتها بخليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب، ثم الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين، وهو تاريخ زاخر بالجهاد والفتوحات، مع غَصَّاتٍ وفِتَن عَكَّرَتْ بعضَ مراحله، نقدمه منفرداً بهذا العنوان، خدمةً للقارئ والباحث، وبالله التوفيق.

بيروت في شهر رمضان المبارك سنة ١٤١٧هـ

الموافق لشهر كانون الثاني سنة ١٩٩٧م

المؤلف

محمد بن أحمد كنعان

خلاصة تاريخ ابن كثير
للقاضي الشيخ محمد بن أحمد كنعان

* قصص الأنبياء وأخبار الماضين.
* السيرة النبوية والمعجزات.
* المغازي النبوية.
* تاريخ الخلافة الراشدة.
* تاريخ الدولة الأموية.
* تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من المماليك.
* وفيات الأعيان والمشاهير.
* أشراط الساعة. الجنة والنار.



مؤسسة المعارف
بيروت - لبنان

تاريخ الخلافة الرّاشدة
وما فيها من الحوادث

وهو خمسة أقسام:

القسم الأول: خلافة أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه.

القسم الثاني: خلافة الفاروق عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه.

القسم الثالث: خلافة عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه.

القسم الرابع: خلافة عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

القسم الخامس: خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما.



القسم الأول

خلافة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه

وفيه: سبعة فصول

الفصل الأول: ولاية أبي بكر رضي الله عنه.

الفصل الثاني: تنفيذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

الفصل الثالث: خروج الأَسْوَد العَنْسي ومَقْتَله.

الفصل الرابع: حروب الرِّدَّة.

الفصل الخامس: فتوح العراق.

الفصل السادس: فتوح الشَّام.

الفصل السابع: مما وقع من الحوادث زَمَن الصِّدِّيق.



الفصل الأول

ولاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه

* ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
* مبايعة أبي بكر رضي الله عنه.



ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه[1]

هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن فهر بن النضر بن مالك، يجتمع مع النبي ﷺ في: «مرة بن كعب».

كنيته: أبو بكر وبها اشتهر وعرف، وعرف والده عثمان بكنيته «أبي قُحَافة» بضم القاف، أما والدته فهي: أم الخير سلمى بنت صخر التيمية، أسلمت قديماً بعد إسلام ولدها أبي بكر، وأسلم أبو قحافة عام الفتح، رضي الله عنهم.

كان أبو بكر الصديق أول الرجال إسلاماً بلا خلاف، وهو أول خليفة بعد رسول الله ﷺ، ولم يلقب بـ «خليفة رسول الله» أحد غيره، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وصاحب النبي ﷺ في «غار ثور» في رحلة الهجرة إلى المدينة، وهو المقصود بقوله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[2].

توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة ليلة الثلاثاء، في السنة الثالثة عشرة للهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسجد رسول الله ﷺ، وحمل على السرير عينه الذي حمل عليه النبي ﷺ، ودفن ليلاً، في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، وجعل رأسه عند كتفي النبي ﷺ وألصقوا لحده بلحده ﷺ، وكانت خلافته: سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وقيل: سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال.

---

(١) هذه النبذة عن حياة أبي بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه، لم يذكرها ابن كثير بل وضعناها نحن، لأن ابن كثير رحمه الله قد أفرد لحياة الصديق رضي الله عنه كتاباً، وقد أشار إليه مراراً في تاريخه.

(٢) الآية «٤٠» من سورة «التوبة».

مبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

توفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، فاشتغل الناس ببيعة أبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة، ثم في المسجد البيعة العامة في بقية يوم الإثنين وصبيحة الثلاثاء، ثم أخذوا في غسل رسول الله ﷺ، وتكفينه والصلاة عليه ﷺ بقية يوم الثلاثاء، ودفنوه ليلة الأربعاء كما تقدم[١] ذلك مبرهناً في موضعه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني الزهري، حدثني أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر في السَّقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أيها الناس، إني قد قلت لكم بالأمس مقالة، ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إليَّ رسول الله، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سَيَدْبُرُ أَمْرَنا ـ يقول[٢]: يكون آخِرَنا ـ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى اللَّهُ رسولَهُ، فإن اعتصمتم به، هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه»، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: «أما بعد أيها الناس: فإني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهادَ في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا

(١) تقدم هذا مفصلاً في «السيرة النبوية» في الجزء الثاني.

(٢) قوله: «يقول: يكون آخرنا»، هذا تفسير لقول عمر رضي الله عنه: «سيدبر أمرنا» أي: لن يموت قبلنا.

عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[1]، وهذا إسناد صحيح.

وقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على بيعة الصديق في ذلك الوقت، حتى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما، والدليل على ذلك ما رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قُبض رسول الله ﷺ، واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة، وفيهم أبو بكر وعمر، قال: فقام خطيب الأنصار فقال: أتعلمون أنا أنصار رسول الله ﷺ؟ فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره، قال: فقام عمر بن الخطاب فقال: صدق قائلكم، ولو قلتم غير هذا لم نبايعكم، فأخذ بيد أبي بكر وقال: هذا صاحبكم فبايعوه، فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار، وقال: فصعد أبو بكر المنبر، فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير، قال: فدعا الزبير فجاء، قال: قلت: ابن عمة رسول الله، أردتَ أن تشق عصا المسلمين؟ قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم، فلم ير علياً، فدعا بعلي بن أبي طالب قال: قلت: ابن عم رسول الله وَخَتَنُه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه، هذا أو معناه.

قال الحافظ أبو علي النيسابوري: سمعت ابن خزيمة يقول: جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث، فكتبته له في رقعة وقرأته عليه، فقال: هذا حديث يساوي بَدَنَة، فقلت: يساوي بدنة؟ بل هذا يساوي بَدْرَة[2]، وقد رواه الإمام أحمد عن الثقة عن وهيب مختصراً، وأخرجه الحاكم في مستدركه مطولاً كنحو ما تقدم.

وقال موسى بن عقبة في مغازيه، عن سعد بن إبراهيم: حدثني أبي أن أباه عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر، وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير، ثم خطب أبو بكر واعتذر إلى الناس وقال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتها الله في سر ولا علانية، فقبل المهاجرون مقالته، وقال علي والزبير: ما هذا إلا لأننا أُخِّرنا عن المشورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حيّ.

وهذا اللائق بعلي رضي الله عنه والذي يدل عليه الآثار، من شهوده معه

---

(١) يوجد في المطبوعة تحريف وسقط في رواية ابن إسحاق، فصوبناها وأصلحناها، فانتبه.

(٢) «بدرة» بفتح الباء الموحدة بعدها دال مهملة ساكنة بعدها راء، هي: «عشرة الآف درهم».

الصلوات، وخروجه معه إلى ذي القَصَّة بعد موت رسول الله ﷺ، كما سنورده[١]، وبذله له النصيحة والمشورة، بين يديه، وأما ما يأتي من مبايعته إياه بعد موت فاطمة، وقد ماتت بعد أبيها عليه الصلاة والسلام بستة أشهر، فذلك محمول على أنها بيعة ثانية، أزالت ما كان قد وقع من وحشة، بسبب الكلام في الميراث، ومنعه إياهم ذلك بالنص عن رسول الله ﷺ في قوله: «لا نُورَثُ، ما تركنا فهو صدقة» كما تقدم[٢] إيراد أسانيده وألفاظه ولله الحمد.

وروى سيف بن عمر[٣] عن عاصم بن عدي، قال: نادى منادي أبي بكر، من الغد من متوفَّى رسول الله ﷺ ليتمم بعثَ أسامة: ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جيش أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرْف[٤]، وقام أبو بكر في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لعلكم تكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يُطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فبايعوني، وإن زِغْتُ فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قُبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمةٍ، ضربةِ سَوْطٍ فما دونها، وإن لي شيطاناً يعتريني[٥]، فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم، وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّب عنكم علمه، وإن استطعتم أن لا يمضي إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مُهَل آجالكم، من قبل أن تُسْلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم بعدهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجِدَّ الجِدَّ، والوَحَا الوَحَا، والنَّجاءَ النجاءَ، فإن وراءكم طالباً حثيثاً، وأجلاً مَرُّهُ سريع، احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تَغْبِطُوا الأحياءَ إلا بما تَغْبِطُون به الأموات».

---

(١) سيأتي هذا في «الفصل الرابع» من هذا القسم بعونه تعالى.

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث والكلام في هذا الموضوع مفصلاً في «وفاته» ﷺ من «السيرة النبوية»، الجزء الثاني.

(٣) «سيف بن عمر» هو: الأسدي التميمي، أحد أصحاب السِّيَر، توفي عام مائتين للهجرة ٨١٥ م.

(٤) «الجرف» بضم الجيم موضع قرب كل من: مكة والمدينة، والمراد هنا موضع المدينة.

(٥) قوله: «شيطاناً يعتريني» أي: عند الغضب، فالغضب من الشيطان، يعني بقوله هذا: أن لا يلحوا عليه ويضايقوه وهو غضبان، لئلا تبدر منه بحقهم أذية، لأنه ليس كالنبي ﷺ في عصمته في رضاه وفي غضبه عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثاني

تنفيذ جيش أسامة بن زيد

رضي الله عنهما



جيش أسامة هم: الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام، حيث قتل زيد بن حارثة، وجعفر وابن رواحة، فَيَغْتَزُوا على تلك الأراضي، فخرجوا إلى الجُرْف فخيموا به، وكان بينهم عمر بن الخطاب، ويقال: وأبو بكر الصديق فاستثناه رسول الله منهم للصلاة، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك، فلما مات، عظم الخطب، واشتد الحال، ونجم النفاق بالمدينة، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق، ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة، وكانت «جُوَاثا»[1] من البحرين، أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس كما سيأتي[2]، وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام، لم يفروا ولا ارتدوا.

والمقصود: أنه لما وقعت هذه الأمور، أشار كثير من الناس على الصديق، أن لا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم، لأن ما جهز بسببه في حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصدِّيق عن ذلك، وأبى أشد الإباء، إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أَحُلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جَرَّت بأرجل أمهات المؤمنين، لأجهزن جيش أسامة، وآمر الحرس يكونون حول المدينة، فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم مَنَعة شديدة، فقاموا أربعين يوماً ويقال: سبعين يوماً، ثم أتوا سالمين غانمين، ثم رجعوا، فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ومانعي الزكاة، على ما سيأتي تفصيله.

قال سيف بن عمر: عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما بويع أبو بكر وجَمَعَ الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه، قال: «لِيُتَمَّ بعثُ أسامة»، وقد ارتدت العرب إما عامة، وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى،

---

(١) «جواثا» أو: «جواثاء» بضم أوله: حصن بالبحرين.

(٢) سيأتي هذا في خبر «ردة أهل البحرين» من «الفصل الرابع» في هذا القسم بعونه تعالى.

والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيهم ﷺ، وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جُلُّ المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقَضَتْ بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال: «والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تَخَطَّفُني، لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»، وقد روي هذا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

وروى سيف بن عمر، عن الحسن البصري: أن أبا بكر لما صمم على تجهيز جيش أسامة، قال بعض الأنصار لعمر: قل له فليؤمِّر علينا غير أسامة، فذكر له عمر ذلك، فيقال: إنه أخذ بلحيته وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، أؤمر غير أمير رسول الله ﷺ؟ ثم نهض بنفسه إلى الجُرْف[1] فاستعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير، وسار معهم ماشياً، وأسامة راكباً، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصديق، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله؛ إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: والله لستَ بنازل ولستُ براكب، ثم استطلق الصِّديقُ من أسامَةَ عمر بن الخطاب ـ وكان مكتتباً في جيشه ـ فأطلقه له، فلهذا كان عمر لا يلقاه بعد ذلك إلا قال: «السلام عليك أيها الأمير».



(١) «الجرف» بضم الجيم وسكون الراء، هو هنا: الموضع الذي قرب المدينة.

الفصل الثالث

خروج الأَسود العَنْسيّ الكَذَّاب وَمَقْتَلُهُ



قال أبو جعفر بن جرير[1]: حدثني عمر بن شيبة النميري، قال: ثنا علي بن محمد ـ يعني: المدائني ـ عن أبي معشر، ويزيد بن عياض بن جُعْدَبَةَ، وغسان بن عبد الحميد، وجويرية بن أسماء، عن مشيختهم قالوا: أمضى أبو بكر جيش أسامة بن زيد في آخر ربيع الأول، وأتى مقتل الأسود في آخر ربيع الأول بعد مخرج أسامة، فكان ذلك أول فتح أتى أبا بكر وهو بالمدينة.

قد أسلفنا فيما تقدم[2]: أن اليمن كانت لحمير، وكانت ملوكهم يسمون: التبابعة، وتكلمنا في أيام الجاهلية على طرف صالح من هذا، ثم إن ملك الحبشة بعث أميرين من قواده، وهما: أبرهة الأشرم، وأرياط، فتملكا له اليمن من حمير، وصار ملكها للحبشة، ثم اختلف هذان الأميران، فقتل أرياط واستقل أبرهة بالنيابة، وبنى كنيسة سماها «القُلَّيْس»[3]، لارتفاعها، وأراد أن يصرف حج العرب إليها دون الكعبة، فجاء بعض قريش فأحدث في هذه الكنيسة، فلما بلغه ذلك، حلف ليخربن بيت مكة، فسار إليه ومعه الجنود والفيل محمود، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه[4]، وقد تقدم بسط ذلك في موضعه[5]. فرجع أبرهة ببعض من بقي من جيشه، في أسوأ حالٍ وشَرِّ خيبة، وما زال تسقط أعضاؤه أنملة أنملة، فلما وصل إلى صنعاء انصدع صدره فمات، فقام بالملك بعده ولده بلسيوم بن أبرهة، ثم أخوه مسروق بن أبرهة، فيقال: إنه استمر ملك اليمن بأيدي الحبشة سبعين سنة، ثم ثار سيف بن ذي يزن الحميري، فذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره عليهم، فأبى ذلك عليه، لما بينه وبينهم من الاجتماع في دين النصرانية، فسار إلى كسرى ملك

---

(١) يوجد في المطبوعة تصحيف شنيع في أسماء رجال سند ابن جرير هذا، فصوبناه.

(٢) سبق هذا مفصلاً في «أخبار العرب» في الجزء الأول.

(٣) «القليس» بضم القاف وفتح اللام مشددة، هذا هو الصواب، سميت بذلك لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وقد حرف اسم هذه الكنيسة في المطبوعة إلى «العانس» وهذا تحريف سيء.

(٤) يعني بذلك خبرهم النازل في سورة «الفيل»، وقد رتبناه جيداً في كتابنا: «فتح القدير، تهذيب تفسير ابن كثير» ص ٤٩١ من الجزء السادس.

(٥) تقدم هذا مفصلاً في «أخبار العرب» في الجزء الأول.

الفرس فاستغاث به، ثم اتفق الحال، على أن بعث معه ممن بالسجون طائفة تقدمهم رجل منهم يقال له: وَهْرَز، فاستنقذ ملك اليمن من الحبشة، وكسر مسروق بن أبرهة وقتله، ودخلوا إلى صنعاء، وقرروا سيف بن ذي يزن في الملك على عادة آبائه، وجاءت العرب تهنئه من كل جانب، غير أن لكسرى نواباً على البلاد، فاستمر الحال على ذلك، حتى بُعِثَ رسول الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام، ثم هاجر إلى المدينة، فلما كتب كُتبه إلى الآفاق يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكتب في جملة ذلك إلى كسرى ملك الفرس:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فأسلم تسلم»، إلى آخره، فلما جاءه الكتاب قال: ما هذا؟ قالوا: هذا كتاب جاء من عند رجل بجزيرة العرب يزعم أنه نبي، فلما فتح الكتاب فوجده قد بدأ باسمه قبل اسم كسرى، غضب كسرى غضباً شديداً، وأخذ الكتاب فمزقه قبل أن يقرأه، وكتب إلى عامله على اليمن ـ وكان اسمه باذام[1] ـ أما بعد: فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث من قبلك أميرين إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب، الذي يزعم أنه نبي، فابعثه إليّ في جامعة[2]، فلما جاء الكتاب إلى باذام، بعث من عنده أميرين عاقلين، وقال: اذهبا إلى هذا الرجل، فانظرا ما هو، فإن كان كاذباً فخذاه في جامعة[3] حتى تذهبا به إلى كسرى، وإن كان غير ذلك فارجعا إلي فأخبراني ما هو، حتى أنظر في أمره، فقدما على رسول الله ﷺ إلى المدينة، فوجداه على أسدّ الأحوال وأرشدها، ورأيا منه أموراً عجيبة، يطول ذكرها، ومكثا عنده شهراً حتى بلغا ما جاءا له، ثم تقاضاه الجواب بعد ذلك، فقال لهما: ارجعا إلى صاحبكما، فأخبراه أن ربي قد قتل الليلة رَبَّه، فأَرَّخا ذلك عندهما، ثم رجعا سريعاً إلى اليمن، فأخبرا باذام بما قال لهما فقال: أحصوا تلك الليلة، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبي، فجاءت الكتب من عند ملكهم، أنه قد قتل كسرى في

(١) «باذام»، بالميم، وفي بعض كتب التاريخ بالنون، ولا فرق، فهو اختلاف في التعريب، إذ الاسم فارسي.

(٢) «جامعة» هي: «الغُلّ» بضم الغين المعجمة، جمعها «أغلال»، وهو: ما تربط به اليد أو اليدان إلى العنق، ومنه قوله تعالى: **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾** (الآية ٢٩ من سورة الإسراء).

أما «الغل» بكسر الغين المعجمة فهو: الغش والحقد والضِّغن.

(٣) ارجع إلى التعليق السابق.

ليلة كذا وكذا، لتلك الليلة، وكان قد قتله بنوه ولهذا قال بعض الشعراء:

وَكِسرى إذ تَقاسَمَهُ بَنُوهُ ... بأَسيافٍ كَمَا اقْتُسِمَ اللِّحامُ
تَمخَّضتِ المَنُونُ لهُ بيومٍ ... أتى، ولكلِّ حاملةٍ تمامُ

وقام بالملك بعده ولده يزدجرد، وكتب إلى باذام أن خذ لي البيعة من قبلك، واعمد إلى ذلك الرجل فلا تهنه وأكرمه، فدخل الإسلام في قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن، وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، فبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها، فلم يعزله عنها حتى مات، فلما مات استناب ابنه شهر بن باذام على صنعاء وبعض مخاليف[1]، وبعث طائفة من أصحابه نواباً على مخاليف أُخَر، فبعث أولاً في سنة عشر: علياً وخالداً، ثم أرسل معاذاً وأبا موسى الأشعري، وفرق عمالة اليمن بين جماعة من الصحابة، فمنهم: شهر بن باذام[2] وعامر بن شهر الهَمْدَاني على «هَمْدَان»[3]، وأبو موسى على «مأرب»، وخالد بن سعيد بن العاص على «ما بين نجران ورِمَع[4] وزَبيد»، ويعلى بن أمية على «الجَنَدِ»[5]، والطاهر بن أبي هالة على «عَكّ[6] والأشعريين»، وعَمْرو بن حَزْم على «نجران»، وعلى «بلاد حضرموت» زياد بن لبيد، وعلى «السَّكاسِكِ» عُكّاشة بن ثور، وعلى «السَّكُون»[7] معاوية بن كندة، وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل البلدين: «اليمن وحضرموت»، يتنقل من بلد إلى بلد، ذكره سيف بن عمر، وذلك كله في سنة عشر، آخر حياة رسول الله ﷺ.

فبينما هم على ذلك، إذ نَجَمَ هذا اللعين: الأسود العَنْسي[8] واسمه:

---

(١) «مخاليف»، جمع «مخلاف» وهي: الكورة بضم الكاف، أي: الناحية.

(٢) «باذام» بالميم آخره، وفي «بعض كتب التاريخ» بالنون، ولا فرق فهو اختلاف في الترجمة من الأصل الفارسي.

(٣) «همدان» بفتح الهاء وسكون الميم، أما «همذان» بالذال المعجمة، فهي بفتح الميم اسم بلدة في بلاد العجم.

(٤) «رمع» بوزن «عِنَب»، وفي المطبوعة «رفع» وهو تصحيف.

(٥) «الجند» بفتح الجيم والنون.

(٦) «عَكّ» مثل: «فَكّ» وفي المطبوعة «عل» باللام وهو تصحيف.

(٧) «السكون» بفتح السين وضم الكاف.

(٨) «العنسي» نسبة إلى «عنس» بفتح العين المهملة وسكون النون، بطن من مَذْحِج، وكان يلقب: «ذا الخمار» لأنه كان معتماً متخمراً أبداً، ذكره ابن الأثير في «الكامل»، وكان العنسي أول مرتد في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ.

«عَيْهَلَةُ[1] بن كعب بن عوف» من بلد يقال لها: «كهف خُبَّان»، في سبعمائة مقاتل، وكتب إلى عمال النبي ﷺ: أيها المتمردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه، ثم ركب فتوجه إلى نجران، فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه، ثم قصد إلى صنعاء، فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا، فغلبه الأسود وقتله، وكسر جيشه من الأبناء، واحتل بلدة صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه، ففر معاذ بن جبل من هنالك، واجتاز بأبي موسى الأشعري، فذهبا إلى حضرموت، وانحاز عمال رسول الله ﷺ إلى الطاهر، ورجع عَمْرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي، وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة، وكان جيشه يوم لقي شهراً سبعمائة فارس، وأمراؤه: قيس بن عبد يغوث، ومعاوية بن قيس، ويزيد بن محرم بن حصن الحارثي، ويزيد بن الأفكل الأزدي، واشتد ملكه، واستغلظ أمره، وارتد خلق من أهل اليمن، وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية، وكان خليفته على «مذحج» عمرو بن معدي كرب، وأسند أمر الجند إلى قيس بن عبد يغوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمي وداذَوَيْه، وتزوج بامرأة شهر بن باذام، وهي ابنة عم فيروز الديلمي، واسمها آذاد، وكانت امرأة حسناء جميلة، وهي مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله محمد ﷺ، ومن الصالحات.

قال سيف بن عمر التميمي[2]: وبعث رسول الله ﷺ كتابه، حين بلغه خبر الأسود العنسي مع رجل يقال له: وَبَر بن يُحَنِّس الديلمي، يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العَنْسي ومصاولته، وقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتم القيام، وكان قد تزوج امرأة من السَّكُونِ يقال لها: رملة، فَتَحَزَّبَتْ عليه السَّكُون لصبره فيهم، وقاموا معه في ذلك، وبلغوا هذا الكتاب إلى عمال النبي ﷺ، ومن قدروا عليه من الناس، واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند[3]، وكان قد غضب عليه

(١) «عَيْهَلَة» بالعين المهملة بعدها ياء مثناة تحتية ساكنة، وهو في المطبوعة بالباء الموحدة وهو تصحيف.

(٢) نسب ابن كثير هنا هذه الرواية إلى سيف بن عمر قوله، وليس كذلك في واقع الأمر، فإن سيف بن عمر يروي هذه الحادثة، عن المستنير بن يزيد، عن عروة بن غُزَيَّة، عن الضحاك بن فيروز، عن جُشَيْش أو: جَشْنَس بن الديلمي، قال: . . .

وقد رواها الطبري في تاريخه بسنده عن سيف بن عمر بالسند المذكور عن جُشَيْش، ولفظها يختلف عن هذا الذي ذكره ابن كثير، ولو أنه ساق الرواية بنصها لكان أحسن، ولكن ابن كثير اختصرها.

(٣) قوله: «أمير الجند» أي: جند الأسود العنسي.

الأسود، واستخف به وَهَّم بقتله، وكذلك كان أمر فيروز الديلمي، قد ضعف عنده أيضاً، وكذا داذَوَيْه، فلما أعلم وَبَرُ بن يُحَنِّس، قَيْسَ بن عبد يغوث، وهو قيس بن مكشوح[1]، كان كأنما نزلوا عليه من السماء، ووافقهم على الفتك بالأسود، وتوافق المسلمون على ذلك، وتعاقدوا عليه، فلما أيقن ذلك في الباطن، أَطْلَعَ شيطانُ الأسودِ الأسودَ على شيء من ذلك[2]، فدعا قيس بن مكشوح، فقال له: يا قيس، ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: عمدتَ[3] إلى قيس فأكرمته، حتى إذا دخل منك كل مدخل، وصار في العز مثلك، مال ميل عدوك، وحاول ملكك، وأضمر على الغدر، إنه يقول: يا أسود يا أسود، يا سوءة يا سوءة، اقطف قُنَّتَهُ وخذ من قيس أعلاه، وإلا سلبك وقطف قُنَّتَكَ، فقال له قيس ـ وحلف له ـ: كَذَبَ وذي الخمار[4]، لأنت أعظم في نفسي وأَجَلُّ عندي، من أن أحدث بك نفسي، فقال له الأسود: ما أجفاك، أتُكَذِّب المَلَكَ[5]، فقد صَدَقَ المَلَكُ، وعرفتُ الآن أنك تائب عما اطلع عليه منك، ثم خرج قيس من بين يديه، فجاء إلى أصحابه: فيروز وداذَوَيْه، وأخبرهم بما قال له وَرَدَّ عليه، فقالوا: إنا كلنا على حذر، فما الرأي؟ فبينما هم يشتورون، إذ جاءهم رسوله فأحضرهم بين يديه، فقال: ألم أُشَرِّفكم على قومكم؟ قالوا: بلى، قال: فماذا يبلغني عنكم؟ فقالوا: أَقِلنا مَرَّتنا هذه، فقال: لا يبلغني عنكم فأقلكم، قال: فخرجنا من عنده ولم نكد، وهو في ارتياب من أمرنا، ونحن على خطر، فبينما نحن في ذلك، إذ جاءتنا كتب من عامر بن شهر، أمير هَمْدَان، وذي ظُلَيم، وذي كُلاَع، وغيرهم من أمراء اليمن، يبذلون لنا الطاعة والنصر، على مخالفة الأسود، وذلك حين جاءهم كتاب رسول الله ﷺ يحثهم على مصاولة الأسود العَنْسي، فكتبنا إليهم: أن لا يُحْدثوا شيئاً حتى نبرم الأمر، قال قيس: فدخلت على امرأته آذاد، فقلت: يا ابنة عم، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند

---

(١) «قيس بن مكشوح» سيأتي في «ذكر ردة أهل عمان ومهرة باليمن» في «الفصل الرابع»، أن قيساً هذا قد ارتد عن الإسلام، وأسر وجيء به إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فاعتذر إليه فقبل الصديق علانيته ووكل سره إلى الله عز وجل.

(٢) وكان الأسود كاهناً يأتيه شيطانه وتابعه من الجن.

(٣) قوله: «عمدت» هذا خطاب من شيطانه، يحرضه على قتل قيس.

(٤) قوله: «وذي الخمار»، يحلف بالأسود لأنه يلقب بـ «ذي الخمار»، لأنه كان معتماً متخمراً أبداً، وعرف بهذا اللقب أيضاً جده «عوف بن الربيع»، لأنه قاتل في خمار زوجته وطعن كثيرين، فكان إذا سئل أحدهم: من طعنك؟ قال: ذو الخمار.

(٥) قوله: «الملك» أي: الوحي الذي يأتيه بزعمه.

قومك، قتل زوجك، وطأطأ في قومك[1] القتل، وفضح النساء، فهل عندك من ممالأة عليه؟ قالت: على أيِّ أمره؟ قلت: إخراجه، قالت: أو قتله؟ قلت: أو قتله، قالت: نعم، والله ما خلق الله شخصاً هو أبغض إليَّ منه، فما يقوم لله على حق، ولا ينتهي له عن حرمة، فإذا عزمتم أخبروني، أعلمكم بمَأْتَى هذا الأمر، قال: فأَخْرُجُ فإذا فيروز وداذويه ينتظراني، يريدان أن يناهضاه، فما استقر اجتماعه بهما، حتى بعث إليه الأسود، فدخل في عشرة من قومه، فقال: ألم أخبرك بالحق، وتخبرني بالكذابة؟ إنه يقول[2]: يا سوءة يا سوءة، إن لم تقطع من قيس يده، يقطع قُنَّتَكَ العليا، حتى ظن قيس أنه قاتله، فقال: إنه ليس من الحق أن أهلك[3] وأنت رسول الله، فمر بي بما أحببت، فأما الخوف والفزع فأنا فيهما مخافة أن تقتلني، فرقَّ له وأمره بالانصراف، فخرج إلى أصحابه فقال: اعملوا عملكم، فبينما هم وقوف بالباب يشتورون، إذ خرج الأسود عليهم، وقد جُمع له مائة ما بين بقرة وبعير، فقام وخَطَّ خطاً، وأقيمت من ورائه وقام دونها فنحرها، غير مُحَبَّسَة ولا مُعَقَّلَة، ما يقتحم الخط منها شيء، فجالت إلى أن زهقت أرواحها، قال قيس: فما رأيت أمراً كان أفظع منه، ولا يوماً أوحش منه، ثم قال الأسود: أَحَقٌّ ما بلغني عنك يا فيروز؟ لقد هممت أن أنحرك فألحقك بهذه البهيمة - وأبدى له الحربة - فقال له فيروز: اخترتنا لصهرك، وفضلتنا على الأبناء، فلو لم تكن نبياً، ما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخرة والدنيا؟ فلا تَقْبل علينا أمثال ما يبلغك، فأنا بحيث تحب، فرضي عنه وأمره بقسم لحوم تلك الأنعام، ففرقها فيروز في أهل صنعاء، ثم أسرع اللحاق به، فإذا رجل يحرضه على فيروز ويسعى إليه فيه، واستمع له فيروز، فإذا الأسود يقول: أنا قاتله غداً وأصحابه، فاغد عليَّ به، ثم التفت فإذا فيروز، فقال: مَهْ، فأخبره فيروز بما صنع من قسم ذلك اللحم، فدخل الأسود داره، ورجع فيروز إلى أصحابه، فأعلمهم بما سمع، وبما قال وقيل له، فاجتمع رأيهم على أن يعاودوا المرأة في أمره، فدخل أحدهم - وهو فيروز - إليها فقالت: إنه ليس من الدار بيت إلا والحرس محيطون به، غير هذا البيت، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه من دون الحرس، وليس من دون قتله شيء، وإني سأضع في البيت سراجاً وسلاحاً، فلما خرج من عندها، تلقاه

(١) «وطأطأ في قومك القتل» أي: أسرع فيهم بالقتل.

(٢) قوله: «إنه يقول...» أي: شيطانه وتابعه.

(٣) «أن أهلك» وفي رواية: «أن أقتل».

الأسود فقال له: ما أدخلك على أهلي؟ وَوَجَأَ رأسه[1]، وكان الأسود شديداً، فصاحت المرأة فأدهشته عنه، ولولا ذلك لقتله، وقالت: ابن عمي جاءني زائراً، فقال: اسكتي لا أبا لك، قد وهبته لك، فخرج على أصحابه فقال: النَّجاءَ النَّجاءَ، وأخبرهم الخبر، فحاروا ماذا يصنعون، فبعثت المرأة إليهم تقول لهم: لا تنثنوا عما كنتم عازمين عليه، فدخل عليها فيروز الديلمي، فاستثبت منها الخبر، ودخلوا إلى ذلك البيت، فنقبوا من داخله بطائن، ليهون عليهم النقب من خارج، ثم جلس عندها جهرة كالزائر، فدخل الأسود فقال: وما هذا؟ فقالت: إنه أخي من الرضاعة، وهو ابن عمي، فنهره وأخرجه، فرجع إلى أصحابه، فلما كان الليل، نقبوا ذلك البيت، فدخلوا فوجدوا فيه سراجاً تحت جفنة، فتقدم إليه فيروز الديلمي، والأسود نائم على فراش من حرير، وقد غرق رأسه في جسده، وهو سكران يغط، والمرأة جالسة عنده، فلما قام فيروز على الباب، أجلسه شيطانه وتكلم على لسانه ـ وهو مع ذلك يغط ـ فقال: ما لي وما لَكَ يا فيروز؟ فخشي إن رجع يهلك وتهلك المرأة، فعاجله وخالطه وهو مثل الجمل، فأخذ رأسه فدق عنقه، ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله، ثم قام ليخرج إلى أصحابه ليخبرهم، فأخذت المرأة بذيله وقالت: أين تذهب عن حرمتك؟ فظنت أنها لم تقتله، فقال: أخرج لأعلمهم بقتله، فدخلوا عليه ليحتزوا رأسه، فحركه شيطانه فاضطرب، فلم يضبطوا أمره حتى جلس اثنان على ظهره، وأخذت المرأة بشعره، وجعل يبربر بلسانه، فاحتزَّ الآخر رقبته، فخار كأشدِّ خوارِ ثورٍ سُمع قَطُّ، فابتدر الحرس إلى المقصورة، فقالوا: ما هذا؟ ما هذا؟ فقالت المرأة: النبي يوحى إليه، فرجعوا، وجلس قيس وداذويه وفيروز يأتمرون: كيف يعلمون أشياعهم؟ فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح، ينادون بشعارهم الذي بينهم وبين المسلمين، فلما كان الصباح قام أحدهم، وهو قيس على سور الحصن فنادى بشعارهم، فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن، فنادى قيس ويقال: وَبَرُ بن يُحَنِّس، الأذان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عَيْهَلَة كذاب، وألقى إليهم رأسه، فانهزم أصحابه وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم في كل طريق يأسرونهم، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم، وتنازع أولئك الثلاثة في الإمارة، ثم اتفقوا على معاذ بن جبل يصلّي بالناس، وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ، وقد أطلعه الله على الخبر من ليلته، كما قال سيف بن عمر التميمي، عن أبي القاسم الشنوي، عن العلاء بن زيد، عن ابن عمر: أتى الخبر إلى

---

(١) «ووجأ رأسه» أي: ضربه ودفعه.

النبي ﷺ من السماء، الليلة التي قُتل فيها العنسي ليبشرنا، فقال: «قتل العنسي البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين»، قيل: ومن؟ قال: «فيروز، فيروز»، وقد قيل: إن مدة ملكه منذ ظهر إلى أن قتل ثلاثة أشهر، ويقال: أربعة أشهر، فالله أعلم.

وروى سيف بن عمر، عن المستنير، عن عروة، عن الضحاك، عن فيروز: قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا في صنعاء كما كان، إلا أنا أرسلنا إلى معاذ بن جبل فتراضينا عليه، فكان يصلي بنا في صنعاء، فوالله ماصلى بنا إلا ثلاثة أيام، حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيراً مما كنا نعرف، واضطربت الأرض.

وقد قدمنا: أن خبر العنسي جاء إلى الصديق في أواخر ربيع الأول، بعد ما جهز جيش أسامة، وقيل: بل جاءت البشارة إلى المدينة صبيحة توفي رسول الله ﷺ والأول أشهر والله أعلم.

والمقصود: أنه لم يجئهم فيما يتعلق بمصالحهم، واجتماع كلمتهم، وتأليف ما بينهم، والتمسك بدين الإسلام، إلا الصديق رضي الله عنه، وسيأتي إرساله إليهم من يمهد الأمور التي اضطربت في بلادهم، ويقوي أيدي المسلمين، ويثبت أركان دعائم الإسلام فيهم، رضي الله عنهم.



الفصل الرابع

حروب الرِّدَّة

* تَصَدِّي الصِّدِّيق لقتال أهل الرِّدَّة ومانعي الزكاة.
* خروجه رضي الله عنه إلى ذي القَصَّة وعقده ألوية الأمراء الأحد عشر.
* قصة سَجَاح وبني تميم.
* خبر مالك بن نُوَيْرَة التَّميمي.
* مقتل مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب.
* ذكر ردَّة أهل البَحْرين وعودهم إلى الإسلام.
* ذكر ردة أهل عُمَان وَمَهْرَةَ اليَمَن.



تَصَدّي الصّدّيق لقتال أهل الرّدة ومانعي الزكاة

قد تقدم أن رسول الله ﷺ لما توفي، ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، ونجم النفاق بالمدينة، وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة، والتفت على طُلَيحة الأسدي بنو أسد وطيّء، وبشر كثير أيضاً، وادعى النبوة أيضاً، كما ادعاها مسيلمة الكذاب، وعَظُم الخطب، واشتدت الحال، ونفذ الصديق جيش أسامة، فقلّ الجند عند الصديق، فطمعت كثير من الأعراب في المدينة وراموا أن يهجموا عليها، فجعل الصديق على أنقاب المدينة حراساً يبيتون بالجيوش حولها، فمن أمراء الحرس: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وجعلت وفود العرب تقدم المدينة، يقرون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصديق، وذكر أن منهم من احتج بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[1] قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا، إلاَّ إلى مَنْ صلاته سَكَنٌ لنا، وأنشد بعضهم:

أَطَعْنا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا فَواعَجَباً مَا بَالُ مُلْكِ أَبِي بَكْرِ؟!

وقد تكلم الصحابة مع الصديق، في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم، ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه.

وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه، عن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: علام تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟»، فقال أبو بكر: والله لو منعوني عَنَاقاً ـ وفي

(١) الآية «١٠٣» من سورة «التوبة».

رواية: عِقالاً ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

قلت: وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[1] وثبت في الصحيحين: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريقين عن شبابة بن سوار: ثنا عيسى بن يزيد المديني، حدثنيَ صالح بن كيسان، قال: لما كانت الردة، قام أبو بكر في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «الحمد لله الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن الله بعث محمداً ﷺ، والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رَثَّ حبله، وخَلَقَ عهده، وضلَّ أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب، فلا يعطيهم خيراً لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شراً لشر عندهم، قد غيروا كتابهم، وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون، يحسبون أنهم في مَنَعة من الله، لا يعبدونه ولا يَدْعُونه، فأجهدهم عيشاً، وأضلهم ديناً، في ظَلَفٍ[2] من الأرض مع ما فيه من السحاب، فختمهم الله بمحمد، وجعلهم الأمة الوسطى، نصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض الله نبيّه ﷺ فركب منهم الشيطان مركبه الذي أنزله عليه، وأخذ بأيديهم، وبغى هلكتهم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[3] إن من حولكم من العرب، منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم ـ وإن رجعوا إليه ـ أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما قد تقدم من بركة نبيكم ﷺ، وقد وكلكم إلى المولى الكافي، الذي وجده ضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ

---

(١) الآية «الخامسة» من سورة «التوبة».

(٢) «ظلف» بفتح الظاء المعجمة واللام، قيل: هو ما لان من الأرض فلا يستبين عليها المشي من لينها، وقيل: هو ما صلب من الأرض فلا تؤدي أثراً، يقال: «مكان ظليف» أي: حزن خشن.

(٣) الآية «١٤٤» من سورة «آل عمران».

﴿تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله، حتى ينجز الله وعده، ويوفي لنا عهده ويقتل من قتل منا شهيداً من أهل الجنة، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2] ثم نزل.

وقال الحسن وقتادة وغيرهما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[3]، قالوا: المراد بذلك أبو بكر وأصحابه، في قتالهم المرتدين، ومانعي الزكاة.

وقال محمد بن إسحاق: ارتدت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ما خلا أهل المسجدين: مكة، والمدينة، وارتدت أسد وغطفان، وعليهم طليحة بن خويلد الأسدي الكاهن، وارتدت كندة ومن يليها، وعليهم الأشعث بن قيس الكندي، وارتدت مذحج ومن يليها، وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن، وارتدت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر، وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب، وارتدت سليم مع الفُجَاءة واسمه: إياس[4] بن عبد ياليل، وارتدت بنو تميم معَ سَجاح الكاهنة.

وقال القاسم بن محمد: اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الأسدي، وبعثوا وفوداً إلى المدينة، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم إلا العباس، فحملوا بهم إلى أبي بكر، على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق وقال: «لو منعوني عِقالاً[5] لجاهدتهم»، فردهم فرجعوا إلى عشائرهم، فأخبروهم

---

(١) الآية «١٠٣» من سورة «آل عمران».

(٢) الآية «٥٥» من سورة «النور».

(٣) الآية «٥٤» من سورة «المائدة».

(٤) قوله: «واسمه إياس» هذا هو الصواب، وفي المطبوعة «أنس» وهو تصحيف.
وقد كان الصديق حَرّقَ الفُجَاءَةَ بالبقيع في المدينة، وكان سببه أنه قدم عليه فزعم أنه أسلم، وسأل منه أن يجهز معه جيشاً يقاتل به أهل الردة، فجهز معه جيشاً، فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله، فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشاً فرده، فلما أمكنه بعث به إلى البقيع، فجمعت يداه إلى قفاه وألقي في النار فحرقه وهو مقموط.

(٥) قوله الصديق: «لو منعوني عقالاً» بكسر العين، هو: الحبل الذي يعقل به البعير، وفي رواية =

بقلة أهل المدينة، وطمعوهم فيها، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد وقال: «إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا، فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة، وخلفوا نصفهم بذي حُسَى[1] ليكونوا رِدْءاً لهم، وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة، فبعث إليهم: أن الزموا مكانكم، وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفشَّ العدو، واتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حُسَى فخرج عليهم الردء فالتقوا مع الجمع، فكان الفتح وقد قال بعضهم:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ وَسْطَنَا ... فَيا لَعبادِ اللَّهِ، مَا لأَبِي بَكْرِ؟
أَيُورِثُهَا بَكْراً إِذَا مَاتَ بَعْدَه ... وَتِلْكَ لَعَمْرُ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ
فَهَلَّا رَدَدْتُمْ وَفْدَنا بِزَمَانِهِ؟ ... وَهَلاً خَشِيتُم حَسَّ راغِيَةِ البَكْرِ؟
وَإِنَّ الَّتِي سَأَلُوكُمُ فَمَنَعْتُمُ ... لَكَالتَمْرِ أَوْ أَحْلَى إِليَّ مِنَ التَّمْرِ

وفي جمادى الآخرة ركب الصديق في أهل المدينة وأمراءِ الأنقاب، إلى من حول المدينة من الأعراب الذين أغاروا عليها، فلما تواجه هو وأعداؤه من بني عبس، وبني مرة، وذبيان، ومَنْ ناصَبَ معهم من بني كنانة، وأمدهم طليحة بابنه حِبَال[2]، فلما تواجه القوم، كانوا قد صنعوا مكيدة وهي: أنهم عمدوا إلى أنحاء[3] فنفخوها، ثم أرسلوها من رؤوس الجبال، فلما رأتها إبل أصحاب الصديق نفرت وذهبت كل مذهب، فلم يملكوا من أمرها شيئاً إلى الليل، وحتى رجعت إلى المدينة، فقال في ذلك الخطيل بن أوس:

= أخرى: «عناقاً» بفتح العين المهملة هي: الأنثى من ولد المعز، وفي رواية: «جدياً»، ووجه الرواية الأولى: أن عقل الصدقة كانت على أهل الصدقة مع الصدقة، أي: على صاحب المال أن يدفع زكاة إبله مع العقال، ذكره الطبري في تاريخه، ورجح ابن الأثير في «النهاية» القول بأن المراد بالعقال، صدقة العام، وقيل غير ذلك.

(١) قوله: «بذي حسى» بضم الحاء المهملة وفتح السين المهملة، هكذا ضبطه ابن الأثير في تاريخه.

(٢) «حبال» بكسر الحاء المهملة بعدها باء موحدة، هذا صوابه، وفي المطبوعة في مواضع أخرى بالجيم وهو تصحيف.

(٣) «أنحاء» جمع «نحي» بكسر النون وسكون الحاء المهملة آخره ياء مخففة وهو: زق السمن، وهو: جلد يجز ولا ينتف، وفيه ضرب المثل المشهور: «أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْنِ».

فِدىً لِبَني ذُبْيَان رَحْلِي وَنَاقَتِي عَشِيَّةَ يُحْدَى بِالرِّمَاحِ أَبو بَكْرِ
وَلَكِنْ يُدَهْدَى بِالرِجَالِ فَهَبْنَهُ إِلَى قَدَرٍ مَا أَنْ تُقِيمَ وَلاَ تَسْرِي
وَلِلَّهِ أَجْنَادٌ تُذَاقُ مَذَاقَهُ لِتُحْسَبَ فِيما عُدّ مِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ
أَطَعَنا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لَعِبادِ اللَّهِ، مَا لِأَبِي بَكْرِ؟

فلما وقع ما وقع ظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى عشائرهم من نواحي أخر، فاجتمعوا، وبات أبو بكر رضي الله عنه قائماً ليله يعبىء الناس، ثم خرج على تعبئة من آخر الليل، وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن، وعلى الميسرة أخوه عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة أخوهما سويد بن مقرن، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين حسّاً ولا همساً، حتى وضعوا فيهم السيوف، فما طلعت الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقتل حبال، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القَصَّة، وكان أول الفتح، وذل بها المشركون، وعز بها المسلمون، ووثبت بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعل من وراءهم كفعلهم، فحلف أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة، بمن قَتَلُوا من المسلمين وزيادة، ففي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي:

غَداةَ سَعَى أَبو بَكْرٍ إِلَيهِمْ كَما يَسْعَى لِمَوتَتِهِ حَلالُ
أَراحَ عَلى نَواهِقِها عَلِيّاً وَمَجَّ لَهُنَّ مُهْجَتَهُ حِبَالُ

وقال أيضاً:

أَقَمنَا لَهُمْ عرضَ الشِمال فَكُبْكِبُوا كَكَبْكَبَةِ الغُزَّى أَناخُوا علَى الوَفْرِ
فَما صبَرُوا لِلْحَرْبِ عِنْدَ قِيَامِهَا صَبِيحَةَ يَسْمُو بِالرِجَالِ أَبُو بَكْرِ
طَرَقْنَا بَنِي عَبْسٍ بِأَدْنَى نِبَاجِها وَذُبْيَانَ نَهْنَهنَا بِقَاصِمَةِ الظَهْرِ

فكانت هذه الوقعة من أكبر العون على نصر الإسلام وأهله، وذلك أنه عز المسلمون في كل قبيلة، وذل الكفار في كل قبيلة، ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيداً منصوراً، سالماً غانماً، وطرقت المدينة في الليل صدقات: عدي بن حاتم، وصفوان، والزبرقان، إحداها في أول الليل، والثانية في أوسطه والثالثة في آخره، وقدم بكل واحدة منهن بشير من أمراء الأنقاب، فكان الذي بشر بصفوان، سعد بن أبي وقاص، والذي بشر بالزبرقان، عبد الرحمن بن عوف، والذي بشر بعدي بن حاتم، عبد الله بن مسعود، ويقال: أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه، وذلك على رأس ستين ليلة من متوفَّى رسول الله ﷺ، ثم قدم أسامة بن زيد بعد ذلك بليال، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وأمرهم أن يريحوا ظهرهم، ثم ركب أبو بكر في

الذين كانوا معه، في الوقعة المتقدمة، إلى ذي القَصَّة، فقال له المسلمون: لو رجعت إلى المدينة وأرسلت رجلاً، فقال: والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي، فخرج في تعبئته، إلى «ذي حُسَى» و «ذي القَصَّة»، والنعمان وعبد الله وسويد بنو مقرن على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الرَّبَذَة بالأَبْرَق، وهناك جماعة من بني عبس وذبيان، وطائفة من بني كنانة، فاقتتلوا فهزم الله الحارث وعوفاً، وأُخذ الحطيئة أسيراً، فطارت بنو عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً، وقد غلب بني ذبيان على البلاد، وقال: «حرام على بني ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد، إذ غنَّمَنَاها الله»، وحمى الأبرقَ بخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الربذة، ولما فرت عبس وذبيان، صاروا إلى مؤازرة طلحة وهو نازل على بُزاخة.



خروج الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى ذي القَصَّة، وعَقْده ألوية الأمراء الأحد عشر

بعد ما جَمَّ جيش أسامة واستراحوا، ركب الصديق أيضاً في الجيوش الإسلامية شاهراً سيفه مسلولاً، من المدينة إلى ذي القَصَّة، وهي من المدينة على مرحلة، وعلي بن أبي طالب يقود براحلة الصديق رضي الله عنهما، فسأله الصحابة، منهم علي وغيره، وألحوا عليه أن يرجع إلى المدينة، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره، ممن يؤمره من الشجعان الأبطال، فأجابهم إلى ذلك، وعقد لهم الألوية لأحد عشر أميراً.

وقد روى الدارقطني من حديث عبد الوهاب بن موسى الزهري، عن مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر قال: لما برز أبو بكر إلى القصة واستوى على راحلته، أخذ علي بن أبي طالب بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد: لُمَّ سيفك ولا تَفْجَعْنَا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً، فرجع.

هذا حديث غريب من طريق مالك، وقد رواه زكريا الساجي، من حديث عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهري[1] أيضاً، عن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: خرج أبي شاهراً سيفه على راحلته إلى وادي القَصَّة، فجاء علي بن أبي طالب، فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أحد: لُمَّ

---

(١) قوله: «الزهري أيضاً»، المراد أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه هو من بني زهرة، وقد وَهَمَ المحقق في المطبوعة، فزاد واواً قبل «الزهري» فصارت العبارة: «والزهري أيضاً» يعني: التابعي محمد بن شهاب الزهري رحمه الله تعالى، وليس كذلك.

سيفك ولا تَفْجَعْنَا بنفسك، فوالله لئن أُصبنا بك، لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً، فرجع وأمضى الجيش.

وقال سيف بن عمر، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد: لما استراح أسامة وجنده، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم، قطع أبو بكر البعوث، وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواء.

عقد لخالد بن الوليد، وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له، ولعكرمة بن أبي جهل، وأمره بمسيلمة، وبعث شرحبيل بن حسنة في أثره إلى مسيلمة الكذاب، ثم إلى بني قضاعة، وللمهاجرين أبي أمية، وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح، قلت: وذلك لأنه كان قد نزع يده من الطاعة، على ما سيأتي[1].

قال سيف: ولخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام، ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث، ولحذيفة بن محصن الغطفاني، وأَمَره بأهل دَبَا[2] وبعرفجة وهرثمة وغير ذلك؛ ولطرفة بن حاجب، وأَمَره ببني سليم ومن معهم من هوازن، ولسويد بن مقرن، وأَمَره بتهامة اليمن، وللعلاء بن الحضرمي، وأَمَره بالبحرين[3] رضي الله عنهم، وقد كتب لكل أمير كتاب عهده على حدته، ففصل كل أمير بجنده من ذي القَصَّة، ورجع الصديق إلى المدينة، وقد كتب معهم الصديق كتاباً إلى الرَّبذة وهذه نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله، إلى من بلغه كتابي هذا، من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى، فإني أحمد الله إليكم، الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نقر بما جاء به، ونكفر من أبى ذلك ونجاهده، أما بعد: فإن الله أرسل بالحق من عنده، إلى خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ من

---

(١) سيأتي في بيان «ردة أهل عمان ومهرة اليمن» في هذا الفصل، أن قيساً هذا قد ارتد ثم أسر فتاب.

(٢) «دبا» بفتح الدال المهملة والباء الموحدة مخففة، سوق من أسواق العرب بعمان.

(٣) قوله: «البحرين» ليس المراد به الجزيرة المعروفة في زماننا، بـ «جزيرة البحرين» الواقعة في خليج فارس مما يلي ساحل بلاد العرب، بل يراد بالبحرين جميع بلاد الساحل العربي ما بين البصرة وعمان، ذكره ياقوت الحموي في «معجم البلدان».

أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً، ثم توفَّى الله رسوله، وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بين له ذلك، ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[1] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾[2] وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾[3] فمن كان إنما يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان إنما يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ولا تأخذه سِنَة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه، وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم ما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضال، وكلٌ من لم يعنه الله مخذول، ومن هداه غير الله كان ضالاً، قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[4] ولن يُقبل له في الدنيا عمل حتى يقر به، ولم يقبل له في الآخرة صَرْف ولا عدل، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله وجهلاً بأمره، وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾[5] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾[6] وإني بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار، والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله، ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عز وجل، فإن أجاب وأقر وعمل صالحاً قبل منه، وأعانه عليه، وإن أبى حاربه عليه حتى يفيء إلى أمر الله، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار وأن يقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد غير الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت

---

(١) الآية «٣٠» من سورة «الزمر».

(٢) الآية «٣٤» من سورة «الأنبياء».

(٣) الآية «١٤٤» من سورة «آل عمران».

(٤) الآية «١٧» من سورة «الكهف».

(٥) الآية «٥٠» من سورة «الكهف».

(٦) الآية «السادسة» من سورة «فاطر».

رسولي أن يقرأ كتابه في كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فسلوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا حُمِلَ منهم على ما ينبغي لهم»، رواه سيف بن عمر، عن عبد الله بن سعيد، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك.

وكان سيدَ الأمراء ورأسَ الشجعان الصناديد: «أبو سليمان خالد بن الوليد»، روى الإمام أحمد من طريق وحشي بن حرب[1]: أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم عبد الله وأخو العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله، سله الله على الكفار والمنافقين».

ولما توجه خالد من ذي القَصَّة وفارقه الصديق، واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء، وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب، وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدي، ثم يذهب بعده إلى بني تميم، وكان طليحة بن خويلد في قومه بني أسد، وفي غطفان، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بني جَدِيلة والغَوْث وَطَيء يستدعيهم إليه، فبعثوا أقواماً منهم بين أيديهم، ليلحقوهم على أثرهم سريعاً، وكان الصديق قد بعث عدي بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك، لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، فذهب عدي إلى قومه بني طيء، فأمرهم أن يبايعوا الصديق، وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفضل أبداً ـ يعنون: أبا بكر رضي الله عنه ـ فقال: والله ليأتينكم جيش، فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدي يَفْتِل لهم في الذِّرْوَة والغارب[2] حتى لانوا، وجاء خالد في الجنود، وعلى مقدمة الأنصار الذين معه: ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم، وعُكَاشة بن مِحْصَن طليعة، فتلقاهما طليحة وأخوه سلمة فيمن معهما، فلما وجدا ثابتاً وعُكَاشة تبارزوا، فقتل عكاشَةُ حِبَال[3] بن طليحة ـ وقيل: بل كان قتل حِبَالاً قبل ذلك ـ وأَخَذَ ما معه، وحمل عليه طليحة فقتله، وقتل

---

(١) قوله: «من طريق وحشي بن حرب» أي: عن أبيه عن جده «وحشي بن حرب» الصحابي الحبشي قاتل حمزة رضي الله عنه يوم أحد، أما ابن ابنه المسمى باسمه: «وحشي» هذا فهو لَيِّن الحديث.

(٢) قوله: «يفتل لهم في الذِّروة والغارب» هذا مثل عربي، معناه تليين الغير بالمسايرة، وأصله: فتل أعلى رأس البعير وما بين عنقه وسنامه وحكه ليهنأ.

(٣) «حبال بن طليحة» بالحاء المهملة هو الصواب، وفي المطبوعة «جبال» بالجيم وهو تصحيف.

هو وأخوه سلمة، ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين، ومال خالد إلى بني طيء، فخرج إليه عدي بن حاتم فقال: أنظرني ثلاثة أيام، فإنهم قد استنظروني حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، وهذا أحب إليك من أن يعجلهم إلى النار، فلما كان بعد ثلاث جاءه عدي في خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق، فانضافوا إلى جيش خالد، وقصد خالد بني جَديلة فقال له: يا خالد، أجلني أياماً حتى آتيهم، فلعل الله أن ينقذهم كما أنقذ طيئاً، فأتاهم عدي، فلم يزل بهم حتى تابعوه فجاء خالداً بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان عدي خير مولود وأعظمه بركة على قومه، رضي الله عنهم.

قالوا[1]: ثم سار خالد حتى نزل بأَجَأ وسلمى، وعَبَّى جيشه هنالك، والتقى مع طليحة الأسدي بمكان يقال له: بُزَاخَة[2]، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة، وجاء طليحة فيمن معه من قومه، ومن التف معهم وانضاف إليهم، وقد حضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه، بني فزارة، واصطف الناس، وجلس طليحة ملتفاً في كساء له يتنبأ لهم، ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم، وجعل عيينة يقاتل ما يقاتل، حتى إذا ضجر من القتال يجيء إلى طليحة وهو ملتف في كسائه فيقول: أجاءك جبريل؟ فيقول: لا، فيرجع فيقاتل، ثم يرجع فيقول له مثل ذلك، ويرد عليه مثل ذلك، فلما كان في الثالثة قال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم؟ قال: فما قال لك؟ قال لي: إن لك رَحاً كَرَحَاهُ، وحديثاً لا تنساه، قال: يقول عيينة: أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه، ثم قال: يا بني فزارة انصرفوا، وانهزم وانهزم الناس عن طليحة، فلما جاء المسلمون، ركب على فرس كان قد أعدها له، وأركب امرأته النوار على بعير له، ثم انهزم بها إلى الشام وتفرق جمعه، وقد قتل الله طائفة ممن كان معه، فلما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع، قالت بنو عامر وسليم وهوازن: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، ونُسَلِّم لحكمه في أموالنا وأنفسنا.

قلت: وقد كان طليحة الأسدي، قد ارتد في حياة النبي ﷺ، فلما مات رسول الله ﷺ قام بمؤازرته عيينة بن حصن من بدر، وارتد عن الإسلام، وقال

---

(١) «قالوا...» يعني ابن كثير: رواة السير، إذ هو في هذه الوقائع يختصر وينقل مجمل المعنى.

(٢) «بزاخة» بباء موحدة مضمومة بعدها زاي مفتوحة مخففة، قال الطبري في «التاريخ» هو: ماء من مياه بني أسد.

لقومه: والله لنبي من بني أسد، أحب إلي من نبي من بني هاشم، وقد مات محمد وهذا طليحة فاتبعوه، فوافق قومه بنو فزارة على ذلك، فلما كسرهما خالد، هرب طليحة بامرأته إلى الشام، فنزل على بني كلب، وأسر خالد عيينةَ بن حصن، وبعث به إلى المدينة، مجموعةً يداه إلى عنقه، فدخل المدينة وهو كذلك، فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم، ويقولون: أيْ عدو الله، ارتددت عن الإسلام؟ فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط، فلما وقف بين يدي الصديق، استتابه وحقن دمه، ثم حسن إسلامه بعد ذلك، وكذلك مَنَّ على قُرَّة بن هبيرة، وكان أحد الأمراء مع طليحة، فأسره مع عيينة، وأما طليحة فإنه راجع الإسلام بعد ذلك أيضاً، وذهب إلى مكة معتمراً أيام الصديق، واستحيا أن يواجهه مدة حياته، وقد رجع فشهد القتال مع خالد، وكتب الصديق إلى خالد: أن استشره في الحرب ولا تؤمره ـ يعني: معاملته له بنقيض ما كان قصده من الرياسة في الباطن ـ وهذا من فقه الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

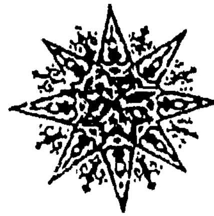
وقد كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد، حين جاءه أنه كسر طليحة ومن كان في صفه وقام بنصره، فكتب إليه: «ليزدك ما أنعم الله به خيراً، واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جِدَّ في أمرك ولا تلن، ولا تظفر بأحد من المشركين قَتَلَ من المسلمين إلا نَكَّلت به، ومن أخذت ممن حادَّ الله أو ضاده، ممن يرى أن في ذلك صلاحاً فاقتله».

فأقام خالد بِبُزاخَةَ شهراً، يُصَعِّدُ فيها ويُصَوِّب، ويرجع إليها في طلب الذين وصاه بسببهم الصديق، فجعل يتردد في طلب هؤلاء شهراً، يأخذ بثأر من قُتلوا من المسلمين، الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا، فمنهم من حرقه بالنار، ومنهم من رضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من شواهق الجبال، كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب، رضي الله عنه.

وقال الثوري عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: لما قدم وفد بُزَاخَةَ ـ أسد وغطفان ـ على أبي بكر يسألونه الصلح، خَيَّرهم أبو بكر بين حرب مُجْلية أو حِطَّة مُخْزِية، فقالوا: يا خليفة رسول الله، أما الحرب المجلية فقد عرفناها، فما الحِطَّة المخزية؟ قال: تؤخذ منكم الحَلْقَةُ والكُرَاع، وتُتْرَكُون أقواماً يتبعون أذناب الإبل، حتى يُري الله خليفة نبيِّه والمؤمنين أمراً يعذرونكم به، وتُؤدون ما أصبتم منا، ولا نُؤدي ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وأن قتلاكم في النار، وتَدُون قتلانا ولا نَدي قتلاكم، فقال عمر: أما قولك: تَدُون قتلانا، فإن

قتلانا قُتلوا على أمر الله لا ديات لهم، فامتنع عمر، وقال عمر في الثاني: نعم ما رأيت، ورواه البخاري من حديث الثوري بسنده مختصراً.

وكان قد اجتمع طائفة كثيرة من الفُلاَّل يوم بُزَاخَةَ من أصحاب طليحة، من بني غطفان، فاجتمعوا إلى امرأة يقال لها: «أم زِمْل، سلمى بنت مالك بن حذيفة»، وكانت من سيدات العرب، كأمها أم قِرْفَةَ، وكان يضرب بأمها المثل في الشرف، لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها، فلما اجتمعوا إليها، ذمرتهم لقتال خالد، فهاجوا لذلك، وناشب إليهم آخرون من بني سليم وطيْء وهوازن وأسد، فصاروا جيشاً كثيفاً، وتفحل أمر هذه المرأة، فلما سمع بهم خالد بن الوليد سار إليهم، واقتتلوا قتالا شديداً، وهي راكبة على جمل أمها الذي كان يقال له: من يمسّ جملها فله مائة من الإبل، وذلك لعزها، فهزمهم خالد، وعقر جملها وقتلها، وبعث بالفتح إلى الصديق رضي الله عنه.



قصة سَجَاح وبني تميم

كانت بنو تميم، قد اختلفت آراؤهم أيام الردة، فمنهم من ارتد ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق، ومنهم من توقف لينظر في أمره، فبينما هم كذلك، إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التغلبية من الجزيرة، وهي من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة، ومعها جنود من قومها ومن التف بهم، وقد عزموا على غزو أبي بكر الصديق، فلما مرت ببلاد بني تميم، دعتهم إلى أمرها، فاستجاب لها عامتهم، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي، وعطارد بن حاجب، وجماعة من سادات أمراء بني تميم، وتخلف آخرون منهم عنها، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم، إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها، ثناها عن عودها، وحرضها على بني يربوع، ثم اتفق الجميع على قتال الناس، وقالوا: بمن نبدأ؟ فقالت لهم فيما تسجعه: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرِّبَاب، فليس دونهم حجاب.

ثم إن سجاح قصدت بجنودها اليمامة، لتأخذها من مسيلمة بن حبيب الكذاب، فهابه قومها، وقالوا: إنه قد استفحل أمره وعظم، فقالت لهم فيما تقوله: عليكم باليمامة، دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة.

قال[1]: فعمدوا لحرب مسيلمة، فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، وذلك أنه مشغول بمقاتلة ثمامة بن أثال، وقد ساعده عكرمة بن أبي جهل بجنود المسلمين، وهم نازلون ببعض بلاده، ينتظرون قدوم خالد كما سيأتي، فبعث إليها يستأمنها، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت، فقد رده الله عليك فحباك به، وراسلها ليجتمع بها في طائفة من قومه، فركب إليها في أربعين من قومه، وجاء إليها فاجتمعا في خيمة، فلما خلا بها وعرض عليها ما

---

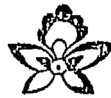
(١) قوله: «قال...» القائل هو: عطية بن بلال الذي روى عنه الطبري في تاريخه هذه الرواية من طريق سيف بن عمر التميمي، وإن ما ذكره ابن كثير هو المعنى.

عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك، قال مسيلمة: سمع الله لمن سمع، وأطمعه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره في كل ما يسر مجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم يدينه أنجاكم فأحياكم، علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار لربكم الكُبَّار، رب الغيوم والأمطار.

وقال مسيلمة أيضاً: لما رأيت وجوههم حسنت، وأبشارهم صفت وأيديهم طفلت، قلت لهم: لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنكم معشر أبرار تصومون، فسبحان الله إذا جاءت الحياة كيف تحيون، وإلى ملك السماء كيف ترقون، فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثبور.

وقد كان مسيلمة لعنه الله، شرع لمن اتبعه: أن الأعزب يتزوج، فإذا ولد له ذكر فيحرم عليه النساء حينئذ، إلا أن يموت ذلك الولد الذكر، فتحل له النساء حتى يولد له ذكر، هذا مما اقترحه لعنه الله، ومن تلقاء نفسه.

ثم انثنت سجاح راجعة إلى بلادها، وذلك حين بلغها دنو خالد من أرض اليمامة، فكرت راجعة إلى الجزيرة، بعد ما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بني تغلب، إلى زمان معاوية فأجلاهم منها عام الجماعة[1].



(١) «عام الجماعة» هو: العام الأربعون للهجرة الذي تنازل فيه الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، كما سيأتي في «تاريخ الدولة الأموية» في الجزء الخامس بعونه تعالى.

خبر مالك بن نُوَيرة اليَربُوعي التَّميمي

كان مالك بن نويرة، قد صانع سجاح حين قدمت من أرض الجزيرة، فلما اتصلت بمسيلمة لعنهما الله، ثم ترحلت إلى بلادها ـ فلما كان ذلك ـ ندم مالك بن نويرة على ما كان من أمره، وَتَلَوَّمَ في شأنه، وهو نازل بمكان يقال له: البُطَاح، فقصدها خالد بجنوده وتأخرت عنه الأنصار، وقالوا: إنا قد قضينا ما أمرنا به الصديق، فقال له خالد: إن هذا أمر لا بد من فعله، وفرصة لا بد من انتهازها، وإنه لم يأتني فيها كتاب، وأنا الأمير وإليَّ ترد الأخبار، ولست بالذي أجبركم على المسير، وأنا قاصد البُطَاح، فسار يومين، ثم لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار، فلحقوا به، فلما وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة، فبث خالد السرايا في البطاح يدعون الناس، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات، إلا ما كان من مالك بن نويرة، فإنه متحير في أمره، متنح عن الناس، فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه، واختلفت السرية فيهم، فشهد أبو قتادة: الحرث بن ربعي الأنصاري، أنهم أقاموا الصلاة، وقال آخرون: إنهم لم يؤذنوا ولا صلوا، فيقال: إن الأساري باتوا في كبولهم في ليلة شديدة البرد، فنادى منادي خالد: أن أدفئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد القتل، فقتلوهم، وَقَتَل ضرار بن الأزور مالكَ بن نويرة، فلما سمع الداعية خرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه، واصطفى خالد امرأة مالك بن نويرة، وهي أم تميم ابنة المنهال، وكانت جميلة، فلما حَلَّتْ بنى بها.

ويقال: بل استدعى خالد مالك بن نويرة، فأنبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرار اضرب عنقه، فضربت عنقه.

وقد تكلم أبو قتادة مع خالد فيما صنع، وتقاولا في ذلك، حتى ذهب أبو قتادة فشكاه إلى الصديق، وتكلم عمر مع أبي قتادة في خالد، وقال للصديق: اعزله

فإن في سيفه رَهَقاً، فقال أبو بكر: لا أَشيم سيفاً سلَّه الله على الكفار، وجاء متمم بن نويرة، فجعل يشكو إلى الصديق خالداً وعمر يساعده، وينشدُ الصديقَ ما قال في أخيه من المراثي، فَوَدَاهُ الصديق من عنده، ومن قول متمم في ذلك:

لَقَدْ لاَمَنَي عِنْدَ العُبورِ علَى البُكَى ... رَفِيقي لِتَذْرَافِ الدُّموعِ السَّوافِكِ
وَقَالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لَقَبْرٌ ثَوَى بَيْنَ اللِّوى فَالدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ... فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

والمقصود: أنه لم يزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن الإمرة ويقول: إن في سيفه لَرَهَقاً، حتى بعث الصديق إلى خالد بن الوليد فقدم عليه المدينة، وقد لبس درعه التي من حديد، وقد صدىء من كثرة الدماء، وغرز في عمامته النشاب المضمخ بالدماء، فلما دخل المسجد، قام إليه عمر بن الخطاب، فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها، وقال: أرياءً؟ قتلت امرأً مسلماً ثم نزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بالجنادل، وخالد لا يكلمه، ولا يظن إلا أن رأي الصديق فيه كرأي عمر، حتى دخل على أبي بكر، فاعتذر إليه، فعذره وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك، وودى مالك بن نويرة، فخرج من عنده وعمر جالس في المسجد، فقال خالد: هلم إليَّ يا ابن أم شملة، فلم يرد عليه، وعرف أن الصديق قد رضي عنه، واستمر أبو بكر بخالد على الإمرة، وإن كان قد اجتهد في قتل مالك بن نويرة وأخطأ في قتله، كما أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى بني جَذِيمة فقتل أولئك الأساري الذين قالوا: صبأنا صبأنا، ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فَوَدَاهم رسول الله ﷺ حتى رد إليهم مِيلَغَةَ الكلب، ورفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، ومع هذا لم يعزل خالداً عن الإمرة.



مقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله

لما رضي الصديق عن خالد بن الوليد وعذره بما اعتذر به، بعثه إلى قتال بني حنيفة باليمامة، وأوعب معه المسلمون، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح، فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب، وأردف الصديق خالداً بسرية لتكون ردءاً له من ورائه، وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة بن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة، فلم يقاوما بني حنيفة، لأنهم في نحو أربعين ألفاً من المقاتلة، فجعل عكرمة قبل مجيء صاحبه شرحبيل، فناجزهم فنكب، فانتظر خالداً، فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد، عسكر بمكان يقال له: «عَقْرَباء» في طرف اليمامة، والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مجنبتي جيشه: المُحَكِّم بن الطفيل، والرَّحَّال[1] بن عُنْفُوة بن نَهْشَل، وكان الرَّحال هذا صديقه الذي شهد له أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنه قد أشرك معه مسيلمة بن حبيب في الأمر، وكان هذا الملعون من أكبر ما أضل أهل اليمامة، حتى اتبعوا مسيلمة، لعنهم الله، وقد كان الرَّحَّال هذا، قد وفد إلى النبي ﷺ وقرأ «البقرة»، وجاء زمنَ الردة إلى أبي بكر، فبعثه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الله ويثبتهم على الإسلام، فارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة.

وقَرُبَ خالد وقد جعل على المقدمة: شرحبيل بن حسنة، وعلى المجنبتين زيداً وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة في الليل بنحو من أربعين، وقيل: ستين فارساً، عليهم مَجَّاعة[2] بن مُرَارة، ـ وكان قد ذهب لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه ـ فأخذوهم، فلما جيء بهم إلى خالد عن آخرهم، فاعتذروا

---

(١) «الرحال بن عنفوة» بالراء مشددة مفتوحة، قال الطبري في التاريخ: قال أبو جعفر: قال ابن حميد: بالحاء، أي: المهملة المشددة، وضبطه آخرون بالجيم ونسب من ضبطه بالحاء إلى الوهم، و «عنفوة» بضم العين المهملة وسكون النون وضم الفاء.

(٢) «مجاعة» بفتح الميم والجيم والمشدّدة.

إليه فلم يصدقهم، وأمر بضرب أعناقهم كلهم، سوى مَجَّاعَة فإنه استبقاه مقيداً عنده ـ لعلمه بالحرب والمكيدة ـ وكان سيداً في بني حنيفة، شريفاً مطاعاً، فلما تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه: اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم، وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة، فضرب به عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، ومَجَّاعة بن مرارة مقيد في الخيمة مع أم تميم امرأة خالد، فاصطدم المسلمون والكفار، فكانت جولة، وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد، وهموا بقتل أم تميم، حتى أجارها مَجَّاعَة وقال: نعمت الحرة هذه، وقد قتل الرَّحَّال بن عُنْفُوَة لعنه الله في هذه الجولة، قتله زيد بن الخطاب، ثم تذامر[1] الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس بن شماس: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، ثم قاتل حتى قتل، وحمي البراء[2] بن مالك، وكان إذا رأى الحرب أخذته العُرَوَاء[3]، فيجلس على ظهره الرِّجَالُ حتى يبول في سراويله، ثم يثور كما يثور الأسد، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتاً حتى قتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذاً، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فقتل شهيداً رضي الله عنه، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب رضي الله عنه، وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وكان بحيال مسيلمة، وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين، وكان شعارهم يومئذ: «يا محمداه»، وجعل لا يبرز لهم أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله، ودارت رحى المسلمين، ثم اقترب من مسيلمة، فعرض

(١) «تذامر الصحابة» أي: تَحَاضُّوا على القتال.

(٢) «البراء بن مالك» هو أخو أنس بن مالك رضي الله عنهما، وفي المطبوعة «البراء بن معرور» وهو خطأ، فهذا صحابي آخر رضي الله تعالى عنه.

(٣) «العرواء» بضم العين المهملة وفتح الراء هي: رعدة تصيب الإنسان.

عليه النَّصَفَ والرجوع إلى الحق، فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه، لا يقبل منه شيئاً، وكلما أراد مسيلمة يقارب من الأمر، صرفه عنه شيطانه، فانصرف عنه خالد، وقد ميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بني أب على رايتهم، يقاتلون تحتها، حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولَّى الكفار الأدبار، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا، حتى ألجأوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم مُحَكَّم اليمامة - وهو مُحَكَّم بن الطفيل لعنه الله - بدخولها، فدخلوها وفيها عدو الله مسيلمة لعنه الله، وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر مُحَكَّم بن الطفيل، فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الحَجَف[1] ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها، يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة، حتى خلصوا إلى مسيلمة لعنه الله، وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أورق، وهو يريد يتساند، لا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم - قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسار إليه أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَة، فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر: وا أمير الوضاءة، قتله العبد الأسود، فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة، قريباً من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: أحد وعشرون ألفاً، وقتل من المسلمين ستمائة، وقيل: خمسمائة، والله أعلم، وفيهم من سادات الصحابة، وأعيان الناس مَنْ يُذْكر بعد[2].

وخرج خالد وتبعه مَجّاعَة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة، فلما مروا بالرَّحَّال[3] بن عُنْفُوَة قال له خالد: أهذا هو؟ قال: لا، والله هذا خير منه، هذا الرَّحَّال بن عُنْفُوَة، قال سيف بن عمر: ثم مروا برجل أصفر أخنس، فقال: هذا صاحبكم، فقال خالد: قبحكم الله على اتباعكم هذا.

---

(١) «الحَجَف» بالحاء ثم الجيم محركة، هي: التروس من جلود، واحدتها «حجفة»، وفي المطبوعة بالجيم قبل الحاء وهو تصحيف.

(٢) سنذكر هؤلاء الأعيان في «وفيات المشاهير والأعيان» «بالجزء السابع» من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

(٣) «بالرحال» بالحاء المشددة وضبطه بعضهم بالجيم مشددة، وقد سبق بيانه.

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة، يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مَجَّاعة فقال: إنها ملأى رجالاً ومقاتلة، فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كلوا من كثرة الحروب والقتال، فقال: دعني حتى أذهب إليهم ليوافقوني على الصلح، فقال: اذهب، فسار إليهم مجاعة، فأمر النساء أن يلبسن الحديد ويبرزن على رؤوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس، فظنهم كما قال مجاعة، فانتظر الصلح، ودعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم، ورجعوا إلى الحق، ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذ من السبي، وساق الباقين إلى الصديق، وقد تسرى علي بن أبي طالب بجارية منهم، وهي أم ابنه محمد الذي يقال له: محمد بن الحنفية رضي الله عنه.

وقد قال خليفة بن خَيَّاط، ومحمد بن جرير، وخلق من السلف: كانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة، وقال ابن قانع: في آخرها، وقال الواقدي وآخرون: كانت في سنة ثنتي عشرة، والجمع بينها: أن ابتداءها في سنة إحدى عشرة، والفراغ منها في سنة ثنتي عشرة والله أعلم.

ولما قدمت وفود بني حنيفة على الصديق قال لهم: أسمعونا شيئاً من قرآن مسيلمة، فقالوا: أَوَتعفينا يا خليفة رسول الله؟ فقال: لا بد من ذلك، فقالوا: كان يقول: والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والناعي فواسوه، وذكروا أشياء من هذه الخرافات التي يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون، فيقال: إن الصديق قال لهم: ويحكم، أين كان يذهب بعقولكم؟ إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ[1]، وقد أورد أبو بكر بن الباقِلاَّني رحمه الله في كتابه «إعجاز القرآن» أشياء من كلام هؤلاء الجهلة المتنبئين، كمسيلمة وطليحة والأسود وسجاح وغيرهم، مما يدل على ضعف عقولهم وعقول من اتبعهم على ضلالهم ومحالهم.

وذكر علماء التاريخ: أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ، بلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر فَغَزُرَ ماؤه، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفي أخرى: فصار ماؤه أجاجاً، وتوضأ وسقى بوَضُوئه نخلاً فيبست وهلكت، وأتي بولدان يبرك عليهم، فجعل يمسح رءوسهم، فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه، ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي.

---

(١) «إلّ» بكسر الهمزة، وتشديد اللام أي: أصل جيد.

قال خليفة بن خيّاط: فجميع من استشهد من المهاجرين والأنصار يوم اليمامة: ثمانية وخمسون رجلاً، يعني: وبقية الأربعمائة والخمسين[1] من غيرهم، والله أعلم.

وقد قتل من الكفار، فيما سقنا من المواطن التي التقى فيها المسلمون والمشركون في هذه وأوائل التي قبلها، ما ينيف على خمسين ألفاً، ولله الحمد والمنة.



(١) أي: إن مجموع من استشهد من المسلمين في حرب اليمامة، أربعمائة وخمسون شهيداً رضي الله عنهم جميعاً.

ذكر ردَّة أهل البحرين[1] وعودهم إلى الإسلام

كان من خبرهم: أن رسول الله ﷺ كان قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملكها المنذر بن ساوى العبدي، وأسلم على يديه، وأقام فيهم الإسلام والعدل، فلما توفي رسول الله ﷺ، وتوفي المنذر بعده بقليل، وكان قد حضر عنده في مرضه عمرو بن العاص، فقال له: يا عمرو، وهل كان رسول الله ﷺ يجعل للمريض شيئاً من ماله؟ قال: نعم، الثلث، قال: ماذا أصنع به؟ قال: إن شئت تصدقت به على أقربائك، وإن شئت على المحاويج، وإن شئت جعلته صدقة من بعدك حبساً محرماً، فقال: إني أكره أن أجعله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ولكني أتصدق به، ففعل، ومات، فكان عمرو بن العاص يتعجب منه، فلما مات المنذر، ارتد أهل البحرين، وملكوا عليهم «الغَرُور»، وهو: المنذر بن النعمان بن المنذر، ـ فلما أسلم كان يقول: أنا المغرور ولست بالغرور ـ وقال قائلهم: لو كان محمد نبياً ما مات، ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها: «جُواثا»[2]، كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة، كما ثبت ذلك في البخاري عن ابن عباس، وقد حاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم، حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعاً شديداً حتى فرج الله، وقد قال رجل منهم يقال له: عبد الله بن حذف، أحد بني بكر بن كلاب، وقد اشتد عليهم الجوع:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رَسولاً ... وَفِتْيانَ المدِينَةِ أَجْمَعِينَا
فَهَلْ لَكُمُ إِلى قَوْمٍ كِرامٍ ... قُعودٍ في جُواثا مُحْصَرِينَا
كَأَنّ دِماءَهُمْ فِي كُلّ فَجٍّ ... شُعَاعُ الشَمْسِ يَغْشَى النَاظِرِينا
تَوَكّلْنا عَلى الرَحمٰنِ أَنَّا ... قَدْ وَجَدْنا النصر لِلْمُتَوَكّلِينَا

وقد قام فيهم رجل من أشرافهم، وهو الجارود بن المعلَّى، وكان ممن هاجروا

---

(١) قوله: «أهل البحرين»، ليس المراد بالبحرين هنا، تلك الجزيرة قرب الساحل العربي على خليج فارس، بل هو اسم جامع لبلاد ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، ذكره ياقوت الحموي في «معجم البلدان».

(٢) «جواثا» أو: «جواثاء» بضم الجيم وفتح الواو مخففة.

إلى رسول الله ﷺ، خطيباً وقد جمعهم فقال: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتوه، ولا تجيبوني إن لم تعلموه، فقالوا: سل، قال: أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أم ترونه؟ قالوا: نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقالوا: نحن أيضاً، نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنت أفضلنا وسيدنا، وثبتوا على إسلامهم، وتركوا بقية الناس فيما هم فيه، وبعث الصديق رضي الله عنه كما قدمنا إليهم العلاء بن الحضرمي، فلما دنا من البحرين، جاء إليه ثمامة بن أثال في محفل كبير من مُسْلمة بني حنيفة، وجاء كل أمراء تلك النواحي فانضافوا إلى جيش العلاء بن الحضرمي، فأكرمهم العلاء، وترحب بهم وأحسن إليهم، وقد كان العلاء من سادات الصحابة العلماء العباد مجابي الدعوة، اتفق له في هذه الغزوة، أنه نزل منزلاً فلم يستقر الناس على الأرض، حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيء سوى ثيابهم ـ وذلك ليلاً ـ ولم يقدروا منها على بعير واحد، فركب الناسَ من الهم والغم ما لا يحد ولا يوصف، وجعل بعضهم يوصي إلى بعض، فنادى منادي العلاء، فاجتمع الناس إليه، فقال: أيها الناس ألستم المسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى، قال: فأبشروا، فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم، ونودي بصلاة الصبح حتى طلع الفجر فصلى بالناس، فلما قضى الصلاة، جثا على ركبتيه وجثا الناس، ونصب في الدعاء ورفع يديه، وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى، وهو يجتهد في الدعاء، فلما بلغ الثالثة، إذ قد خلق الله إلى جانبهم غديراً عظيماً من الماء القراح، فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل فج بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم سلكاً، فسقوا الإبل عَلَلاً بعد نَهَل، فكان هذا مما عاين الناس من آيات الله بهذه السرية، ثم لما اقترب من جيوش المرتدة ـ وقد حشدوا وجمعوا خلقاً عظيماً ـ نزل ونزلوا، وباتوا متجاورين في المنازل، فبينما المسلمون في الليل، إذ سمع العلاء أصواتاً عالية في جيش المرتدين، فقال: من رجل يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبد الله بن حذف فدخل فيهم، فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب، فرجع إليه فأخبره، فركب العلاء من فوره والجيش معه، فكبسوا أولئك فقتلوهم قتلاً عظيماً، وقَلَّ من هرب منهم، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم، فكانت غنيمة، عظيمة جسيمة، وكان الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن

ثعلبة من سادات القوم نائماً، فقام دهشاً حين اقتحم المسلمون عليهم، فركب جواده فانقطع ركابه فجعل يقول: من يصلح لي ركابي؟ فجاء رجل من المسلمين في الليل فقال: أنا أصلحها لك، ارفع رجلك، فلما رفعها ضربه بالسيف فقطعها مع قدمه، فقال له: أجهز علي، فقال: لا أفعل، فوقع صريعاً، كلما مرَّ به أحد يسأله أن يقتله فيأبى، حتى مرّ به قيس بن عاصم فقال له: أنا الحطم فاقتلني فقتله، فلما وجد رجله مقطوعة ندم على قتله وقال: واسوأتاه، لو أعلم ما به لم أحركه، ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين، يقتلونهم بكل مرصد وطريق، وذهب من فر منهم أو أكثرهم في البحر إلى «دارين»، ركبوا إليها السفن، ثم شرع العلاء بن الحضرمي في قسم الغنيمة ونقل الأثقال، وفرغ من ذلك وقال للمسلمين: اذهبوا بنا إلى «دارِين»، لنغزو من بها من الأعداء، فأجابوا إلى ذلك سريعاً، فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن، فرأى أن الشقة بعيدة، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول: يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محيي، يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت يا ربنا، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك، فأجاز بهم الخليج بإذن الله، يمشون على مثل رملة دمثة، فوقها ماء لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى ركب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر فقاتل عدوه وقهرهم واحتاز غنائمهم، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبراً، واستاق الذراري والأنعام والأموال، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها، ثم قسم غنائم المسلمين فيهم، فأصاب الفارس ألفين والراجل ألفاً، مع كثرة الجيش، وكتب إلى الصديق فأعلمه بذلك، فبعث الصديق يشكره على ما صنع، وقد قال رجل من المسلمين في مرورهم في البحر، وهو عفيف بن المنذر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ذَلَّلَ بَحْرَهُ ... وَأَنْزَلَ بِالكُفَّارِ إِحْدَى الجَلائِلِ
دَعَونَا الذي شَقَّ البِحارِ فَجَاءنا ... بِأَعْجَبَ مِنْ فَلْقِ البِحارِ الأَوائِلِ

ذكر ردّة أهل عُمَان ومَهْرَةَ واليمن

نبغ في أهل عمان، رجل يقال له: ذو التاج، لقيط بن مالك الأزدي، وكان يسامي في الجاهلية: «الجُلَنْدَى» ملك عُمَان، فادعى النبوة أيضاً، وتابعه الجهلة من أهل عمان، فتغلب عليها وقهرَ جَيْفراً وعِيَاذاً[1] وألجأهما إلى أطرافها، من نواحي الجبال والبحر، فبعث جيفر إلى الصديق فأخبره الخبر واستجاشه، فبعث إليه الصديق بأميرين وهما حذيفة بن محصن الحميري، وعرفجة البارقي من الأزد، حذيفة إلى عمان، وعرفجة إلى مهرة، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعمان، وحذيفة هو الأمير، فإذا ساروا إلى بلاد مهرة فعرفجة الأمير، وقد قدمنا: أن عكرمة بن أبي جهل لما بعثه الصديق إلى مسيلمة واتبعه بشرحبيل بن حسنة، عجل عكرمة وناهض مسيلمة قبل مجيء شرحبيل ليفوز بالظفر وحده، فناله من مسيلمة قرح والذين معه، فتقهقر حتى جاء خالد بن الوليد، فقهر مسيلمة كما تقدم، وكتب إليه الصديق يلومه على تسرعه، قال: لا أرينك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء، وأمره أن يلحق بحذيفة وعرفجة إلى عمان، وكل منكم أمير على جيشه، وحذيفة ما دمتم بعمان فهو أمير الناس، فإذا فرغتم فاذهبوا إلى مَهْرَة، فإذا فرغتم منها، فاذهب إلى اليمن وحضرموت، فكن مع المهاجر بن أبي أمية، ومن لقيته من المرتدة بين عمان إلى حضرموت واليمن فنكل به، فسار عكرمة لما أمره به الصديق، فلحق حذيفة وعرفجة قبل أن يصلا إلى عمان، وقد كتب إليهما الصديق، أن ينتهيا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ من السير من عمان أو المقام بها، فساروا، فلما اقتربوا من عمان راسلوا جيفرا، وبلغ لقيط بن مالك مجيء الجيش، فخرج في جموعه، فعسكر بمكان يقال له: دَبَا[2]، وهي مصر تلك البلاد وسوقها العظمى، وجعل الذراري والأموال وراء ظهورهم، ليكون أقوى لحربهم، واجتمع جيفر وعباد بمكان يقال له: صُحَار، فعسكرا به وبعثا إلى أمراء الصديق فقدموا على المسلمين، فتقابل الجيشان هنالك، وتقاتلوا قتالاً شديداً، وابتلي

---

(١) هما: «ابنا الجُلَنْدَى» ملك عمان، أسلما على يد عمرو بن العاص لما وجهه رسول الله ﷺ إليهما.

(٢) «دبا» بفتح الدال المهملة والباء الموحدة مخففة.

المسلمون وكادوا أن يولُّوا، فمن الله بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مدداً، في الساعة الراهنة من بني ناجية وعبد القيس، في جماعة من الأمراء، فلما وصلوا إليهم كان الفتح والنصر، فولى المشركون مدبرين، وركب المسلمون ظهورهم، فقتلوا منهم عشرة آلاف مقاتل، وسبوا الذراري وأخذوا الأموال والسوق بحذافيرها، وبعثوا بالخمس إلى الصديق رضي الله عنه مع أحد الأمراء، وهو عرفجة، ثم رجع إلى أصحابه.

وأما مَهْرَة: فإنهم لما فرغوا من عمان كما ذكرنا، سار عكرمة بالناس إلى بلاد مهرة، بمن معه من الجيوش ومن أضيف إليها، حتى اقتحم على مهرة بلادها، فوجدهم جُنْدَين: على أحدهما ـ وهم الأكثر ـ أمير يقال له: المصبِّح، أحد بني محارب، وعلى الجند الآخر أمير يقال له: شخريت[1]، وهما مختلفان، وكان هذا الاختلاف رحمة على المؤمنين، فراسل عكرمة شخريتاً، فأجابه وانضاف إلى عكرمة، فقوي بذلك المسلمون، وضعف جأش المصبح، فبعث إليه عكرمة يدعوه إلى الله وإلى السمع والطاعة، فاغتر بكثرة من معه ومخالفةً لشخريت، فتمادى على طغيانه، فسار إليه عكرمة بمن معه من الجنود، فاقتتلوا مع المصبح أشد من قتال دَبَا المتقدم، ثم فتح الله بالظفر والنصر، ففر المشركون وقتل المصبح، وقتل خلق كثير من قومه، وغنم المسلمون أموالهم، فكان في جملة ما غنموا ألفا نجيبة، فَخَمَّس عكرمة ذلك كله، وبعث بخمسه إلى الصديق مع شخريت، وأخبره بما فتح الله عليه، والبشارة مع رجل يقال له: السائب، من بني عابد من مخزوم.

وأما أهل اليمن: فقد قدمنا أن الأسود العنسي لعنه الله لما نبغ باليمن، أضل خلقاً كثيراً من ضعفاء العقول والأديان، حتى ارتد كثير منهم أو أكثرهم عن الإسلام، وأنه لما قتله الأمراء الثلاثة: قيس بن مكشوح، وفيروز الديلمي، وداذويه، وكان ما قدمنا ذكره، ولما بلغهم موت رسول الله ﷺ، ازداد بعض أهل اليمن فيما كانوا فيه من الحيرة والشك، أجارنا الله من ذلك، وطمع قيس بن مكشوح في الإمرة باليمن، فعمل لذلك، وارتد عن الإسلام وتابعه عوام أهل اليمن، وكتب الصديق إلى الأمراء

---

(١) «شخريت» بالشين والخاء المعجمتين آخره تاء، هكذا جاء في المطبوعة وفي الطبري، وذكر ابن حجر في «الإصابة» أنه «شحريب» بالحاء المهملة آخره باء موحدة وقال: [هو رجل من بني نجراة، له إدراك ـ أي: صحبة ـ، وكان مع عكرمة بن أبي جهل في قتال أهل الردة باليمن، وبعثه بشيراً إلى أبي بكر وصحبته خمس الغنيمة، ذكر ذلك سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق].

ونقول: والذي قاله ابن حجر، هو الذي يعتمد في ضبط اسم هذا الرجل المجاهد، وأما ما جاء في طبعات «البداية والنهاية» و «تاريخ الطبري» وغيرهما مما يخالف ذلك، فلا يعتدُّ به، لعدم تحقيقه.

والرؤساء، من أهل اليمن أن يكونوا عوناً إلى فيروز والأبناء، على قيس بن مكشوح حتى تأتيهم جنوده سريعاً، وحرص قيس على قتل الأميرين الأخيرين، فلم يقدر إلا على داذويه، واحترز منه فيروز الديلمي، وذلك أنه عمل طعاماً وأرسل إلى داذويه أولاً، فلما جاءه عجل عليه فقتله، ثم أرسل إلى فيروز ليحضر عنده، فلما كان ببعض الطريق، سمع امرأة تقول لأخرى: وهذا أيضاً والله مقتول كما قتل صاحبه، فرجع من الطريق وأخبر أصحابه بقتل داذويه، وخرج إلى أخواله خولان فتحصن عندهم وساعدته: عقيل، وعَكٌّ، وَخَلْقٌ، وعمد قيس إلى ذراري فيروز وداذويه والأبناء فأجلاهم عن اليمن، وأرسل طائفة في البر وطائفة في البحر، فاحتد فيروز فخرج في خلق كثير، فتصادف هو وقيس فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم قيساً وجنده من العوام، وبقية جند الأسود العنسي، فهزموا في كل وجه، وأسر قيس وعمرو بن معدي كرب، وكان عمرو قد ارتد أيضاً، وبايع الأسود العنسي، وبعث بهما المهاجر بن أبي أمية إلى أبي بكر أسيرين، فعنفهما وأنبهما، فاعتذرا إليه فقبل منهما علانيتهما، ووكل سرائرهما إلى الله عز وجل، وأطلق سراحهما وردهما إلى قومهما، ورجعت عمال رسول الله ﷺ الذين كانوا باليمن، إلى أماكنهم التي كانوا عليها في حياته عليه الصلاة والسلام بعد حروب طويلة، لو استقصينا إيرادها لطال ذكرها، وملخصها: أنه ما من ناحية من جزيرة العرب، إلا وحصل في أهلها ردة لبعض الناس، فبعث الصديق إليهم جيوشاً وأمراء يكونون عوناً لمن في تلك الناحية من المؤمنين، فلا يتواجه المشركون والمؤمنون في موطن من تلك المواطن، إلا غلب جيش الصديق لمن هناك من المرتدين، ولله الحمد والمنة، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغنموا مغانم كثيرة، فيتقوون بذلك على من هنالك، ويبعثون بأخماس ما يغنمون إلى الصديق، فينفقه في الناس، فيحصل لهم قوة أيضاً، ويستعدون به على قتال من يريدون قتالهم من الأعاجم والروم، على ما سيأتي تفصيله، ولم يزل الأمر كذلك حتى لم يبق بجزيرة العرب إلا أهل طاعة لله ولرسوله، وأهل ذمة من الصديق، كأهل نجران وما جرى مجراهم، ولله الحمد، وعامة ما وقع من هذه الحروب، كان في أواخر سنة إحدى عشرة وأوائل سنة ثنتي عشرة.

قال جماعة من علماء السِّير والتواريخ: إن وقعة اليمامة كانت في ربيع الأول من هذه السنة، وقيل: إنها كانت في أواخر التي قبلها، والجمع بين القولين، أن ابتداءها كان في السنة الماضية، وانتهاءها وقع في هذه السنة الآتية، وقد قيل: إن وقعة جُوَاثَا وعمان ومَهْرَة، وما كان من الوقائع التي أشرنا إليها، إنما كانت في سنة ثنتي عشرة.

الفصل الخامس

فتوح العراق

السنة الثانية عشرة

* توجيه الصِّدِّيق، خالدَ بن الوليد إلى العراق.
* وَقْعَة كاظمة، أو: ذات السَّلاسل.
* وَقْعَة المَذَار.
* وَقْعَة الوَلَجَةِ.
* وَقْعَة أُلَّيْس.
* فتح الحِيرة صُلحاً.
* مصالحة أهل بَانِقْيَا وبَسْمَا.
* فَتْحُ الأَنْبَار.
* وَقْعة عَيْنِ التَّمر.
* خبر دُومَةَ الجَنْدَل.
* خبر وَقْعَتَي: الحُصَيْدِ والمُصَيَّخ.
* وقعة الثَّنِيِّ والزُّمَيْل (شرقي الرُّصَافَة).
* وقعة الفِرَاض.
* وقعة بابل بعد مجيء خالد إلى الشام.

تَوجيه الصِّدِّيق خالدَ بنَ الوليد إلى العراق

لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة، بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق، وأن يبدأ بفرج الهند، وهي: الأُبُلَّة، ويأتي العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم، وأمره أن لا يكره أحداً على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرىء مر به من المسلمين، وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمداداً لخالد رضي الله عنه.

قال الواقدي: اختلف في خالد، فقائل يقول: مضى من وجهه ذلك من اليمامة إلى العراق، وقائل يقول: رجع من اليمامة إلى المدينة، ثم سار إلى العراق من المدينة، فمر على طريق الكوفة حتى انتهى إلى الحيرة، قلت: والمشهور الأول.

وقد ذكر المدائني بإسناده: أن خالداً توجه إلى العراق في المحرم سنة اثنتي عشرة، فجعل طريقه البصرة وفيها قطبة بن قتادة، وعلى الكوفة المثنى بن حارثة الشيباني.

وقال محمد بن إسحاق عن صالح بن كيسان: إن أبا بكر كتب إلى خالد أن يسير إلى العراق، فمضى خالد يريد العراق حتى نزل بقَرَيات من السواد يقال لها: بانِقْيَا وبارُوسْمَا[1]، وصاحبها حابان، فصالحه أهلها، قلت: وقد قتل منهم المسلمون قبل الصلح خلقاً كثيراً، وَكَان الصلح على ألف درهم، وقيل: دينار، في رجب، وكان الذي صالحه بُصْبُهْرَى بن صلوبا، ويقال: صلوبا بن بصبهرى، فقبل منهم خالد وكتب لهم كتاباً، ثم أقبل حتى نزل الحيرة، فخرج إليه أشرافها مع قبيصة بن إياس بن حيَّة الطائي، وكان أمَّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر، فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه، فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم، فقال له

---

(١) «بانقيا وبارُوسْمَا» بضم الراء وسكون الواو والسين، هما ناحيتان من سواد بغداد.

قبيصة: ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيكم الجزية، فقال لهم خالد: تبّاً لكم، إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب مَنْ سلكها، ثم صالحهم على تسعين ألفاً، وفي رواية مائتي ألف درهم، فكانت أول جزية أخذت من العراق، وحملت إلى المدينة، هي والقريات قبلها التي صالح عليها ابن صلوبا.

ثم بعث خالد بن الوليد كتاباً إلى أمراء كسرى بالمدائن ومرازبته ووزرائه، كما قال هشام بن الكلبي عن أبي مِخْنَف عن مجالد عن الشعبي قال: أقرأني بنو بُقَيْلة كتاب خالد بن الوليد إلى أهل المدائن: «من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فالحمد لله الذي فضَّ خَدَمَتَكم[1] وسلب ملككم، ووهَّن كيدكم، وإن من صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلكم المسلم الذي له مالنا وعليه ما علينا، أما بعد: فإذا جاءكم كتابي، فابعثوا إلى بالرُّهن، واعتقدوا مني الذمة، وإلا فوالذي لا إله غيره، لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة».

فلما قرأوا الكتاب أخذوا يتعجبون، وذلك سنة اثنتي عشرة.



(١) «فضَّ خدمتكم» أي: فرق جماعتكم.

وقعة كاظمة، أو: ذات السَّلاسل

قال سيف بن عمر، عن طليحة الأعلم، عن المغيرة بن عيينة ـ وكان قاضي أهل الكوفة ـ قال: فرق خالد مخرجه من اليمامة إلى العراق جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة، فسرح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو، ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد ـ يعني: في آخرهم ـ ودليله رافع، فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به، ويصادموا عدوهم، وكان فَرْجُ الهند أعظم فروج فارس بأساً وأشدها شوكة، وكان صاحبه يحارب في البر، والهند في البحر وهو هرمز، فكتب إليه خالد، فبعث هرمز بكتاب خالد إلى شيرى بن كسرى، وأزدشير بن شيرى، وجمع هرمز وهو نائب كسرى جموعاً كثيرة وسار بهم إلى «كاظمة»، وعلى مجنبتيه قُبَاذ وأنوشَجان ـ وهما من بيت الملك ـ وقد تقرن الجيش في السلاسل لئلا يفروا، وكان هرمز هذا من أخبث الناس طوية وأشدهم كفراً، وكان شريفاً في الفرس، وكان الرجل كلما ازداد شرفاً زاد في حليته، فكانت قلنسوة هرمز بمائة ألف، وقدم خالد بمن معه من الجيش وهم ثمانية عشر ألفاً، فنزل تجاههم على غير ماء، فشكى أصحابه ذلك، فقال: جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين، فلما استقر بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم، بعث الله سحابة، فأمطرتهم حتى صار لهم غدران من ماء، فقوي المسلمون بذلك، وفرحوا فرحاً شديداً، فلما تواجه الصفان وتقاتل الفريقان، ترجل هرمز ودعا إلى النزال، فترجل خالد وتقدم إلى هرمز، فاختلفا ضربتين واحتضنه خالد، وجاءت حامية هرمز فما شغله عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز فأزالوهم، وانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، واستحوذ المسلمون وخالد على أمتعتهم وسلاحهم، فبلغ وقر ألف بعير، وسميت هذه الغزوة «ذات السلاسل» لكثرة مَنْ سُلسل بها من فرسان فارس، وأفلت قباذ وأنوشجان، ولما رجع الطلب، نادى منادي خالد بالرحيل، فسار بالناس وتبعته الأثقال، حتى نزل بموضع الجسر الأعظم

من البصرة اليوم، وبعث بالفتح والبشارة والخمس، مع زر بن كليب، إلى الصديق، وبعث معه بفيل، فلما رآه نسوة أهل المدينة جعلن يقلن: أمن خلق الله هذا، أم شيء مصنوع؟ فرده الصديق مع زر، وبعث أبو بكر لما بلغه الخبر إلى خالد، فنفله سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمائة ألف، وكانت مرصعة بالجوهر، وبعث خالد الأمراء يميناً وشمالاً، يحاصرون حصوناً هنالك، ففتحوها عنوة وصلحاً، وأخذوا منها أموالاً جمة، ولم يكن خالد يتعرض للفلاحين - ومن لم يقاتل منهم - ولا أولادهم، بل للمقاتلة من أهل فارس.



وَقْعَة المَذَار

ثم كانت «وقعة المَذَار» في صفر من هذه السنة، ويقال لها: وقعة الثِّني[1]، وهو النهر، قال ابن جرير: ويومئذ قال الناس: «صفرُ الأصفار، فيه يقتل كل جبار، على مجمع الأنهار»، وكان سببها: أن هرمزاً كان قد كتب إلى أَرْدشير وشِيرَى، بقدوم خالد نحوه من اليمامة، فبعث إليه كسرى بمدد مع أمير يقال له: قارن بن قريانس، فلم يصل إلى هرمز حتى كان من أمره مع خالد ما تقدم، وفر من فر من الفرس، فتلقاهم قارن، فالتفوا عليه، فتذامروا واتفقوا على العود إلى خالد، فساروا إلى موضع يقال له: المَذَار، وعلى مجنبتي قارن: قُباذ وأنوشَجان، فلما انتهى الخبر إلى خالد، قسم ما كان معه من أربعة أخماس غنيمة يوم ذات السلاسل، وأرسل إلى الصديق بخبره مع الوليد بن عقبة، وسار خالد بمن معه من الجيوش حتى نزل على المذار، وهو على تعبئته، فاقتتلوا قتال حنق وحفيظة، وخرج قارن يدعو إلى البراز، فبرز إليه خالد وابتدره الشجعان من الأمراء، فقتل معقل بن الأعشى بن النباش قارناً، وقَتَلَ عدي بن حاتم قُبَاذاً، وقتل عاصم أنوشجان، وفرت الفرس، وركبهم المسلمون في ظهورهم، فقتلوا منهم يومئذ ثلاثين ألفاً، وغرق كثير منهم في الأنهار والمياه، وأقام خالد بالمذار، وسَلَّم الأسلاب إلى مَنْ قَتَلَ، وكان قارن قد انتهى شرفه في أبناء فارس، وجمع بقية الغنيمة وخمسها، وبعث بالخمس والفتح والبشارة إلى الصديق، مع سعيد بن النعمان، أخي بني عدي بن كعب، وأقام خالد هناك حتى قسم أربعة الأخمس، وسبى ذراري من حصره من المقاتلة، دون الفلاحين، فإنه أقرهم بالجزية، وكان في هذا السبي: حبيب أبو الحسن البصري وكان نصرانياً، ومافنَّة مولى عثمان، وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة، ثم أمر على الجند سعيد بن النعمان، وعلى الجزية سويد بن مقرّن، وأمره أن ينزل الحفير ليجبي إليه الأموال، وأقام خالد يتجسس الأخبار عن الأعداء.

---

(١) «الثِّني» بكسر أوله وسكون النون، آخره ياء مخففة، أما «وقعة الثَّنِيِّ» بفتح أوله وكسر النون آخره ياء مشددة، فهو اسم موضع بالجزيرة شرقي الرُّصافة كما سيأتي.

وقعة الوَلَجةِ[1]

ثم كان أمر الولَجة في صفر أيضاً من هذه السنة ـ أي: الثانية عشرة ـ، فيما ذكره ابن جرير، وذلك لأنه لما انتهى الخبر بما كان بالمذار من قبل قارن وأصحابه إلى أَرْدَشير، وهو ملك الفرس يومئذ، بعث أميراً شجاعاً يقال له: «الأَنْدَرْزَغَرَ»، وكان من أبناء السواد، ولد بالمدائن ونشأ بها، وأمده بجيش آخر مع أمير يقال له: بهمن جاذَوَيْهِ، فساروا حتى بلغوا مكاناً يقال له: «الوَلَجَة»، فسمع بهم خالد، فسار بمن معه من الجنود، ووصى من استخلفه هناك بالحذر وقلة الغفلة، فنازل أَنْدَرْزَغر ومن ناشب معه، واجتمع عنده بالوَلَجة، فاقتتلوا قتالاً شديداً هو أشد مما قبله، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ، واستبطأ كمينه الذي كان قد أرصدهم وراءه في موضعين، فما كان إلا يسيراً حتى خرج الكمينان من ههنا ومن ههنا، ففرت صفوف الأعاجم، فأخذهم خالد من أمامهم، والكمينان من ورائهم، فلم يعرف رجل منهم مقتل صاحبه، وهرب الأندرزغر من الواقعة فمات عطشاً، وقام خالد في الناس خطيباً، فرغبهم في بلاد الأعاجم، وزهدهم في بلاد العرب وقال: ألا ترون ما ههنا من الأطعمات؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الإسلام، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولّي الجوعَ والإقلال مَنْ تولاه ممن اثّاقل عما أنتم عليه، ثم خمس الغنيمة، وقسم أربعة أخماسها بين الغانمين، وبعث الخمس إلى الصديق، وأسر من أسر من ذراري المقاتلة، وأقر الفلاحين بالجزية.

*

(١) «الولجة» بفتح الواو واللام والجيم.

وَقْعَةُ أُلَّيس[1]

ثم كانت وقعة «أُلَّيس» في صفر أيضاً، وذلك أن خالداً كان قد قتل يوم الوَلَجَة طائفة من بكر بن وائل، من نصارى العرب ممن كان مع الفرس، فاجتمع عشائرهم وأشدهم حنقاً عبد الأسود العجلي، وكان قد قتل له ابن بالأمس، فكاتبوا الأعاجم، فأرسل إليهم ازدشير جيشاً، فاجتمعوا بمكان يقال له: «أُلَّيس»، فبينما هم قد نصبوا لهم سماطاً فيه طعام يريدون أكله، إذ غافلهم خالد بجيشه، فلما رأوه، أشار من أشار منهم بأكل الطعام وعدم الاعتناء بخالد، وقال أمير كسرى: بل ننهض إليه، فلم يسمعوا منه، فلما نزل خالد، تقدم بين يدي جيشه، ونادى بأعلى صوته لشجعان من هنالك من الأعراب: أين فلان، أين فلان؟ فكلهم تلكأوا عنه، إلا رجلاً يقال له: مالك بن قيس، من بني جذرة، فإنه برز إليه، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة، ما جرأك عليَّ مِنْ بينهم، أوليس فيك وفاء؟ فضربه فقتله، ونفرت الأعاجم عن الطعام، وقاموا إلى السلاح، فاقتتلوا قتالاً شديداً جداً، والمشركون يرقبون قدوم بَهْمَن مدداً من جهة الملك إليهم، فهم في قوة وشدة وكلب في القتال، وصبر المسلمون صبراً بليغاً، وقال خالد: اللهم لك علي إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحداً أقدر عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم، ثم إن الله عز وجل منح المسلمين أكتافهم، فنادى منادي خالد: الأسر، الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر، فأقبلت الخيول بهم أفواجاً يساقون سوقاً، وقد وكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة، ويطلبهم في الغد ومن بعد الغد، وكلما حضر منهم أحد ضربت عنقه في النهر، وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر فقال له بعض الأمراء: إن النهر لا يجرى بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم، فيجري معه فتبر بيمينك، فأرسله فسال النهر دماً عبيطاً، فلذلك سمي نهر الدم إلى اليوم، فدارت الطواحين بذلك الماء المختلط بالدم العبيط، ما كفى العسكر بكماله ثلاثة أيام، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً، ولما هزم

---

(١) «أليس» بضم أوله، وفتح ثانية مشدداً، هي: أول أرض العراق من ناحية البادية، على صلب الفرات.

خالد الجيش، ورجع من رجع من الناس، عدل خالد إلى الطعام الذي كانوا قد وضعوه ليأكلوه، فقال للمسلمين: هذا نفل، فانزلوا فكلوا، فنزل الناس فأكلوا عشاء، وقد جعل الأعاجم على طعامهم مرققاً كثيراً، فجعل من يراه من أهل البادية من الأعراب يقولون: ما هذا الرقع؟ يحسبونها ثياباً، فيقول لهم من يعرف ذلك من أهل الأرياف والمدن: أما سمعتم رقيق العيش؟ قالوا: بلى، قالوا: فهذا رقيق العيش، فسموه يومئذ رقاقاً، وإنما كانت العرب تسميه العود.

وكان كل من قتل بهذه الواقعة يوم أُلّيس من بلدة يقال لها: «أمْغيشيا»، فعدل إليها خالد وأمر بخرابها، واستولى على ما بها، فوجدوا بها مغنماً عظيماً، فقسم بين الغانمين، فأصاب الفارس بعد النفل ألفاً وخمسمائة، غير ما تهيأ له مما قبله، وبعث خالد إلى الصديق بالبشارة والفتح والخمس من الأموال والسبي، مع رجل يقال له: جَنْدَل من بني عجل، وكان دليلاً صارماً، فلما بَلَّغَ الصديق الرسالة وأدّى الأمانة أثنى عليه وأجازه جارية من السبي، وقال الصديق: «عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد».

ثم جرت أمور طويلة لخالد في أماكن متعددة قد يملُّ سماعها، وهو مع ذلك لا يكل ولا يمل ولا يهن ولا يحزن، بل كلما له في قوة وصرامة وشدة وشهامة، ومثل هذا إنما خلقه الله عزاً للإسلام وأهله، وذلاً للكفر وشتات شمله.



فتح الحيرة صلحاً

ثم سار خالد فنزل الخَوَرْنَق والسَّدير وبالنَّجف، وبث سراياه ههنا وههنا، يحاصرون الحصون من الحيرة، ويستنزلون أهلها قسراً وقهراً، وصلحاً ويسراً، وكان من جملة ما نزل بالصلح قوم من نصارى العرب فيهم ابن بُقَيْلة[1] وكتب لأهل الحيرة كتاب أمان، فكان الذي راوده عليه: عمرو بن عبد المسيح ابن بُقَيْلة ووجد خالد معه كيساً، فقال: ما في هذا؟ وفتحه خالد فوجد فيه شيئاً، فقال ابن بقيلة: هو سم ساعة، فقال: ولم استصحبته معك؟ فقال حتى إذا رأيت مكروهاً في قومي أكلته، فالموت أحب إلي من ذلك، فأخذه خالد في يده وقال: إنه لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، ثم قال: «بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذي ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم»، قال: وأهوى إليه الأمراء ليمنعوه منه فبادرهم فابتلعه، فلما رأى ذلك ابن بُقَيلة قال: والله يا معشر العرب، لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القَرْنُ، ثم التفت إلى أهل الحيرة فقال: لم أر كاليوم أوضح إقبالاً من هذا، ثم دعاهم وسألوا خالداً الصلح، فصالحهم وكتب لهم كتاباً بالصلح، وأخذ منهم أربعمائة ألف درهم عاجلة.

وقد قدم جرير بن عبد الله البجلي، على خالد بن الوليد وهو بالحيرة بعد الوقعات المتعددة، والغنائم المتقدم ذكرها، ولم يحضر شيئاً منها، وذلك لأنه كان قد بعثه الصديق مع خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام، فاستأذن خالد بن سعيد في الرجوع إلى الصديق، ليجمع له قومه من بجيلة فيكونوا معه، فلما قدم على الصديق فسأله ذلك، غضب الصديق وقال: أتيتني لتشغلني عما هو أرضى لله من الذي تدعوني إليه؟ ثم سَيَّره الصديق إلى خالد بن الوليد بالعراق.

---

(١) «بقيلة» كجهينة، كان من نصارى العرب.

مصالحة أهل بانِقْيا وبَسْمَا

قال سيف بن عمر بأسانيده: ثم جاء ابن صلوبا، فصالح خالداً على بانِقْيا وَبَسْمَا وما حول ذلك، على عشرة آلاف دينار، وجاءه دهاقين تلك البلاد، فصالحوه على بلدانهم وأهاليهم، كما صالح أهل الحيرة، واتفق في تلك الأيام التي كان قد تمكن بأطراف العراق، واستحوذ على الحيرة وتلك البلدان، وأوقع بأهل أُلَيَّس والثِّني[1] وما بعدها بفارس ومن ناشب معهم، ما أوقع من القتل الفظيع في فرسانهم، أن عَدَتْ فارس على ملكهم الأكبر أَرْدَشير وابنه شِيرَى فقتلوهما، وقتلوا كل من ينسب إليهما، وبقيت الفرس حائرين فيمن يولوه أمرهم، واختلفوا فيما بينهم، غير أنهم قد جهزوا جيوشاً، تكون حائلة بين خالد وبين المدائن التي فيها إيوان كسرى وسرير مملكته، فحينئذ كتب خالد إلى من هنالك من المرازبة والأمراء والدولة، يدعوهم إلى الله وإلى الدخول إلى دين الإسلام، ليثبت ملكهم عليهم، وإلا فليدفعوا الجزية، وإلا فليعلموا، وليستعدوا لقدومه عليهم بقوم يحبون الموت كما يحبون هم الحياة، فجعلوا يعجبون من جرأة خالد وشجاعته، ويسخرون من ذلك، لحماقتهم ورعونتهم في أنفسهم، وقد أقام خالد هنالك بعد صلح الحيرة سنة، يتردد في بلاد فارس ههنا وههنا، ويوقع بأهلها من البأس الشديد، والسطوة الباهرة، ما يبهر الأبصار لمن شاهد ذلك، ويشنف أسماع من بلغه ذلك، ويحير العقول لمن تدبره.



(١) «الثِّني» هو هنا: بكسر أوله وسكون النون، آخره ياء مخففة هو: النهر، وهي: وقعة المذار المتقدمة.

فتح الأنبَار

ركب خالد في جيوشه فسار حتى انتهى إلى «الأنبار»، وعليها رجل من أعقل الفرس وأسودهم في أنفسهم، يقال له: شيرزاذ، فأحاط بها خالد وعليها خندق، وحوله أعراب من قومهم على دينهم، واجتمع معهم أهل أرضهم، فمانعوا خالداً أن يصل إلى الخندق، فضرب معهم رأساً، ولما تواجه الفريقان، أمر خالد أصحابه فرشقوهم بالنبال حتى فقأوا منهم ألف عين، فتصايح الناس: ذهبت عيون أهل الأنبار، وسميت هذه الغزوة «ذات العيون»، فراسل شيرزاد خالداً في الصلح، فاشترط خالد أموراً امتنع شيرزاذ من قبولها، فتقدم خالد إلى الخندق، فاستدعى، بِرَذَايَا[1] الأموال من الإبل، فذبحها حتى ردم الخندق بها وجاز هو وأصحابه فوقها، فلما رأى شيرزاد ذلك، أجاب إلى الصلح على الشروط التي اشترطها خالد، وسأله أن يرده إلى مأمنه، فوفى له خالد بذلك، وخرج شيرزاذ من الأنبار وتسلمها خالد، فنزلها واطمأن بها، وتعلم الصحابة ممن بها من العرب الكتابة العربية، وكان أولئك العرب قد تعلموها من عرب قبلهم وهم بنو إياد، كانوا بها في زمان بختنصر حين أباح العراق للعرب، وأنشدوا خالداً قول بعض إياد يمتدح قومه:

قَومي إِيادٌ لَوْ أَنَّهُمْ أُمَمُ ... أَوْ لَوْ أقاموا فَتُهْزَلَ النَّعَمُ

قَوْمٌ لَهُمْ باحَةُ العِراقِ إِذَا ... سَارُوا جَمِيعاً واللَّوحُ وَالقَلَمُ

ثم صالح خالد أهل البَوَازيج وكِلْوَاذَى.

قال: ثم نقض أهل الأنبار ومن حولهم عهدهم لما اضطربت بعض الأحوال، ولم يبق على عهده سوى البوازيج وبانِقْيَا.

قال سيف، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت قال: ليس لأحد من أهل السواد عهد قبل الوقعة، إلا بنو صلوبا وهم أهل الحيرة، وكِلْوَاذَى، وقرى من قرى الفرات، غدروا حتى دعوا إلى الذمة بعد ما غدروا.

---

(١) «برذايا الأموال من الإبل» أي: بأهزلها وأقلها قيمة.

وقال سيف عن محمد بن قيس: قلت للشعبي: أُخذ السواد عَنْوة وكل أرض إلاَّ بعض القلاع والحصون؟ قال: بعض صالح، وبعض غالب، قلت: فهل لأهل السواد ذمة اعتقدوها قبل الحرب؟ قال: لا، ولكنهم لما دُعُوا ورضوا بالخراج وأُخذ منهم صاروا ذمة.



وَقْعَةُ عَين التَّمر

لما استقل خالد بالأنبار استناب عليها الزبرقان بن بدر، وقصد «عينَ التمر» وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين، في جمع عظيم من العرب، وحولهم من الأعراب طوائف من النَّمَر وتغلب وإياد ومن لاقاهم، وعليهم عَقَّة بن أبي عَقَّة، فلما دنا خالد قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً، فقال له: دونكم وإياهم، وإن احتجتم إلينا أعناكم، فلامت العجم أميرهم على هذا، فقال: دعوهم فإن غلبوا خالداً فهو لكم، وإن غُلبوا قاتلنا خالداً، وقد ضعفوا ونحن أقوياء، فاعترفوا له بفضل الرأي عليهم، وسار خالد وتلقاه عَقَّةُ، فلما تواجهوا، قال خالد لمجنبتيه: احفظوا مكانكم فإني حامل، وأمر حماته أن يكونوا من ورائه، وحمل على عقة وهو يسوي الصفوف، فاحتضنه وأسره، وانهزم جيش عَقَّة من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسر، وقصد خالد حصن عين التمر، فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشه، نزل من الحصن وهرب وتركه، ورجعت فلال نصارى الأعراب إلى الحصن فوجدوه مفتوحاً، فدخلوه واحتموا به، فجاء خالد وأحاط بهم وحاصرهم أشد الحصار، فلما رأوا ذلك، سألوه الصلح فأبى إلا أن ينزل على حكم خالد، فنزلوا على حكمه، فجعلوا في السلاسل وتسلم الحصن، ثم أمر فضربت عنق عَقَّةَ ومن كان أسر معه، والذين نزلوا على حكمه أيضاً أجمعين، وغنم جميع ما في ذلك الحصن، ووجد في الكنيسة التي بها أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وفرقهم في الأمراء وأهل الغَنَاء، وكان «حمران» صار إلى عثمان بن عفان من الخمس، ومنهم «سيرين» والد محمد بن سيرين، أخذه أنس بن مالك، وجماعة آخرون من الموالي المشاهير، أراد الله بهم وبذراريهم خيراً.

ولما قدم الوليد بن عقبة على الصديق بالخمس، رده الصديق إلى غياض بن غنم مدداً له، وهو محاصر دومة الجندل فلما قدم عليه، وجده في ناحية من العراق يحاصر قوماً، وهم قد أخذوا عليه الطرق، فهو محصور أيضاً، فقال عياض للوليد: إن بعض الرأي خير من جيش كثيف، ماذا ترى فيما نحن فيه؟ فقال له الوليد: اكتب

إلى خالد يمدك بجيش من عنده، فكتب إليه يستمده، فقدم كتابه على خالد عقب وقعة عين التمر وهو يستغيث به، فكتب إليه: من خالد إلى عياض، إياك أريد.

لَبِّثْ قَلِيلاً تَأْتِكَ الحَلائِبُ ... يَحْمِلْنَ آساداً عليها القَاشِبُ
كَتَائِبٌ تَتْبَعُها كَتائِبُ



خبر دُومَةَ الجَنْدَل[1]

لما فرغ خالد من «عين التمر» قصد إلى «دومة الجندل»، واستخلف على «عين التمر» عويمر بن الكاهن الأسلمي، فلما سمع أهل دومة الجندل بمسيره إليهم، بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وتنوخ وكلب وغسان والضجاعم، فأقبلوا إليهم، وعلى غسان وتنوخ ابن الأيهم، وعلى الضجاعم ابن الجِدْرِجان، وجماع الناس بدومة إلى رجلين: أُكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة، فاختلفا، فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أَحَدَ أيمن طائراً منه في حرب ولا أَحَدَّ منه، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً، قَلُّوا أم كَثُروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم، فأبوا عليه، فقال: لن أمالئكم على حرب خالد وفارقهم، فبعث إليه خالد عاصم بن عمرو، فعارضه فأخذه، فلما أتى به خالداً، أمر فضربت عنقه، وأخذ ما كان معه، ثم تواجه خالد وأهل دومة الجندل وعليهم الجودي بن ربيعة، وكل قبيلة مع أميرها من الأعراب، وجعل خالد دومة بينه وبين جيش عياض بن غنم، وافترق جيش الأعراب فرقتين، فرقة نحو خالد، وفرقة نحو عياض، وحمل خالد على من قبله، وحمل عياض على أولئك، فأسر خالد الجودي، وأسر الأقرع بن حابس وديعة، وفرت الأعراب إلى الحصن فملأوه، وبقي منهم خلق ضاق عنهم، فعطفت بنو تميم على من هو خارج الحصن، فأعطوهم ميرة فنجا بعضهم، وجاء خالد فضرب أعناق من وجده خارج الحصن، وأمر بضرب عنق الجودي ومن كان معه من الأسارى إلا أسارى بني كلب، فإن عاصم بن عمرو والأقرع بن حابس، وبني تميم أجاروهم، فقال لهم خالد: مالي ومالكم، أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟ فقال له عاصم بن عمرو: أتحسدونهم العافية، وتحوذونهم الشيطان، ثم أطاف خالد بالباب، فلم يزُل عنه حتى اقتلعه، واقتحموا الحصن فقتلوا من فيه من المقاتلة،

---

(١) «دومة الجندل» هي: دومة الحيرة بالعراق، غير «دومة الجندل» التي في الشام التي سبق ذكرها في «المغازي النبوية» بالجزء الثالث.

وسبوا الذراري فبايعوهم بينهم فيمن يزيد[1]، واشترى خالد يومئذ ابنة الجودي، وكانت موصوفة بالجمال، وأقام بدومة الجندل، ورد الأقرع إلى الأنبار، ثم رجع خالد إلى الحيرة، فتلقاه أهلها من أهل الأرض بالتقليس[2]، فسمع رجلاً منهم يقول لصاحبه: مُرَّ بنا، فهذا يوم فرح الشر.



(١) أي: تبايعوهم بالمزاد العلني المعروف في عصرنا.

(٢) «بالتقليس» هو: استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو.

خبر وقعتي: الحُصَيد والمُصَيَّخ(1)

قال سيف عن محمد وطلحة والمهلب قالوا: وكان خالد أقام بدومة الجندل، فظن الأعاجم به، وكاتبوا عرب الجزيرة فاجتمعوا لحربه، وقصدوا الأنبار يريدون انتزاعها من الزبرقان، وهو نائب خالد عليها، فلما بلغ ذلك الزبرقان، كتب إلى القعقاع بن عمرو نائب خالد على الحيرة، فبعث القعقاع أَعْبَدَ بن فدَكى السعدي، وأمره بالحصيد، وبعث عروة بن أبي الجعد البارقي، وأمره بالخنافس، ورجع خالد من دومة إلى الحيرة، وهو عازم على مصادمة أهل المدائن محلة كسرى، لكنه يكره أن يفعل ذلك بغير إذن أبي بكر الصديق، وشغله ما قد اجتمع من جيوش الأعاجم من نصارى الأعراب يريدون حربه، فبعث القعقاع بن عمرو أميراً على الناس، فالتقوا بمكان يقال له: «الحُصيد»، وعلى العجم رجل منهم يقال له: روزبه، وأمده أمير آخر يقال له: زرمهر، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وهزم المشركون، فقتل منهم المسلمون خلقاً كثيراً، وقتل القعقاع بيده زرمهر، وقتل رجل يقال له: عصمة بن عبد الله الضبي روزبه، وغنم المسلمون شيئاً كثيراً، وهرب من هرب من العجم، فلجأوا إلى مكان يقال له: «خنافس» فسار إليهم أبو ليلى بن فدكى السعدي، فلما أحسوا بذلك، ساروا إلى المُصَيَّخ، فلما استقروا بها بمن معهم من الأعاجم والأعارب، قصدهم خالد بن الوليد بمن معه من الجنود، وقسم الجيش ثلاث فرق، وأغار عليهم ليلاً وهم نائمون فأنامهم، ولم يفلت منهم إلا اليسير، فما شبهوا إلا بغنم مصرعة.

وقد روى ابن جرير عن عدي بن حاتم قال: انتهينا في هذه الغارة إلى رجل يقال له: حرقوص بن النعمان النمري، وحوله بنوه وبناته وامرأته، وقد وضع لهم جفنة من خمر وهم يقولون: أحد يشرب هذه الساعة، وهذه جيوش خالد قد أقبلت؟ فقال لهم: اشربوا شرب وداع، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها، فشربوا وجعل يقول:

(1) «الحصيد والمصيخ» كلاهما بالصاد المهملة المفتوحة، وضم أوله وآخر الثاني خاء معجمة.

أَلا يا اسقياني قَبْلَ نائِرةِ الفَجرِ   لَعَلَّ مَنَايانا قَريبٌ وَلاَ نَدْرِي

القصيدة إلى آخرها، قال: فهجم الناس عليه، فضرب رجل رأسه فإذا هو في جفنته، وأخذت بنوه وبناته وامرأته، وقد قتل في هذه المعركة رجلان كانا قد أسلما، ومعهما كتاب من الصديق بالأمان، ولم يعلم بذلك المسلمون، وهما: عبد العُزّى بن أبي رُهْم بن قرواش، قتله جرير بن عبد الله البجلي، والآخر لبيد بن جرير، قتله بعض المسلمين، فلما بلغ خبرهما الصديق وَدَاهما، وبعث بالوصاة بأولادهما، وتكلم عمر بن الخطاب في خالد بسببهما، كما تكلم فيه بسبب مالك بن نويرة، فقال له الصديق: كذلك يلقى من يساكن أهل الحرب في ديارهم، أي: الذنب لهما في مجاورتهما المشركين.



وقعة الثَّنِيِّ[1] والزُّمَيل[2]

ثم كانت وقعة: «الثَّنِيّ والزُّميل»، وقد بيتوهم، فقتلوا من كان هنالك من الأعراب والأعاجم، فلم يفلت منهم أحد ولا انبعث بخبر، ثم بعث خالد بالخمس من الأموال والسبي إلى الصديق، وقد اشترى علي بن أبي طالب من هذا السبي جارية من العرب، وهي ابنة ربيعة بن بجير التغلبي، فاستولدها عمر ورقية رضي الله عنهم أجمعين.



(١) «الثَّنِيّ» هو هنا: بفتح الثاء المثلثة وكسر النون وياء مشددة.

وهو: اسم موضع بالجزيرة شرقي الرُّصافة، تجمعت فيه بنو تغلب وبنو بجير لحرب خالد بن الوليد رضي الله عنه، فأوقع بهم وقتلهم كل قتلة، أما «الثِّنْيُ» بكسر أوله وسكون ثانيه وياء مخففة هو: منعطف كل نهر أو جبل، أو اسم لكل نهر، ذكره ياقوت في «معجم البلدان»، وقال الطبري في التاريخ: العرب تسمي كل نهر «الثِّني»، وقد تقدم ذكر «وقعة المَذَار» أو: «وقعة الثِّني».

(٢) «الزُّمَيْل» بالتصغير.

وقعة الفِراض

ثم سار خالد بمن معه من المسلمين إلى وقعة «الفراض»، وهي: تخوم الشام والعراق والجزيرة، فأقام هنالك شهر رمضان مفطراً لشغله بالأعداء، ولما بلغ الروم أَمْرُ خالد ومسيره إلى قرب بلادهم، حموا وغضبوا وجمعوا جموعاً كثيرة، واستمدوا تغلب وإياد والنَّمَر، ثم ناهدوا خالداً، فحالت الفرات بينهم، فقالت الروم لخالد: اعبر إلينا، وقال خالد للروم: بل اعبروا أنتم، فعبرت الروم إليهم، وذلك للنصف من ذي القعدة سنة ثنتي عشرة، فاقتتلوا هنالك قتالاً عظيماً بليغاً، ثم هزم الله جموع الروم، وتمكن المسلمون من اقتفائهم، فقتل في هذه المعركة مائة ألف، وأقام خالد بعد ذلك بالفراض عشرة أيام، ثم أذن بالقفول إلى الحيرة، لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير في المقدمة، وأمر شجرة بن الأعزّ أن يسير في الساقة، وأظهر خالد أنه يسير في الساقة، وسار خالد في عدة من أصحابه وقصد شطر المسجد الحرام، وسار إلى مكة في طريق لم يسلك قبله قط، ويأتي له في ذلك أمر لم يقع لغيره، فجعل يسير معتسفاً على غير جادة، حتى انتهى إلى مكة فأدرك الحج هذه السنة، ثم عاد فأدرك أمر الساقة قبل أن يصلوا إلى الحيرة، ولم يعلم أحد بحج خالد هذه السنة، إلا القليل من الناس ممن كان معه، ولم يعلم أبو بكر الصديق بذلك أيضاً، إلا بعد ما رجع أهل الحج من الموسم، فبعث يعتب عليه في مفارقته الجيش، وكانت عقوبته عنده أن صرفه من غزو العراق إلى غزو الشام، وقال له فيما كتب إليه يقول له: «وإن الجموع لم تَشْجُ بعون الله شَجْيَكَ[1]، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يُتمم الله لك، ولا يَدْخُلَنَّكَ عُجْبٌ فتخسر وتُخْذَلَ، وإياك أن تَدِلَّ[2] بعمل، فإن الله له المَنُّ، وهو ولي الجزاء».

---

(١) قوله: «لم تشج بعون الله شجيك» أي: لم تبل بلاءك في القتال.

(٢) «أن تدل بعمل» معناه: أن ينالك غرور بعمل.

وقعة بابل بعد مجيء خالد إلى الشام[1]

وذلك أن أهل فارس، اجتمعوا بعد مقتل ملكهم وابنه، على تمليك شهريار بن أردشير بن شهريار، واستغنموا غيبة خالد عنهم، فبعثوا إلى نائبه المثنى بن حارثة جيشاً كثيفاً، نحواً من عشرة آلاف، عليهم هرمز بن حادويه، وكتب شهريار إلى المثنى: إني قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارض، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم، فكتب إليه المثنى: «من المثنى إلى شهريار إنما أنت أحد رجلين: إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب، فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي، فإنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير»، قال: فجزع أهل فارس من هذا الكتاب، ولاموا شهريار على كتابه إليه واستهجنوا رأيه، وسار المثنى من الحرة إلى بابل، ولما التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عُدْوَة الصراة الأولى، اقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين، فحمل عليه أمير المسلمين المثنى بن حارثة فقتله، وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن إلا هزيمة الفرس، فقتلوهم قتلا ذريعاً، وغنموا منهم مالاً عظيماً، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شَرِّ حالة.

ثم إن المثنى بن حارثة، استبطأ أخبار الصديق لتشاغله بأهل الشام، وما فيه من حرب اليرموك كما سيأتي، فسار المثنى بنفسه إلى الصديق، واستناب على العراق بشير بن الخَصَاصِيَة، وعلى المسالح سعيد بن مرة العجلي، فلما انتهى المثنى إلى المدينة، وجد الصديق في آخر مرض الموت، وقد عهد إلى عمر بن الخطاب، ولما رأى الصديق المثنى قال لعمر: إذا أنا مت، فلا تمسين حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى، وإذا فتح الله على أمرائنا بالشام، فاردد

---

(١) ذكر ابن كثير هذه الوقعة في «فتوح الشام» وهي موجودة ص ١٦ من الجزء السابع من «البداية والنهاية» فوضعناها هنا لأنها من فتوح العراق.

أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أعلم بحربه.

فلما مات الصديق، ندب عمر المسلمين إلى الجهاد بأرض العراق، لقلة من بقي فيه من المقاتلة بعد خالد بن الوليد، فانتدب خلقاً وأمر عليهم أبا عبيد[1] بن مسعود الثقفي، وكان شاباً شجاعاً، خبيراً بالحرب والمكيدة.

وهذا آخر ما يتعلق بخبر العراق إلى آخر أيام الصديق وأول دولة الفاروق.



(١) لم يكن أبو عبيد الثَّقَفي رحمه الله تعالى صحابياً، بل هو من كبار التابعين، وقد أمره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأنه كان أول من استجاب حين ندب الخليفة الناس لقتال الفرس، كما سيأتي في أول «فتوح بلاد العراق وفارس» من خلافة الفاروق رضي الله عنه.

الفصل السادس

فُتُوح الشَّام

السنة الثالثة عشرة

* عَقْدُ الصِّدِّيق الألَويَةَ والرَّايات.
* أوَّل الحروب في بلاد الشام.
* وقعة اليَرْمُوك.
* انتقال إمْرَةِ الشَّام من خالد إلى أبي عُبَيْدَة.



عَقْدُ الصِّدِّيق الألويَةَ والرَّايات

استهلت السنة الثالثة عشرة، والصديق عازم على جمع الجنود ليبعثهم إلى الشام، وذلك بعد مرجعه من الحج عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[1]. وبقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[2]. واقتداء برسول الله ﷺ، فإنه جمع المسلمين لغزو الشام ـ وذلك عام تبوك ـ حتى وصلها في حر شديد وجهد، فرجع عامه ذلك، ثم بعث قبل موته أسامة بن زيد مولاه، ليغزو تخوم الشام كما تقدم، ولما فرغ الصديق من أمر جزيرة العرب، بسط يمينه إلى العراق، فبعث إليها خالد بن الوليد، ثم أراد أن يبعث إلى الشام كما بعث إلى العراق، فشرع في جمع الأمراء في أماكن متفرقة من جزيرة العرب، وكان قد استعمل عمرو بن العاص على صدقات قضاعة معه الوليد بن عقبة فيهم، فكتب إليه يستنفره إلى الشام: «إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاَّكهُ رسول الله ﷺ مرة، وسماه لك أخرى، وقد أحببت أبا عبد الله، أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك»، فكتب إليه عمرو بن العاص: «إني سهم من سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها فارم بي فيها»، وكتب إلى الوليد بن عقبة بمثل ذلك ورد عليه مثله، وأقبلا بعد ما استخلفا في عملهما، إلى المدينة، وقدم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن، فدخل المدينة وعليه جبة ديباج، فلما رآها عمر عليه، أمر من هناك من الناس بتخريقها عنه، فغضب خالد بن سعيد، وقال لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن! أَغُلبتم يا بني عبد مناف من الإمرة؟ فقال له علي: أمغالبة تراها أو خلافة؟ فقال: لا يغالب على هذا الأمر أولى منكم، فقال له عمر بن الخطاب:

---

(١) الآية «١٢٣» من سورة «التوبة».

(٢) الآية «٢٩» من سورة «التوبة».

اسكت فض الله فاك، والله لا تزال كاذباً تخوض فيما قلت، ثم لا تضر إلا نفسك، وأبلغها عمر أبا بكر، فلم يتأثر لها أبو بكر.

ولما اجتمع عند الصديق من الجيوش ما أراد، قام في الناس خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم حث الناس على الجهاد فقال: «ألا لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمل لله كفاه الله، عليكم بالجد والقصد، فإن القصد أبلغ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا إيمان لمن لا خشية له، ولا عمل لمن لا نية له، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله، لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصَّ به، هي النجاة التي دل الله عليها، إذ نجى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة».

ثم شرع الصديق في تولية الأمراء، وعقد الألوية والرايات، فيقال: إن أول لواء عقده لخالد بن سعيد بن العاص، فجاء عمر بن الخطاب فثناه عنه، وذكره بما قال، فلم يتأثر به الصديق كما تأثر به عمر، بل عزله عن الشام، وولاه أرض «تيماء»، يكون بها فيمن معه من المسلمين حتى يأتيه أمره، ثم عقد لواء يزيد بن أبي سفيان ومعه جمهور الناس، ومعه سهيل بن عمرو، وأشباهه من أهل مكة، وخرج معه ماشياً، يوصيه بما اعتمده في حربه ومن معه من المسلمين، وجعل له دمشق، وبعث أبا عبيدة بن الجراح على جند آخر، وخرج معه ماشياً يوصيه، وجعل له نيابة حمص، وبعث عمرو بن العاص ومعه جند آخر، وجعله على فلسطين، وأمر كل أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر، لما لحظ في ذلك من المصالح، وكان الصديق اقتدى في ذلك بنبي الله يعقوب حين قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾[1]، فكان سلوك يزيد بن أبي سفيان على تبوك.

قال المدائني بإسناده عن شيوخه قالوا: وكان بعث أبي بكر هذه الجيوش في أول سنة ثلاث عشرة، قال محمد بن إسحاق عن صالح بن كيسان: خرج أبو بكر ماشياً ويزيد بن أبي سفيان راكباً فجعل يوصيه، فلما فرغ قال: أقرئك السلام وأستودعك الله، ثم انصرف ومضى يزيد وأجدّ السير، ثم تبعه شرحبيل بن حسنة، ثم أبو عبيدة مدداً لهما، فسلكوا غير ذلك الطريق، وخرج عمرو بن العاص حتى نزل العَرَّمَان[2] من أرض الشام.

---

(١) الآية «٦٧» من سورة «يوسف» عليه السلام.

(٢) «العَرَّمَان» بفتح العين المهملة والراء مشددة آخره نون، بلدة من بلاد حوران من أعمال دمشق، كذا في «معجم البلدان» وفي المطبوعة «العرمات» بالتاء وهو تصحيف.

ويقال: إن يزيد بن أبي سفيان، نزل البلقاء أولاً، ونزل شرحبيل بالأردن، ويقال: ببصرى، ونزل أبو عبيدة بالجابية، وجعل الصديق يمدهم بالجيوش، وأمر كل واحد منهم أن ينضاف إلى من أحب من الأمراء.



أول الحروب في بلاد الشام

ويقال: إن أبا عبيدة لما مر بأرض البلقاء، قاتلهم حتى صالحوه، وكان أول صلح وقع بالشام.

ويقال: إن أول حرب وقع بالشام، أن الروم اجتمعوا بمكان يقال له: «العَرَبة»[1] من أرض فلسطين، فوجه إليهم أبا أمامة في سرية، فقتلهم وغنم منهم، وقتل منهم بطريقاً عظيماً، ثم كانت بعد هذه وقعة «مرج الصُفَّر»[2] استشهد فيها خالد بن سعيد بن العاص وجماعة من المسلمين، ويقال: إن الذي استشهد في «مرج الصُفَّر» ابن لخالد بن سعيد، وأما هو ففر حتى انحاز إلى أرض الحجاز فالله أعلم، حكاه ابن جرير كما سيأتي.

قال ابن جرير: ولما انتهى خالد بن سعيد إلى تيماء، اجتمع له جنود من الروم في جمع كثير من نصارى العرب، في غيرا، وتنوخ، وبنى كلب، وسليح، ولخم وجُذَام، وغسان، فتقدم إليهم خالد بن سعيد، فلما اقترب منهم، تفرقوا عنه، ودخل كثير منهم في الإسلام، وبعث إلى الصديق يعلمه بما وقع من الفتح، فأمره الصديق أن يتقدم ولا يحجم؛ وأمده بالوليد بن عتبة، وعكرمة بن أبي جهل وجماعة، فسار إلى قريب من إيلياء، فالتقى هو وأمير من الروم يقال له: ماهان فكسره، ولجأ ماهان إلى دمشق، فلحقه خالد بن سعيد، وبادر الجيوش إلى لحوق دمشق وطلب الحظوة، فوصلوا إلى «مرج الصُفَّر»، فانطوت[3] عليه مسالح ماهان، وأخذوا عليهم الطريق، وزحف ماهان، ففر خالد بن سعيد، فلم يرد إلى «ذي المروة»، واستحوذ الروم على

---

(١) «العربة» بالباء الموحدة، وبالتحريك، وتردد بعضهم بين فتح الراء وسكونها ولم يجزم، وفي المطبوعة بالياء المثناة التحتية وهو تصحيف.

(٢) «مرج الصُفَّر» بضم الصاد وفتح الفاء مشددة، من أعمال دمشق، وفي المطبوعة «مرج الصفراء» وهو تصحيف.

(٣) «انطوت عليه» أي: التفوا عليه.

جيشهم إلا من فر على الخيل، وثبت عكرمة بن أبي جهل، وقد تقهقر عن الشام قريباً، وبقي ردءاً لمن نفر إليه، وأقبل شرحبيل بن حسنة من العراق من عند خالد بن الوليد إلى الصديق، فأمره على جيشه وبعثه إلى الشام، فلما مر بخالد بن سعيد بذي المروة، أخذ جمهور أصحابه الذي هربوا معه إلى ذي المروة، ثم اجتمع عند الصديق طائفة من الناس، فأمر عليهم معاوية بن أبي سفيان، وأرسله وراء أخيه يزيد بن أبي سفيان، ولما مر بخالد بن سعيد، أخذ من كان بقي معه بذي المروة إلى الشام، ثم أذن الصديق لخالد بن سعيد في الدخول إلى المدينة وقال: كان عمر أعلم بخالد.



وقعة اليَرمُوك

كانت «وقعة اليرموك» في السنة الثالثة عشرة، على ما ذكره سيف بن عمر قبل فتح دمشق، وتبعه على ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وأما الحافظ ابن عساكر رحمه الله، فإنه نقل عن يزيد بن أبي عبيدة، والوليد بن مسلم، وابن لهيعة، والليث، وأبي معشر: أنها كانت في سنة خمس عشرة بعد فتح دمشق، وقال محمد بن إسحاق: كانت في رجب سنة خمس عشرة.

وقال خليفة بن خياط: قال ابن الكلبي: كانت وقعة اليرموك يوم الإثنين لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة، قال ابن عساكر: وهذا هو المحفوظ، وأما ما قاله سيف، من أنها قبل فتح دمشق سنة ثلاث عشرة، فلم يتابع عليه[1].

قلت: وهذا ذكر سياق سيف وغيره، على ما أورده ابن جرير وغيره، قال: ولما توجهت هذه الجيوش نحو الشام، أفزع ذلك الروم، وخافوا خوفاً شديداً، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بما كان من الأمر، فيقال: إنه كان يومئذ بحمص، ويقال: كان حج عامه ذلك إلى بيت المقدس، فلما انتهى إليه الخبر قال لهم: ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك، أخذوا منكم الشام، وضيقوا عليكم جبال الروم، فنخروا من ذلك نخرة حمر الوحش، كما هي عاداتهم في قلة المعرفة والرأي بالحرب، والنصرة في الدين والدنيا، فعند ذلك سار إلى حمص، وأمر هرقل بخروج الجيوش الرومية صحبة الأمراء، في مقابلة كل أمير من المسلمين جيش كثيف، فبعث إلى عمرو بن العاص

---

(١) لقد ذكر ابن كثير هذا الخلاف مرة أخرى في حوادث السنة «الخامسة عشرة» كما سيأتي في «خلافة الفاروق» رضي الله عنه، ولكنه قال هناك: «والمشهور أنها كانت في سنة أربع عشرة كما تقدم»، ولعل هذا سهو من الناسخ لأن ابن كثير لم يذكر هذا في غير ذلك الموضع، وأخذ بقول سيف بن عمر وابن جرير فذكر معركة اليرموك هنا في حوادث السنة الثالثة عشرة.

أخاً له لأبويه «تَذارق» في تسعين ألفاً من المقاتلة، وبعث جرجة[1] بن بوذيها الأرمني إلى ناحية يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه في خمسين ألفاً أو ستين ألفاً، وبعث الدراقص إلى شرحبيل بن حسنة، وبعث اللُّقُبْقَار، ويقال: القُبُقْلاَر [2] قال ابن إسحاق: وهو خَصي هرقل نسطورس ـ في ستين ألفاً إلى أبي عبيدة بن الجراح، وقالت الروم: والله لنشغلن أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا، وجميع عساكر المسلمين أحد وعشرون ألفاً، سوى الجيش الذي مع عكرمة بن أبي جهل، وكان واقفاً في طرف الشام ردءاً للناس في ستة آلاف، فكتب الأمراء إلى أبي بكر وعمر، يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم، فكتب إليهم أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً، والقوا جنود المشركين، فأنتم أنصار الله، والله ينصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب، فاحترسوا منها، وليصل كل رجل منكم بأصحابه، وقال الصديق: والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، وبعث إليه وهو بالعراق ليقدم إلى الشام، فيكون الأمير على من به، فإذا فرغ عاد إلى عمله بالعراق، فكان ما سنذكره.

ولما بلغ هرقل ما أمر به الصديق أمراءه من الاجتماع، بعث إلى أمرائه أن يجتمعوا أيضاً، وأن ينزلوا بالجيش منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب، وعلى الناس أخوه بنذارق، وعلى المقدمة جرجة، وعلى المجنبتين ماهان والدراقص، وعلى البحر القُبُقْلار.

وقال محمد بن عائذ، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن عبد العزيز: إن المسلمين كانوا أربعة وعشرين ألفاً، وعليهم أبو عبيدة، والروم كانوا عشرين ومائة ألف، عليهم ماهان وسقلاب يوم اليرموك.

وكذا ذكر ابن إسحاق: أن سقلاب الخصي، كان على الروم يومئذ في مائة ألف، وعلى المقدمة جرجة ـ من أرمينية ـ في اثني عشر ألفاً، ومن المستعربة اثنا عشر ألفاً، عليهم جبلة بن الأيهم، والمسلمون في أربعة وعشرين ألفاً، فقاتلوا قتالاً شديداً، حتى قاتلت النساء من ورائهم أشد القتال، وقال الوليد عن صفوان، عن عبد الرحمن بن جبير قال: بعث هرقل مائتي ألف عليهم ماهان الأرمني.

---

(١) وفي «الطبري»: جرجة بن توذر، وهو بثلاث فتحات.

(٢) «القُبُقْلاَر» بضم القاف الأولى وسكون الثانية، بينهما باء موحدة مضمومة، آخره راء، وهي في المطبوعة بتصحيف فانتبه.

قال سيف: فسارت الروم، فنزلوا الواقوصة قريباً من اليرموك، وصار الوادي خندقاً عليهم، وبعث الصحابة إلى الصديق يستمدونه، ويعلمونه بما اجتمع من جيش الروم باليرموك، فكتب الصديق عند ذلك إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق، وأن يقفل بمن معه إلى الشام، فإذا وصل إليهم فهو الأمير عليهم، فاستناب المثنى بن حارثة على العراق، وسار خالد مسرعاً في تسعة آلاف وخمسمائة، ودليله رافع بن عميرة الطائي، فأخذ به على السماق حتى انتهى إلى قراقر، وسلك به أراضي لم يسلكها قبله أحد، فاجتاب البراري والقفار، وقطع الأودية، وتصعد على الجبال، وسار في غير مهيع، وجعل رافع يدلهم في مسيرهم على الطريق، وهو في مفاوز معطشة، وعَطَّش النوقَ وسقاها الماء عَلَلاً بعد نَهَل، وقطع مشافرها، وكَعَمَها[1] حتى لا تجتر، وأَخْلَى أدبارها، واستاقها معه، فلما فقدوا الماء نحرها، فشربوا ما في أجوافها من الماء، ويقال: بل سقاه الخيل، وشربوا ما كانت تحمله من الماء وأكلوا لحومها، ووصل ولله الحمد والمنة في خمسة أيام، فخرج على الروم من ناحية تدمر، فصالح أهل تَدْمُرَ وأَرَك[2]، ولما مر بعذراء أباحها، وغنم لغسان أموالاً عظيمة، وخرج من شرقي دمشق، ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى، فوجد الصحابة تحاربها، فصالحه صاحبها وسلمها إليه، فكانت أول مدينة فتحت من الشام ولله الحمد، وبعث خالد بأخماس ما غنم من غسان، مع بلال بن الحارث المزني إلى الصديق.

ثم سار خالد وأبو عبيدة ومرثد وشرحبيل، إلى عمرو بن العاص ـ وقد قصده الروم بأرض العربا من المعور ـ فكانت واقعة «أَجْنَادين»، وقد كان بعض العرب قال له في هذا المسير: إن أنت أصبحت عند الشجرة الفلانية نجوت أنت ومن معك[3]، وإن لم تدركها هلكت أنت ومن معك، فسار خالد بمن معه، وسَرَوْا[4] سَرْوَةً عظيمة فأصبحوا عندهم، فقال خالد: «عند الصباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى»، فأرسلها مثلاً، وهو أول من قالها رضي الله عنه.

ويقول غير ابن إسحاق، كسيف بن عمر وأبي نحيف وغيرهما في تكميل السياق

---

(١) «كعمها»، يقال: كعم البعير فهو مكعوم، إذا شد فاه لئلا يعض أو يأكل.

(٢) «وأرك» بالكاف آخره، وبفتح أوله وثانيه، هي: بلدة قرب تدمر، وفي المطبوعة «أركة» وهو تصحيف.

(٣) سبب نجاتهم وجود ماء في أصل تلك الشجرة.

(٤) قوله: «وسروا سروة عظيمة» أي: ساروا معظم الليل.

الأول: حين اجتمعت الروم مع أمرائها بالواقوصة، وانتقل الصحابة من منزلهم الذي كانوا فيه، فنزلوا قريباً من الروم، في طريقهم الذي ليس لهم طريق غيره، فقال عمرو بن العاص: أبشروا أيها الناس، فقد حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير.

وعند ابن إسحاق والمدايني أيضاً: أن وقعة «أجنادين»[١] قبل وقعة اليرموك، وكانت وقعة أجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة[٢]، وقتل بها بشر كثير من الصحابة، وهزم الروم وقتل أميرهم القُبُقْلاَر[٣]، وكان قد بعث رجلاً من نصارى العرب، يجس له أمر الصحابة، فلما رجع إليه قال: وجدت قوماً رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه، أو زنى لرجموه، فقال له القُبُقْلاَر: والله لئن كنت صادقاً، لبطن الأرض خير من ظهرها.

وقال سيف بن عمر في سياقه: ووجد خالد الجيوش متفرقة، فجيش أبي عبيدة وعمرو بن العاص ناحية، وجيش زيد وشرحبيل ناحية، فقام خالد في الناس خطيباً، فأمرهم بالاجتماع، ونهاهم عن التفرق والاختلاف، فاجتمع الناس وتصافوا مع عدوهم في أول جمادى الآخرة، وقام خالد بن الوليد في الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يوم له ما بعده، لو رددناهم اليوم إلى خندقهم، فلا نزال نردهم، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبداً، فتعالوا فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعوني اليوم أليكم، فأمروه عليهم وهم يظنون أن الأمر يطول جداً، فخرجت الروم من تعبئة لم ير مثلها قبلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كُرْدُوساً[٤] إلى الأربعين، كل كُرْدُوس ألف رجل عليهم أمير، وجعل أبا عبيدة في القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وأمر على كل كردوس أميراً، وعلى

---

(١) «أجنادين» بفتح الهمزة، وبعد الجيم نون ثم دال مهملة مفتوحة ومنهم من يكسرها، هكذا ضبطها ابن الأثير في تاريخه.

(٢) وقيل: كانت في سنة خمس عشرة، وسيأتي ذكرها في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في القسم الثاني.

(٣) «القبقلار» بضم القاف الأولى وسكون الثانية، بينهما باء موحدة مضمومة، آخره راء، وهو في المطبوعة بتصحيف.

(٤) «الكردوس» بضم الكاف هي: القطعة العظيمة من الخيل، أي: مجموعة منها.

الطلائع قَبَاث[1] بن أَشيَم، وعلى الأقباض[2] عبد الله بن مسعود، والقاضي يومئذ أبو الدرداء، وقاصُّهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال: أبو سفيان بن حرب، وقارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد: المقداد بن الأسود.

وذكر إسحاق بن يسار بإسناده: أن أمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة: أبو عبيدة، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وخرج الناس على راياتهم، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد، وهو المشير في الحرب، الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه، ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها، قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها، كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة، ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثونهم على القتال، وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش، فساق بفرسه إلى أبي عبيدة فقال له: إني مشير بأمر، فقال: قل ما أمرك الله، أسمع لك وأطيع، فقال له خالد: إن هؤلاء القوم لا بد لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة، وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين وأجعلها وراء الميمنة والميسرة، حتى إذا صدموهم كانوا لهم ردءًا فنأتيهم من ورائهم، فقال له: نعم ما رأيت، فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة، وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله، لكي إذا رآه المنهزم استحى منه ورجع إلى القتال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنهم، وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش، ومعهم عدد من السيوف وغيرها، فقال لهن: من رأيتموه مولياً فاقتلنه، ثم رجع إلى موقفه رضي الله عنه.

ولما تراءى الجمعان، وتبارز الفريقان، وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدأوهم بالقتال، وشَرِّعوا الرماح، واستتروا بالدَّرَق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

قالوا: وخرج معاذ بن جبل على الناس، فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل

---

(١) «قباث» آخره ثاء مثلثة، وأوله قاف ثم باء موحدة مفتوحتان، وفي المطبوعة بالباء الموحدة آخره وهو تصحيف.

(٢) «الأقباض» جمع «قبض» بفتحتين وهو: ما جمع من الغنائم.

القرآن، ومتحفظي الكتاب، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة، إلا الصادق المصدق، ألم تسمعوا لقول الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]، فاستحيوا رحمكم الله من ربكم، أن يراكم فُرّاراً من عدوكم وأنتم في قبضته، وليس لكم ملتحد من دونه، ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون، غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأَشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة، فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذي يَرْضَى الصدقَ ويثيب عليه، ويمقت الكذب، ويجزي بالإحسان إحساناً، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفراً كَفراً، وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشَّدَّ، تطايروا تطاير أولاد الحجل.

وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين، أنتم العرب، وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين وإمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً، إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سُنَّة لازمة، وإن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر، ورجاء ما وعد الله، فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا، ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصاهن، ثم عاد فنادى: يا معاشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم، ثم سار إلى موقفه رحمه الله.

قال سيف بن عمر بإسناده عن شيوخه إنهم قالوا: كان في ذلك الجمع ألف رجل من الصحابة، منهم مائة من أهل بدر.

قالوا: ولما أقبل خالد من العراق، قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين!! فقال خالد: ويلك، أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر بَرَأَ من توجعه، وأنهم أَضعفوا في العدد، وكان فرسه قد حفا واشتكى في مجيئه من العراق.

---

(١) الآية «٥٥» من سورة «النور».

قالوا: ثم تقدم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ـ وهما على مجنبتي القلب ـ أن ينشئا القتال، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز، وتنازل الأبطال، وتجاولوا وحمى الحرب، وقامت على ساق، هذا وخالد مع كردوس من الحماة الشجعان الأبطال بين يدي الصفوف، والأبطال يتصاولون من الفريقين بين يديه، وهو ينظر ويبعث إلى كل قوم من أصحابه بما يعتمدونه من الأفاعيل، ويدبر أمر الحرب أتم تدبير.

وقد كان فيمن شهد اليرموك الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا، وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه، ثم جاؤا إليه مرة ثانية، ففعل كما فعل في الأولى، وجُرح يومئذ جرحين بين كتفيه، وفي رواية: جرح، وقد روى البخاري معنى ما ذكرناه في صحيحه[1]، وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبِّب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء. وقال سيف بن عمر عن أبي عثمان الغساني عن أبيه قال: قال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن، وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أُثبتوا جميعاً جراحاً، وقُتل منهم خلق، منهم: ضرار بن الأزور رضي الله عنهم.

وقد ذكر الواقدي وغيره: أنهم لما صُرعوا من الجراح، استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قُرِّبت إلى أحدهم، نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فلما دفعت إليه، نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم، من واحد إلى واحد، حتى ماتوا جميعاً ولم يشربها أحد منهم، رضي الله عنهم أجمعين.

قالوا: وثبت كل قوم على رايتهم، حتى صارت الروم تدور كأنها الرحا، فلم تر يوم اليرموك إلا مُخّاً ساقطاً، ومعصماً نادراً، وكفاً طائرة من ذلك الموطن، ثم

---

(١) فقد روى البخاري في باب: «مناقب الزبير رضي الله عنه» عن عروة بن الزبير: أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للزبير يوم وقعة اليرموك: أَلاَ تَشُدُّ فَنَشُدَّ معك؟ فحمل عليهم فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضَرْبَةٌ ضُرِبَها يومَ بَدْر، قال عروة: فكنت أُدخِل أصابعي في تلك الضَّرَبَات أَلْعَبُ وأنا صغير.

حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين، فأزالوهم إلى القلب، فقتل من الروم في حملته هذه ستة آلاف ثم قال: والذي نفسي بيده، لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم، ثم اعترضهم، فحمل بمائة فارس معه على نحو من مائة ألف، فما وصل إليهم حتى انفض جمعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فانكشفوا، وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم.

قالوا: وبينما هم في جولة الحرب وحومة الوغى، والأبطال يتصاولون من كل جانب، إذ قدم البريد من نحو الحجاز، فدفع إلى خالد بن الوليد فقال له: ما الخبر؟ فقال له ـ فيما بينه وبينه ـ: إن الصديق رضي الله عنه قد توفي واستُخْلف عمر، واستناب على الجيوش أبا عبيدة عامر بن الجراح، فأَسَرَّها خالد، ولم يبد ذلك للناس، لئلا يحصل ضعف ووهن في تلك الحال، وقال له والناس يسمعون: أحسنت، وأخذ منه الكتاب فوضعه في كنانته، واشتغل بما كان فيه من تدبير الحرب والمقاتلة، وأوقف الرسول الذي جاء بالكتاب إلى جانبه. كذا ذكره ابن جرير بأسانيده.

قال ابن جرير وغيره: فسقط فيها وقتل عندها من الروم، مائة ألف وعشرون ألفاً، سوى من قتل في المعركة، وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتَدَعُوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم، لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال.

قالوا: وقتل في هذا اليوم من المسلمين ثلاثة آلاف، منهم: عكرمة وابنه عمرو، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وأثبت خالد بن سعيد فلا يدرى أين ذهب، وضرار بن الأزور، وهشام بن العاص، وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي.

وأكمل خالد ليلته في خيمة تدارق أخي هرقل، وهو أمير الروم كلهم يومئذ، هرب فيمن هرب، وباتت الخيول تجول نحو خيمة خالد، يقتلون من مر بهم من الروم حتى أصبحوا، وقتل تدارق، وكان له ثلاثون سرادقاً، وثلاثون رواقاً من ديباج، بما فيها من الفرش والحرير، فلما كان الصباح، حازوا ما كان هنالك من الغنائم، وما فرحوا بما وجدوا بقدر حزنهم على الصديق، حين أعلمهم خالد بذلك، ولكن عوضهم الله بالفاروق رضي الله عنهما.

وقال خالد حين عزى المسلمين في الصديق: «الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت، وكان أحب إليَّ من عمر، والحمد لله الذي ولَّى عمر، وكان أبغض إليَّ من أبي بكر، وألزمني حبه».

انتقال إِمرة الشام من خالد إلى أبي عُبَيدة

بعد وقعة اليرموك انتقلت الإمرة بالشام إلى أبي عبيدة، فكان أبو عبيدة أول من سمي أمير الأمراء، وذلك أن البريد قدم بموت الصديق، والمسلمون مُصَافُو الروم يوم اليرموك، فكتم خالد ذلك عن المسلمين، لئلا يقع وهن، فلما أصبحوا أجلى لهم الأمر وقال ما قال، ثم شرع أبو عبيدة، في جمع الغنيمة وتخميسها، وبعث بالفتح والخمس مع قَبَاث[1] بن أشيم إلى الحجاز، ثم نودي بالرحيل إلى دمشق، فساروا حتى نزلوا «مرج الصُّفَّر»[2]، وبعث أبو عبيدة بن يديه طليعةً: أبا أمامة الباهلي ومعه رجلان من أصحابه، فأقام أبو عبيدة ينتظر كتاب عمر، فيما يعتمده من أمر دمشق، فجاءه الكتاب يأمره بالمسير إليها، فساروا إليها حتى أحاطوا بها، واستخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب في خيل هناك.



(١) «قباث» كسحاب، آخره ثاء مثلثة، هذا صوابه، وهو في المطبوعة مُصَحَّف.

(٢) «مرج الصفر» بضم الصاد المهملة وفتح الفاء مشددة، من أعمال دمشق.

الفصل السابع

مِمَّا وَقَعَ من الحوادث زَمَنَ الصِّدِّيق

* حوادث السَّنة الثانية عَشْرة.
* حوادث السَّنة الثالثة عَشْرة.



حوادث السنة الثانية عشرة

* فيها: أمر الصديق زيدَ بن ثابت، أن يجمع القرآن من اللِّخَاف[1] والعسب وصدور الرجال، وذلك بعد ما اسْتَحرَّ القتل في القراء يوم اليمامة، كما ثبت به الحديث في صحيح البخاري.

* وفيها: تزوج علي بن أبي طالب، بأمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ وهي من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس الأموي، وقد توفي أبوها في هذا العام، وهذه هي التي كان رسول الله ﷺ يحملها في الصلاة، فيضعها إذا سجد ويرفعها إذا قام.

* وفيها: تزوج عمر بن الخطاب، عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وهي ابنة عمه، وكان لها محباً وبها معجباً، وكان لا يمنعها من الخروج إلى الصلاة ويكره خروجها، فجلس لها ذات ليلة في الطريق في ظلمة، فلما مرت ضرب بيده على عجزها، فرجعت إلى منزلها ولم تخرج بعد ذلك، وقد كانت قبله تحت زيد بن الخطاب، فيما قيل، فقتل عنها، وكانت قبل زيد تحت عبد الله بن أبي بكر فقتل عنها، ولما مات عمر تزوجها بعده الزبير، فلما قتل، خطبها علي بن أبي طالب فقالت: إني أرغب بك عن الموت، وامتنعت عن التزوج حتى ماتت.

* وفيها: اشترى عمر مولاه أسلم، ثم صار منه أن كان أحد سادات التابعين، وابنه زيد بن أسلم أحد الثقات الرُّفَعَاء.

* وفيها: حج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، رواه ابن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحُرقَة[2]

---

(١) «اللِّخاف» ككتاب، هي: حجارة بيض رقاق، واحدها «لَخْفة» بالفتح، وبالخاء المعجمة.

(٢) «الحُرَقَة» قال ابن الأثير في «اللباب»: بضم الحاء المهملة وفتح الراء وفتح القاف، و«الحرقات» بطن من جهينة.

عن رجل من بني سهم، عن أبي ماجدة[1]، قال: حج بنا أبو بكر في خلافته سنة ثنتي عشرة، قال ابن إسحاق: وقال بعض الناس: لم يحج أبو بكر في خلافته، وأنه بعث على الموسم سنة ثنتي عشرة عمر بن الخطاب، أو عبد الرحمن بن عوف.



(١) «عن أبي ماجدة» هو: أبو ماجدة السَّهْمي، وقيل: ابن ماجدة، وقيل: اسمه علي، وهو مجهول لا يعرف، وفي سند ابن إسحاق هذا عن أبي ماجدة رجل مبهم لم يُسَمَّ.

حوادث السنة الثالثة عشرة

* كانت فيها وقائع تقدم تفصيلها ببلاد العراق، على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فتحت فيها الحيرة والأنبار وغيرهما من الأمصار.

* وفيها: سار خالد بن الوليد من العراق إلى الشام على المشهور.

* وفيها: كانت وقعة اليرموك في قول سيف بن عمر واختيار ابن جرير.

* وقتل بها مَنْ قُتل من الأعيان، ممن يطول ذكرهم وتراجمهم رضي الله عنهم أجمعين.

* وفيها: توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وولي بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة منها.



القسم الثاني

خلافة الفاروق عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

وفيه: خمسة فصول:

الفصل الأول: ولاية الفاروق رضي الله عنه.

الفصل الثاني: فتوح بلاد الشَّام في عهده.

الفصل الثالث: فتح مِصْرَ.

الفصل الرابع: فتوح بلاد العراق وفارس وغيرها.

الفصل الخامس: مما وقع من الحوادث زمن الفاروق.



الفصل الأول

ولاية الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

* نُبْذَةٌ عن حياته، رضي الله عنه.
* استخلافُ الصِّدِّيق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.



نُبذَة عن حياة عمر رضي الله عنه[1]

هو: عمر بن الخطاب، بن نفيل، بن عبد العزى، بن رياح، بن عبد الله، بن قرط، بن رزاح، بن عدي، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان القرشي، أبو حفص العدوي، الملقب بالفاروق، قيل: لقبه بذلك أهل الكتاب، وأمه: حنتمة بنت هشام، أخت أبي جهل بن هشام.

أسلم عمر وعمره سبع وعشرون سنة، وشهد بدراً وأحداً، والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وخرج في عدة سرايا، وكان أميراً على بعضها، وهو أول مَنْ دعي أمير المؤمنين، وأول من كتب التاريخ، وجمع الناس على التراويح، وأول من عَسَّ بالمدينة، وحمل الدِّرَّة[2] وأدَّب بها، وجلد في الخمر ثمانين، وفتح الفتوح، ومصر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ووضع الخراج، ودوَّن الدواوين، وعرض الأعطية، واستقضى القضاة، وكوَّرَ الكُوَرَ[3]، مثل: السَّوَاد، والأهواز، والجبال، وفارس وغيرها، وفتح الشام كله، والجزيرة والموصل، وَميَّافَارقين، وآمد، وأرمينية، ومصر، وإسكندرية، ومات وعساكره على بلاد الري.

فتح من الشام: اليرموك، وبُصْرَى، ودمشق، والأردن، وبيسان، وطبرية، والجابية، وفلسطين، والرملة، وعسقلان، وغزة، والسواحل، والقدس، وفتح مصر، وإسكندرية، وطرابلس الغرب، وبرقة، ومن مدن الشام: بعلبك، وحمص،

---

(١) ذكر ابن كثير رحمه الله هذه الترجمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في آخر فتوحاته في حوادث سنة ثلاث وعشرين، فوضعناها هنا في أول الكلام في تاريخ خلافته، وقد أفرد ابن كثير لترجمته رضي الله عنه مجلداً كما ذكر أكثر من مرة.

(٢) «الدِّرَّة» بكسر الدال المهملة مشددة هي: سوط كان صَنَعَهُ من نعل رسول الله ﷺ فكان يؤدِّب بها المخالفين.

(٣) «الكور» بضم الكاف وفتح الواو جمع «كورة» وهي: المدينة والصُّقع.

وقنسرين، وحلب، وإنطاكية، وفتح الجزيرة وحَرَّان، والرُّها، والرقة، ونصيبين، ورأس عين، وشمشاط، وعين وردة، وديار بكر، وديار ربيعة، وبلاد الموصل، وأرمينية جميعها.

وبالعراق: القادسية، والحيرة، وبَهُرَسِير، وساباط، ومدائن كسرى، وكُورة الفرات ودجلة، والأُبلَّة، والبصرة، والأهواز، وفارس، ونهاوند، وَهَمَذان، والرَّي، وقومس، وخراسان، وإصطخر، وأصبهان، والسوس، وَمَرْو، ونيسابور، وجرجان، وأذربيجان، وغير ذلك، وقطعت جيوشه النهر مراراً.

وكان متواضعاً في الله، خشن العيش، خشن المطعم، شديداً في ذات الله، يرقع الثوب بالأديم، ويحمل القربة على كتفيه، مع عظم هيبته، ويركب الحمار عرياً، والبعير مخطوماً بالليف، وكان قليل الضحك، لا يمازح أحداً، وكان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظاً يا عمر».

وقال ﷺ: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر»[١].

وقيل لعمر: إنك قَضَّاءٌ فقال: «الحمد لله الذي ملأ قلبي لهم رُحْماً، وملأ قلوبهم لي رعباً»، وقال عمر: «لا يحل لي من مال الله إلا حلتان، حلة للشتاء وحلة للصيف، وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم، ثم أنا رجل من المسلمين».

وكان عمر إذا استعمل عاملاً، كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين، واشترط عليه أن لا يركب بِرْذَوناً[٢]، ولا يأكل نَقِيّاً[٣]، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإن فعل شيئاً من ذلك، حَلَّت عليه العقوبة.

وقال معاوية بن أبي سفيان: أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته فلم يردها، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن.

وعوتب عمر فقيل له: لو أكلت طعاماً طيباً، كان أقوى لك على الحق، فقال: «إني تركت صاحبيَّ على[٤] جادة، فإن أدركت جادتهما فلم أدركهما في المنزل».

---

(١) هذا حديث صحيح، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وأحمد وغيرهما.

(٢) «برذوناً» بكسر أوله وفتح الذال المعجمة. هو: نوع من الخيل من غير نتاج العراب، أي: غير الأصيلة، وكان معروفاً في بلاد الروم وفارس.

(٣) «نَقياً» بفتح النون وكسر القاف هو: الحُوَّارَى، لُبُّ البر.

(٤) «صاحبي» يعني: النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه.

وكان يلبس وهو خليفة، جبةً صوف مرقوعة بعضها بأدم، ويطوف بالأسواق على عاتقه الدِّرَّة[1] يؤدب بها الناس، وإذا مر بالنوى وغيره، يلتقطه ويرمي به في منازل الناس ينتفعون به.

وقال أنس: كان بين كتفي عمر أربع رقاع، وإزاره مرقوع بأدم، وخطب على المنبر وعليه إزار فيه اثنا عشر رقعة، وأنفق في حجته ستة عشر ديناراً، وقال لابنه: قد أسرفنا، وكان لا يستظل بشيء، غير أنه كان يلقي كساءه على الشجر ويستظل تحته، وليس له خيمة ولا فسطاط، ولما قدم الشام لفتح بيت المقدس، كان على جمل أورق تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، قد طبق رجليه بين شعبي الرحل بلا ركاب، ووطاؤه كبش من صوف، وهو فراشه إذا نزل، وحقيبته محشوة ليفاً، وهي وسادته إذا نام، وعليه قميص من كرابيس، قد رَسَمَ وتخرق جيبه، فلما نزل قال: ادعوا لي رأس القرية، فدعوه فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه وأعيروني قميصاً، فأتي بقميص كتان، فقال: ما هذا؟ فقيل: كتان، فقال: فما الكتان؟ فأخبروه، فنزع قميصه فغسلوه وخاطوه ثم لبسه، فقال له: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا يصلح فيها ركوب الإبل، فأتي ببرذون، فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل، فلما سار جعل البرذون يهملج به، فقال لمن معه: احبسوا، ما كنت أظن الناس يركبون الشياطين، هاتوا جملي، ثم نزل وركب الجمل.

وعن أنس قال: كنت مع عمر فدخل حائطاً لحاجته، فسمعته يقول - وبيني وبينه جدار الحائط -: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين؟ بَخٍ بَخٍ، والله لتتقين الله بُنَيَّ الخطاب، أو ليعذبنك».

وقيل: إنه حمل قربة على عاتقه، فقيل له في ذلك فقال: «إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها»، وكان يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيته، فلا يزال يصلي إلى الفجر، وما مات حتى سرد الصوم، وكان في عام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسود جلده ويقول: «بئس الوالي أنا، إن شبعت والناس جياع»، كان في وجهه خطان أسودان من البكاء، وكان يسمع الآية من القرآن، فيغشى عليه، فيحمل صريعاً إلى منزله، فيعاد أياماً ليس به مرض إلا الخوف.

وقال طلحة بن عبيد الله: خرج عمر ليلة في سواد الليل فدخل بيتاً، فلما

---

(١) «الدِّرة» بكسر الدال المهملة هي: سوط عمر رضي الله عنه الذي كان يؤدِّب به المخالفين، وكان صنعها من نعل النبي ﷺ.

أصبحت، ذهبت إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مقعدة، فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثراتِ عمر تتبع؟

وقال أسلم مولى عمر: قدم المدينة رفقة من تجار، فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: «هل لك أن نحرسهم الليلة؟» قال: نعم! فباتا يحرسانهم ويصليان، فسمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه فقال لأمه: «اتق الله تعالى وأحسني إلى صبيك»، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل، سمع بكاء الصبي، فأتى إلى أمه فقال لها: «ويحك، إنك أم سَوْءٍ، مالي أرى ابنك، لا يقر منذ الليلة من البكاء؟!» فقالت: يا عبد الله إني أشغله عن الطعام فيأبى ذلك، قال: «ولم»؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم، قال: «وكم عمر ابنك هذا؟» قالت: كذا وكذا شهراً، فقال: «ويحك لا تعجليه عن الفطام»، فلما صلى الصبح وهو لا يستبين للناس قراءته من البكاء، قال: «بؤساً لعمر كم قتل من أولاد المسلمين»، ثم أمر مناديه فنادى: «لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام». وكتب بذلك إلى الآفاق.

وقال أسلم: خرجت ليلة مع عمر إلى ظاهر المدينة، فلاح لنا بيت شعر، فقصدناه فإذا فيه امرأة تمخض وتبكي، فسألها عمر عن حالها فقالت: أنا امرأة عربية وليس عندي شيء، فبكى عمر وعاد يهرول إلى بيته، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ وأخبرها الخبر، فقالت: نعم، فحمل على ظهره دقيقاً وشحماً، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة وجاءا، فدخلت أم كلثوم على المرأة، وجلس عمر مع زوجها ـ وهو لا يعرفه ـ يتحدث، فوضعت المرأة غلاماً فقالت أم كلثوم: يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام، فلما سمع الرجل قولها، استعظم ذلك، وأخذ يعتذر إلى عمر، فقال عمر: لا بأس عليك، ثم أوصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف.

وقال أسلم: خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصِرَار[1]، إذا بنار فقال: يا أسلم، ههنا ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم، فإذا امرأة معها صبيان لها، وقِدْرٌ منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، قالت: وعليك السلام، قال: أدنو؟ قالت: ادن أو

(١) «صرار» بكسر الصاد المهملة، موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

دع، فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع، فقال: وأي شيء على النار؟ قالت: ماء أعللهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر، فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم احمله على ظهري، فقلت: أنا أحمله عنك، فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟، فحمله على ظهره، وانطلقنا إلى المرأة، فألقى عن ظهره، وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار وقال: ائتيني بصحفة، فأتي بها فغرفها ثم تركها بين يدي الصبيان وقال: كلوا، فأكلوا حتى شبعوا - والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه - فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم أوصلهم بنفقة وانصرف، ثم أقبل عليّ فقال: يا أسلم الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم.

وقيل: إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رأى عمر وهو يعدو إلى ظاهر المدينة فقال له: إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فقال: قد ندَّ بعير من إبل الصدقة فأنا أطلبه، فقال: قد أتعبت الخلفاء من بعدك. روي ذلك عن الزهري.

وأول من حياه بأمير المؤمنين المغيرة بن شعبة، وقيل غيره.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد الصمد الأنصاري، حدثتني أم عمرو بنت حسان الكوفية - وكان قد أتى عليها مائة وثلاثون سنة - عن أبيها قال: لما ولي عمر قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله، فقال عمر: هذا أمر يطول، بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمي أمير المؤمنين.

ثم لما فرغ من الحج سنة ثلاث وعشرين ونزل بالأبطح، دعا الله عز وجل، وشكا إليه أنه قد كبرت سنه وضعفت قوته، وانتشرت رعيته، وخاف من التقصير، وسأل الله أن يقبضه إليه، وأن يمن عليه بالشهادة في بلد النبي ﷺ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، وموتاً في بلد رسولك»، فاستجاب له الله هذا الدعاء، وجمع له بين هذين الأمرين الشهادة في المدينة النبوية وهذا عزيز جداً، ولكن الله لطيف بما يشاء تبارك وتعالى، فاتفق له أن ضربه أبو لؤلؤة فيروز، المجوسي الأصل، الرومي الدار، وهو قائم يصلي في المحراب، صلاة الصبح من يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجة من هذه السنة، بخنجر ذات طرفين، فضربه ثلاث ضربات، وقيل: ست ضربات، إحداهن تحت سرته قطعت السِّفاق، فخر من قامته، واستخلف عبد الرحمن بن عوف، ورجع

العِلْجُ بخنجره لا يمر بأحد إلا ضربه، حتى ضرب ثلاثة عشر رجلاً مات منهم ستة، فألقى عليه عبد الله بن عوف برنساً، فانتحر نفسه لعنه الله، وحمل عمر إلى منزله والدم يسيل من جرحه ـ وذلك قبل طلوع الشمس ـ ، فجعل يفيق ثم يغمى عليه، ثم يذكرونه بالصلاة فيفيق ويقول: نعم، ولا حَظَّ في الإسلام لمن تركها، ثم صلى في الوقت، ثم سأل عمن قتله من هو؟ فقالوا له: هو أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يدي رجل يدعي الإيمان، ولم يسجد لله سجدة، ثم قال: قبحه الله، لقد كنا أمرنا به معروفاً ـ وكان المغيرة قد ضرب عليه في كل يوم درهمين، ثم سأل من عمر أن يزيد في خراجه، فإنه نجار نقاش حداد، فزاد في خراجه إلى مائة في كل شهر ـ وقال له: لقد بلغني أنك تحسن أن تعمل رحاً تدور بالهواء، فقال أبو لؤلؤة: أما والله لأعملن لك رحاً يتحدث عنها الناس في المشارق والمغارب ـ وكان هذا يوم الثلاثاء عشية ـ وطعنه صبيحة الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجة.

وأوصى عمر أن يكون الأمر شورى بعده، في ستة ممن توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، ولم يذكر سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي فيهم، لكونه من قبيلته، خشية أن يراعى في الإمارة بسببه، وأوصى من يستخلف بعده بالناس خيراً على طبقاتهم ومراتبهم، ومات رضي الله عنه بعد ثلاث، ودفن في يوم الأحد مستهل المحرم من سنة أربع وعشرين، بالحجرة النبوية إلى جانب الصديق، عن إذن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك، وفي ذلك اليوم حكم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال الواقدي رحمه الله: حدثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد عن أبيه قال: طعن عمر يوم الأربعاء، لأربع ليال بقين من ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وأحداً وعشرين يوماً، وبويع لعثمان يوم الإثنين لثلاث مضين من المحرم، قال: فذكرت ذلك لعثمان الأخنس فقال: ما أراك إلا وَهَلْتَ، توفي عمر لأربع ليال بقين من ذي الحجة، وبويع لعثمان لليلة بقيت من ذي الحجة، فاستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين.

وقال أبو معشر: قتل عمر لأربع بقين من ذي الحجة، تمام سنة ثلاث وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وبويع عثمان بن عفان، وقيل غير ذلك والقول الأول هو الأشهر.

وكان رضي الله عنه رجلاً طوالاً، أصلع أعسر أيسر أحور العينين، آدم اللون، وقيل: كان أبيض شديد البياض تعلوه حمرة، أنشب الأسنان، وكان يصفر لحيته، ويرجل رأسه بالحناء.

واختلف في مقدار سنه يوم مات رضي الله عنه، على أقوال عدتها عشرة، فروى ابن جرير عن نافع عن ابن عمر قال: قتل عمر بن الخطاب وهو ابن خمس وخمسين سنة، ورواه الدراوردي عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر، وقاله عبد الرزاق عن ابن جريج عن الزهري، ورواه أحمد عن هشيم عن علي بن زيد عن سالم بن عبد الله بن عمر، وعن نافع رواية أخرى ست وخمسون سنة.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: كان عمره ثلاث وخمسون سنة، حدثت بذلك عن هشام بن محمد، ثم روى عن عامر الشعبي أنه توفي وله ثلاث وستون سنة.

وروي عن قتادة أنه قال: توفي عمر وهو ابن إحدى وستين سنة، وعن ابن عمر والزهري خمس وستون، وعن ابن عباس ست وستون، وروى ابن جرير عن أسلم مولى عمر أنه قال: توفي وهو ابن ستين سنة، قال الواقدي: وهذا أثبت الأقاويل عندنا، وقال المدائني: توفي عمر وهو ابن سبع وخمسين سنة.

قال الواقدي وابن الكلبي وغيرهما: تزوج عمر في الجاهلية، زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون، فولدت له عبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وحفصة رضي الله عنهم، وتزوج مليكة بنت جرول، فولدت له عبيد الله فطلقها، فخلف عليها أبو الجهم بن حذيفة، قاله المدائني، وقال الواقدي: هي أم كلثوم بنت جرول، فولدت له عبيد الله وزيداً الأصغر.

قال المدائني: وتزوج قريبة بنت أبي أمية المخزومي، ففارقها، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن أبي بكر.

قالوا: وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام، بعد زوجها ـ حين قتل في الشام ـ فولدت له فاطمة ثم طلقها، قال المدائني: وقيل لم يطلقها.

قالوا: وتزوج جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من الأوس، وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قبله عند عبد الله بن أبي مليكة ولما قتل عمر تزوجها بعده الزبير بن العوام رضي الله عنهم، ويقال: هي أم ابنه عياض فالله أعلم.

قال المدائني: وكان قد خطب أم كلثوم ابنة أبي بكر الصديق وهي صغيرة،

وراسل فيها عائشة، فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، فقالت عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه خشن العيش، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص، فصده عنها ودله على أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقال: تعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ، فخطبها من علي فزوجه إياها، فأصدقها عمر رضي الله عنه أربعين ألفاً، فولدت له زيداً ورقية.

قالوا: وتزوج لهية - امرأة من اليمن - فولدت له عبد الرحمن الأصغر، وقيل: الأوسط، وقال الواقدي: هي أم ولد ليست زوجة.

قالوا: وكانت عنده فكيهة أم ولد، فولدت له زينب، قال الواقدي: وهي أصغر ولده، قال الواقدي: وخطب أم أبان بنت عتبة بن شيبة فكرهته وقالت: يغلق بابه ويمنع خيره، ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

قلت: فجملة أولاده رضي الله عنه وأرضاه ثلاثة عشر ولداً، وهم: زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وعاصم، وعبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وعبد الرحمن الأوسط، قال الزبير بن بكار: وهو أبو شحمة، وعبد الرحمن الأصغر، وعبيد الله، وعياض، وحفصة، ورقية، وزينب، وفاطمة، رضي الله عنهم.

ومجموع نسائه اللاتي تزوجهن في الجاهلية والإسلام، ممن طلقهن أو مات عنهن سبع، وهن: جميلة بنت عاصم بن ثابت بن الأفلح، وزينب بنت مظعون، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وقريبة بنت أبي أمية، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام، وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وأم كلثوم أخرى وهي مليكة بنت جَرْوَل. وكانت له أمتان له منهما أولاد، هما: فكيهة ولَهْيَة، وقد اختلف في لهية هذه فقال بعضهم: كانت أم ولد، وقال بعضهم: كان أصلها من اليمن، وتزوجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فالله أعلم.

****

استخلاف الصّديق لعمر بن الخطاب

كانت وفاة الصديق رضي الله عنه في يوم الإثنين عشية، وقيل: بعد المغرب، ودفن من ليلته، وذلك لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، بعد مرضٍ خمسة عشر يوماً، وكان عمر بن الخطاب يصلي عنه فيها بالمسلمين، وفي أثناء هذا المرض، عهد بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب، وكان الذي كتب العهد عثمان بن عفان، وقرىء على المسلمين، فأقروا به وسمعوا له وأطاعوا، فكانت خلافة الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وكان عمره يوم توفي ثلاثاً وستين سنة، للسن الذي توفي فيه رسول الله ﷺ، وقد جمع الله بينهما في التربة، كما جمع بينهما في الحياة، فرضي الله عنه وأرضاه.

فقام بالأمر من بعده أتم القيام: الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أول من سمي بأمير المؤمنين، وكان أول من حياه بها المغيرة بن شعبة، وقيل غيره.

وقد كتب بوفاة الصديق إلى أمراء الشام مع شداد بن أوس، ومحمد بن جريج[1]، فوصلا والناس مصافون جيوش الروم يوم اليرموك كما قدمنا[2]، وقد أمر عمر على الجيوش أبا عبيدة، حين ولاه وعزل خالد بن الوليد.

وذكر سلمة عن محمد بن إسحاق: أن عمر إنما عزل خالداً لكلام بلغه عنه، ولما كان من أمر مالك بن نويرة، وما كان يعتمده في حربه، فلما ولي عمر، كان أول ما تكلم به أن عزل خالداً، وقال: لا يلي لي عملاً أبداً، وكتب عمر إلى أبي

(١) روى ابن جرير الطبري: أن الذين قدموا إلى الشام بوفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه هم: شدّاد بن أوس بن ثابت الأنصاري، ومَحْمِيَةُ بن جَزْءٍ، ويَرْفَأ مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) سبق بيانه في «خلافة الصديق» رضي الله عنه في «القسم الأول» من هذا الجزء.

عبيدة إنْ أَكْذَبَ خالد نفسه فهو أمير على ما كان عليه، وإن لم يُكْذِبْ نفسه فهو معزول، فانزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله نصفين، فلما قال أبو عبيدة ذلك لخالد، قال له خالد: أمهلني حتى أستشير أختي، فذهب إلى أخته فاطمة ـ وكانت تحت الحارث بن هشام ـ فاستشارها في ذلك، فقالت له: إن عمر لا يحبك أبداً، وإنه سيعزلك وإن كذبت نفسك، فقال لها: صدقت والله؛ فقاسمه أبو عبيدة، حتى أخذ إحدى نعليه وترك له الآخرة، وخالد يقول: سمعاً وطاعةً لأمير المؤمنين.

وقد روى ابن جرير عن صالح بن كيسان أنه قال: أول كتاب كتبه عمر إلى أبي عبيدة حين ولاه وعزل خالداً أن قال: «وأوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تُقْدِمِ المسلمين هلكةً رجاءَ غنيمة، ولا تُنْزِلهم مَنزلاً قبل أن تستريده[1] لهم وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كنف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغض بصرك عن الدنيا، وأَلْهِ قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم». وأمرهم بالمسير إلى دمشق، وكان بعد ما بلغه الخبر بفتح اليرموك وجاءته به البشارة، وحمل الخمس إليه.

وقد ذكر ابن إسحاق: أن الصحابة قاتلوا بعد اليرموك أجنادين، ثم بفِحْلٍ من أرض الغور قريباً من بيسان بمكان يقال له: الرَّدْغة[2]، سمي بذلك لكثرة ما لقوا من الأوحال فيها، فأغلقوها عليهم، وأحاط بها الصحابة، قال: وحينئذ جاءت الإمارة لأبي عبيدة من جهة عمر وعزل خالد.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من مجيء الإمارة لأبي عبيدة في حصار دمشق هو المشهور.



(١) «تستريده» أي: تستكشفه لهم.

(٢) «الرَّدغة» بفتح الراء وتسكن الدال وتفتح، أي: الوحل الكثير.

الفصل الثاني

فتوح بلاد الشّام

* فتح دمشق.
* فتح البقاع وبَعْلَبَكَّ.
* وَقْعَة فِحْل.
* وَقْعَة مَرْج الرُّوم.
* وَقْعَة حِمْص الأولى.
* وقعة قِنَّسْرِين.
* وَقْعَة قَيْسَارِيَّة.
* وقعة أَجْنَادَيْن.
* فتح بيت المقدس.
* حَصْرُ الرُّوم أبا عُبَيْدَة بحمص.
* فتح الجزيرة.

فتح دمشق

قال سيف بن عمر: لما ارتحل أبو عبيدة من اليرموك، فنزل بالجنود على «مَرْجِ الصُّفَّر» وهو عازم على حصار دمشق، إذ أتاه الخبر بقدوم مددهم من حمص، وجاءه الخبر بأنه قد اجتمع طائفة كبيرة من الروم بِفِحْلٍ من أرض فلسطين، وهو لا يدري بأي الأمرين يبدأ، فكتب إلى عمر في ذلك، فجاء الجواب أن ابدأ بدمشق، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، فانهد لها، واشغلوا عنكم أهل فِحْلٍ بخيول تكون تلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن فتحت دمشق قبلها، فسر أنت ومن معك، واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله عليكم فِحْلاً، فسر أنت وخالد إلى حمص، واترك عمراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين.

قال: فَسَرَّح أبو عبيدة إلى فحل عشرة أمراء، مع كل أمير خمسة أمراء، وعلى الجميع عمارة بن مخشي الصحابي، فساروا من مرج الصُّفَّر إلى فِحْلٍ، فوجدوا الروم هنالك قريباً من ثمانين ألفاً، وقد أرسلا المياه حولهم حتى أردغت الأرض، فسموا ذلك الموضع الرَّدْغَة[1]، وفتحها الله على المسلمين، فكانت أول حصن فتح قبل دمشق على ما سيأتي تفصيله، وبعث أبو عبيدة جيشاً يكون بين دمشق وبين فلسطين، وبعث ذا الكلاع في جيش يكون بين دمشق وبين حمص، ليرد من يرد إليهم من المدد من جهة هرقل، ثم سار أبو عبيدة من مرج الصُّفَّر قاصداً دمشق، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب، وركب أبو عبيدة وعمرو بن العاص في المجنبتين، وعلى الخيل عياض بن غنم، وعلى الرجالة شرحبيل بن حسنة، فقدموا دمشق وعليها نسطاس بن نسطوسس، فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي، وإليه باب كيسان أيضاً، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية الكبير، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب الجابية الصغير، ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على بقية أبواب البلد، ونصبوا المجانيق والدبابات، وقد أرصد أبو عبيدة أبا الدرداء على جيش ببرزة

(١) «الرَّدغة» بفتح الراء، والدال تسكن وتفتح، أي: الوحل الكثير.

يكونون ردءاً له، وكذا الذي بينه وبين حمص، وحاصروها حصاراً شديداً، سبعين ليلة، وقيل: أربعة أشهر، وقيل: ستة أشهر، وقيل: أربعة عشر شهراً، وأهل دمشق ممتنعون منهم غاية الامتناع، ويرسلون إلى ملكهم هرقل ـ وهو مقيم بحمص ـ يطلبون منه المدد، فلا يمكن وصول المدد إليهم من ذي الكُلاَع، الذي قد أرصده أبو عبيدة رضي الله عنه بين دمشق وبين حمص ـ عن دمشق ليلة ـ فلما أيقن أهل دمشق أنه لا يصل إليهم مدد، أُبلسوا وفشلوا وضعفوا، وقوي المسلمون واشتد حصارهم، وجاء فصل الشتاء واشتد البرد وعسر الحال وعسر القتال، فقدر الله الكبير المتعال، ذو العزة والجلال، أن ولد لبطريق دمشق مولود في تلك الليالي، فصنع لهم طعاماً وسقاهم بعده شراباً، وباتوا عنده في وليمته، قد أكلوا وشربوا وتعبوا، فناموا عن مواقفهم، واشتغلوا عن أماكنهم، وفطن لذلك أمير الحرب خالد بن الوليد، فإنه كان لا ينام ولا يترك أحداً ينام، بل مراصد لهم ليلاً ونهاراً، وله عيون وقصاد يرفعون إليه أحوال المقاتلة صباحاً ومساءً، فلما رأى حمدة تلك الليلة، وأنه لا يقاتل على السور أحد، كان قد أعد سلاليم من حبال، فجاء هو وأصحابه من الصناديد الأبطال، مثل القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، وقد أحضر جيشه عند الباب وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا فوق السور، فارقوا إلينا، ثم نهد هو وأصحابه، فقطعوا الخندق سباحة بقِرَبٍ في أعناقهم، فنصبوا تلك السلالم وأثبتوا أعاليها بالشرفات، وأكدوا أسافلها خارج الخندق، وصعدوا فيها، فلما استووا على السور، رفعوا أصواتهم بالتكبير، وجاء المسلمون فصعدوا في تلك السلالم، وانحدر خالد وأصحابه الشجعان من السور إلى البوابين فقتلوهم، وقطع خالد وأصحابه أغاليق الباب بالسيوف، وفتحوا الباب عنوة، فدخل الجيش الخالدي من الباب الشرقي، ولما سمع أهل البلد التكبير، ثاروا وذهب كل فريق إلى أماكنهم من السور، لا يدرون ما الخبر، فجعل كلما قدم أحد من أصحابه الباب الشرقي قتله أصحاب خالد، ودخل خالد البلد عَنْوَة فقتل من وجده، وذهب أهلُ كل بابٍ، فسألوا من أميرهم الذي عند الباب من خارج الصُّلْحَ، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فيأبون عليهم، فلما دعوهم إلى ذلك أجابوهم، ولم يعلم بقية الصحابة ما صنع خالد، ودخل المسلمون من كل جانب وباب، فوجدوا خالداً وهو يقتل من وجده فقالوا له: إنا قد أمناهم، فقال: إني فتحتها عَنْوة، والتقت الأمراء في وسط البلد، عند كنيسة المقسلاط، بالقرب من درب الريحان اليوم.

هكذا ذكره سيف بن عمر وغيره، وهو المشهور أن خالداً فتح الباب قسراً.

وقال آخرون: بل الذي فتحها عنوة أبو عبيدة، وقيل: يزيد بن أبي سفيان،

وخالد صالح أهل البلد، فعكسوا المشهور المعروف والله أعلم.

وقد اختلف الصحابة، فقال قائلون: هي صلح ـ يعني على ما صالحهم الأمير في نفس الأمر وهو أبو عبيدة ـ وقال آخرون: بل هي عَنْوة، لأن خالداً افتتحها بالسيف أولاً كما ذكرنا، فلما أحسوا بذلك، ذهبوا إلى بقية الأمراء ومعهم أبو عبيدة فصالحوهم، فاتفقوا فيما بينهم على أن جعلوا نصفها صلحاً ونصفها عَنْوة، فملك أهلها نصف ما كان بأيديهم وأقروا عليه، واستقرت يد الصحابة على النصف، ويقوي هذا، ما ذكره سيف بن عمر، من أن الصحابة كانوا يطلبون إليهم أن يصالحوهم على المشاطرة فيأبون، فلما أحسوا باليأس، أنابوا إلى ما كانت الصحابة دعوهم إليهم، فبادروا إلى إجابتهم، ولم تعلم الصحابة بما كان من خالد إليهم والله أعلم.

ولهذا أخذ الصحابة نصف الكنيسة العظمى التي كانت بدمشق، وتعرف «بكنيسة يوحنا»، فاتخذوا الجانب الشرقي منها مسجداً، وأبقوا لهم نصفها الغربي كنيسة، وقد أبقوا لهم مع ذلك أربع عشرة كنيسة أخرى، مع نصف الكنيسة المعروفة «بيوحنا»، وهي جامع دمشق اليوم، وقد كتب لهم بذلك خالد بن الوليد كتاباً، وكتب فيه شهادته: أبو عبيدة وعمرو بن العاص ويزيد وشرحبيل:

إحداها: كنيسة المقسلاط التي اجتمع عندها أمراء الصحابة، وكانت مبنية على ظهر السوق الكبير، وهذه القناطر المشاهدة في سوق الصابونيين، من بقية القناطر التي كانت تحتها، ثم بادت فيما بعد، وأخذت حجارتها في العمارات.

الثانية: كنيسة كانت في رأس درب القرشيين وكانت صغيرة، قال الحافظ ابن عساكر: وبعضها باق إلى اليوم وقد تشعثت.

الثالثة: كانت بدار البطيخ العتيقة، قلت: وهي داخل البلد بقرب الكوشك، وأظنها هي المسجد الذي قبل هذا المكان المذكور، فإنها خربت من دهر والله أعلم.

الرابعة: كانت بدرب بني نصر بين درب الحبالين ودرب التميمي، قال الحافظ ابن عساكر: وكانت غربي القيسارية الفخرية، وقد أدركت بعض بنيانها، وقد خرب أكثرها.

الخامسة: كنيسة بولص، قال ابن عساكر: وكانت غربي القيسارية الفخرية، وقد أدركت من بنيانها بعض أساس الحنيّة.

السادسة: كانت في موضع دار الوكالة، وتعرف اليوم بكنيسة القلانسيين، قلت: والقلانسيين هي: الحواحين اليوم.

السابعة: التي بدرب السقيل اليوم، وتعرف بكنيسة حميد ابن درة سابقاً، لأن هذا الدرب كان أقطاعاً له، وهو حميد بن عمرو بن مساحق القرشي العامري، ودرة أمه، وهي درة ابنة هاشم بن عتبة بن ربيعة، فأبوها خال معاوية، وكان قد أقطع هذا الدرب، فنسبت هذه الكنيسة إليه، وكان مسلماً، ولم يبق لهم اليوم سواها، وقدخرب أكثرها.

ولليعقوبية منهم كنيسة داخل باب توما بين رحبة خالد ـ وهو خالد بن أسيد بن أبي العيص ـ وبين درب طلحة بن عمرو بن مرة الجهني، وهي الكنيسة الثامنة.

وكانت لليعقوبيين كنيسة أخرى فيما بين درب التنوي وسوق علي، قال ابن عساكر: قد بقي من بنائها بعضه، وقد خربت منذ دهر. وهي الكنيسة التاسعة.

وأما العاشرة: فهي الكنيسة المصلبة، قال الحافظ ابن عساكر: وهي باقية إلى اليوم بين الباب الشرقي وباب توما، بقرب النيبطن عند السور، والناس اليوم يقولون: النيطون، قال ابن عساكر: وقدخرب أكثرها، هكذا قال، وقد خربت هذه الكنيسة وهدمت في أيام صلاح الدين فاتح القدس، بعد الثمانين وخمسمائة، بعد موت الحافظ ابن عساكر رحمه الله.

الحادية عشرة: كنيسة مريم داخل الباب الشرقي، قال ابن عساكر: وهي من أكبر ما بقي بأيديهم، قلت: ثم خربت بعد موته بدهر، في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري.

الثانية عشر: كنيسة اليهود التي بأيديهم اليوم في حارتهم، ومحلها معروف بالقرب من الجبر، وتسميه الناس اليوم «بستان القط»، وكانت لهم كنيسة في درب البلاغة لم تكن داخلة في العهد، فهدمت فيما بعد، وجعل مكانها المسجد المعروف بمسجد ابن السهروردي، والناس اليوم يقولون: درب الشاذوري.

قلت: وقد أخربت لهم كنيسة كانوا قد أحدثوها، لم يذكرها أحد من علماء التاريخ، لا ابن عساكر ولا غيره، وكان إخرابها في حدود سنة سبع عشرة وسبعمائة، ولم يتعرض الحافظ ابن عساكر لذكر كنيسة السامرة بِمَرَّةٍ.

قلت: وظاهر سياق سيف بن عمر يقتضي، أن فتح دمشق وقع في سنة ثلاث عشرة، ولكن نص سيف على ما نص عليه الجمهور، من أنها فتحت في نصف رجب سنة أربع عشرة، كذا حكاه الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عائذ القرشي الدمشقي، عن الوليد بن مسلم، عن عثمان بن حصين بن غلاق عن يزيد بن عبيدة قال: فتحت دمشق سنة أربع عشرة، ورواه دحيم عن الوليد قال: سمعت

أشياخاً يقولون: إن دمشق فتحت سنة أربع عشرة، وهكذا قال سعيد بن عبد العزيز، وأبو معشر، ومحمد بن إسحاق، ومعمر، والأموي، وحكاه عن مشايخه، وابن الكلبي، وخليفة بن خياط، وأبو عبيد القاسم بن سَلَّام: إن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة، وزاد سعيد بن عبد العزيز وأبو معشر والأموي: وكانت اليرموك بعدها[1] بسنة.

وقال بعضهم: بل كان فتحها في شوال سنة أربع عشرة، وقال خليفة: حاصرهم أبو عبيدة في رجب وشعبان ورمضان وشوال، وتم الصلح في ذي القعدة. وقال الأموي في مغازيه: كانت وقعة أَجْنَادَين في جمادى الأولى، ووقعة فِحْلٍ في ذي القعدة من سنة ثلاث عشرة ـ يعني: ووقعة دمشق سنة أربع عشرة ـ وقال دحيم عن الوليد، حدثني الأموي: أن وقعة فِحْل وأجنادين، كانت في خلافة أبي بكر، ثم مضى المسلمون إلى دمشق، فنزلوا عليها في رجب سنة ثلاث عشرة، يعني: ففتحوها في سنة أربع عشرة، وكانت اليرموك سنة خمس عشرة، وقدم عمر إلى بيت المقدس سنة ست عشرة.

واختلف العلماء في دمشق: هل فتحت صلحاً أو عَنْوَةً؟ فأكثر العلماء على أنه استقر أمرها على الصلح، لأنهم شَكُّوا في المتقدم على الآخر، أفتحت عنوة ثم عدل الروم إلى المصالحة، أو فتحت صلحاً، أو اتفق الاستيلاء من الجانب الآخر قسراً؟ فلما شكوا في ذلك جعلوها صلحاً احتياطاً.

وقيل: بل جعل نصفها صلحاً ونصفها عَنوة، وهذا القول قد يظهر من صنع الصحابة في الكنيسة العظمى، التي كانت أكبر معابدهم، حين أخذوا نصفها وتركوا لهم نصفها والله أعلم.

ثم قيل: إن أبا عبيدة هو الذي كتب لهم كتاب الصلح، وهذا هو الأنسب والأشهر، فإن خالداً كان قد عزل عن الإمرة، وقيل: الذي كتب لهم الصلح خالد بن الوليد، ولكن أقره على ذلك أبو عبيدة فالله أعلم.

وذكر أبو حذيفة إسحاق بن بشر: أن الصديق توفي قبل فتح دمشق، وأن عمر كتب إلى أبي عبيدة يعزيه والمسلمين في الصديق، وأنه قد استنابه على من بالشام، وأمره أن يستشير خالداً في الحرب، فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة، كتمه من خالد حتى فتحت دمشق بنحو من عشرين ليلة، فقال له خالد: يرحمك الله، ما منعك أن تعلمني حين جاءك؟ فقال: إني كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان

(١) قوله: «بعدها بسنة» أي: في السنة الخامسة عشرة، هذا قول بعض العلماء، وقال بعضهم: إنها كانت في السنة الثالثة عشرة في خلافة الصديق أبي بكر رضي الله عنه وهو قول سيف بن عمر وتبعه الطبري، وقد تقدم ذكرها في «فتوح بلاد الشام» في خلافة الصديق رضي الله عنه.

الدنيا أريد، ولا للدنيا أعمل، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أخوان، وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه.

ومن أعجب ما يذكر ههنا: ما رواه يعقوب بن سفيان الفَسَوي: حدثنا هشام بن عمار، ثنا عبد الملك بن محمد، ثنا راشد بن داود الصنعاني، حدثني أبو عثمان الصنعاني شراحيل بن مرثد، قال: بعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى أهل اليمامة، وبعث يزيد بن أبي سفيان إلى الشام، فذكر الراوي مقال خالد لأهل اليمامة إلى أن قال: ومات أبو بكر واستخلف عمر، فبعث أبا عبيدة إلى الشام فقدم دمشق، فاستمد أبو عبيدة عمر، فكتب عمر إلى خالد بن الوليد أن يسير إلى أبي عبيدة بالشام، فذكر مسير خالد من العراق إلى الشام كما تقدم، وهذا غريب جداً، فإن الذي لا يشك فيه، أن الصديق هو الذي بعث أبا عبيدة وغيره من الأمراء إلى الشام، وهو الذي كتب إلى خالد بن الوليد، أن يقدم من العراق إلى الشام، ليكون مدداً لمن به وأميراً عليهم، ففتح الله تعالى عليه وعلى يديه جميع الشام، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وقال محمد بن عائذ: قال الوليد بن مسلم: أخبرني صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير: أن المسلمين لما افتتحوا مدينة دمشق، بعثوا أبا عبيدة بن الجراح، وافداً إلى أبي بكر، بشيراً بالفتح، فقدم المدينة، فوجد أبا بكر قد توفي واستخلف عمر بن الخطاب، فأعظم أن يتأمر أحد من الصحابة عليه، فولاه جماعة الناس، فقدم عليهم فقالوا: مرحباً بمن بعثناه بريداً فقدم علينا أميراً.

وقد روى الليث وابن لهيعة وحيوة بن شريح، ومفضل بن فَضَالة، وعمر بن الحارث، وغير واحد عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن الحكم، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر: أنه بعثه أبو عبيدة بريداً بفتح دمشق، قال: فقدمت على عمر يوم الجمعة فقال لي: منذ كم لم تنزع خفيك؟ فقلت: من يوم الجمعة، وهذا يوم الجمعة، فقال: أصبت السنة.

قال الليث: وبه نأخذ، يعني: أن المسح على الخفين للمسافر لا يتأقت، بل له أن يمسح عليهما ما شاء، وإليه ذهب الشافعي في القديم، وقد روى أحمد وأبو داود عن أبي بن عمارة مرفوعاً مثل هذا، والجمهور على ما رواه مسلم عن علي، في تأقيت المسح للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، وللمقيم يوم وليلة، ومن الناس من فَصَّل بين البريد ومن في معناه وغيره، فقال في الأول لا يتأقت، وفيما عداه يتأقت لحديث عقبة وحديث علي والله أعلم.

فتحُ البقاع[1] وبَعْلَبَكّ

ثم إن أبا عبيدة بعث خالد بن الوليد إلى البقاع ففتحه بالسيف. وبعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون، وعلى الروم رجل يقال له: «سنان» تحدر على المسلمين من عقبة بيروت، فقتل من المسلمين يومئذ جماعة من الشهداء، فكانوا يسمون «عين ميسنون» عين الشهداء، واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان كما وعده بها الصديق، وبعث يزيد دحية بن خليفة إلى تدمر في سرية ليمهدوا أمرها، وبعث أبا الزهراء القشيري إلى البثينة وحوران فصالح أهلها.

قال أبو عبيد القاسم بن سَلَّام رحمه الله: افتتح خالد دمشق صلحاً، وهكذا سائر مدن الشام كانت صلحاً دون أرضيها فعلى يدي يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبي عبيدة. وقال الوليد بن مسلم: أخبرني غير واحد من شيوخ دمشق، بينما هم على حصار دمشق، إذ أقبلت خيل من عقبة السلمية مخمرة بالحرير فثار إليهم المسلمون، فالتقوا فيما بين بيت لهيا والعقبة التي أقبلوا منها، فهزموهم وطردوهم إلى أبواب حمص، فلما رأى أهل حمص ذلك، ظنوا أنهم قد فتحوا دمشق، فقال لهم أهل حمص: إنا نصالحكم على ما صالحتم عليه أهل دمشق ففعلوا.

وقال خليفة بن خياط: حدثني عبد الله بن المغيرة عن أبيه قال: افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن كلها عنوة، ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه. وهكذا قال ابن الكلبي. وقالا: بعث أبو عبيدة خالداً، فغلب على أرض البقاع وصالحه أهل بعلبك وكتب لهم كتاباً. وقال ابن المغيرة عن أبيه: وصالحهم على أنصاف منازلهم وكنائسهم، ووضع الخراج.

وقال ابن إسحاق وغيره: وفي سنة أربع عشرة فتحت حمص وبعلبك صلحاً على يدي أبي عبيدة في ذي القعدة، قال خليفة: ويقال في سنة خمس عشرة.

---

(١) «البقاع» هو: سهل فسيح واسع يقع بين سلسلتين من الجبال، من بلاد «لبنان»، و«بعلبك» إحدى المدن الواقعة في سهل البقاع المذكور.

وقعة فِخل[1]

وقد ذكرها كثير من علماء السِّير قبل فتح دمشق، وإنما ذكرها الإمام أبو جعفر بن جرير بعد فتح دمشق، وتبع في ذلك سياق سيف بن عمر، فيما رواه عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني، وأبي حارثة القيسي قالا:

خلف الناس يزيد بن أبي سفيان في خيله في دمشق، وسار نحو فِحْل، وعلى الناس الذين هم بالغور شرحبيل بن حسنة، وسار أبو عبيدة وقد جعل على المقدمة خالد بن الوليد، وأبو عبيدة على الميمنة، وعمرو بن العاص على الميسرة، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجالة عياض بن غنم، فوصلوا إلى فِحْلٍ، وهي: بلدة بالغور، وقد انحاز الروم إلى بيسان، وأرسلوا مياه تلك الأراضي على ما هنالك من الأراضي، فحال بينهم وبين المسلمين، وأرسل المسلمون إلى عمر، يخبرونه بما هم فيه من مصابرة عدوهم، وما صنعه الروم من تلك المكيدة، إلا أن المسلمين في عيش رغيد ومدد كبير، وهم على أهبة من أمرهم، وأمير هذا الحرب شرحبيل بن حسنة، وهو لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة.

وظن الروم أن المسلمين على غرة، فركبوا في بعض الليالي ليبيتوهم، وعلى الروم سقلاب بن مخراق، فهجموا على المسلمين، فنهضوا إليهم نهضة رجل واحد، لأنهم على أهبة دائماً فقاتلوهم حتى الصباح، وذلك اليوم بكماله إلى الليل، فلما أظلم الليل، فر الروم وقتل أميرهم سقلاب، وركب المسلمون أكتافهم، وأسلمتهم هزيمتهم إلى ذلك الوحل الذي كانوا قد كادوا به المسلمين، فغرقهم الله فيه، وقتل منهم المسلمين بأطراف الرماح ما قارب الثمانين ألفاً، لم ينج منهم إلا الشريد، وغنموا منهم شيئاً كثيراً ومالاً جزيلاً.

وانصرف أبو عبيدة وخالد بمن معهما من الجيوش نحو حمص، كما أمر أمير

(١) بكسر الفاء. وقيل: والحاء، والصحيح تسكينها، وهي: بلدة في غور الأردن.

المؤمنين عمر بن الخطاب، واستخلف أبو عبيدة على الأردن شرحبيل بن حسنة، فسار شرحبيل ومعه عمرو بن العاص، فحاصر بَيْسَان، فخرجوا إليه فقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم صالحوه على مثل ما صالحت عليه دمشق، وضرب عليهم الجزية، والخراج على أراضيهم، وكذلك فعل أبو الأعور السلمي بأهل طبرية سواء.



وقعة مَرج الرُّوم

قال ابن جرير: وفي السنة الخامسة عشرة: كانت وقعة «مرج الروم»، وذلك لما انصرف أبو عبيدة وخالد من وقعة فِحْلٍ قاصدين إلى حمص، حسب ما أمر به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما تقدم في رواية سيف بن عمر، فسارا حتى نزلا على ذي الكلاع، فبعث هرقل بطريقاً يقال له: توذرا في جيش معه، فنزل بمرج دمشق وغربها وقد هجم الشتاء، فبدأ أبو عبيدة بمرج الروم، وجاء أمير آخر من الروم يقال له: شنس وعسكر معه كثيف، فنازله أبو عبيدة، فاشتغلوا به عن توذرا، فسار توذرا نحو دمشق لينازلها وينتزعها من يزيد بن أبي سفيان، فاتبعه خالد بن الوليد، وبرز إليه يزيد بن أبي سفيان من دمشق، فاقتتلوا، وجاء خالد وهم في المعركة، فجعل يقتلهم من ورائهم، ويزيد يفصل فيهم من أمامهم، حتى أناموهم ولم يفلت منهم إلا الشارد، وقتل خالد توذرا، وأخذوا من الروم أموالاً عظيمة فاقتسماها، ورجع يزيد إلى دمشق، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة، فوجده قد واقع شنس بمرج الروم، فقاتلهم فيه مقاتلة عظيمة، حتى أنتنت الأرض من زَهَمهم[1]، وقتل أبو عبيدة شنس، وركبوا أكتافهم إلى حمص فنزل عليها يحاصرها.

---

(١) «زهمهم» أي: رائحة جثثهم الكريهة.

وقعة حمص الأُولى

لما وصل أبو عبيدة في اتباعه الروم المنهزمين إلى حمص، نزل حولها يحاصرها، ولحقه خالد بن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً، وذلك في زمن البرد الشديد، وصابر أهل البلد رجاء أن يصرفهم عنهم شدة البرد، وصبر الصحابة صبراً عظيماً، بحيث أنه ذكر غير واحد، أن من الروم من كان يرجع، وقد سقطت رجله وهي في الخف، والصحابة ليس في أرجلهم شيء سوى النعال، ومع هذا لم يصب منهم قدم ولا أصبع أيضاً، ولم يزالوا كذلك حتى انسلخ فصل الشتاء فاشتد الحصار، فصالحوهم على ما صالحوا عليه أهل دمشق، على نصف المنازل، وضرب الخراج على الأراضي، وأخذ الجزية على الرقاب بحسب الغنى والفقر. وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى عمر مع عبد الله بن مسعود.

وأنزل أبو عبيدة بحمص جيشاً كثيفاً يكون بها مع جماعة من الأمراء، منهم بلال والمقداد، وكتب أبو عبيدة إلى عمر، يخبره بأن هرقل قد قطع الماء إلى الجزيرة، وأنه يظهر تارة ويخفى أخرى؛ فبعث إليه عمر يأمره بالمقام ببلده.



وقعة قِنَّسرين

لما فتح أبو عبيدة حمص، بعث خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرين، فلما جاءها ثار إليه أهلها ومن عندهم من نصارى العرب، فقاتلهم خالد فيها قتالاً شديداً، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فأما من هناك من الروم فأبادهم وقتل أميرهم ميتاس، وأما الأعراب، فإنهم اعتذروا إليه بأن هذا القتال لم يكن عن رأينا، فقبل منهم خالد وكف عنهم، ثم خلص إلى البلد فتحصنوا فيه، فقال لهم خالد: إنكم لو كنتم في السحاب، لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا، ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه ولله الحمد.

فلما بلغ عمر ما صنعه في هذه الوقعة، قال: «يرحم الله أبا بكر، كان أعلم بالرجال مني، والله إني لم أعزله عن ريبة، ولكن خشيت أن يوكِلَ الناسُ إليه».

وفي هذه السنة ـ الخامسة عشرة ـ تقهقر هرقل بجنوده، وارتحل عن بلاد الشام إلى بلاد الروم، هكذا ذكره ابن جرير عن محمد بن إسحاق، قال: وقال سيف: كان ذلك في سنة ست عشرة.

قالوا: وكان هرقل كلما حج إلى بيت المقدس وخرج منها يقول: عليك السلام يا سورية، تسليم مودع، لم يقض منك وطراً وهو عائد، فلما عزم على الرحيل من الشام وبلغ الرُّهَا[1]، طلب من أهلها أن يصحبوه إلى الروم، فقالوا: إن بقاءنا ههنا أنفع لك من رحيلنا معك، فتركهم، فلما وصل إلى شِمْشَاطِ[2] وعلا على شرف هنالك، التفت إلى نحو بيت المقدس وقال: عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده، إلا أن أسلم عليك تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لم يولد، ما أحلى فعله، وأَمَرَّ عاقبته على الروم!!

---

(١) «الرُّها» بضم الراء، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام.

(٢) «شمشاط» بكسر الشين المعجمة الأولى آخره طاء مهملة، وفي المطبوعة «شمشان» بالنون وهو تصحيف.

ثم سار هرقل حتى نزل القسطنطينية واستقر بها ملكه، وقد سأل رجلاً ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين، فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار، رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربوه حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين.

قلت: وقد حاصر المسلمون قسطنطينية في زمان بني أمية فلم يملكوها، ولكن سيملكها المسلمون في آخر الزمان، كما سنبينه في «كتاب الملاحم»[1]، وذلك قبل خروج الدجال بقليل على ما صحت به الأحاديث عن رسول ﷺ في صحيح مسلم وغيره من الأئمة ولله الحمد والمنة.

وقد حرم الله على الروم، أن يملكوا بلاد الشام برمتها إلى آخر الدهر، كما ثبت به الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده، لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله عز وجل»، وقد وقع ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه كما رأيت، وسيكون ما أخبر به جزماً، لا يعود ملك القياصرة إلى الشام أبداً، لأن قيصر علم جنس عند العرب، يطلق على كل من ملك الشام مع بلاد الروم، فهذا لا يعود لهم أبداً.



(١) سيأتي بيانه بعونه تعالى في «خلاصة النهاية» في الجزء الثامن، ولم تكن القسطنطينية قد فتحت حتى أيام ابن كثير، وقد فتحها السلطان العثماني «محمد الثاني» عام (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، فلقب بـ«الفاتح» وسبق للمسلمين أن حاصروها إحدى عشرة مرة رجاء فتحها وقد ظلت «إسلامبول» عاصمة الدولة العثمانية حتى آخر أيامها.

وقعة قَيسَارِيّة

قال ابن جرير: وفي هذه السنة ـ أي: السنة الخامسة عشرة ـ، أَمَّر عمرُ معاوية بن أبي سفيان على قَيْسَارية وكتب إليه: «أما بعد: فقد وليتك قَيْسَارية، فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، فنعم المولى ونعم النصير».

فسار إليها فحاصرها، وزاحفه أهلها مرات عديدة، وكان آخرها وقعة أن قاتلوا قتالاً عظيماً، وصمم عليهم معاوية واجتهد في القتال حتى فتح الله عليه، فما انفصل الحال حتى قتل منهم نحواً من ثمانين ألفاً، وكمل المائة الألف من الذين انهزموا عن المعركة، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.



وقعة أجنَادَين[1]

قال ابن جرير: وفيها ـ أي: السنة الخامسة عشرة ـ كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى إيلياء، ومناجزة صاحبها، فاجتاز في طريقه عند الرملة بطائفة من الروم فكانت وقعة أجنادَيْن.

وذلك أنه سار بجيشه وعلى ميمنته ابنه عبد الله بن عمرو، وعلى ميسرته جنادة بن تميم المالكي، من بني مالك بن كنانة، ومعه شرحبيل بن حسنة، واستخلف على الأردن أبا الأعور السُلمي، فلما وصل إلى الرملة وجد عندها جمعاً من الروم عليهم الأرطبون، وكان أدهى الروم وأبعدها غوراً، وأنكأها فعلاً، وقد كان وضع بالرملة جنداً عظيماً، وبإيلياء جنداً عظيماً، فكتب عمرو إلى عمر بالخبر، فلما جاءه كتاب عمرو قال: «قد رَمَيْنا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج»، وبعث عمرو بن العاص علقمة بن حكيم الفراسي، ومسروق بن بلال العُكي على قتال أهل إيلياء، وأبا أيوب المالكي إلى الرملة، وعليها التذارق، فكانوا بإزائهم ليشغلوهم عن عمرو بن العاص وجيشه، وجعل عمرو كلما قدم عليه إمداد من جهة عمر، يبعث منهم طائفة إلى هؤلاء وطائفة إلى هؤلاء، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة، ولا تشفيه الرسل، فوليه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد، وسمع كلامه، وتأمل حضرته، حتى عرف ما أراد، وقال الأرطبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو، أو إنه الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله، فدعا حرسياً فساره فأمره بفتكه فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مر بك فاقتله، ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون: أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعت كلامي، وإني واحد من عشرة، بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره، وقد أحببت أن آتيك بهم، ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت، فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فأتني بهم، ودعا

---

(١) «أجنادين» بفتح الدال المهملة وتكسر.

رجلاً فسارَّه فقال: اذهب إلى فلان فرده، وقام عمرو فذهب إلى جيشه، ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص، فقال: خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب، وبَلَغَتْ عمر بن الخطاب فقال: «لله در عمرو».

ثم ناهضه عمرو فاقتتلوا بأجنادين قتالاً عظيماً، كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم، ثم اجتمعت بقية الجيوش إلى عمرو بن العاص، وذلك حين أعياهم صاحب إيلياء وتحصن منهم بالبلد، وكثر جيشه فكتب الأرطبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع ولا تُغَرَّ، فتلقى مثل ما لقي الذين قبلك من الهزيمة، فدعا عمرو رجلاً يتكلم بالرومية، فبعثه إلى أرطبون وقال: اسمع ما يقول لك، ثم ارجع فأخبرني، وكتب إليه معه: جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد، واقرأ كتابي هذا بمحضر من أصحابك ووزرائك، فلما وصله الكتاب جمع وزراءه وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا للأرطبون: من أين علمت أنه ليس بصاحب فتح هذه البلاد؟ فقال: صاحبها رجل اسمه على ثلاثة أحرف، فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال، فكتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول له: «إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً، وبلاداً ادُّخِرَتْ لك، فرأيك»، فلما وصل الكتاب إلى عمر، علم أن عمراً لم يقل ذلك إلا لأمر علمه، فعزم عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس كما سنذكر تفصيله[1].

قال سيف بن عمر عن شيوخه: وقد دخل عمر الشام أربع مرات: الأولى كان راكباً فرساً حين فتح بيت المقدس، والثانية على بعير، والثالثة وصل إلى سَرْغ[2] ثم رجع لأجل ما وقع بالشام من الوباء، والرابعة دخلها على حمار، هكذا نقله ابن جرير عنه.

---

(١) سيأتي تفصيله بعد أسطر.

(٢) «سرغ» بفتح السين المهملة وسكون الراء، آخره عين مهملة هو: آخر بلاد الحجاز وأول بلاد الشام.

فتح بيت المقدس على يدي عمر بن الخطاب

ذكر أبو جعفر بن جرير رضي الله عنه، عن رواية سيف بن عمر: أن فتح بيت المقدس كان في السنة الخامسة عشرة، وملخص ما ذكره هو وغيره: أن أبا عبيدة لما فرغ من دمشق، كتب إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، أو يبذلون الجزية، أو يؤذنوا بحرب، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، فركب إليهم في جنوده، واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس وضيق عليهم، حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك، فاستشار عمر الناس في ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم، ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم، وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم، ليكون أخف وطأة على المسملين في حصارهم بينهم، فهوي ما قال علي، ولم يهو ما قال عثمان، وسار بالجيوش نحوهم، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وسار العباس بن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، كخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، فترجل أبو عبيدة وترجل عمر، فأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر، فهمَّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة، فكف أبو عبيدة فكف عمر، ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، ويقال: إنه لبى حين دخل بيت المقدس، فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، فقرأ في الأولى بسورة «ص»، وسجد فيها والمسلمون معه، وفي الثانية بسورة «بني إسرائيل»، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه، فقال: ضاهيت اليهودية، ثم جعل المسجد في قبلى بيت المقدس وهو العمري اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه، ونقل المسلمون معه في ذلك، وسخر أهل الأردن في نقل بقيتها، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة لأنها قبلة اليهود،

وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القُمَامة، وهي: المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب، فجعلوا يلقون على قبره القمامة، فلأجل ذلك سمي ذلك الموضع «القُمَامة»، وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك.

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوي وهو بإيلياء، وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكناسة على الصخرة، حتى وصلت إلى محراب داود قال لهم: إنكم لخليق أن تُقْتَلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد، كما قتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا، ثم أُمروا بإزالتها فشرعوا في ذلك، فما أزالوا ثلثهاحتى فتحها المسلمون، فأزالها عمر بن الخطاب، وقد استقصى هذا كله بأسانيده ومتونه الحافظ بهاء الدين بن الحافظ أبي القاسم بن عساكر في كتابه: «المستَقْصَى في فضائل المسجد الأقصى».

وذكر سيف في سياقه: أن عمر رضي الله عنه ركب من المدينة على فرس، ليسرع السير بعد ما استخلف عليها علي بن أبي طالب، فسار حتى قدم الجابِيَة[1] فنزل بها، وخطب بالجابية خطبة طويلة بليغة منها:

«أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوا أمر دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حي، ولا بينه وبين الله هوادة، فمن أراد لَحْبَ[2] وجه الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، ولا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» وهي خطبة طويلة اختصرناها.

ثم صالح عمر أهل الجابية ورحل إلى بيت المقدس، وقد كتب إلى أمراء الأجناد، أن يوافوه في اليوم الفلاني إلى الجابية، فتوافوا أجمعون في ذلك اليوم إلى الجابية، فكان أول من تلقاه يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة، ثم خالد بن الوليد، في خيول المسلمين وعليهم يلامق الديباج، فسار إليهم عمر ليحصبهم، فاعتذروا إليه بأن عليهم السلاح، وأنهم يحتاجون إليه في حروبهم، فسكت عنهم، واجتمع الأمراء كلهم بعدما استخلفوا على أعمالهم، سوى عمرو بن العاص وشرحبيل، فإنهما مواقفان الأرطبون بأجنادَيْن، فبينما عمر في الجابية، إذا بكُرْدُوس[3] من الروم بأيديهم

---

(١) «الجابيةِ»، تعرف بـ «جابية الجولانِ» تقع قرب «مرج الصُفَّر» في شمالي حوران، وبقربها تل تسمى «تل الجابية».

(٢) «لحب» بفتح اللام وسكون الحاء المهملة: أي: طريق.

(٣) بكردوس بضم الكاف والدال المهملة هو: الجماعة من الخيل.

سيوف مسللة، فسار إليهم المسلمون بالسلاح فقال عمر: إن هؤلاء قوم يستأمنون، فساروا نحوهم، فإذا هم جند من بيت المقدس، يطلبون الأمان والصلح من أمير المؤمنين حين سمعوا بقدومه، فأجابهم عمر رضي الله عنه إلى ما سألوا، وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة، وضرب عليهم الجزية، واشترط عليهم شروطاً ذكرها ابن جرير[1]، وشهد في الكتاب: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان هو كاتب الكتاب، وذلك في سنة خمسة عشر.

ثم كتب لأهل «لُدّ» ومن هنالك من الناس كتاباً آخر وضرب عليهم الجزية، ودخلوا فيما صالح عليه أهل إيلياء، وفر الأرطبون إلى بلاد مصر، فكان بها حتى فتحها عمرو بن العاص، ثم فر إلى البحر، فكان يلي بعض السرايا الذين يقاتلون المسلمين، فظفر به رجل من قيس، فقطع يد القيسي وقتله القيسي وقال في ذلك.

فإن يكنْ أرطبونُ الرومِ أفسدها، فإنَّ فيها بحمدِ اللّهِ منتفعاً
وإنْ يكنْ أرطبونُ الرومِ قطّعها فقدْ تركتُ بها أوصالهُ قِطَعا

ولما صالح أهل الرملة وتلك البلاد، أقبل عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة حتى قدما الجابية، فوجدا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب راكباً، فلما اقتربا منه أكبا على ركبتيه فقبلاها، واعتنقهما عمر معاً رضي الله عنهم.

قال سيف: ثم سار عمر إلى بيت المقدس من الجابية، وقد تعب فرسه، فأتوه ببرذَوْن[2] فركبه فجعل يُهَمْلج[3] به، فنزل عنه وضرب وجهه وقال: «لا عَلَّم الله من

---

(١) والشروط التي اشترطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل إيلياء، أي: بيت المقدس، هي: أنه لا يسكن بها معهم أحد من اليهود، وأن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وأن يُخرجوا منها الروم واللُّصُوت، أي: اللّصوص.
ونقول: إذا كان شرط أمير المؤمنين الأول على أهل بيت المقدس هو: أنه لا يسكن بها معهم أحد من اليهود، فماذا نقول وقد سيطر اليهود على شطر بيت المقدس عام ١٩٤٨ م، ثم سيطروا على الشطر الثاني منها وفيه الأماكن المقدسة عام ١٩٦٧ م، تحت سمع العالم وبصره، وها هم اليهود ونحن في عام ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م، يطردون المسلمين من بيوتهم وأرضهم في القدس وضواحيها وسائر فلسطين المحتلة لتوطين اليهود، وها هم اليهود وقد أعلنوا أن القدس عاصمة دولتهم إلى الأبد ـ كما يقولون ـ وهاهم حكام العرب والمسلمين يتهافتون تهافت الفراش على النار للاعتراف بالدولة اليهودية الغاصبة المحتلة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) «برذون» بكسر الباء الموحدة وفتح الذال المعجمة هو: نوع من الخيل من نتاج غير العراب.

(٣) قوله: «يهملج» هو من «الهملاج» بكسر الهاء، فارسي معرب، والهملجة: حسن سير الدابة في سرعة.

عَلَّمك، هذا من الخيلاء»، ثم لم يركب برذوناً قبله ولا بعده، ففتحت إيلياء وأرضها على يديه، ما خلا أجنادين فعلى يدي عمرو، وقيسارية فعلى يدي معاوية.

هذا سياق سيف بن عمر، وقد خالفه غيره من أئمة السير، فذهبوا إلى أن فتح بيت المقدس كان في سنة ست عشرة:

قال محمد بن عائذ، عن الوليد بن مسلم، عن عثمان بن حصن بن علان، قال يزيد بن عبيدة: فتحت بيت المقدس سنة ست عشرة، وفيها قدم عمر بن الخطاب الجابية.

وقال أبو زرعة الدمشقي، عن دحيم عن الوليد بن مسلم قال: ثم عاد في سنة سبع عشرة، فرجع من سَرْغ، ثم قدم سنة ثماني عشرة، فاجتمع إليه الأمراء، وسلموا إليه ما اجتمع عندهم من الأموال فقسمها، وجند الأجناد، ومَصَّر الأمصار، ثم عاد إلى المدينة.

وقال يعقوب بن سفيان: ثم كان فتح الجابية وبيت المقدس سنة ست عشرة، وقال أبو معشر: ثم كان فتح عَمْوَاس والجابية في سنة ست عشرة، ثم كانت سَرْغ في سبع عشرة، ثم كان عام الرمادة في سنة ثماني عشرة.

قال ابن إسحاق وأبو معشر: وكان طاعون عَمْوَاس[1] في سنة ثماني عشرة كما سيأتي[2] قريباً إن شاء الله تعالى.

وقال أبو مِخْنَف[3]: لما قدم الشام فرأى غوطة دمشق، ونظر إلى المدينة والقصور والبساتين، تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾[4] ثم أنشد قول النابغة:

هما فَتَيا دَهْرٍ يَكرُّ عليهما ... نهارٌ وليلٌ يلحقانِ التواليا
إذا ما هما مرَّا بحيٍّ بغبطةٍ ... أَناخا بهمْ حتى يلاقوا الدواهيا

وهذا يقتضي بادي الرأي أنه دخل دمشق، وليس كذلك، فإنه لم ينقل أحد أنه

---

(١) «عَمواس» بفتح العين المهملة هي: بلدة بين القدس والرملة، أضيف هذا الداء إليها لأنه أول ما ظهر فيها ثم انتشر في الشام.

(٢) سيأتي في حوادث «السنة السابعة عشرة» في «الفصل الخامس» بعونه تعالى.

(٣) هو: «لوط بن يحيى الأخباري»، كثير الرواية للأخبار، روى عنه ابن جرير، وترجمه ابن كثير وقال فيه: هو متهم فيما يرويه ولا سيما في باب التشيع [تراجع «البداية والنهاية» ص٢٠٢ وص٢٧٤ ج٨].

(٤) الآيات «٢٥ ـ ٢٨» من سورة «الدخان».

دخلها في شيء من قَدَمَاته الثلاث إلى الشام، أما الأولى وهي هذه، فإنه سار من الجابية إلى بيت المقدس، كما ذكر سيف وغيره والله أعلم، وقال الواقدي: أما رواية غير أهل الشام، فهي أن عمر دخل الشام مرتين، ورجع الثالثة من سَرْغ سنة سبع عشرة، وهم يقولون: دخل في الثالثة دمشق وحمص، وأنكر الواقدي ذلك.

قلت: ولا يعرف أنه دخل دمشق إلا في الجاهلية قبل إسلامه كما بسطنا ذلك في سيرته[1].

وقال إسماعيل بن محمد الصفار: حدثنا سَعَدَانُ بن نصر، حدثنا سفيان عن أيوب الطائي عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشام، عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع مُوقَيْه[2] فأمسكهما بيد، وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصك في صدره وقال: «أوَّه، لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره، يذلكم الله».



(١) «في سيرته» أي: في الكتاب الذي ألفه ابن كثير في سيرة عمر رضي الله عنه.

(٢) «موقيه» مثنى «موق» بضم الميم وهما: الخفان الغليظان يلبسان فوق الخف.

حَصْرُ الرُّومِ أبا عبيدة بحمص[1]

في السنة السابعة عشرة للهجرة، عزم جَمْعٌ من الروم على حصار أبي عبيدة بحمص، واستجاشوا بأهل الجزيرة، وخلق ممن هنالك، وقصدوا أبا عبيدة، فبعث أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه من قِنَّسْرِين، وكتب إلى عمر بذلك، واستشار أبو عبيدة المسلمين في أن يناجز الروم، أو يتحصن بالبلد حتى يجيء أمر عمر، فكلهم أشار بالتحصن، إلا خالداً فإنه أشار بمناجزتهم، فعصاه وأطاعهم، وتحصن بحمص وأحاط به الروم، وكل بلد من بلدان الشام مشغول أهله عنه بأمرهم، ولو تركوا ما هم فيه وأقبلوا إلى حمص، لانخرم النظام في الشام كله.

وكتب عمر إلى سعد، أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو، ويسيرهم إلى حمص من يوم يقدم عليه الكتاب، نجدة لأبي عبيدة فإنه محصور، وكتب إليه أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة، الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة، ويكون أمير الجيش إلى الجزيرة عياض بن غنم، فخرج الجيشان معاً من الكوفة، القعقاع في أربعة آلاف نحو حمص لنجدة أبي عبيدة، وخرج عمر بنفسه من المدينة لينصر أبا عبيدة، فبلغ الجابية، وقيل: إنما بلغ سَرْغ قاله ابن إسحاق، وهو أشبه والله أعلم.

فلما بلغ أهل الجزيرة الذين مع الروم على حمص، أن الجيش قد طرق بلادهم، انشمروا إلى بلادهم، وفارقوا الروم، وسمعت الروم بقدوم أمير المؤمنين عمر لينصر نائبه عليهم، فضعف جانبهم جداً، وأشار خالد على أبي عبيدة بأن يبرز إليهم ليقاتلهم، ففعل ذلك أبو عبيدة، ففتح الله عليه ونصره، وهزمت الروم هزيمة فظيعة، وذلك قبل ورود عمر عليهم، وقبل وصول الإمداد إليهم بثلاث ليال، فكتب أبو عبيدة إلى عمر وهو بالجابية يخبره بالفتح، وأن المدد وصل إليهم بعد ثلاث ليال، وسأله هل يدخلهم في القَسْم معهم مما أفاء الله عليهم؟ فجاء الجواب بأن

(١) ذكر ابن كثير هذه الوقعة في أول حوادث السنة السابعة عشرة وفي سياق سرده فتوح بلاد العراق، فوضعناها هنا في «فتوح بلاد الشام».

يدخلهم معهم في الغنيمة، فإن العدو إنما ضعف وإنما انشمر عنه المدد من خوفهم منهم، فأشركهم أبو عبيدة في الغنيمة، وقال عمر: «جزى الله أهل الكوفة خيراً، يحمون حوزتهم، ويمدون أهل الأمصار».



فتح الجزيرة[1]

قال ابن جرير: وفي السنة السابعة عشرة، فتحت الجزائر فيما قاله سيف بن عمر، قال ابن جرير: في ذي الحجة من سنة سبع عشرة، فوافق سيف بن عمر في كونها في هذه السنة.

وقال ابن إسحاق: كان ذلك في سنة تسع عشرة، سار إليها عياض بن غنم، وفي صحبته أبو موسى الأشعري، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو غلام صغير السن ليس إليه من الأمر شيء، وعثمان بن أبي العاص، فنزل الرُّهَا فصالحه أهلها على الجزية، وصالحت حَرَّان على ذلك، ثم بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين، وعمر بن سعد إلى رأس العين، وسار بنفسه إلى دارا، فافتتحت هذه البلدان، وبعث عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية، فكان عندها شيء من قتال، قتل فيه صفوان بن المُعَطَّل السلمي شهيداً، ثم صالحهم عثمان بن أبي العاص على الجزية، على كل أهل بيت دينار.

وقال سيف في روايته: جاء عبد الله بن عبد الله بن غسان، فسلك على رجليه حتى انتهى إلى نصيبين، فلقوه بالصلح وصنعوا كما صنع أهل الرقة، وبعث إلى عمر برؤوس النصارى من عرب أهل الجزيرة، فقال لهم عمر: أدوا الجزية، فقالوا: أبلغنا مأمننا، فوالله لئن وضعت علينا الجزية، لندخلن أرض الروم، والله لتفضَحَنَّا من بين العرب، فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم، ووالله لتؤدن الجزية وأنتم صغرة قمئة، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم، ثم لأسبينكم، قالوا: فخذ منا شيئاً ولا تسميه جزية، فقال: أما نحن فنسميه جزية، وأما أنتم فسموه ما شئتم، فقال له علي بن أبي طالب: ألم يُضَعِّف عليهم سعد الصدقة؟ قال: بلى، وأصغى إليه ورضي به منهم[2].

---

(١) «الجزيرة» وتسمى «جزيرة أقور» وهي: بين دجلة والفرات مجاورة الشام، ومن مدنها: حَرَّان والرقة وماردين والموصل.

(٢) ذكر ابن كثير بعد «وقعة الجزيرة»، أخبار «طاعون عمواس»، وقد وضعناه في «حوادث السنة السابعة عشرة» من «الفصل الخامس» في هذا الجزء.

الفصل الثالث

فَتح مِصْرَ وإِسْكَندريَّة
سنة عشرين للهجرة



قال محمد بن إسحق: كان فتح[1] مصر سنة عشرين للهجرة، وكذا قال الواقدي: إنها فتحت هي وإسكندرية في هذه السنة، وقال أبو معشر: فتحت مصر سنة عشرين، وإسكندرية في سنة خمس وعشرين.

وقال سيف: فتحت مصر وإسكندرية في سنة ست عشرة في ربيع الأول منها، ورجح ذلك أبو الحسن ابن الأثير في «الكامل»، لقصة بعث عمرو الميرة من مصر عام الرَّمادة، وهو معذور فيما رجحه والله أعلم.

قال ابن إسحاق وسيف بن عمر: لما استكمل عمر والمسلمون فتح الشام، بعث عمرو بن العاص إلى مصر، وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس، وأردفه بالزبير بن العوام وفي صحبته بشر بن أرطاة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي، فاجتمعا على باب مصر، فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر، ومعه الأسقف أبو مريام في أهل الثبات، بعثه المقوقس صاحب إسكندرية لمنع بلادهم، فلما تصافوا، قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتى نعذر، ليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد، فبرزا إليه، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمةً إلى ذمة، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خيراً، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمةً، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا وكانت من أهل مَنَف والمُلك فيهم، فأديل عليهم أهل عين شمس، فقتلوهم

(١) ذكر ابن كثير «فتح مصر» قبل «فتح نهاوند»، فوضعناها هنا بعد «فتوح بلاد الشام» بصرف النظر عن تسلسل السنين.

وسلبوهم ملكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام، مرحباً به وأهلاً، أَمِّنا حتى نرجع إليك، فقال عمرو: إن مثلي لا يخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظروا، ولتناظرا قومكما وإلا ناجزتكم، قالا: زدنا، فزادهم يوماً فقالا: زدنا، فزادهم يوماً، فرجعا إلى المقوقس، فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم، فقالا لأهل مصر: أما نحن فسنجتهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم، وقد بقيت أربعة أيام فقاتلوا، وأشار عليهم بأن يبيتوا المسلمين، فقال الملأ منهم: ما تقاتلون من قوم قتلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم، فألح الأرطبون في أن يبيتوا المسلمين، ففعلوا فلم يظفروا بشيء، بل قتل منهم طائفة منهم الأرطبون، وحاصر المسلمون عين شمس من مصر في اليوم الرابع، وارتقى الزبير عليهم سور البلد، فلما أحسوا بذلك، خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه، واخترق الزبير البلد حتى خرج من الباب الذي عليه عمرو، فأمضوا الصلح، وكتب لهم عمرو كتاب أمان:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر، من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يُدْخَلُ عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النُّوبَةُ، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزيةَ إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لُصُوتُهم، ـ أي: لصوصهم ـ فإن أبى أحد منهم أن يجيب، رُفع عنهم من الجَزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته رُفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثاً، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب، عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على أن لا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة، شهد: الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر».

فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح، واجتمعت الخيول بمصر وعمروا الفسطاط، وظهر أبو مريم وأبو مريام، فكلما عمراً في السبايا التي أصيبت بعد المعركة، فأبى عمرو أن يردها عليهما، وأمر بطردهما وإخراجهما من بين يديه، فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أمر أن كل سبي أُخذ في الخمسة الأيام التي أمنوهم فيها أن يرد عليهم، وكل سبي أخذ ممن لم يقاتل، وكذلك من قاتل فلا يرد عليه سباياه، وقيل: إنه أمره أن يخيروا من في أيديهم من السبي، بين

الإسلام وبين أن يرجع إلى أهله، فمن اختار الإسلام فلا يردوه إليهم، ومن اختارهم ردوه عليهم وأخذوا منه الجزية، وأما ما تفرق من سبيهم في البلاد، ووصل إلى الحرمين وغيرهما، فإنه لا يقدر على ردهم، ولا ينبغي أن يصالحهم على ما يتعذر الوفاء به.

ففعل عمرو ما أمر به أمير المؤمنين، وجمع السبايا وعرضوهم وخيروهم، فمنهم من اختار الإسلام، ومنهم من عاد إلى دينه، وانعقد الصلح بينهم.

ثم أرسل عمرو جيشاً إلى إسكندرية ـ وكان المقوقس صاحب الإسكندرية قبل ذلك، يؤدي خراج بلده وبلد مصر إلى ملك الروم ـ فلما حاصره عمرو بن العاص، جمع أساقفته وأكابر دولته وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر، وأزالوهم عن ملكهم، ولا طاقة لنا بهم، والرأي عندي أن نؤدي الجزية إليهم، ثم بعث إلى عمرو بن العاص يقول: إني كنت أؤدي الخراج إلى من هو أبغض إلي منكم ـ فارس والروم ـ ثم صالحه على أداء الجزية، وبعث عمرو بالفتح والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال سيف: ففتحت مصر في ربيع الأول من سنة ست عشرة، وقام فيها ملك الإسلام ولله الحمد والمنة، وقال غيره: فتحت مصر في سنة عشرين، وفتحت إسكندرية في سنة خمس وعشرين بعد محاصرة ثلاثة أشهر عَنْوَةً، وقيل: صلحاً على اثني عشر ألف دينار.

وذكر سيف: أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، لما ولي مصر بعد ذلك، زاد في الخراج عليهم رؤوساً من الرقيق، يهدونها إلى المسلمين في كل سنة، ويعوضهم المسلمون بطعام مسمى وكسوة، وأقر ذلك عثمان بن عفان، وولاة الأمور بعده، حتى كان عمر بن عبد العزيز فأمضاه أيضاً نظراً لهم، وإبقاء لعهدهم.

قلت: وإنما سميت ديار مصر بالفسطاط، نسبة إلى فسطاط عمرو بن العاص، وذلك أنه نصب خيمته وهي «الفُسْطَاط» موضع مصر اليوم، وبنى الناس حوله، وتركت مصر القديمة من زمان عمرو بن العاص وإلى اليوم، ثم رفع الفسطاط وبنى موضعه جامعاً وهو المنسوب إليه اليوم.

وقد غزا المسلمون بعد فتح مصر النُّوبة، فنالهم جراحات كثيرة، وأصيبت أعين كثيرة، لجودة رمى النوبة فسموهم جند الحدق، ثم فتحها الله بعد ذلك وله الحمد والمنة.

وقد اختلف في بلاد مصر، فقيل: فتحت صلحاً إلا الإسكندرية، وهو قول يزيد بن أبي حبيب، وقيل: كلهم عنوة، وهو قول ابن عمر وجماعة[1].

---

(١) ذكر ابن كثير بعد وقائع «فتح مصر وإسكندرية»، تلك القصة الغريبة العجيبة التي سماها هنا: «قصة نيل مصر»، وقد سبق له أن ذكرها في «خلق البحار والأنهار» في «بدء الخلق» بعد كلامه عن «نهر النيل»، ولم يعقب لا هنا ولا هناك بما يفيد عدم صحة هذه القصة، بل وعدم جواز التصديق بها أصلاً، وقد أسقطناها في «بدء الخلق» في الجزء الأول، وعلقنا مبينين ما فيها من غرائب، وهانحن نذكرها هنا ثم نعقب عليها:

قال ابن كثير رحمه الله:

قصة نيل مصر:

[رُوِّينا من طريق ابن لَهِيعَةَ، عن قيس بن الحجاج، عمن حدثه قال: لما افتتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص ـ حين دخل بؤنة من أشهر العجم ـ فقالوا: أيها الأمير، لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله، قال: فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى، والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل، فلما قدم كتابه، أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت إنما تجري من قبلك ومن أمرك فلا تجر، فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجري بأمر الله الواحد القهار، وهو الذي يجريك، فنسأل الله تعالى أن يجريك»، قال: فألقى البطاقة في النيل، فأصبحوا يوم السبت، وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم].

ونقول:

أولاً: من حيث السند والرواية.

أ ـ معلوم أن عبد الله بن لهيعة أحد الرواة، ضعيف يضعف حديثه.

ب ـ وقيس بن الحجاج يروي عن مبهم لم يسمه، وهذا سبب آخر لضعف الرواية.

ثانياً: من حيث الدراية والمعنى.

أ ـ إن صح أن المصريين الأقدمين كانوا يفعلون ذلك، فهو من جاهليتهم، ولا دخل لنهر النيل بها، وقد انقطعت هذه البدعة المنكرة بالإسلام.

ب ـ إن القصة تجعل من النيل حاكماً بأمره، ومتصرفاً برأيه وكأنه مخلوق عاقل، وليس كذلك، ولا يجوز اعتقاد أنه كذلك، بل هو مسخر بتسخير الله تعالى كغيره من الأنهار، كما قال عز وجل: ﴿وسَخَّرَ لكم الأنْهَارَ﴾.

الفصل الرابع

فتوح بلاد العراق وفارس وغيرها

* وقعة النَّمارق.
* وقعة جسر أبي عُبَيد.
* وقعة البُوَيب.
* وقعة القادسية.
* وقعة بَهُرَسِير.
* فتح المدائن.
* وقعة جَلُولاء.
* فتح جَلُولاء وحُلوان.
* فتح تكريت والموصل.
* فتح ماسَبَذَان من أرض العراق.
* فتح قَرْقِيسِيَا وهِيت.
* فتح الأهواز ومناذر ونهر تِيرَى.
* فتح تُسْتَر المرة الأولى صلحاً.

* غزو بلاد فارس من ناحية البحرين.
* فتح تُسْتَر ثانيةً والسُّوس وأسر الهُرْمُزان.
* وقعة نهاوند، أو: فتح الفتوح.
* فتح أصبهان وقُمٍّ وغيرهما.
* فتح هَمَذان.
* فتح الرَّيِّ.
* فتح قُومِس.
* فتح جُرْجَان وغيرها.
* فتح أذربيجان.
* فتح الباب، أو: باب الأبواب.
* أول غزو الترك.
* فتح خراسان مع الأحنف بن قيس.
* فتح إِصطخر ثانية.
* فتح فَسَا ودَرَابِجَرْد.
* فتح كَرْمَان وسِجِسْتان ومُكْران.
* غزوة الأكراد.



قدمنا[1] أن المثنى بن حارثة، لما سار خالد من العراق بمن صحبه إلى الشام ـ وقد قيل: إنه سار بتسعة آلاف، وقيل: بثلاثة آلاف، وقيل: بسبعمائة، وقيل بأقل، إلا أنهم صناديد جيش العراق ـ فأقام المثنى بمن بقي، فاستقل عددهم، وخاف من سطوة الفرس لولا اشتغالهم بتبديل ملوكهم وملكاتهم، واستبطأ المثنى خبر الصديق، فسار إلى المدينة فوجد الصديق في السياق[2]، فأخبره بأمر العراق، فأوصى الصديق عمر أن يندب الناس لقتال أهل العراق، فلما مات الصديق ودفن ليلة الثلاثاء، أصبح عمر فندب الناس، وحثهم على قتال أهل العراق، وحرضهم ورغبهم في الثواب على ذلك، فلم يقم أحد، لأن الناس كانوا يكرهون قتال الفرس لقوة سطوتهم، وشدة قتالهم، ثم ندبهم في اليوم الثاني والثالث، فلم يقم أحد وتكلم المثنى بن حارثة فأحسن، وأخبرهم بما فتح الله تعالى على يدي خالد من معظم أرض العراق، وما لهم هنالك من الأموال والأملاك والأمتعة والزاد، فلم يقم أحد في اليوم الثالث، فلما كان اليوم الرابع، كان أول من انتدب من المسلمين أبو عبيد[3] بن مسعود الثقفي، ثم تتابع الناس في الإجابة، فأمر عمر طائفة من أهل المدينة، وأمر على الجميع أبا عبيد هذا ولم يكن صحابياً، فقيل لعمر: هلاَّ أمَّرت عليهم رجلاً من الصحابة؟ فقال: إنما أومر أول من استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإن هذا هو الذي استجاب قبلكم، ثم دعاه فوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ، وأن يستشير سليط بن قيس فإنه رجل باشر الحروب، فسار المسلمون إلى أرض العراق وهم سبعة آلاف رجل، وكتب عمر إلى أبي عبيدة، أن

---

(١) تقدم هذا في «فتوح العراق» في «خلافة الصديق» رضي الله عنه.

(٢) «في السياق» أي: على فراش الموت.

(٣) لم يكن أبو عبيد الثقفي رحمه الله صحابياً، بل هو من كبار التابعين وقد أمَّره أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على الجميع، لأنه كان أول من استجاب.

يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد إلى العراق، فجهز عشرة آلاف عليهم هاشم بن عتبة، وأرسل عمر جرير بن عبد الله البجلي في أربعة آلاف إلى العراق، فقدم الكوفة ثم خرج منها، فواقع هرقران المدار فقتله وانهزم جيشه، وغرق أكثرهم في دجلة، فلما وصل الناس إلى العراق، وجدوا الفرس مضطربين في ملكهم، وآخر ما استقر عليه أمرهم، أن ملكوا عليهم «بوران» بنت كسرى، بعدما قتلوا التي كانت قبلها «أزرميدخت»، وفوضت بوران أمر الملك عشر سنين إلى رجل منهم يقال له: رستم بن فرخزاذ، على أن يقوم بأمر الحرب، ثم يصير الملك إلى آل كسرى.



وقعة النَّمارق

بعث رستم أميراً يقال له: «جابان»، وعلى مجنبتيه رجلان يقال لأحدهما: «حشنس ماه» ويقال للآخر: «مردانشاه» وهو خصي أمير حاجب الفرس، فالتقوا مع أبي عبيد بمكان يقال له: «النمارق»، بين الحيرة والقادسية، وعلى الخيل المثنى بن حارثة، وعلى الميسرة عمرو بن الهيثم، فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً، وهزم الله الفرس، وأسر جابان ومردانشاه، فأما مردانشاه فإنه قتله الذي أسره، وأما جابان فإنه خَدَع الذي أسره حتى أطلقه، فأمسكه المسلمون وأبوا أن يطلقوه، وقالوا: إن هذا هو الأمير، وجاؤوا به إلى أبي عبيد فقالوا: اقتله فإنه الأمير، فقال: وإن كان الأمير، فإني لا أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين، ثم ركب أبو عبيد في آثار من انهزم منهم، وقد لجأوا إلى مدينة «كَسْكَر» التي لابن خالة كسرى واسمه: نرسي، فوازرهم نرسي على قتال أبي عبيد، فقهرهم أبو عبيد وغنم منهم شيئاً كثيراً وأطعمات كثيرة جداً، ولله الحمد، وبعث بخمس ما غنم من المال والطعام إلى عمر بن الخطاب بالمدينة.

فالتقوا بمكان بين كَسْكَر والسفاطية، وعلى ميمنة نرسي وميسرته ابنا خاله: بندويه وبيرويه ولدا نظام، وكان رستم قد جهز الجيوش مع الجالينوس، فلما بلغ أبو عبيد ذلك، اعجل نرسي بالقتال قبل وصولهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الفرس وهرب نرسي والجالينوس إلى المدائن، بعد وقعة جرت من أبي عبيد مع الجالينوس بمكان يقال له: «بَارُوسْمَا»[1]، فبعث أبو عبيد المثنى بن حارثة وسرايا أخر إلى متاخم تلك الناحية، كنهرَجُور ونحوها، ففتحها صلحاً وقهراً وضربوا الجزية والخراج، وغنموا الأموال الجزيلة ولله الحمد والمنة، وكسروا الجالينوس الذي جاء لنصرة جابان، وغنموا جيشه وأمواله، وكر هارباً إلى قومه حقيراً ذليلاً.

(١) «بارُوسْمَا» بضم الراء وسكون الواو والسين هي: ناحية من سواد بغداد.

وقعة جسر أبي عُبَيْد

لما رجع الجالينوس هارباً مما لقي من المسلمين، تذامرت الفرس بينهم، واجتمعوا إلى رستم، فأرسل جيشاً كثيفاً عليهم ذا الحاجب: «بهمس حادويه»، وأعطاه راية أفريدون، وتسمى: «درفش كابيان» وكانت الفرس تتيمن بها، وحملوا معهم راية كسرى، وكانت من جلود النمور عرضها ثمانية أذرع، فوصلوا إلى المسلمين وبينهم النهر وعليه جسر، فأرسلوا: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم، فقال المسلمون لأميرهم أبي عبيد: مُرْهُم فليعبروا هم إلينا، فقال: ما هم بأجرأ على الموت منا، ثم اقتحم إليهم، فاجتمعوا في مكان ضيق هنالك، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله، والمسلمون في نحو من عشرة آلاف، وقد جاءت الفرس معهم بأفيلة كثيرة عليها الجلاجل قائمة لتذعر خيول المسلمين، فجعلوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم من الفيلة، ومما تسمع من الجلاجل التي عليها، ولا يثبت منها إلا القليل على قسر، وإذا حمل المسلمون عليهم، لا تقدم خيولهم على الفيلة، ورشقتهم الفرس بالنبل، فنالوا منهم خلقاً كثيراً، وقتل المسلمون منهم مع ذلك ستة آلاف.

وأمر أبو عبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة أولاً، فاحتوشوها فقتلوها عن آخرها، وقد قدمت الفرس بين أيديهم فيلاً عظيماً أبيض، فتقدم إليه أبو عبيد، فضربه بالسيف فقطع ذلومه[1] فحمى الفيل، وصاح صيحة هائلة وحمل عليه، فتخبطه برجليه فقتله ووقف فوقه، فحمل على الفيل خليفة أبي عبيد، الذي كان أوصى أن يكون أميراً بعده فقتل، ثم آخر ثم آخر، حتى قتل سبعة من ثقيف، كان قد نص أبو عبيد عليهم واحداً بعد واحد، ثم صارت إلى المثنى بن حارثة بمقتضى الوصية أيضاً، وقد كانت دومة امرأة أبي عبيد، رأت مناماً يدل على ما وقع سواء بسواء.

---

(١) قوله «ذلومه» هو هكذا في المطبوعة، ولا وجه لهذه الكلمة هنا، لأنه يعني: «خُرْطُومَه» ولعلها «زَلُومَهُ» فهي أقرب إلى معنى الخرطوم، فتحقق.

فلما رأى المسلمون ذلك، وهنوا عند ذلك، ولم يكن بقي إلا الظفر بالفرس، وضعف أمرهم، وذهب ريحهم، وولوا مدبرين، وساقت الفرس خلفهم فقتلوا بشراً كثيراً، وانكشف الناس، فكان أمراً بليغاً، وجاؤا إلى الجسر فمر بعض الناس، ثم انكسر الجسر، فتحكم فيمن وراءه الفرس، فقتلوا من المسملين وغرق في الفرات نحواً من أربعة آلاف، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسار المثنى بن حارثة، فوقف عند الجسر الذي جاؤوا منه، وكان الناس لما انهزموا، جعل بعضهم يلقي بنفسه في الفرات فيغرق، فنادى المثنى: أيها الناس على هينتكم، فإني واقف على فم الجسر، لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحد ههنا، فلما عدّى الناس إلى الناحية الأخرى، سار المثنى فنزل بهم أول منزل، وقام يحرسهم هو وشجعان المسلمين، وقد جرح أكثرهم وأثخنوا، ومن الناس من ذهب في البرية لا يدري أين ذهب، ومنهم من رجع إلى المدينة النبوية مذعوراً، وذهب بالخبر عبد الله بن زيد بن عاصم المازني، إلى عمر بن الخطاب فوجده على المنبر، فقال له عمر: ما وراءك يا عبد الله بن زيد؟ فقال: أتاك الخبر اليقين يا أمير المؤمنين، ثم صعد إليه المنبر فأخبره الخبر سراً، ويقال: كان أول من قدم بخبر الناس، عبد الله بن يزيد بن الحصين الحطمي فالله أعلم.

قال سيف بن عمر: وكانت هذه الوقعة في شعبان من سنة ثلاث عشرة، بعد اليرموك بأربعين يوماً فالله أعلم.

وتراجع المسلمون بعضهم إلى بعض، وكان منهم من فر إلى المدينة فلم يؤنب عمرالناس، بل قال: أنا فيئكم، وأشغل الله المجوس بأمر ملكهم، وذلك أن أهل المدائن عَدَوْا على رستم فخلعوه، ثم ولوه وأضافوا إليه الفيرزان، واختلفوا على فرقتين، فركب الفرس إلى المدائن، ولحقهم المثنى بن حارثة في نفر من المسلمين، فعارضه أميران من أمرائهم في جيشهم، فأسرهما وأسر معهما بشراً كثيراً فضرب أعناقهم.

ثم أرسل المثنى إلى من بالعراق من أمراء المسلمين يستمدهم، فبعثوا إليه بالأمداد، وبعث إليه عمر بن الخطاب بمدد كثير، فيهم جرير بن عبد الله البَجَلي، في قومه «بَجِيلة» بكمالها، وغيره من سادات المسلمين حتى كثر جيشه.

وقعت البُوَيبِ[1] التي اقتص فيها المسلمون من الفرس

فلما سمع بذلك أمراء الفرس، وبكثرة جيوش المثنى، بعثوا إليه جيشاً آخر مع رجل يقال له: مهران، فتوافوا هم وإياهم بمكان يقال له: «البُوَيْبُ» قريب من مكان الكوفة اليوم، وبينهما الفرات، فقالوا: إما أن تعبروا إلينا، أو نعبر إليكم، فقال المسلمون: بل اعبروا إلينا، فعبرت الفرس إليهم فتواقفوا، وذلك في شهر رمضان، فعزم المثنى على المسلمين في الفطر، فأفطروا عن آخرهم ليكون أقوى لهم، وعَبَّى الجيش، وجعل يمر على كل راية من رايات الأمراء على القبائل، ويعظهم ويحثهم على الجهاد والصبر والصمت، وفي القوم جرير بن عبد الله البَجَلي في بَجيلة، وجماعة من سادات المسلمين، وقال المثنى لهم: إني مكبر ثلاث تكبيرات فتهيأوا، فإذا كبرت الرابعة فاحملوا، فقابلوا قوله بالسمع والطاعة والقبول، فلما كبر أول تكبيرة، عاجلتهم الفرس فحملوا حتى غالقوهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، ورأى المثنى في بعض صفوفه خللاً، فبعث إليهم رجلاً يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: لا تفضحوا العرب اليوم، فاعْتَدَلُوا، فلما رأى ذلك منهم ـ وهم بنو عجل ـ أعجبه وضحك، وبعث إليهم يقول: يا معشر المسلمين عاداتكم، انصروا الله ينصركم، وجعل المثنى والمسلمون يدعون الله بالظفر والنصر، فلما طالت مدة الحرب، جمع المثنى جماعة من أصحابه الأبطال يحمون ظهره، وحمل على مَهران، فأزاله عن موضعه حتى دخل الميمنة، وحمل غلام من بني تغلب نصراني، فقتل مهران وركب فرسه. كذا ذكره سيف بن عمر.

وقال محمد بن إسحاق: بل حمل عليه المنذر بن حسان بن ضرار الضبي فطعنه، واحتز رأسه جرير بن عبد الله البجلي، واختصما في سلبه، فأخذ جرير

---

(١) «البويب» تصغير «باب» هو: نهر العراق.

السلاح، وأخذ المنذر منطقته، وهربت المجوس وركب المسلمون أكتافهم يفصلونهم فصلاً، وسبق المثنى بن حارثة إلى الجسر، فوقف عليه ليمنع الفرس من الجواز عليه، ليتمكن منهم المسلمون، فركبوا أكتافهم بقية ذلك اليوم وتلك الليلة، ومن أبعد إلى الليل، فيقال: إنه قتل منهم يومئذ وغرق قريب من مائة ألف ولله الحمد والمنة، وغنم المسلمون مالاً جزيلاً وطعاماً كثيراً، وبعثوا بالبشارة والأخماس إلى عمر رضي الله عنه.

وقد قتل من سادات المسلمين في هذا اليوم بشر كثير أيضاً، وذلت لهذه الوقعة رقاب الفرس، وتمكن الصحابة من الغارات في بلادهم فيما بين الفرات ودجلة، فغنموا شيئاً عظيماً لا يمكن حصره، وجرت أمور يطول ذكرها بعد يوم البويب، وكانت هذه الواقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام.

ثم بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، سعد بن أبي وقاص الزهري أحد العشرة[1]، في ستة آلاف أميراً على العراق، وكتب إلى جرير بن عبد الله والمثنى بن حارثة، أن يكونا تبعاً له، وأن يسمعا له ويطيعا، فلما وصل إلى العراق كانا معه، وكانا قد تنازعا الإمرة، فالمثنى يقول لجرير: إنما بعثك أمير المؤمنين مدداً إلي، ويقول جرير: إنما بعثني أميراً عليك، فلما قدم سعد على أمر العراق انقطع نزاعهما.

قال ابن إسحاق: وتوفي المثنى بن حارثة في هذه السنة، كذا قال ابن إسحق، والصحيح أن بعث عمر سعداً إنما كان في أول سنة أربع عشرة.



(١) أي: العشرة المبشرين بالجنة وهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنهم.

وَقْعَةُ القَادِسيّة

استهلت السنة الرابعة عشرة من الهجرة، والخليفة عمر بن الخطاب يحث الناس ويحرضهم على جهاد أهل العراق، وذلك لما بلغه من قتل أبي عبيد يوم الجسر، وانتظام شمل الفرس، واجتماع أمرهم على يزدجرد الذي أقاموه من بيت الملك، ونقض أهل الذمة بالعراق عهودهم، ونبذهم المواثيق التي كانت عليهم، وآذوا المسلمين، وأخرجوا العمال من بين أظهرهم، وقد كتب عمر إلى من هنالك من الجيش، أن يتبرزوا من بين أظهرهم إلى أطراف البلاد.

قال ابن جرير رحمه الله: وركب عمر رضي الله عنه في أول يوم من المحرم هذه السنة، في الجيوش من المدينة، فنزل على ماء يقال له: صِرار[1]، فعسكر به عازماً على غزو العراق بنفسه، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان وسادات الصحابة.

ثم عقد مجلساً لاستشارة الصحابة فيما عزم عليه، ونودي: أن الصلاة جامعة، ثم استشارهم، فكلهم وافقوه على الذهاب إلى العراق، إلا عبد الرحمن بن عوف فإنه قال له: إني أخشى إن كسرت، أن تَضْعُفَ المسلمون في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث، رجلاً وترجع أنت إلى المدينة، فأَرفَأَ[2] عمر والناس عند ذلك، واستصوبوا رأي ابن عوف، فقال عمر: فمن ترى أن نبعث إلى العراق؟ فقال: قد وجدته، قال: ومن هو؟ قال: الأسد في براثنه، سعد بن مالك الزهري، فاستجاد قوله، وأرسل إلى سعد فأَمَّره على العراق، وأوصاه فقال: «يا سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون

(١) «صرار» بكسر الصاد المهملة، موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

(٢) «فأرفأ عمر والناس» أي: سكنوا.

بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ، منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها، حبط عملك وكنت من الخاسرين»، ولما أراد فراقه قال له: «إنك ستقدم على أمر شديد، فالصبر الصبر على ما أصابك ونابك، تُجْمَع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنما طاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وإنما عصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء، منها السِّرُّ ومنها العلانية، فأما العلانية، فأن يكون حامده وذامُّه في الحق سواء، وأما السر، فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس، ومن محبة الناس التَّحبب فلا تزهد في التحبب، فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبداً حبّبه، وإذا أبغض عبداً بَغَّضَه، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس.»

قالوا: فسار سعد نحو العراق في أربعة آلاف، ثلاثة آلاف من أهل اليمن، وألف من سائر الناس، وقيل: في ستة آلاف، وشيعهم عمر من صِرار إلى الأعوص، وقام عمر في الناس خطيباً هنالك فقال:

«إن الله إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول ليحي به القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله، من علم شيئاً فلينفع به، فإن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسر لكل باب مفتاحاً، فباب العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت، والاستعداد بتقديم الأموال، والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَلَه حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولا تصانع في ذلك أحداً، والاكتفاء بما يكفيه من الكفاف، فإن لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء، إني بينكم وبين الله، وليس بيني وبينه أحد، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فانهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها، نأخذ له الحق غير متعتع».

ثم سار سعد إلى العراق، ورجع عمر بمن معه من المسلمين إلى المدينة، ولما انتهى سعد إلى نهر زرود، ولم يبق بينه وبين أن يجتمع بالمثنى بن حارثة إلا اليسير، وكل منهما مشتاق إلى صاحبه، انتقض جرح المثنى بن حارثة الذي كان جرحه يوم الجسر، فمات رحمه الله ورضي الله عنه، واستخلف على الجيش بشير بن الخصاصية، ولما بلغ سعداً موته، ترحم عليه وتزوج زوجته سلمى، ولما وصل سعد إلى محلة الجيوش انتهت إليه رياستها وإمرتها، ولم يبق بالعراق أمير من

سادات العرب إلا تحت أمره، وأمده عمر بأمداد أخر، حتى اجتمع معه يوم القادسية ثلاثون ألفاً، وقيل: ستة وثلاثون، وقال عمر: والله لأرمين ملوك العجم بملوك العرب، وكتب إلى سعد أن يجعل الأمراء على القبائل، والعرفاء على كل عشرة عريفاً على الجيوش، وأن يواعدهم إلى القادسية، ففعل ذلك سعد، عرف العرفاء، وأمر على القبائل، وولّى على الطلائع، والمقدمات، والمجنبات، والساقات، والرجالة، والركبان، كما أمر أمير المؤمنين عمر.

قال سيف بإسناده عن مشايخه قالوا: وجعل عمر على قضاء الناس، عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النون، وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء، وجعل داعية الناس وقاصّهم سلمان الفارسي، وجعل الكاتب زياد بن أبي سفيان.

قالوا: وكان في هذا الجيش كله من الصحابة ثلثمائة وبضعة عشر صحابياً، منهم بضعة وسبعون بدرياً، وكان فيه سبعمائة من أبناء الصحابة رضي الله عنهم، وبعث عمر كتابه إلى سعد يأمره بالمبادرة إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وأن يكون بين الحجر والمدر، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس، وأن يبدروهم بالضرب والشدة، ولا يهولنك كثرة عددهم وعُدَدهم، فإنهم قوم خَدَعَة مَكَرة، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة، رجوت أن تُنصروا عليهم، ثم لم يجتمع لهم شملهم أبداً إلا أن يجتمعوا، وليست معهم قلوبهم، وإن كانت الأخرى، فارجعوا إلى ما وراءكم حتى تصلوا إلى الحجر فإنكم عليه أجرأ، وإنهم عنه أجبن وبه أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم، ويرد لكم الكرة، وأمر بمحاسبة نفسه وموعظة جيشه، وأمرهم بالنية الحسنة والصبر فإن النصر يأتي من الله على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، وسلوا الله العافية، وأكثروا من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، واكتب إليّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها، وكيف تنزلون وأين يكون منكم عدوكم، واجعلني بكتبك إلي كأني أنظر إليكم، واجعلني من أمركم على الجلية، وخف الله وارجه ولا تدل بشيء، وأعلم أن الله قد توكل لهذا الأمر بما لا خلف له، فاحذر أن يصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم.

فكتب إليه سعد، يصف له كيفية تلك المنازل والأراضي، بحيث كأنه يشاهدها، وكتب إليه يخبره بأن الفرس قد جردوا لحربه رستم وأمثاله، فهم يطلبوننا ونحن نطلبهم، وأمر الله بعد ماض، وقضاؤه مسلّم، إلى ما قدر لنا وعلينا، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية.

وكتب إليه عمر: قد جاءني كتابك وفهمته، فإذا لقيت عدوك ومنحك الله

أدبارهم، فإنه قد ألقي في رُوعي أنكم ستهزمونهم، فلا تشكنَّ في ذلك، فإذا هزمتهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله، وجعل عمر يدعو لسعد خاصة، وله وللمسلمين عامة.

ولما بلغ سعد العذيب، اعترض للمسلمين جيش للفرس مع شيرزاذ بن أراذويه، فغنموا مما معه شيئاً كثيراً، ووقع منهم موقعاً كبيراً، فخمسها سعد وقسم أربعة أخماسها في الناس، واستبشر الناس بذلك وفرحوا وتفاءلوا، وأفرد سعد سرية تكون حياطة لمن معهم من الحريم، على هذه السرية غالب بن عبد الله الليثي.

ثم سار سعد فنزل القادسية، وبث سراياه، وأقام بها شهراً لم ير أحداً من الفرس، فكتب إلى عمر بذلك، والسرايا تأتي بالميرة من كل مكان. فعجت رعايا الفرس من أطراف بلادهم إلى يزدجرد من الذين يلقون من المسلمين من النهب والسبي، وقالوا: إن لم تنجدونا، وإلا أعطينا ما بأيدينا وسلمنا إليهم الحصون، واجتمع رأي الفرس على إرسال رستم إليهم، فبعث إليه يزدجرد، فأمره على الجيش فاستعفى رستم من ذلك، وقال: إن هذا ليس برأي في الحرب، إن إرسال الجيوش بعد الجيوش، أشد على العرب من أن يكسروا جيشاً كثيفاً مرة واحدة، فأبى الملك إلا ذلك، فتجهز رستم للخروج.

ثم بعث سعد كاشفاً إلى الحيرة وإلى صلوبا، فأتاه الخبر بأن الملك قد أمر على الحرب رستم بن الفرخزاذ الأرمني، وأمده بالعساكر، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: «لا يكربنك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفَلْجاً عليهم، واكتب إلي في كل يوم».

ولما اقترب رستم بجيوشه وعسكر بساباط، كتب سعد إلى عمر يقول: إن رستم قد عسكر بساباط، وجر الخيول والفيول وزحف علينا بها، وليس شيء أهم عندي، ولا أكثر ذكراً مني لما أحببت أن أكون عليه من الاستعانة والتوكل.

وعبأ رستم، فجعل على المقدمة وهي أربعون ألفاً الجالنوس، وعلى الميمنة الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام وذلك ستون ألفاً، وعلى الساقة البندران في عشرين ألفاً، فالجيش كله ثمانون ألفاً فيما ذكره سيف وغيره، وفي رواية: كان رستم في مائة ألف وعشرين ألفاً، يتبعها ثمانون ألفاً، وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلاً، منها فيل أبيض كان لسابور، فهو أعظمها وأقدمها، وكانت الفيلة تألفه.

ثم بعث سعد جماعة من السادات منهم: النعمان بن مقرن، وفرات بن حبان، وحنظلة بن الربيع التميمي، وعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب، يدعون رستم إلى الله عز وجل، فقال لهم رستم: ما أقدمكم؟ فقالوا: جئنا لموعود الله إيانا، أخذ بلادكم وسبي نسائكم وأبنائكم وأخذ أموالكم، فنحن على يقين من ذلك، وقد رأى رستم في منامه، كأن ملكاً نزل من السماء، فختم على سلاح الفُرْس كله، ودفعه إلى رسول الله ﷺ فدفعه رسول الله ﷺ إلى عمر.

وذكر سيف بن عمر: أن رستم طاول سعداً في اللقاء، حتى كان بين خروجه من المدائن وملتقاه سعداً بالقادسية أربعة أشهر، كل ذلك لعله يضجر سعداً ومن معه ليرجعوا، ولولا أن الملك استعجله ما التقاه، لما يعلم من غلبة المسلمين لهم ونصرهم عليهم، لما رأى في منامه، ولما يتوسمه، ولما سمع منهم، ولما عنده من علم النجوم الذي يعتقد صحته في نفسه، لما له من الممارسة لهذا الفن.

ولما دنا جيش رستم من سعد، أحب سعد أن يطلع على أخبارهم على الجلية، فبعث رجلا سرية لتأتيه برجل من الفرس، وكان في السرية طليحة الأسدي، الذي كان ادعى النبوة ثم تاب، وتقدم الحارث مع أصحابه حتى رجعوا، فلما بعث سعد السرية، اخترق طليحة الجيوش والصفوف، وتخطى الألوف، وقتل جماعة من الأبطال، حتى أسر أحدهم وجاء به لا يملك من نفسه شيئاً، فسأله سعد عن القوم، فجعل يصف شجاعة طليحة، فقال: دعنا من هذا وأخبرنا عن رستم، فقال: هو في مائة ألف وعشرين ألفاً، ويتبعها مثلها، وأسلم الرجل من فوره رحمه الله.

قال سيف عن شيوخه: ولما تواجه الجيشان، بعث رستم إلى سعد، أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم، ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا، فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة، على من لم يَدِنْ بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز، فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فقال: ما أحسن هذا؟! وأيُّ شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، قال: وحسن أيضاً، وأيُّ شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم،

فهم إخوة لأب وأم، قال: وحسن أيضاً، ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم، أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة، قال: وحسن أيضاً، قال: ولما خرج المغيرة من عنده، ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام، فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه، قبحهم الله وأخزاهم وقد فعل.

قالوا: ثم بعث إليه سعد رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة، وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك، قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفْضي إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى، والظفر لمن بقي، فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، فقال: ما سَنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم، فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يَسْتَخِفُّون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثاني رجلاً، فبعث إليهم حذيفة بن محصن، فتكلم نحو ما قال ربعي، وفي اليوم الثالث المغيرة بن شعبة، فتكلم بكلام حسن طويل، قال فيه رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخولكم أرضنا، كمثل الذباب رأى العسل، فقال: من يوصلني إليه وله درهمان؟ فلما سقط عليه غرق فيه، فجعل يطلب الخلاص فلا يجده، وجعل يقول: من يخلصني وله أربعة دراهم؟ ومثلكم كمثل ثعلب ضعيف دخل جحراً في

كرم، فلما رآه صاحب الكرم ضعيفاً رحمه فتركه، فلما سمن، أفسد شيئاً كثيراً فجاء بجيشه، واستعان عليه بغلمانه، فذهب ليخرج، فلم يستطع لسمنه، فضربه حتى قتله، فهكذا تخرجون من بلادنا، ثم استشاط غضباً وأقسم بالشمس، لأقتلنكم غداً، فقال المغيرة: ستعلم، ثم قال رستم للمغيرة: قد أمرت لكم بكسوة، ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب وتنصرفون عنا، فقال المغيرة: أبعد أن أوهنا ملككم وضعفنا عزكم، ولنا مدة نحو بلادكم، ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون، وستصيرون لنا عبيداً على رغمكم؟! فلما قال ذلك استشاط غضباً.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن صفوان الثقفي، ثنا أمية بن خالد، ثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن، قال: قال أبو وائل: جاء سعد حتى نزل القادسية ومعه الناس، قال: لا أدري لعلنا لا نزيد على سبعة آلاف أو ثمانية آلاف بين ذلك، والمشركون ثلاثون ألفاً ونحو ذلك، فقالوا: لا يد لكم ولا قوة ولا سلاح، ما جاء بكم؟ ارجعوا، قال: قلنا: ما نحن براجعين، فكانوا يضحكون من نَبْلِنا ويقولون: دوك دوك، وشبهونا بالمغازل، فلما أبينا عليهم أن نرجع قالوا: ابعثوا إلينا رجلاً من عقلائكم يبين لنا ما جاء بكم، فقال المغيرة بن شعبة: أنا، فعبر إليهم، فقعد مع رستم على السرير فنخروا وصاحوا، فقال: إن هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم، فقال رستم: صدق، ما جاء بكم؟ فقال: إنا كنا قوماً في شر وضلالة، فبعث الله إلينا نبياً فهدانا الله به ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقنا حبة تنبت في هذا البلد، فلما أكلناها وأطعمناها أهلينا قالوا: لا صبر لنا عنها، أنزلنا هذه الأرض حتى نأكل من هذه الحبة، فقال رستم: إذاً نقتلكم، قال: إن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلناكم، دخلتم النار وأديتم الجزية، قال: فلما قال: وأديتم الجزية، نخروا وصاحوا وقالوا: لا صلح بيننا وبينكم، فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم؟ فقال رستم: بل نعبر إليكم، فاستأخر المسلمون حتى عبروا، فحملوا عليهم فهزموهم.

وذكر سيف: أن سعداً كان به عرق النَّسا يومئذ، وأنه خطب الناس وتلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[1] وصلى بالناس الظهر ثم كبر أربعاً، وحملوا بعد أن أمرهم أن يقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، في طردهم إياهم، وقتلهم لهم، وقعودهم لهم كل مرصد، وحصرهم لبعضهم في بعض الأماكن، حتى أكلوا الكلاب والسنانير، وما رد شاردهم حتى وصل إلى نهاوند، ولجأ أكثرهم إلى المدائن، ولحقهم المسلمون إلى أبوابها.

---

(١) الآية «١٠٥» من سورة «الأنبياء».

وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه إلى كسرى، يدعونه إلى الله قبل الوقعة، فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم، وأرديتهم على عواتقهم وسياطهم بأيديهم، والنعال في أرجلهم، وخيولهم الضعيفة، وخبطها الأرض بأرجلها، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم، مع كثرة عَددها وعُددها؟ ولما استأذنوا على الملك يزدجرد، أذن لهم وأجلسهم بين يديه، وكان متكبراً قليل الأدب، ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها؟ عن الأردية، والنعال، والسياط، ثم كلما قالوا له شيئاً من ذلك تفاءل، فرد الله فأله على رأسه، ثم قال لهم: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا، اجترأتم علينا؟ فقال له النعمان بن مقرن: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة، إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم، ففعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مكروه عليه فاغتبط، وطائع إياه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به، على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام، حَسَّنَ الحسن وقَبَّحَ القبيح كله، فإن أبيتم، فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء[1]، فإن أبيتم فالمناجزة، وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم، وإن أتيتمونا بالجِزَى[2] قَبِلْنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم، قال: فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة، كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم، فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم ومَلَّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم، فأسكت القوم، فقام المغيرة بن شعبة فقال: أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشرافَ الأشراف، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به

---

(١) «الجزاء» أي: دفع الجزية.

(٢) «الجزي» جمع «جزية» وهي: ما يؤخذ من الذمي.

أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية، كراهية أن تأكل من طعامه، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، وفي المعاد على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته خير بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو نفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد، أول ترب كان له الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصَدَّق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء وإلي يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم، فبعثت إليكم هذا الرجل، لأدلكم على السبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي، ولأحلكم داري دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا، فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه، فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تُسلم فتنجي نفسك، فقال يزدجرد: أتستقبلني بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به، فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي، وقال: ائتوني بوقر من تراب، فاحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من أبيات المدائن، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم، حتى يدفنه وجنده في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعد، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور، ثم قال: من أشرفكم؟ فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو ـ وافتاتَ ليأخذ التراب ـ: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء فحملنيه، فقال: أكذلك؟ قالوا: نعم، فحمله على عنقه، فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته، فحمله عليها ثم انجذب في السير ليأتوا سعداً، وسبقهم عاصم فمر بباب

قديس فطواه، وقال: بشروا الأمير بالظفر، ظفرنا إن شاء الله تعالى، ثم مضى حتى جعل التراب في الحجر، ثم رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر، فقال: أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم، وتفاءلوا بذلك أخذ بلادهم.

ثم لم يزل أمر الصحابة يزداد في كل يوم علواً وشرفاً ورفعة، وينحط أمر الفرس سفلاً وذلاً ووهناً، ولما رجع رستم إلى الملك يسأله عن حال من رأى من المسلمين، فذكر له عقلهم وفصاحتهم وحدة جوابهم، وأنهم يرومون أمراً يوشك أن يدركوه، وذكر ما أمر به أشرفهم من حمل التراب، وأنه استحمق أشرفهم في حمله التراب على رأسه، ولو شاء اتقى بغيره وأنا لا أشعر، فقال له رستم: إنه ليس أحمق، وليس هو بأشرفهم، إنما أراد أن يفتدي قومه بنفسه، ولكن والله ذهبوا بمفاتيح أرضنا وكان رستم منجماً، ثم أرسل رجلاً وراءهم وقال: إن أدرك التراب فرده، تداركنا أمرنا، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا، قال: فساق وراءهم فلم يدركهم، بل سبقوه إلى سعد بالتراب، وساء ذلك فارس، وغضبوا من ذلك أشد الغضب، واستهجنوا رأي الملك.

وكانت وقعة القادسية وقعة عظيمة، لم يكن بالعراق أعجب منها، وذلك أنه لما تواجه الصفان، كان سعد رضي الله عنه قد أصابه عرق النِّسا، ودمامل في جسده، فهو لا يستطيع الركوب، وإنما هو في قصر متكىء على صدره فوق وسادة، وهو ينظر إلى الجيش ويدبر أمره، وقد جعل أمر الحرب إلى خالد بن عرفطة، وجعل على الميمنة جرير بن عبد الله البَجَلي، وعلى الميسرة قيس بن مَكْشُوح، وكان قيس والمغيرة بن شعبة، قد قدما على سعد مدداً من عند أبي عبيدة من الشام، بعدما شهدا وقعة اليرموك.

وزعم ابن إسحاق: أن المسلمين كانوا ما بين سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف، وأن رستما كان في ستين ألفاً، فصلى سعد بالناس الظهر، ثم خطب الناس فوعظهم وحثهم وتلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[1] وقرأ القراء آيات الجهاد وسوره، ثم كبر سعد أربعاً، ثم حملوا بعد الرابعة، فاقتتلوا حتى كان الليل فتحاجزوا، وقد قتل من الفرقين بشر كثير، ثم أصبحوا إلى مواقفهم، فاقتتلوا يومهم ذلك وعامة ليلتهم، ثم أصبحوا كما أمسوا على مواقفهم، فاقتتلوا حتى أمسوا، ثم اقتتلوا في اليوم الثالث كذلك، وأمست

---

(١) الآية «١٠٥» من سورة «الأنبياء».

هذه الليلة تسمى ليلة الهرير، فلما أصبح اليوم الرابع، اقتتلوا قتالاً شديداً، وقد قاسوا من الفيلة بالنسبة إلى الخيول العربية، بسبب نفرتها منها، أمراً بليغاً، وقد أباد الصحابة الفيلة ومن عليها، وقلعوا عيونها، وأبلى جماعة من الشجعان في هذه الأيام مثل طليحة الأسدي، وعمرو بن معدي كرب، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله البجلي، وضرار بن الخطاب، وخالد بن عرفطة، وأشكالهم وأضرابهم، فلما كان وقت الزوال من هذا اليوم ويسمى يوم القادسية، وكان يوم الإثنين من المحرم سنة أربع عشرة، كما قاله سيف بن عمر التميمي، هبت ريح شديدة، فرفعت خيام الفرس عن أماكنها، وألقت سرير رستم الذي هو منصوب به، فبادر فركب بغلته وهرب، فأدركه المسلمون فقتلوه، وقتلوا الجالينوس مقدم الطلائع القادسية، وانهزمت الفرس ولله الحمد والمنة عن بكرة أبيهم، ولحقهم المسلمون في أقفائهم، فقتل يومئذ المُسَلْسَلُون بكمالهم وكانوا ثلاثين ألفاً، وقتل في المعركة عشرة آلاف، وقتلوا قبل ذلك قريباً من ذلك، وقتل من المسلمين في هذا اليوم وما قبله من الأيام ألفان وخمسمائة رحمهم الله، وساق المسلمون خلف المنهزمين، حتى دخلوا وراءهم مدينة الملك، وهي المدائن التي فيها الإيوان الكسروي.

وقد غنم المسلمون من وقعة القادسية هذه، من الأموال والسلاح ما لا يحد ولا يوصف كثرة، فحصلت الغنائم بعد صرف الأسلاب وخمست، وبعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد كان عمر رضي الله عنه يستخبر عن أمر القادسية كل من لقيه من الركبان، ويخرج من المدينة إلى ناحية العراق يستنشق الخبر، فبينما هو ذات يوم من الأيام، إذا هو براكب يلوح من بعد، فاستقبله عمر فاستخبره، فقال له: فتح الله على المسلمين بالقادسية، وغنموا غنائم كثيرة، وجعل يحدثه وهو لا يعرف عمر، وعمر ماش تحت راحلته، فلما اقتربا من المدينة، جعل الناس يحيون عمر بالإمارة، فعرف الرجل عمر فقال: يرحمك الله يا أمير المؤمنين، هلاً أعلمتني أنك الخليفة؟ فقال: لا حرج عليك يا أخي.

وقد تقدم أن سعداً رضي الله عنه كان به قروح وعرق النِّسا، فمنعه من شهود القتال، لكنه جالس في رأس القصر ينظر في مصالح الجيش، وكان مع ذلك لا يغلق عليه باب القصر لشجاعته، ولو فر الناس لأخذته الفرس قبضاً باليد، لا يمتنع منهم، وعنده امرأته سلمى بنت حفص، التي كانت قبله عند المثنى بن حارثة، فلما فر بعض الخيل يومئذ فزعت وقالت: وامُثَنَّيَاه ولا مثنى لي اليوم، فغضب سعد من ذلك

ولطم وجهها، فقالت: أغيرةً وجبناً؟ يعني: أنها تعيره بجلوسه في القصر يوم الحرب، وهذا عناد منها، فإنها أعلم الناس بعذره وما هو فيه من المرض المانع من ذلك، وكان عنده في القصر رجل مسجون على الشراب، كان قد حُدَّ فيه مرات متعددة، يقال: سبع مرات، فأمر به سعد فقيد وأودع في القصر، فلما رأى الخيول تجول حول حمى القصر وكان من الشجعان الأبطال قال:

كفى حَزَناً أَنْ تَدْحَمَ الخيلُ بالفتى ... وأُتركَ مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمتُ غَنَّاني الحديدُ وغُلِّقتْ ... مصاريعُ من دوني تَصُمُّ المناديا
وقدْ كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... وقدْ تركوني مفرَداً لا أخاليا

ثم سأل من «زبراء» أم ولد سعد، أن تطلقه وتعيره فرس سعد، وحلف لها أنه يرجع آخر النهار فيضع رجله في القيد، فأطلقته، وركب فرس سعد وخرج فقاتل قتالاً شديداً، وجعل سعد ينظر إلى فرسه فيعرفها وينكرها، ويشبهه بأبي محجن، ولكن يشك لظنه أنه في القصر موثق، فلما كان آخر النهار رجع فوضع رجله في قيدها، ونزل سعد فوجد فرسه يعرق فقال: ما هذا؟ فذكروا له قصة أبي محجن فرضي عنه وأطلقه رضي الله عنهما.

وقد روى محمد بن إسحق، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم البجلي ـ وكان ممن شهد القادسية ـ قال: كان معنا رجل من ثقيف، فلحق بالفرس مرتداً، فأخبرهم أن بأس الناس في الجانب الذي فيه بَجِيلة، قال: وكنا ربع الناس، قال: فوجهوا إلينا ستة عشر فيلاً، وجعلوا يلقون تحت أرجل خيولنا حسك الحديد، ويرشقوننا بالنشاب، فلكأنه المطر، وقربوا خيولهم بعضها إلى بعض لئلا ينفروا، قال: وكان عمرو بن معد يكرب الزبيدي يمر بنا فيقول: يا معشر المهاجرين، كونوا أسوداً فإنما الفارسي تيس، قال: وكان فيهم أسوار لا تكاد تسقط له نشابة، فقلنا له: يا أبا ثور اتق ذاك الفارس، فإنه لا تسقط له نشابة، فوجه إليه الفارس ورماه بنشابة فأصاب ترسه، وحمل عليه عمرو فاعتنقه فذبحه، فاستلبه سوارين من ذهب، ومنطقة من ذهب، ويلمقا من ديباج.

قال: وكان المسلمون ستة آلاف أو سبعة آلاف، فقتل الله رستماً، وكان الذي قتله رجل يقال له: هلال بن علقمة التميمي، رماه رستم بنشابة فأصاب قدمه، وحمل عليه هلال فقتله واحتز رأسه، وولت الفرس فاتبعهم المسلمون يقتلونهم، فأدركوهم في مكان قد نزلوا فيه واطمأنوا، فبينما هم سكارى قد شربوا ولعبوا، إذ هجم عليهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقتل هنالك الجالينوس، قتله زهرة بن حوية التميمي، ثم ساروا خلفهم، فكلما تواجه الفريقان نصر الله حزب الرحمن، وخذل حزب الشيطان وعبدة النيران.

واحتاز المسلمون من الأموال ما يعجز عن حصره ميزان وقبان، حتى إن منهم من يقول: من يقايض بيضاء بصفراء، لكثرة ما غنموا من الفرسان، ولم يزالوا يتبعونهم حتى جازوا الفرات وراءهم، وفتحوا المدائن وجلولاء، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

وقال سيف بن عمر، عن سليمان بن بشير، عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت: شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس، شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه ومعنا الصبيان فنوليهم ذلك ـ تعني: استلابهم ـ لئلا يكشفن عن عورات الرجال.

وقال سيف بأسانيده عن شيوخه قالوا: وكتب سعد إلى عمر يخبره بالفتح، وبعدة من قتلوا من المشركين، وبعدة من قتل من المسلمين، وبعث بالكتاب مع سعد بن عميلة الفزاري وصورته: «أما بعد: فإن الله نصرنا على أهل فارس وَمَنَحَنَاهم، سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سُلبوه ونفله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وصفوف الآجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم، كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدويِّ النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي، إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم».

فيقال: إن عمر قرأ هذه البشارة على الناس فوق المنبر، ثم قال عمر للناس: إني حريص على أن لا أرى حاجة إلا سددتها، ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا، تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولست معلمكم إلا بالعمل، إني والله لست بملك فأستعبدكم، ولكني عبد الله عُرِضَ عليَّ الأمانة، فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وَتَرْوُوا، سَعِدْتُ بكم، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتي، شقيت بكم، ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً، فبقيت لا أُقال، ولا أُرَدُّ فأُستعتب».

وقد كانت بلاد العراق بكمالها التي فتحها خالد، نقضت العهود والذمم

والمواثيق التي كانوا أعطوها خالداً[1]، سوى أهل بانِقْيَا وبَسْمَا، وأهل أُلَّيْسِ الآخرة، ثم عاد الجميع بعد هذه الوقعة التي أوردناها، وادعوا أن الفرس أجبروهم عى نقض العهود، وأخذوا منهم الخراج وغير ذلك، فصدقوهم في ذلك تألفاً لقلوبهم.

وقد ذهب ابن إسحاق وغيره، إلى أن وقعة القادسية كانت في سنة خمس عشرة، وزعم الواقدي أنها كانت في سنة ست عشرة، وأما سيف بن عمر وجماعة، فذكروها في سنة أربع عشرة، وفيها ذكرها ابن جرير فالله أعلم.



(١) وقد تقدم هذا في «فتوح العراق» من خلافة الصديق رضي الله عنه.

وقعة بَهُرَسِير[1]

قالوا[2]: ثم قَدَّم سَعْدٌ زُهْرَة بن حيوة بين يديه من كُوثَى إلى بَهُرَسِير، فمضى إلى المقدمة وقد تلقاه شيرزاذ إلى ساباط بالصلح والجزية، فبعثه إلى سعد فأمضاه، ووصل سعد بالجنود إلى مكان يقال له: «مظلم ساباط»، فوجدوا هنالك كتائب كثيرة لكسرى يسمونها بُوران، وهم يُقْسمون كل يوم: لا يزول ملك فارس ما عشنا، ومعهم أسد كبير لكسرى يقال له: «المقَرَّط»، قد أرصدوه في طريق المسلمين، فتقدم إليه ابن أخي سعد، وهو هاشم بن عتبة، فقتل الأسد والناس ينظرون، وقبل سعد يومئذ رأس هاشم، وقبل هاشم قدم سعد، وحمل هاشم على الفرس، فأزالهم عن أماكنهم، وهزمهم وهو يتلو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[3] فلما كان الليل ارتحل المسلمون ونزلوا بَهُرَسير، فجعلوا كلما وقفوا كبروا، وكذلك حتى كان آخرهم مع سعد، فأقاموا بها شهرين ودخلوا في الثالث، وفرغت السنة الخامسة عشرة.

ثم استهلت السنة السادسة عشرة وسعد بن أبي وقاص مُنَازل مدينة «بَهُرَسِير»، وهي إحدى مدينتي كسرى مما يلي دجلة من الغرب، وكان قدوم سعد إليها في ذي الحجة من سنة خمس عشرة، واستهلت هذه السنة وهو نازل عندها، وقد بعث السرايا والخيول في كل وجه، فلم يجدوا واحداً من الجند، بل جمعوا من الفلاحين مائة ألف، فحبسوا حتى كتب إلى عمر ما يفعل بهم، فكتب إليه عمر: إن من كان

---

(١) «بَهُرَسِير» بفتح الباء الموحدة أوله، بعدها هاء مضمومة، ثم راء مفتوحة،ثم سين مهملة مكسورة، وهي: إحدى المدائن السبع التي عرفت بـ «المدائن»، وفي المطبوعة «نهر شير» في جميع المواضع وهو تصحيف.

(٢) قوله: «قالوا» يعني: الرواة الذين روى عنهم سيف بن عمر هذه الرواية، ويبدو أن ابن كثير نقلها عن الطبري بالمعنى.

(٣) الآية «٤٤» من سورة «إبراهيم» عليه السلام.

من الفلاحين، لم يعن عليكم وهو مقيم ببلده فهو أمانه، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به، فأطلقهم سعد بعد ما دعاهم إلى الإسلام، فأبوا إلا الجزية، ولم يبق من غربي دجلة إلى أرض العرب أحد من الفلاحين إلا تحت الجزية والخراج، وامتنعت بَهُرَسِير من سعد أشد الامتناع، وقد بعث إليهم سعد سلمان الفارسي، فدعاهم إلى الله عز وجل أو الجزية أو المقاتلة، فأبوا إلا المقاتلة والعصيان، ونصبوا المجانيق والدبابات، وأمر سعد بعمل المجانيق، فعملت عشرون منجنيقاً، ونصبت على بَهُرَسِير، واشتد الحصار وكان أهل بَهُرَسِير يخرجون فيقاتلون قتالاً شديداً، ويحلفون أن لا يفروا أبداً، فأكذبهم الله وهزمهم زهرة بن حوية، بعدما أصابه سهم، وقتل بعد مصابه كثيراً من الفرس، وفروا بين يديه ولجأوا إلى بلدهم، فكانوا يحاصرون فيه أشد الحصار، وقد انحصر أهل البلد حتى أكلوا الكلاب والسنانير، وقد أشرف رجل منهم على المسلمين فقال: يقول لكم الملك: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم؟ لا أشبع الله بطونكم، قال[1]: فَبَدَرَ الناسَ رجل يقال له: أبو مُفَزِّر[2] الأسود بن قُطْبة، فأنطقه الله بكلام لم يدر ما قال لهم، قال: فرجع الرجل، ورأيناهم يقطعون من بَهُرَسِير إلى المدائن، فقال الناس لأبي مُفَزِّر: ما قلت لهم؟ فقال: والذي بعث محمداً بالحق، ما أدري ما قلت لهم، إلا أن علي سكينة، وأنا أرجو أن أكون قد أنطقت بالذي هو خير، وجعل الناس ينتابونه يسألونه عن ذلك، وكان فيمن سأله سعد بن أبي وقاص، وجاءه سعد إلى منزله فقال: يا أبا مُفَزِّر، ما قلت؟ فوالله إنهم لَهُرَّاب، فحلف له أنه لا يدري ما قال، فنادى سعد في الناس، ونهد بهم إلى البلد، والمجانيق تضرب في البلد، فنادى رجل من البلد بالأمان فأمناه، فقال: والله ما بالبلد أحد، فتسور الناس السور، فما وجدنا فيها أحداً إلا قد هربوا إلى المدائن، وذلك في شهر صفر من هذه السنة، فسألنا ذلك الرجل وأناساً من الأسارى فيها: لأي شيء هربوا؟ قالوا: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح، فأجابه ذلك الرجل، بأنه لا يكون بينكم وبينه صلح أبداً، حتى نأكل عسل أفريذين بأُترج كُوثَى، فقال الملك: يا ويلاه إن الملائكة لتتكلم على ألسنتهم، ترد

---

(١) القائل هنا هو: أنس بن الحُلَيْس، الذي روى عن الطبري الرواية وقد اختصرها ابن كثير كما هي عادته، ولو أنه نقل النص كما هو لكان أحسن وأنفع.

(٢) «أبو مفزر» بالفاء بعدها زاي مشددة مكسورة، آخره راء هذا صوابه، وهوفي المطبوعة «أبو مقرن» في جميع المواضع وهو تصحيف.

علينا وتجيبنا عن العرب، ثم أمر الناس بالرحيل من هناك إلى المدائن، فجازوا في السفن منها إليها وبينهما دجلة، وهي قريبة منها جداً، ولما دخل المسلمون بَهُرَسِير، لاح لهم القصر الأبيض من المدائن، وهو قصر الملك الذي ذكره رسول الله ﷺ أنه سيفتحه الله على أمته، وذلك قريب الصباح، فكان أول من رآه من المسلمين ضرار بن الخطاب، فقال: الله أكبر أبيض كسرى[1]، هذا ما وعدنا الله ورسوله، ونظر الناس إليه فتتابعوا التكبير إلى الصبح.



(١) «أبيض كسرى» أي قصر الأكاسرة بالمدائن وكان من عجائب الدنيا، ولم يزل قائماً إلى حدود عام تسعين ومائتين، ذكر هذا ياقوت الحموي في «معجم البلدان».

فتح المدائن[1]

لما فتح سعد بَهُرَسِير واستقر بها، وذلك في صفة لم يجد فيها أحداً ولا شيئاً مما يغنم، بل قد تحولوا بكمالهم إلى «المدائن»، وركبوا السفن وضموا السفن إليهم، ولم يجد سعد رضي الله عنه شيئاً من السفن، وتعذر عليه تحصيل شيء منها بالكلية، وقد زادت دجلة زيادة عظيمة واسودّ ماؤها، ورمت بالزبد من كثرة الماء بها، وأخبر سعد بأن كسرى يزدجرد، عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حُلْوَان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث، فات عليك وتفارط الأمر، فخطب سعد المسلمين على شاطىء دجلة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤا، فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم، قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم»، فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل.

فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور ويقول: من يبدأ فيحمي لنا الفراض - يعني: ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى - ليجوز الناس إليهم آمنين؟ فانتدب عاصم بن عمرو، وذَوُو البأس من الناس قريب من ستمائة، فأمّر سعد عليهم عاصم ابن عمرو، فوقفوا على حافة دجلة، فقال عاصم: من ينتدب معي، لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر، فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين - والأعاجم وقوف صفوفاً من الجانب الآخر - فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض في دجلة، فقال: أتخافون من هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[2] ثم أقحم

---

(١) «المدائن» هي: سبع من المدن منها «بهرسير»، وكان اسمها بالفارسية «توسفون»، وسمتها العرب «المدائن»، لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة، وكان كل ملك يبني لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها ويسميها باسم.

(٢) الآية «١٤٥» من سورة «آل عمران».

فرسه فيها واقتحم الناس، وقد افترق الستون فرقتين: أصحاب الخيل الذكور، وأصحاب الخيل الإناث، فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديوانا ديوانا، يقولون: مجانين مجانين، ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جناً، ثم أرسلوا فرساناً منهم في الماء، يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفرس، فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كف خيولهم حتى خرجوا من الماء، واتبعهم عاصم وأصحابه، فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب الآخر، ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر، ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة، فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر، فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب، وكانوا يسمون الكتيبة الأولى: «كتيبة الأهوال»، وأميرها عاصم بن عمرو، والكتيبة الثانية: «الكتيبة الخرساء» وأميرها القعقاع بن عمرو، وهذا كله وسعد والمسلمون، ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس، وسعد واقف على شاطىء دجلة.

ثم نزل سعد ببقية الجيش، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم اقتحم بفرسه دجلة، واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض، حتى ملؤا ما بين الجانبين، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء، كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ودعا له، فقال: «اللهم أجب دعوته، وسدد رميته»، والمقطوع به: أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم، فسددهم الله وسلمهم، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد، غير أن رجلاً واحداً يقال له: غرقدة البارقي، زل عن فرس له شقراء، فأخذ القعقاع بن عمرو بلجامها، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه، وكان من الشجعان، فقال: عجزت النساء أن يلدن مثل القعقاع بن عمرو، ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له: مالك بن عامر، كانت علاقته رثة فأخذه الموج، فدعا صاحبه الله عز وجل، وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي، فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه، وكان الفَرَسُ إذا أعيا وهو في الماء، يقيض الله له

مثل النَّشْرِ المرتفع فيقف عليه فيستريح، وحتى أن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها، وكان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً، وخطباً جليلاً، وخارقاً باهراً، ومعجزة لرسول الله ﷺ، خلقها الله لأصحابه لم يرد مثلها في تلك البلاد، ولا في بقعة من البقاع، سوى قضية العلاء بن الحضرمي التالية[1]، بل هذا أجل وأعظم، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك.

قالوا: وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات، فقال له سلمان: إن الإسلام جديد، ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده، ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً، فخرجوا منه كما قال سلمان، لم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً.

ولما استقل المسلمون على وجه الأرض، خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة، فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن، فلم يجدوا بها أحداً، بل قد أخذ كسرى أهله، وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة والحواصل، وتركوا ما عجزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع، والآنية والألطاف[2] والأدهان ما لا يدرى قيمته، وكان في خزانة كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار ـ ثلاثة مرات ـ فأخذوا من ذلك ما قدروا عليه، وتركوا ما عجزوا عنه، وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه، فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال، ثم الكتيبة الخرساء، فأخذوا في سككها لا يلقون أحداً ولا يخشونه غير القصر الأبيض، ففيه مقاتلة وهو محصن.

فلما جاء سعد بالجيش، دعا أهل القصر الأبيض ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسي، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه، وسكنه سعد واتخذ الإيوان مصلًى، وحين دخله تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾[3] ثم تقدم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح، وذكر سيف في روايته أنه صلاها بتسليمة واحدة، وأنه جمع بالإيوان في صفر من هذه السنة، فكانت أول جمعة جمعت بالعراق، وذلك لأن سعداً نوى الإقامة بها، وبعث إلى العيالات فأنزلهم دور المدائن واستوطنوها،

---

(١) ستأتي قصة العلاء بن الحضرمي هذه في «غزو بلاد فارس من ناحية البحرين».

(٢) «الألطاف» جمع «لَطَف» وهو: اليسير من الطعام وغيره.

(٣) الآيات «٢٥ ـ ٢٨» من سورة «الدخان».

حتى فتحوا جلولاء وتكريت والموصل، ثم تحولوا إلى الكوفة بعد ذلك كما سنذكره.

ثم أرسل السرايا في إثر كسرى يزدجرد، فلحق بهم طائفة فقتلوهم وشردوهم، واستلبوا منهم أموالاً عظيمة، وأكثر ما استرجعوا من ملابس كسرى وتاجه وحليه.

وشرع سعد في تحصيل ما هنالك من الأموال والحواصل والتحف، مما لا يقوم ولا يحد ولا يوصف كثرة وعظمة، وقد رُوِّينا أنه كان هناك تماثيل من جص، فنظر سعد إلى أحدها وإذا هو يشير بإصبعه إلى مكان، فقال سعد: إن هذا لم يوضع هكذا سدى، فأخذوا ما يسامت أصبعه، فوجدوا قبالتها كنزاً عظيماً من كنوز الأكاسرة الأوائل، فأخرجوا منه أموالاً عظيمة جزيلة، وحواصل باهرة، وتحفاً فاخرة، واستحوذ المسلمون على ما هنالك أجمع، مما لم ير أحد في الدنيا أعجب منه، وكان في جملة ذلك تاج كسرى، وهو مكلل بالجواهر النفيسة التي تحير الأبصار، ومنطقته كذلك وسيفه وسواره وقباؤه وبساط إيوانه، وكان مربعاً ستون ذراعاً في مثلها، من كل جانب، والبساط مثله سواء، وهو منسوج بالذهب واللآلىء والجواهر الثمينة، وفيه مصور جميع ممالك كسرى وبلاده بأنهارها وقلاعها، وأقاليمها، وكنوزها، وصفة الزروع والأشجار التي في بلاده، فكان إذا جلس على كرسي مملكته ودخل تحت تاجه، وتاجه معلق بسلاسل الذهب، لأنه كان لا يستطيع أن يقله على رأسه لثقله، بل كان يجيء فيجلس تحته ثم يدخل رأسه تحت التاج، والسلاسل الذهب تحمله عنه، وهو يستره حال لبسه، فإذا رفع الحجاب عنه خرت له الأمراء سجوداً، وعليه المنطقة والسواران والسيف والقباء المرصع بالجواهر، فينظر في البلدان واحدة واحدة، فيسأل عنها ومن فيها من النواب، وهل حدث فيها شيء من الأحداث؟ فيخبره بذلك ولاة الأمور بين يديه، ثم ينتقل إلى الأخرى، وهكذا حتى يسأل عن أحوال بلاده في كل وقت، لا يهمل أمر المملكة، وقد وضعوا هذا البساط بين يديه تذكاراً له بشأن الممالك، وهو إصلاح جيد منهم في أمر السياسة، فلما جاء قدر الله زالت تلك الأيدي عن تلك الممالك والأراضي، وتسلمها المسلمون من أيديهم قسراً، وكسروا شوكتهم عنها، وأخذوها بأمر الله صافية ضافية، ولله الحمد والمنة.

وقد جعل سعد بن أبي وقاص على الأقباض[1] عمرو بن عمرو بن مقرن، فكان أول ما حصل ما كان في القصر الأبيض ومنازل كسرى، وسائر دور المدائن،

---

(١) «الأقباض» جمع «قَبَض»وهي: الغنائم.

وما كان بالأيوان مما ذكرنا، وما يفد من السرايا الذين في صحبة زُهْرَة بن حوية، وكان فيما رد زهرة، بغل كان قد أدركه وغصبه من الفرس، وكانت تُحَوِّطه بالسيوف، فاستنقذه منهم، وقال: إن لهذا لشأناً، فرده إلى الأقباض، وإذا عليه سفطان فيهما ثياب كسرى وحليه، ولبسه الذي كان يلبسه على السرير كما ذكرنا، وبغل آخر عليه تاجه الذي ذكرنا في سفطين أيضاً، رُدًّا من الطريق مما استلبه أصحاب السرايا، وكان فيما ردت السرايا أموال عظيمة، وفيها أكثر أثاث كسرى وأمتعته، والأشياء النفيسة التي استصحبوها معهم، فلحقهم المسلمون فاستلبوها منهم، ولم تقدر الفرس على حمل البساط لثقله عليهم، ولا حمل الأموال لكثرتها، فإنه كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور، فيجدون البيت ملآن إلى أعلاه، من أواني الذهب والفضة، ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً، فيحسبونه ملحاً، وربما استعمله بعضهم في العجين فوجدوه مراً، حتى تبينوا أمره، فتحصل الفيء على أمر عظيم من الأموال، وشرع سعد فخمسه، وأمر سلمان الفارسي[1] فقسم الأربعة الأخماس بين الغانمين، فحصل لكل واحد من الفرسان اثني عشر ألفاً، وكانوا كلهم فرساناً، ومع بعضهم جنائب، واستوهب سعد أربعة أخماس البساط ولبس كسرى من المسلمين، ليبعثه إلى عمر والمسلمين بالمدينة لينظروا إليه ويتعجبوا منه، فطيبوا له ذلك وأذنوا فيه، فبعثه سعد إلى عمر مع الخمس مع بشير بن الخَصَاصِيَّة، وكان الذي بشر بالفتح قبله حليس[2] بن فلان الأسدي، فَرُوِّينا: أن عمر لما نظر إلى ذلك قال: «إن قوماً أَدَّوْا هذا لأمناء»، فقال له علي بن أبي طالب: «إنك عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت». ثم قسم عمر ذلك في المسلمين، فأصاب علياً قطعة من البساط، فباعها بعشرين ألفاً.

وقد ذكر سيف بن عمر: أن عمر بن الخطاب ألبس ثياب كسرى لخشبة ونصبها أمامه، ليرى الناس ما فيه هذه الزينة من العجب، وما عليها من زهرة الحياة الدنيا الفانية.

---

(١) قوله: «وأمر سلمان الفارسي»، هذا ما رواه الطبري عن سيف بن عمر، وذكره ابن الأثير في«الكامل».

(٢) قوله: «حليس» باللام مصغراً، هو كذلك في «الكامل» لابن الأثير وجاء في تاريخ الطبري: «خنيس» بالخاء المعجمة والنون مصغراً أيضاً، ولم يحققه محققا الكتابين المذكورين، ولا غيرهما، ولم أعثر في كتب التراجم والمعاجم التي رجعت إليها على ما يحسم هذا الأمر فتحقق فتح الله علينا وعليك.

وقد رُوِّينا: أن عمر ألبس ثياب كسرى لسراقة بن مالك بن جعشم أمير بني مدلج رضي الله عنه، فقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة» عن الحسن: أن عمر بن الخطاب أتي بفروة كسرى فوضعت بين يديه، وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم، قال: فألقى إليه سِوَاري كسرى بن هرمز، فجعلهما في يده فغلبا منكبيه، فلما رآهما في يدي سراقة قال: «الحمد لله، سِوارا كسرى بن هرمز، في يدي سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مُدْلِج؟ وذكر الحديث، هكذا ساقه البيهقي، ثم حكى عن الشافعي أنه قال: وإنما ألبسهما سراقة، لأن رسول الله ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه: «كأني بك وقد أُلبست سواري كسرى» قال الشافعي: وقد قال عمر لسراقة حين ألبسه سواري كسرى: «قل: الله أكبر» فقال: الله أكبر، ثم قال: «قل: الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن مالك، أعرابيٌّ من بني مدلج».

وقال الهيثم بن عدي: أخبرنا أسامة بن زيد الليثي، ثنا القاسم بن محمد بن أبي بكر، قال: بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر، بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسواريه وسراويله وقميصه وتاجه وخفيه، قال: فنظر عمر في وجوه القوم، وكان أجسمهم وأبدنهم قامة، سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: «يا سراق، قم فالبس»، قال سراقة: فطمعت فيه، فقمت فلبست، فقال: «أدبر»، فأدبرت، ثم قال: «أقبل»، فأقبلت، ثم قال: «بَخٍ بَخٍ، أُعَيْرابي من بني مدلج، عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه، رب يوم يا سراق بن مالك، لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى، كان شرفاً لك ولقومك، انزع»، فنزعت، فقال: «اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني، وأعطيتنيه، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي»، ثم بكى حتى رحمه من كان عنده، ثم قال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمت عليك، لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسي.

****

وقعة جَلُولاء وحُلْوَان

لما سار كسرى وهو: يزدجرد بن شهريار، من المدائن هارباً إلى حُلْوان، شرع في أثناء الطريق في جمع رجال وأعوان وجنود، من البلدان التي هناك، فاجتمع إليه خلق كثير، وجم غفير من الفرس، وأمر على الجميع مهران، وسار كسرى إلى حُلْوان، فأقام الجمع الذي جمعه بينه وبين المسلمين في جلولاء، واحتفروا خندقاً عظيماً حولها، وأقاموا بها في العَدَد والعُدَد وآلات الحصار، فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك، فكتب إليه عمر: أن يقيم هو بالمدائن، ويبعث ابن أخيه هاشم بن عتبة أميراً على الجيش الذي يبعثه إلى كسرى، ويكون على المقدمة القعقاع بن عمرو، وعلى الميمنة سِعْرُ بن مالك[1]، وعلى الميسرة أخوه عمرو بن مالك، وعلى الساقة عمرو بن مُرَّة الجهني.

ففعل سعد ذلك، وبعث مع ابن أخيه جيشاً كثيفاً يقارب اثني عشر ألفاً، من سادات المسلمين ووجوه المهاجرين والأنصار، ورؤوس العرب، وذلك في صفر من السنة السادسة عشرة، بعد فراغهم من أمر المدائن، فساروا حتى انتهوا إلى المجوس وهم بجلولاء قد خندقوا عليهم، فحاصرهم هاشم بن عتبة، وكانوا يخرجون من بلدهم للقتال في كل وقت، فيقاتلون قتالاً لم يسمع بمثله، وجعل كسرى يبعث إليهم الأمداد، وكذلك سعد يبعث المدد إلى ابن أخيه، مرة بعد أخرى، وحمي القتال، واشتد النزال، واضطرمت نار الحرب، وقام في الناس هاشم فخطبهم غير مرة، فحرضهم على القتال والتوكل على الله، وقد تعاقدت الفرس وتعاهدت، وحلفوا بالنار أن لا يفروا أبداً حتى يفنوا العرب، فلما كان الموقف الأخير وهو يوم الفيصل والفرقان، تواقفوا من أول النهار، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله، حتى فني النشاب من الطرفين، وتقصفت الرماح من هؤلاء ومن هؤلاء، وصاروا إلى السيوف والطبرزنيات، وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماء، وذهبت فرقة

(١) «سعر» بكسر السين المهملة آخره راء، هذا صوابه، وفي المطبوعة: «سعد» وهو تصحيف.

المجوس، وجاءت مكانها أخرى، فقام القعقاع بن عمرو في المسلمين فقال: أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون؟ قالوا: نعم، إنا كالّون وهم مريحون، فقال: بل إنا حاملون عليهم ومجدون في طلبهم، حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم، فحمل وحمل الناس، فأما القعقاع فإنه صمم الحملة في جماعة من الفرسان والأبطال والشجعان، حتى انتهى إلى باب الخندق، وأقبل الليل بظلامه، وجالت بقية الأبطال بمن معهم في الناس، وجعلوا يأخذون في التحاجز من أجل إقبال الليل، وفي الأبطال يومئذ طليحة الأسدي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وقيس بن مكشوح، وحجر بن عدي، ولم يعلموا بما صنعه القعقاع في ظلمة الليل، ولم يشعروا بذلك، لولا مناديه ينادي: أين أيها المسلمون، هذا أميركم على باب خندقهم، فلما سمع ذلك المجوس فروا، وحمل المسلمون نحو القعقاع بن عمرو، فإذا هو على باب الخندق قد ملكه عليهم، وهربت الفرس كل مهرب، وأخذهم المسلمون من كل وجه، وقعدوا لهم كل مرصد، فقتل منهم في ذلك الموقف مائة ألف، حتى جللوا وجه الأرض بالقتلى، فلذلك سميت: «جَلُولاء»، وغنموا من الأموال والسلاح والذهب والفضة، قريباً مما غنموا من المدائن قبلها.

وبعث هاشم بن عتبة، القعقاع بن عمرو في إثر من انهزم منهم وراء كسرى، فساق خلفهم حتى أدرك مهران منهزماً، فقتله القعقاع بن عمرو، وأفلتهم الفيرزان فاستمر منهزماً، وأسر سبايا كثيرة بعث بها إلى هاشم بن عتبة، وغنموا دواب كثيرة جداً، ثم بعث هاشم بالغنائم والأموال إلى عمه سعد بن أبي وقاص، فنفل سعد ذوي النجدة، ثم أمر بقسم ذلك على الغانمين.

قال الشعبي: كان المال المتحصل من وقعة جلولاء، نظير ما حصل له يوم المدائن ـ يعني: اثني عشر ألفاً لكل فارس ـ وقيل: أصاب كل فارس تسعة آلاف وتسع دواب، وكان الذي ولي قسم ذلك بين المسلمين وتحصيله: سلمان الفارسي رضي الله عنه.

ثم بعث سعد بالأخماس من المال والرقيق والدواب إلى عمر، مع زياد بن أبي سفيان، وقضاعى بن عمرو، وأبي مُفَزِّر الأسود، فلما قدموا على عمر سأل عمر زياد بن أبي سفيان، عن كيفية الوقعة، فذكرها له، وكان زياد فصيحاً، فأعجب إيراده لها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأحب أن يسمع المسلمون منه ذلك، فقال له: أتستطيع أن تخطب الناس بما أخبرتني به؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إنه ليس أحد على وجه الأرض أهيب عندي منك، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك؟ فقام في

الناس فقص عليهم خبر الوقعة، وكم قتلوا، وكم غنموا، بعبارة عظيمة بليغة فقال عمر: إن هذا لهو الخطيب المِصْقَع ـ يعني: الفصيح ـ فقال زياد: إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا، ثم حلف عمر بن الخطاب أن لا يَجُنَّ هذا المال الذي جاؤا به سَقْفٌ حتى يقسمه، فبات عبد الله بن أرقم، وعبد الرحمن بن عوف يحرسانه في المسجد، فلما أصبح جاء عمر في الناس، بعدما صلى الغداة وطلعت الشمس، فأمر فكشف عنه جلابيبه، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وذهبه الأصفر وفضته البيضاء، بكى عمر، فقال له عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطن شكر، فقال عمر: «والله ما ذاك يبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم»، ثم قسمه كما قسم أموال القادسية.

وروى سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا: وكان فتح جلولاء في ذي القعدة من سنة ستة عشر، وكان بينه وبين فتح المدائن تسعة أشهر، وقد تكلم ابن جرير ههنا فيما رواه عن سيف على ما يتعلق بأرض السواد وخراجها.

ولما انقضت وقعة جلولاء، أقام هشام بن عتبة بها عن أمر عمر بن الخطاب في كتابه إلى سعد، وتقدم القعقاع بن عمرو إلى «حُلْوان»، عن أمر عمر أيضاً، يكون ردءاً للمسلمين هنالك، ومرابطاً لكسرى حيث هرب، فسار كما قدمنا، وأدرك أمير الوقعة وهو مهران الرازي، فقتله وهرب منه الفيرزان، فلما وصل إلى كسرى وأخبره بما كان من أمر جلولاء، وما جرى على الفرس بعده، وكيف قتل منهم مائة ألف، وأدرك مهران فقتل، هرب عند ذلك كسرى من حلوان إلى الرّي، واستناب على حلوان أميراً يقال له: خسروشنوم، فتقدم إليه القعقاع بن عمرو، وبرز إليه خسروشنوم إلى مكان خارج من حلوان، فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً، ثم فتح الله ونصر المسلمين، وانهزم خسروشنوم، وساق القعقاع إلى حلوان فتسلمها، ودخلها المسلمون فغنموا وسبوا، وأقاموا بها، وضربوا الجزية على من حولها من الكُوَر والأقاليم، بعدما دعوا إلى الدخول في الإسلام فأبوا إلا الجزية، فلم يزل القعقاع بها حتى تحول سعد من المدائن إلى الكوفة، فسار إليها كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

فَتح تَكرِيت والمَوْصِل

لما افتتح سعد «المدائن»، بلغه أن أهل الموصل قد اجتمعوا بتكريت على رجل من الكفرة يقال له: «الأَنْطَاق»، فكتب إلى عمر بأمر جلولاء واجتماع الفرس بها، وبأمر أهل الموصل، فتقدم ما ذكرناه من كتاب عمر في أهل جلولاء، وما كان من أمرها، وكتب عمر في قضية أهل الموصل الذين قد اجتمعوا بتكريت على الأنطاق، أن يعين جيشاً لحربهم، ويؤمر عليه عبد الله بن المُعْتَمّ[1]، وأن يجعل على مقدمته ربعي بن الأَفْكَل العَنَزي، وعلى الميمنة الحارث بن حسان الذهلي، وعلى الميسرة فرات بن حَيَّان العجلي، وعلى الساقة هانىء بن قيس، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة.

ففصل عبد الله بن المُعْتَمّ في خمسة آلاف من المدائن، فسار في أربع حتى نزل بتكريت على الأنطاق، وقد اجتمع إليه جماعة من الروم، ومن الشهارجة، ومن نصارى العرب، من إياد وتغلب والنمر، وقد أحدقوا بتكريت، فحاصرهم عبد الله بن المُعْتَمّ أربعين يوماً، وزاحفوه في هذه المدة أربعة وعشرين مرة، ما من مرة إلا وينتصر عليهم ويفل جموعهم، فضعف جانبهم؛ وعزمت الروم على الذهاب في السفن بأموالهم، وراسل عبد الله بن المُعْتَمّ إلى من هنالك من الأعراب، فدعاهم إلى الدخول معه في النصرة على أهل البلد، فجاءت القُصَّاد إليه عنهم بالإجابة إلى ذلك، فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين فيما قلتم، فاشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقروا بما جاء من عند الله، فرجعت القُصَّاد إليه بأنهم قد أسلموا، فبعث إليهم: إن كنتم صادقين، فإذا كبرنا وحملنا على البلد الليلة، فأمسكوا علينا أبواب السفن، وامنعوهم أن يركبوا فيها، واقتلوا منهم من قدرتم على قتله، ثم شد عبد الله وأصحابه، وكبروا تكبيرة رجل واحد، وحملوا على البلد، فكبرت الأعراب من الناحية الأخرى، فحار أهل البلد، وأخذوا في الخروج من الأبواب التي

---

(١) «المعتم» بضم الميم وسكون العين المهملة، آخره ميم مشددة.

تلي دجلة، فتلقتهم إياد والنمر وتغلب، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وجاء عبد الله بن المُعْتَمّ بأصحابه من الأبواب الأخر، فقتل جميع أهل البلد عن بكرة أبيهم، ولم يسلم إلا من أسلم من الأعراب من إياد وتغلب والنَّمر.

وقد كان عمر عهد في كتابه، إذا نصروا على تكريت، أن يبعثوا ربعي بن الأفكل إلى الحِصْنَيْن - وهي: الموصل - سريعاً، فسار إليها كما أمر عمر، ومعه سرية كثيرة، وجماعة من الأبطال، فسار إليها حتى فجئها قبل وصول الأخبار إليها، فما كان إلا أن واقفها حتى أجابوا إلى الصلح، فضربت عليهم الذمة عن يد وهم صاغرون، ثم قسمت الأموال التي تحصلت من تكريت، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف، وسهم الراجل ألف درهم، وبعثوا بالأخماس مع فراس بن حيان، وبالفتح مع الحارث بن حسان، وولي إمرة الموصل ربعي بن الأفكل، وولي الخراج بها عَرْفَجة بن هَرْثَمة.



فتح ماسَبَذَان[1] من أرض العراق

لما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن[2]، بلغ سعداً أن آذين بن الهرمزان قد جمع طائفة من الفرس، فكتب إلى عمر في ذلك، فكتب إليه أن ابعث جيشاً وأمر عليهم ضرار بن الخطاب.

فخرج ضرار في جيش من المدائن، وعلى مقدمته ابن الهزيل الأسدي، فتقدم ابن الهزيل بين يدي الجيش، فالتقى مع آذين وأصحابه قبل وصول ضرار إليه، فكسر ابن الهزيل طائفة الفرس، وأسر آذين بن الهرمزان، وفَرَّ عنه أصحابه، وأمر ابن الهزيل فضرب عنق آذين بين يديه، وساق وراء المنهزمين حتى انتهى إلى ماسَبَذَان - وهي: مدينة كبيرة - فأخذها عنوة، وهرب أهلها في رؤوس الجبال والشعاب، فدعاهم فاستجابوا له، وضرب على من لم يسلم الجزية، وأقام نائباً عليها، حتى تحول سعد من المدائن إلى الكوفة.



(١) «ما سبذان» بثلاث فتحات، أو «ماه سَبَذَان».

(٢) قوله: «إلى المدائن» هو في المطبوعة «إلى عمر بالمدائن»، وهذا تحريف.

فتح قَرقِيسِيَا وهِيت[1]

قال ابن جرير وغيره: لما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن، وكان أهل الجزيرة قد أمدوا أهل حمص على قتال أبي عبيدة وخالد ـ لما كان هرقل بقِنَّسْرِين ـ واجتمع أهل الجزيرة في مدينة «هيت»، كتب سعد إلى عمر في ذلك، فكتب إليه أن يبعث إليهم جيشاً، وأن يؤمر عليهم عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف، فسار فيمن معه من المسلمين إلى «هِيت»، فوجدهم قد خندقوا عليهم، فحاصرهم حيناً، فلم يظفر بهم، فسار في طائفة من أصحابه واستخلف على محاصرة هيت الحارث بن يزيد، فراح عمر بن مالك إلى «قَرْقيسيا» فأخذها عنوة، وأنابوا إلى بذل الجزية، وكتب إلى نائبه على هيت: إن لم يصالحوا، أن يحفر من وراء خندقهم خندقاً، ويجعل له أبواباً من ناحيته، فلما بلغهم ذلك أنابوا إلى المصالحة.



---

(١) «قرقيسيا» بفتح القاف الأولى وكسر الثانية، بينها راء ساكنة، وبكسر السين المهملة بعدها ياء مثناة مفتوحة مسهلة هي: بلدة على نهر الخابور، بين الخابور والفرات.
و «هيت» بكسر الهاء هي: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار، وكان فتحهما في السنة السادسة عشرة للهجرة.

فتح الأهواز ومَنَاذِر ونهر تِيرَى[1]

قال ابن جرير: كان هذا الفتح في السنة السابعة عشرة، وقيل: في سنة ست عشرة، ثم رَوَى من طريق سيف عن شيوخه: أن الهرمزان كان قد تغلب على هذه الأقاليم، وكان ممن فر يوم القادسية من الفرس، فجهز أبو موسى من البصرة، وعتبة بن غزوان من الكوفة جيشين لقتاله، فنصرهم الله عليه، وأخذوا منه ما بين دجلة إلى دجيل، وغنموا من جيشه ما أرادوا، وقتلوا من أرادوا، ثم صانعهم وطلب مصالحتهم عن بقية بلاده، فشاوروا في ذلك عتبة بن غزوان فصالحه، وبعث بالأخماس والبشارة إلى عمر، وبعث وفداً فيهم الأحنف بن قيس، فأعجب عمر به وحظي عنده، وكتب إلى عتبة يوصيه به ويأمره بمشاورته والاستعانة برأيه.

ثم نقض الهرمزان العهد والصلح، واستعان بطائفة من الأكراد، وغرته نفسه، وحسن له الشيطان عمله في ذلك، فبرز إليه المسلمون، فنصروا عليه، وقتلوا من جيشه جماً غفيراً، وخلقاً كثيراً، وجمعاً عظيماً، واستلبوا منه ما بيده من الأقاليم والبلدان إلى تُسْتَر، فتحصن بها، وبعثوا إلى عمر بذلك.



(١) «مناذر» بفتح الميم والنون وبكسر الذال المعجمة، و«نهر تيرى» بكسر التاء وفتح الراء مقصوراً.

فتح تُسْتَر[1] المرة الأولى صلحاً

قال ابن جرير: كان ذلك في السنة السابعة عشرة، في قول سيف وروايته، وقال غيره: في سنة ست عشرة، وقال غيره: كانت في سنة تسع عشرة.

ثم قال ابن جرير: (ذِكْرُ الخبر عن فتحها)، ثم ساق من طريق سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا: ولما افتتح حرقوص بن زهير سوق الأهواز، وفر الهرمزان بين يديه، فبعث في إثره جَزْءَ بن معاوية ـ وذلك عن كتاب عمر بذلك ـ فما زال جزء يتبعه حتى انتهى إلى رامهرمز، فتحصن الهرمزان في بلادها، وأعجز جَزْءًا تطلبه، واستحوذ جزء على تلك البلاد والأقاليم والأراضي، فضرب الجزية على أهلها، وعمر عامرها، وشق الأنهار إلى خرابها ومواتها: فصارت في غاية العمارة والجودة، ولما رأى الهرمزان ضيق بلاده عليه لمجاورة المسلمين، طلب من جزء بن معاوية المصالحة، فكتب إلى حرقوص، فكتب حرقوص إلى عتبة بن غزوان، وكتب عتبة إلى عمر في ذلك، فجاء الكتاب العمري بالمصالحة على رامهرمز، وتُسْتَر، وجندسابور، ومدائن أخر مع ذلك، فوقع الصلح على ذلك كما أمر به عمر رضي الله عنه.



(١) «تستر» بضم التاء الأولى وفتح الثانية، وهي: أعظم مدينة بخوزستان.

غزو بلاد فارس من ناحية البحرين وفتح إِصطَخْر المرة الأولى

روى ابن جرير عن سيف بن عمر: أن العلاء بن الحضرمي كان على البحرين في أيام الصديق، فلما كان عمر عزله عنها وولاها لقدامة بن مظعون، ثم أعاد العلاء بن الحضرمي إليها، وكان العلاء بن الحضرمي يباري سعد بن أبي وقاص، فلما افتتح سعد القادسية، وأزاح كسرى عن داره، وأخذ حدود ما يلي السواد، واستعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء بن الحضرمي من ناحية البحرين، فأحب العلاء أن يفعل فعلاً في فارس نظير ما فعله سعد فيهم، فندب الناس إلى حربهم، فاستجاب له أهل بلاده، فجزأهم أجزاء، فعلى فرقة الجارود بن المعلَّى، وعلى الأخرى السوار بن هَمَّام، وعلى الأخرى خليد بن المنذر بن ساوى، وخليد بن المنذر هو أمير الجماعة، فحملهم في البحر إلى فارس، وذلك بغير إذن عمر له في ذلك، وكان عمر يكره ذلك لأن رسول الله ﷺ وأبا بكر ما أغزيا فيه المسلمين، فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا من عند إصطخر، فحالت فارس بينهم وبين سفنهم، فقام في الناس خليد بن المنذر فقال: أيها الناس، إنما أراد هؤلاء القوم بصنيعهم هذا محاربتكم، وأنتم جئتم لمحاربتهم فاستعينوا بالله وقاتلوهم، فإنما الأرض والسفن لمن غلب، واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، فأجابوه إلى ذلك، فصلوا الظهر ثم ناهدوهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً في مكان من الأرض يدعى: طاوس، ثم أمر خليد المسلمين فترجلوا وقاتلوا فصبروا، ثم ظفروا فقتلوا فارس مقتلة لم يقتلوا قبلها مثلها.

ثم خرجوا يريدون البصرة فغرقت بهم سفنهم، ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، ووجدوا شهرك في أهل إصطخر، قد أخذوا على المسلمين بالطرق، فعسكروا وامتنعوا من العدو. ولما بلغ عمر ما صنع العلاء بن الحضرمي، اشتد غضبه عليه، وبعث إليه فعزله وتوعده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه

إليه بتأمير سعد عليه، فقال: الحق بسعد بن أبي وقاص، فخرج العلاء إلى سعد بن أبي وقاص مضافاً إليه.

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان: أن العلاء بن الحضرمي خرج بجيش، فأقطعهم أهل فارس وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك، فخشيت عليهم إن لا ينصروا، أن يغلبوا ويُنْشَبوا، فاندب إليهم الناس، واضممهم إليك من قَبْل أن يُجتاحوا، فندب عتبة المسلمين، وأخبرهم بكتاب عمر إليه في ذلك، فانتدب جماعة من الأمراء الأبطال، منهم هاشم بن أبي وقاص، وعاصم بن عمرو، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، والأحنف بن قيس، وغيرهم، في اثني عشر ألفاً وعلى الجميع أبو سَبْرَة بن أبي رُهْم، فخرجوا على البغال يَجْنِبُون الخيل[1] سراعاً، فساروا على الساحل لا يلقون أحداً، حتى انتهوا إلى موضع الوقعة، التي كانت بين المسلمين من أصحاب العلاء، وبين أهل فارس بالمكان المسمى بطاوس، وإذا خليد بن المنذر ومن معه من المسلمين محصورون، قد أحاط بهم العدو من كل جانب، وقد تداعت عليهم تلك الأمم من كل وجه، وقد تكاملت أمداد المشركين، ولم يبق إلا القتال، فقدم المسلمون إليهم في أحوج ما هم فيه إليهم، فالتقوا مع المشركين رأساً، فكسر أبو سَبْرَة المشركين كسرة عظيمة، وقتل منهم مقتلة عظيمة جداً، وأخذ منهم أموالاً جزيلة باهرة، واستنقذ خليداً ومن معه من المسلمين من أيديهم، وأعز به الإسلام وأهله، ودفع الشرك وذله ولله الحمد والمنة، ثم عادوا إلى عتبة بن غزوان إلى البصرة.

ولما استكمل عتبة فتح تلك الناحية، واستأذن عمر في الحج، فأذن له فسار إلى الحج، واستخلف على البصرة أبا سبرة بن أبي رُهْم، واجتمع بعمر في الموسم، وسأله أن يقيله فلم يفعل، وأقسم عليه ليرجعن إلى عمله، فدعا عتبة الله عز وجل، فمات ببطن نخلة، وهو منصرف من الحج، فتأثر عليه عمر وأثنى عليه خيراً، وولّى بعده بالبصرة المغيرة بن شعبة، فوليها بقية تلك السنة والتي تليها، ولم يقع في زمانه حدث، وكان مرزوق السلامة في عمله، ثم وقع الكلام في تلك المرأة من أبي بكرة فكان من أمره ما سيأتي[2]، ثم بعث إليها أبا موسى الأشعري والياً عليها رضي الله عنه.

---

(١) «يجنبون الخيل» أي: يقودونها إلى جنبهم غير راكبيها.

(٢) سيأتي هذا في «حوادث السنين» في «الفصل الخامس» من هذا القسم بعونه تعالى.

فتح تُستَر ثانية، والسُّوس[1] وأسر الهرمزان

قال ابن جرير: كان ذلك في السنة السابعة عشرة، في رواية سيف بن عمر التميمي، وكان سبب ذلك: أن يزدجرد كان يحرض أهل فارس في كل وقت، ويؤنبهم بملك العرب بلادهم، وقصدهم إياهم في حصونهم، فكتب إلى أهل الأهواز وأهل فارس، فتحركوا وتعاهدوا وتعاقدوا على حرب المسلمين، وأن يقصدوا البصرة، وبلغ الخبر إلى عمر، فكتب إلى سعد وهو بالكوفة: أن ابعث جيشاً كثيفاً إلى الأهواز مع النعمان بن مقرن وعَجِّل، وليكونوا بإزاء الهرمزان، وسمى رجالاً من الشجعان الأعيان الأمراء يكونون في هذا الجيش، منهم: جرير بن عبد الله البَجَلي، وجرير بن عبد الله الحميري، والنعمان بن مقرن، وسويد بن مقرن، وعبد الله بن ذي السهمين.

وكتب عمر إلى أبي موسى وهو بالبصرة: أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً، وأمر عليهم سهيل بن عدي، وليكن معه البراء بن مالك، وعاصم بن عمرو، ومجزأة بن ثور، وكعب بن ثور، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، وعبد الرحمن بن سهل، والحصين بن معبد، وليكن على أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً: أبو سَبْرة بن أبي رُهْم، وعلى كل من أتاه من المدد.

قالوا[2]: فسار النعمان بن مقرن بجيش الكوفة، فسبق البصريين فانتهى إلى رامهرمز وبها الهرمزان، فخرج إليه الهرمزان في جنده، ونقض العهد بينه وبين

---

(١) «السوس» بضم السين الأولى وسكون الواو، آخره سين أخرى وهي: بلدة بخوزستان، وفي المطبوعة «السويس» وهو تحريف.

(٢) قوله: «قالوا» أي: الرواة الذين يروي عنهم سيف بن عمر هذه الأخبار، ولكن ابن كثير يروي ذلك ملخصاً ولا ينقل نص الطبري عن سيف.

المسلمين، فبادره طمعاً أن يقتطعه قبل مجيء أصحابه من أهل البصرة، رجاء أن ينصر أهل فارس، فالتقى معه النعمان بن مقرن بأَرْبُكَ، فاقتتلا قتالاً شديداً، فهزم الهرمزان وفر إلى تستر، وترك رامهرمز فتسلمها النعمان عنوة، وأخذ ما فيها من الحواصل والذخائر والسلاح والعدد.

فلما وصل الخبر إلى أهل البصرة، بما صنع الكوفيون بالهرمزان، وأنه فر فلجأ إلى تستر، ساروا إليها ولحقهم أهل الكوفة، حتى أحاطوا بها فحاصروها جميعاً، وعلى الجميع أبو سبرة، فوجدوا الهرمزان قد حشد بها خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً، وكتبوا إلى عمر في ذلك وسألوه أن يمدهم، فكتب إلى أبي موسى أن يسير إليهم، فسار إليهم ـ وكان أمير أهل البصرة ـ واستمر أبو سبرة على الإمرة على جميع أهل الكوفة والبصرة، فحاصرهم أشهراً وكثر القتل من الفريقين، وقَتَلَ البراء بن مالك أخو أنس بن مالك يومئذ مائة مبارز، سوى من قتل غير ذلك، وكذلك فعل كعب بن ثور، ومجزأة بن ثور، وأبو تميمة وغيرهم من أهل البصرة، وكذلك أهل الكوفة، قتل منهم جماعة مائة مبارزة كحبيب بن قرة، وربعي بن عامر، وعامر بن عبد الأسود وقد تزاحفوا أياماً متعددة، حتى إذا كان في آخر زحف، قال المسلمون للبراء بن مالك ـ وكان مجاب الدعوة ـ: يا براء، أقسم على ربك ليهزمنهم لنا، فقال: اللهم اهزمهم لنا، واستشهدني، قال: فهزمهم المسلمون حتى أدخلوهم خنادقهم واقتحموها عليهم، ولجأ المشركون إلى البلد فتحصنوا به، وقد ضاقت بهم البلد، وطلب رجل من أهل البلد الأمان من أبي موسى فأمنه، فبعث يدل المسلمين على مكان يدخلون منه إلى البلد، وهو من مدخل الماء إليها، فندب الأمراء الناس إلى ذلك، فانتدب رجال من الشجعان والأبطال، وجاؤا فدخلوا مع الماء ـ كالبط ـ إلى البلد، وذلك في الليل، فيقال: كان أو من دخلها عبد الله بن مغفل المزني، وجاؤا إلى البوابين فأناموهم وفتحوا الأبواب، وكبر المسلمون فدخلوا البلد، وذلك في وقت الفجر إلى أن تعالى النهار، ولم يصلوا الصبح يومئذ إلا بعد طلوع الشمس، كما حكاه البخاري عن أنس بن مالك قال: «شهدت فتح تُسْتَر، وذلك عند صلاة الفجر، فاشتغل الناس بالفتح، فما صلوا الصبح إلا بعد طلوع الشمس، فما أحب أن لي بتلك الصلاة حُمْرَ النَّعَم»، احتج بذلك البخاري لمكحول والأوزاعي، في ذهابهما إلى جواز تأخير الصلاة لعذر القتال، وجنح إليه البخاري، واستدل بقصة الخندق في قوله عليه السلام: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً»، وبقوله يوم بني قريظة: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فأخرها فريق من

الناس إلى بعد غروب الشمس، ولم يعنفهم، وقد تكلمنا على ذلك في «غزوة الفتح»[1].

والمقصود: أن الهرمزان لما فتحت البلد، لجأ إلى القلعة، فتبعه جماعة من الأبطال ممن ذكرنا وغيرهم، فلما حصروه في مكان من القلعة، ولم يبق إلا تلافه أو تلافهم، قال لهم بعد ما قتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور رحمهما الله: إن معي جعبة فيها مائة سهم، وإنه لا يتقدم إليَّ أحد منكم إلا رميته بسهم قتلته، ولا يسقط لي سهم إلا في رجل منكم، فماذا ينفعكم إن أسرتموني، بعدما قتلت منكم مائة رجل؟ قالوا: فماذا تريد؟ قال: تؤمنوني حتى أسلمكم يدي، فتذهبوا بي إلى عمر بن الخطاب، فيحكم فيَّ بما يشاء، فأجابوه إلى ذلك، فألقى قوسه ونشابه، وأسروه فشدوه وثاقاً، وأرصدوه ليبعثوه إلى أمير المؤمنين عمر، ثم تسلموا ما في البلد من الأموال والحواصل، فاقتسموا أربعة أخماسه، فنال كل فارس ثلاثة آلاف، وكل راجل ألف درهم.

ثم ركب أبو سبرة في طائفة من الجيش، ومعه أبو موسى الأشعري والنعمان بن مقرن، واستصحبوا معهم الهرمزان، وساروا في طلب المنهزمين من الفرس، حتى نزلوا على السُّوس، فأحاطوا بها، وكتب أبو سبرة إلى عمر، فجاء الكتاب بأن يرجع أبو موسى إلى البصرة، وأمر عمر زر بن عبد الله بن كليب الفُقيمي ـ وهو صحابي ـ أن يسير إلى «جُنْدَيْسَابور»، فسار.

ثم بعث أبو سبرة بالخمس وبالهرمزان، مع وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، فلما اقتربوا من المدينة، هيَّأوا الهرمزان بلبسه الذي كان يلبسه من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلىء، ثم دخلوا المدينة وهو كذلك، فتيمموا به منزل أمير المؤمنين، فسألوا عنه فقالوا: إنه جلس في المسجد لوفد من الكوفة، فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنساً له كان قد لبسه للوفد، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره، والدِّرَّة معلقة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا؟ وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: أين حجابه؟ أين حرسه؟ فقالوا: ليس له حجاب ولا حرس،

---

(١) قوله: «غزوة الفتح» ليس المراد «فتح مكة» ولا «فتح خيبر»، بل يريد «غزوة بني قريظة» وقد سبق ذكرها في «المغازي النبوية» في الجزء الثالث، ولست أدري لماذا سماها ابن كثير «غزوة الفتح».

ولا كاتب ولا ديوان، فقال: ينبغي أن يكون نبياً، فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء، وكثر الناس، فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالساً، ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم، فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال: أعوذ بالله من النار، وأستعين بالله، ثم قال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غَدَّارة، فقال له الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه، فقال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء، ففعلوا ذلك وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال عمر: يا هرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر: إنا وإياكم في الجاهلية، كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم، إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا، فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا، ثم قال: ما عُذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك، قال: لا تخف ذلك، فاستسقى الهرمزان ماء، فأتي به في قدح غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في هذا، فأتي به في قدح آخر يرضاه، فلما أخذه جعلت يده ترعد، وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه، فقال عمر: أعيدوه عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأنس به، فقال له عمر: إني قاتلك، فقال: إنك أمنتني، قال: كذبت، فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ويحك يا أنس، أنا أؤمن من قتل مجزأة والبراء؟ لتأتيني بمخرج وإلا عاقبتك، قال: قلت: لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت: لا بأس عليك حتى تشربه، وقال له من حوله مثل ذلك، فأقبل على الهرمزان فقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا أن تُسْلم، فأسلم، ففرض له في ألفين وأنزله المدينة.

وفي رواية: أن الترجمان بين عمر وبين الهرمزان كان المغيرة بن شعبة، فقال له عمر: قل له: من أي أرض أنت؟ قال: مهرجاني، قال: تكلم بحجتك، فقال: أكلام حي أم ميت؟ قال: بل كلام حي، فقال: قد أمنتني، فقال: خدعتني، ولا أقبل ذلك إلا أن تسلم، فأسلم ففرض له في ألفين وأنزله المدينة، ثم جاء زيد فترجم بينهما أيضاً.

والمقصود: أن عمر كان يحجر على المسلمين أن يتوسعوا في بلاد العجم، خوفاً عليهم من العجم، حتى أشار عليه الأحنف بن قيس، بأن المصلحة تقتضي توسعهم في الفتوحات، فإن الملك يزدجرد لا يزال يستحثهم على قتال المسلمين، وإن لم يستأصل شأو العجم، وإلا طمعوا في الإسلام وأهله، فاستحسن عمر ذلك

منه وصوبه، وأذن للمسملين في التوسع في بلاد العجم، ففتحوا بسبب ذلك شيئاً كثيراً، ولله الحمد، وأكثر ذلك وقع في سنة ثماني عشرة كما سيأتي بيانه فيها.

ثم نعود إلى فتح السُّوس وجُنْدَيْسابور، وفتح نهاوند في قول سيف:

كان قد تقدم: أن أبا سَبْرة سار بمن معه من علية الأمراء، من تُسْتَر إلى السُّوس، فنازلها حيناً، وقتل من الفريقين خلق كثير، ثم دخل المسلمون البلد، فقتلوا من وجدوا حتى نادوا بالأمان ودعوا إلى الصلح، فأجابوهم إلى ذلك، وكان على السوس شهريار أخو الهرمزان، فاستحوذ المسلمون على السوس، وهو بلد قديم العمارة في الأرض، يقال: إنه أول بلد وضع على وجه الأرض والله أعلم.

وذكر ابن جرير: أنهم وجدوا قبر دانيال بالسُّوس، وأن أبا موسى لما قدم بها بعد مضي أبي سبرة إلى جُنْدَيْسَابور، كتب إلى عمر في أمره، فكتب إليه أن يدفنه، وأن يغيب عن الناس موضع قبره، ففعل.

قال ابن جرير: وقال بعضهم: إن فتح السوس ورامهز، وتسيير الهرمزان من تستر إلى عمر، في سنة عشرين والله أعلم.



وقعة نَهَاوَنْد[1] أو: فَتْحُ الفتوح

قال ابن جرير: وكان الكتاب العمري قد ورد، بأن النعمان بن مقرن يذهب إلى أهل نهاوند، فسار إليها فمر بماه ـ بلدة كبيرة قبلها ـ فافتتحها، ثم ذهب إلى نهاوند ففتحها ولله الحمد.

قلت: المشهور أن فتح نهاوند، إنما وقع في سنة إحدى وعشرين، كما سيأتي بيان ذلك، وهي وقعة عظيمة وفتح كبير، وخبر غريب ونبأ عجيب، وفتح زر بن عبد الله الفقيمي مدينة جُنْدَيْ سَابور، فاستوثقت تلك البلاد للمسلمين.

هذا: وقد تحول يزدجرد من بلد إلى بلد، حتى انتهى أمره إلى الإقامة بأصبهان، وقد كان صرف طائفة من أشراف أصحابه قريباً من ثلثمائة من العظماء عليهم رجل يقال له: سياه، فكانوا يفرون من المسلمين من بلد إلى بلد، حتى فتح المسلمون تستر وإصطخر، فقال سياه لأصحابه: إن هؤلاء بعد الشقاء والذلة، ملكوا أماكن الملوك الأقدمين، ولا يلقون جنداً إلا كسروه، والله ما هذا عن باطل، ودخل في قلبه الإسلام وعظمته، فقالوا له: نحن تبع لك، وبعث عمار بن ياسر في غضون ذلك يدعوهم إلى الله، فأرسلوا إلى أبي موسى الأشعري بإسلامهم، وكتب فيهم إلى عمر في ذلك، فأمره أن يفرض لهم في ألفين ألفين، وفرض لستة منهم في ألفين وخمسمائة، وحسن إسلامهم، وكان لهم نكاية عظيمة في قتال قومهم، حتى بلغ من أمرهم أنهم حاصروا حصناً فامتنع عليهم، فجاء أحدهم فرمى بنفسه في الليل على باب الحصن، وضمخ ثيابه بدم، فلما نظروا إليه حسبوا أنه منهم، ففتحوا له باب الحصن ليؤووه، فثار إلى البواب فقتله، وجاء بقية أصحابه ففتحوا ذلك الحصن، وقتلوا من فيه من المجوس، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) «نهاوند» بفتح النون الأولى وتكسر، وفتح الواو.

قال ابن إسحاق والواقدي: كانت وقعة نهاوند في سنة إحدى وعشرين، وقال سيف: كانت في سنة سبع عشرة، وقيل: في سنة تسع عشرة والله أعلم.

وإنما ساق أبو جعفر بن جرير قصتها في هذه السنة، فتبعناه في ذلك، وجمعنا كلام هؤلاء الأئمة في هذا الشأن سياقاً واحداً، حتى دخل سياق بعضهم في بعض، قال سيف وغيره:

وكان الذي هاج هذه الوقعة، أن المسلمين لما افتتحوا الأهواز، ومنعوا جيش العلاء من أيديهم، واستولوا على دار الملك القديم من إصطخر، مع ما حازوا من دار مملكتهم حديثاً، وهي المدائن، وأخذ تلك المدائن والأقاليم والكور والبلدان الكثيرة، فحموا عند ذلك، واستجاشهم يزدجرد الذي تقهقر من بلد إلى بلد، حتى صار إلى أصبهان مبعداً طريداً، لكنه في أسرة من قومه وأهله وماله، وكتب إلى ناحية نهاوند وما والاها من الجبال والبلدان، فتجمعوا وتراسلوا حتى كمل لهم من الجنود ما لم يجتمع لهم قبل ذلك، فبعث سعد إلى عمر يعلمه بذلك، وثار أهل الكوفة على سعد في غضون هذا الحال، فشكوه في كل شيء حتى قالوا: لا يحسن يصلِّي، وكان الذي نهض بهذه الشكوى رجل يقال له: الجراح بن سنان الأسدي في نفر معه، فلما ذهبوا إلى عمر فشكوه، قال لهم عمر: «إن الدليل على ما عندكم من الشر، نهوضكم في هذا الحال عليه، وهو مستعد لقتال أعداء الله، وقد جمعوا لكم، ومع هذا لا يمنعني أن أنظر في أمركم»، ثم بعث محمد بن مسلمة ـ وكان رسول العمال ـ فلما قدم محمد بن مسلمة الكوفة، طاف على القبائل والعشائر والمساجد بالكوفة، فكل يثني على سعد خيراً إلا ناحية الجراح بن سنان، فإنهم سكتوا فلم يذموا ولم يشكروا، حتى انتهى إلى بني عبس، فقام رجل يقال له: أبو سعدة أسامة بن قتادة، فقال: أما إذ ناشدتنا، فإن سعداً لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية، فدعا عليه سعد فقال: اللهم إن كان قالها كذباً ورياء وسمعة، فأَعْمِ بصره، وكَثِّر عياله، وعَرِّضه لمضلاَّت الفتن، فعمي واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فلا يزال حتى يأتيها فيجسها، فإذا عثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك، ثم دعا سعد على الجراح وأصحابه، فكل أصابته فارعة في جسده، ومصيبة في ماله بعد ذلك.

واستنفر محمد بن مسلمة أهل الكوفة، لغزو أهل نهاوند في غضون ذلك، عن أمر عمر بن الخطاب، ثم سار سعد ومحمد بن مسلمة والجراح وأصحابه حتى جاءوا عمر، فسأله عمر: كيف يصلي؟ فأخبره سعد أنه يطول في الأوليين ويخفف

في الأخريين، وما آلو ما اقتديتُ به من صلاة رسول الله ﷺ، فقال له عمر: ذاك الظن بك يا أبا إسحق.

وقال سعد في هذه القصة: لقد أسلمت خامس خمسة، وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله، وقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحد قبلي[1]، ثم أصبحت بنو أسد يقولون: لا يحسن يصلّي، لقد خبت إذاً وضَلَّ عملي.

ثم قال عمر لسعد: من استخلفت على الكوفة؟ فقال: عبد الله بن عبد الله بن عِتْبَان، فأقره عمر على نيابته الكوفة ـ وكان شيخاً كبيراً من أشراف الصحابة، خليفاً لبني الحبلى من الأنصار ـ واستمر سعد معزولاً من غير عجز ولا خيانة، ويهدد أولئك النفر، وكاد يوقع بهم بأساً، ثم ترك ذلك خوفاً من أن لا يشكو أحد أميراً.

والمقصود: أن أهل فارس اجتمعوا من كل فج عميق بأرض نهاوند، حتى اجتمع منهم مائة ألف وخمسون ألف مقاتل، وعليهم الفيرزان، ويقال: بندار، ويقال: ذو الحاجب، وتذامروا فيما بينهم، وقالوا: إن محمداً الذي جاء العرب، لم يتعرض لبلادنا، ولا أبو بكر الذي قام بعده، تعرض لنا في دار ملكنا، وإن عمر بن الخطاب هذا، لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا في عقر دارنا، وأخذ بيت المملكة، وليس بمنته حتى يخرجكم من بلادكم، فتعاهدوا وتعاقدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة، ثم يشغلوا عمر عن بلاده، وتواثقوا من أنفسهم وكتبوا بذلك عليهم كتاباً.

فلما كتب سعد بذلك إلى عمر، وكان قد عزل سعداً في غضون ذلك، شافه سعد عمر بما تمالؤا عليه وقصدوا إليه، وأنه قد اجتمع منهم مائة وخمسون ألفاً، وجاء كتاب عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان من الكوفة إلى عمر، مع قريب بن ظَفَرٍ العبدي، بأنهم قد اجتمعوا وهم متذامرون على الإسلام وأهله، وأن المصلحة يا أمير المؤمنين، أن نقصدهم فنعاجلهم عما هموا به وعزموا عليه من المسير إلى بلادنا، فقال عمر لحامل الكتاب: ما اسمك؟ قال: قريب، قال: ابن من؟ قال: ابن ظَفَر، فتفاءل عمر بذلك وقال: ظفر قريب، ثم أمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وكان أول من دخل المسجد لذلك سعد بن أبي وقاص، فتفاءل عمر أيضاً بسعد، فصعد عمر المنبر حتى اجتمع الناس فقال: «إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر، فاسمعوا وأجيبوا وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا

---

(١) أي: قال لسعد: «فداك أبي وأمي» وذلك يوم أحد حين قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «أرم فداك أبي وأمي» رواه الشيخان وأحمد وغيرهم.

وتذهب ريحكم، إني قد رأيت أن أسير بمن قبلي، حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين، فأستنفر الناس، ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم»، فقام عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، في رجال من أهل الرأي، فتكلم كل منهم بانفراده فأحسن وأجاد، واتفق رأيهم على أن لا يسير من المدينة، ولكن يبعث البعوث ويحصرهم برأيه ودعائه، وكان من كلام علي رضي الله عنه أن قال: «يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، هو دينه الذي أظهر، وجنده الذي أعز، وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكانك منهم يا أمير المؤمنين، مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه، فإذا انحل تفرق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام، فأقم مكانك، واكتب إلى أهل الكوفة، فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، فليذهب منهم الثلثان وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة يمدونهم أيضاً».

وكان عثمان قد أشار في كلامه، أن يمدهم في جيوش من أهل اليمن والشام، ووافق عمر على الذهاب إلى ما بين البصرة والكوفة، فرد عليٌّ على عثمان، في موافقته على الذهاب إلى ما بين البصرة والكوفة كما تقدم، ورد رأي عثمان، فيما أشار به من استمداد أهل الشام، خوفاً على بلادهم إذا قل جيوشها من الروم، ومن أهل اليمن خوفاً على بلادهم من الحبشة، فأعجب عمر قول علي وسُرَّ به، وكان عمر إذا استشار أحداً، لا يبرم أمراً حتى يشاور العباس، فلما أعجبه كلام الصحابة في هذا المقام، عرضه على العباس فقال: يا أمير المؤمنين خفض عليك، فإنما اجتمع هؤلاء الفرس لنقمة تنزل عليهم، ثم قال عمر: أشيروا علي بمن أوليه أمر الحرب وليكن عراقياً، فقالوا: أنت أبصر بجندك يا أمير المؤمنين، فقال: أما والله لأولين رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً، قالوا: من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن، فقالوا: هو لها، وكان النعمان قد كتب إلى عمر وهو على كَسْكَر، وسأله أن يعزله عنها ويوليه قتال أهل نهاوند، فلهذا أجابه إلى ذلك وعينه له، ثم كتب عمر إلى حذيفة أن يسير من الكوفة بجنود منها، وكتب إلى أبي موسى أن يسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان ـ وكان بالبصرة ـ أن يسير بمن هناك من الجنود إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكل أمير على جيشه، والأمير على الناس كلهم: النعمان بن مقرن، فإذا قتل فحذيفة بن اليمان، فإن قتل فجرير بن عبد الله، فإن قتل فقيس بن مكشوح، فإن قتل قيس ففلان ثم فلان، حتى عد سبعة أحدهم المغيرة بن شعبة، وقيل: لم يسم فيهم والله أعلم.

وصورة الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرن سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة، قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا، فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وَعْراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فَتُكَفِّرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك، فسر في وجهك ذلك حتى تأتي ماه، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك، فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا وأكثروا من: لا حول ولا قوة إلا بالله».

وكتب عمر إلى نائب الكوفة: عبد الله بن عبد الله، أن يعين جيشاً ويبعثهم إلى نهاوند، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان، حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن، فإن قتل النعمان فحذيفة، فإن قتل فنعيم بن مقرن، وولى السائب بن الأقرع قسم الغنائم، فسار حذيفة في جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماه[1]، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق، وقد أرصد في كل كورة ما يكفيها من المقاتلة، وجعل الحرس في كل ناحية، واحتاطوا احتياطاً عظيماً، ثم انتهوا إلى النعمان بن مقرن حيث اتعدوا، فدفع حذيفة بن اليمان إلى النعمان كتاب عمر، وفيه الأمر له بما يعتمده في هذه الوقعة، فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً من المقاتلة، فيما رواه سيف عن الشعبي، فمنهم من سادات الصحابة ورؤس العرب خلق كثير وجم غفير، منهم: عبد الله بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد الله البجلي، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزُّبَيْدى، وطليحة بن خويلد الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي.

فسار الناس نحو نهاوند، وبعث النعمان بن مقرن الأمير بين يديه طليعة ثلاثة: وهم طليحة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وعمرو بن أبي سلمة ويقال له: عمرو بن ثبي أيضاً، ليكشفوا له خبر القوم وما هم عليه، فسارت الطليعة يوماً وليلة فرجع عمرو بن ثبي فقيل له: ما رجعك؟ فقال: كنت في أرض العجم، وقتلَتْ أرض جاهلها، وقَتَلَ أرضاً عالمها، ثم رجع بعده عمرو بن معدي كرب وقال: لم نر أحداً، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق، ونفذ طليحة ولم يحفل برجوعهما، فسار

(١) قوله: «بماه»، «ماه» هو: اسم القمر بالفارسية، ويطلق على قصبة البلد، والمراد هنا «ماه دينار» وهي: مدينة نهاوند.

بعد ذلك نحواً من بضعة عشر فرسخاً حتى انتهى إلى نهاوند، ودخل في العجم، وعلم من أخبارهم ما أحب، ثم رجع إلى النعمان فأخبره بذلك، وأنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه، فسار النعمان على تعبئته وعلى المقدمة نعيم بن مقرن، وعلى المجنبتين حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، حتى انتهوا إلى الفرس وعليهم الفيرزان، ومعه من الجيش كل من غاب عن القادسية في تلك الأيام المتقدمة، وهو في مائة وخمسين ألفاً، فلما تراءى الجمعان كبر النعمان وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات، فزلزلت الأعاجم ورعبوا من ذلك رعباً شديداً، ثم أمر النعمان بحط الأثقال وهو واقف، فحط الناس أثقالهم، وتركوا رحالهم، وضربوا خيامهم وقبابهم، وضربت خيمة للنعمان عظيمة، وكان الذين ضربوا أربعة عشر من أشراف الجيش، وهم: حذيفة بن اليمان، وعتبة بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخَصَاصِيَّة، وحنظلة الكاتب بن الربيع، وابن الهَوْبر، وربعي بن عامر، وعامر بن مطر، وجرير بن عبد الله الحميري، وجرير بن عبد الله البجلي، والأقرع بن عبد الله الحميري، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهَمْدَاني، ووائل بن حُجْر، فلم ير بالعراق خيمة عظيمة أعظم من بناء هذه الخيمة.

وحين حطوا الأثقال أمر النعمان بالقتال وكان يوم الأربعاء، فاقتتلوا ذلك اليوم والذي بعده والحرب سجال، فلما كان يوم الجمعة انحجزوا في حصنهم، وحاصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله، والأعاجم يخرجون إذا أرادوا، ويرجعون إلى حصونهم إذا أرادوا، وقد بعث أمير الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ليكلمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبة، فذكر من عظم ما رأى عليه من لبسه ومجلسه، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب واستهانته بهم، وأنهم كانوا أطول الناس جوعاً، وأقلهم داراً وقدراً، وقال: ما يمنع هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا مَجّاً من جيفكم، فإن تذهبوا نُخَلِّ عنكم، وإن تأبوا تزركم مصارعكم، قال: فتشهدت وحمدت الله وقلت: لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت، حتى بعث الله رسوله إلينا، وقد جئناكم في بلادكم، وإنا لن نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً، حتى نغلبكم على بلادكم وما في أيديكم، أو نقتل بأرضكم، فقال: أما والله إن الأعور لقد صدقكم ما في نفسه.

فلما طال على المسلمين هذا الحال واستمر، جمع النعمان بن مقرن أهل الرأي من الجيش، وتشاوروا في ذلك، وكيف يكون من أمرهم، حتى يتواجهوا هم والمشركون في صعيد واحد، فتكلم عمرو بن أبي سلمة أولاً ـ وهو أسن من كان

هناك ـ فقال: إن بقاءهم على ما هم عليه، أضر عليهم من الذي يطلبه منهم وأبقى على المسلمين، فرد الجميع عليه وقالوا: إنا لعلى يقين من إظهار ديننا، وإنجاز موعود الله لنا، وتكلم عمرو بن معدي كرب فقال: ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم؛ فردوا جميعاً عليه وقالوا: إنما تناطح بنا الجدران، والجدران أعوان لهم علينا، وتكلم طليحة الأسدي فقال: إنهما لم يصيبا، وإني أرى أن تبعث سرية، فتحدق بهم ويناوشوهم بالقتال ويحمشوهم، فإذا برزوا إليهم، فليفروا إلينا هراباً، فإذا استطردوا وراءهم وانتموا إلينا، عزمنا أيضاً على الفرار كلنا، فإنهم حينئذ لا يشكون في الهزيمة، فيخرجون من حصونهم عن بكرة أبيهم، فإذا تكامل خروجهم، رجعنا إليهم فجالدناهم حتى يقضي الله بيننا، فاستجاد الناس هذا الرأي، وأمر النعمان على المجردة القعقاع بن عمرو، وأمرهم أن يذهبوا إلى البلد فيحاصروهم وحدهم، ويهربوا بين أيديهم إذا برزوا إليهم، ففعل القعقاع ذلك، فلما برزوا من حصونهم نكص القعقاع بمن معه، ثم نكص، ثم نكص، فاغتنمها الأعاجم، ففعلوا ما ظن طليحة، وقالوا: هي هي، فخرجوا بأجمعهم ولم يبق بالبلد من المقاتلة إلا من يحفظ لهم الأبواب، حتى انتهوا إلى الجيش، والنعمان بن مقرن على تعبئته، وذلك في صدر نهار جمعة، فعزم الناس على مصادمتهم، فنهاهم النعمان، وأمرهم أن لا يقاتلوا حتى تزول الشمس، وتهب الأرواح، وينزل النصر كما كان رسول الله ﷺ يفعل، وألح الناس على النعمان في الحملة، فلم يفعل ـ وكان رجلاً ثابتاً ـ فلما حان الزوال صلى بالمسلمين، ثم ركب بِرْذَوناً له أحوى[1] قريباً من الأرض، فجعل يقف على كل راية، ويحثهم على الصبر ويأمرهم بالثبات، ويقدم إلى المسلمين: أنه يكبر الأولى فيتأهب الناس للحملة، ويكبر الثانية فلا يبقى لأحد أهبة، ثم الثالثة ومعها الحملة الصادقة، ثم رجع إلى موقفه.

وتَعَبَّت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفاً هائلة، في عدد وعُدد لم ير مثله، وقد تغلغل كثير منهم بعضهم في بعض، وألقوا حسك الحديد وراء ظهورهم، حتى لا يمكنهم الهرب ولا الفرار، ولا التحيز، ثم إن النعمان بن مقرن رضي الله عنه كبر الأولى وهز الراية، فتأهب الناس للحملة، ثم كبر الثانية وهز الراية فتأهبوا أيضاً، ثم كبر الثالثة وحمل وحمل الناس على المشركين، وجعلت راية النعمان تنقض على الفرس كانقضاض العقاب على الفريسة، حتى تصافحوا بالسيوف، فاقتتلوا قتالاً لم

---

(١) قوله: «برذونا له أحوى» أي: أسود، والبرذون بكسر الباء الموحدة وفتح الذال المعجمة: نوع من الخيل من نتاج غير العراب.

يعهد مثله في موقف من المواقف المتقدمة، ولا سمع السامعون بوقعة مثلها، قتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبق وجه الأرض دماً، بحيث إن الدواب كانت تطبع فيه، حتى قيل: إن الأمير النعمان بن مقرن زلق به حصانه في ذلك الدم فوقع، وجاءه سهم في خاصرته فقتله، ولم يشعر به أحد سوى أخيه سويد، وقيل: نعيم، وقيل: غطاه بثوبه وأخفى موته، ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان، فأقام حذيفة أخاه نعيماً مكانه، وأمر بكتم موته حتى ينفصل الحال لئلا ينهزم الناس، فلما أظلم الليل انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون، وكان الكفار قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل، وحفروا حولهم خندقاً، فلما انهزموا وقعوا في الخندق، وفي تلك الأودية نحو مائة ألف، وجعلوا يتساقطون في أودية بلادهم، فهلك منهم بشر كثير نحو مائة ألف أو يزيدون، سوى من قتل في المعركة، ولم يفلت منهم إلا الشريد.

وكان الفيرزان أميرهم قد صرع في المعركة، فانفلت وانهزم واتبعه نعيم بن مقرن، وقدم القعقاع بين يديه وقصد الفيرزان هَمَذَان[1]، فلحقه القعقاع وأدركه عند ثنية هَمَذَان، وقد أقبل منها بغال كثير وحُمُر تحمل عسلاً، فلم يستطع الفيرزان صعودها منهم، وذلك لحينه، فترجل وتعلق في الجبل فاتبعه القعقاع حتى قتله، وقال المسلمون يومئذ: إن لله جنوداً من عسل، ثم غنموا ذلك العسل وما خالطه من الأحمال، وسميت تلك الثنية: ثنية العسل.

ثم لحق القعقاع بقية المنهزمين منهم إلى هَمَذَان، وحاصرهم وحوى ما حولها، فنزل إليه صاحبها ـ وهو: خُسْرَوْشُنُوم ـ فصالحه عليها، ثم رجع القعقاع إلى حذيفة ومن معه من المسلمين، وقد دخلوا بعد الوقعة نهاوند عنوة، وقد جمعوا الأسلاب والمغانم إلى صاحب الأقباض وهو السائب بن الأقرع. ولما سمع أهل ماه بخبر أهل هَمَذَان، بعثوا إلى حذيفة وأخذوا لهم منه الأمان، وجاء رجل يقال له: الهرند ـ وهو صاحب نارهم ـ فسأل من حذيفة الأمان ويدفع إليهم وديعة عنده لكسرى، ادخرها لنوائب الزمان، فأمنه حذيفة، وجاء ذلك الرجل بسَفَطَين مملوءتين جوهراً ثميناً لا يُقَوَّم، غير أن المسلمين لم يعبأوا به، واتفق رأيهم على بعثه لعمر خاصة، وأرسلوه صحبة الأخماس والسبي، صحبة السائب بن الأقرع، وأرسل قبله بالفتح مع طريف بن سهم، ثم قسم حذيفة بقية الغنيمة في الغانمين، ورضخ ونفل

---

(١) «همذان» بثلاث فتحات، وذال معجمة، هذا صوابه، وفي المطبوعة بالدال المهملة في جميع المواضع وهو تصحيف.

لذوي النجدات، وقسم لمن كان قد أرصد من الجيوش، لحفظ ظهور المسلمين من ورائهم، ومن كان ردءاً لهم، ومنسوباً إليهم.

وأما أمير المؤمنين، فإنه كان يدعو الله ليلاً ونهاراً لهم، دعاء الحوامل المقربات، وابتهال ذوي الضرورات، وقد استبطأ الخبر عنهم، ثم قدم طريف بالفتح بعد ذلك بأيام، وليس معه سوى الفتح، فسأله عمن قتل النعمان، فلم يكن معه علم حتى قدم الذين معهم الأخماس، فأخبروا بالأمر على جليته، ولما أخبر عمر بمقتل النعمان بكى، وسأل السائب عمن قتل من المسلمين فقال: فلان وفلان وفلان، لأعيان الناس وأشرافهم، ثم قال: وآخرون من أفناد الناس، ممن لا يعرفهم أمير المؤمنين، فجعل يبكي ويقول: «وما ضرهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين؟ لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر». ثم أمر بقسمة الخمس على عادته.

قال الشعبي: وحصل للفارس من أصل الغنيمة ستة آلاف، وللراجل ألفان، وكان المسلمون ثلاثين ألفاً، وقال: وافتتحت نهاوند في أول سنة تسع عشرة لسبع سنين من إمارة عمر، رواه سيف عن عمرو بن محمد عنه، وبه عن الشعبي قال: لما قدم سبي نهاوند إلى المدينة، جعل أبو لؤلؤة، فيروز غلام المغيرة بن شعبة، لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كبدي - وكان أصل أبي لؤلؤة من نهاوند، فأسرته الروم أيام فارس، وأسرته المسلمون بعد، فنسب إلى حيث سبي - قالوا: ولم تقم للأعاجم بعد هذه الوقعة قائمة، وأتحف عمر الذين أبلوا فيها بألفين، تشريفاً لهم وإظهاراً لشأنهم.



فتح أَصْبَهان وقُمّ وغيرهما

وفي هذه السنة أي: سنة إحدى وعشرين، افتتح المسلمون أيضاً بعد نهاوند مدينة جَيّ ـ وهي مدينة أصبهان ـ بعد قتال كثير وأمور طويلة، فصالحوا المسلمين وكتب لهم عبد الله بن عبد الله كتاب أمان وصلح، وفر منهم ثلاثون نفراً إلى كرمان لم يصالحوا المسلمين.

وقيل: إن الذي فتح أصبهان هو النعمان بن مقرن، وأنه قتل بها، ووقع أمير المجوس وهو ذو الحاجبين عن فرسه، فانشق بطنه ومات وانهزم أصحابه.

والصحيح: أن الذي فتح أصبهان عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان، الذي كان نائب الكوفة.

وفي هذه السنة: افتتح أبو موسى قُمّ وقاشان، وافتتح سهيل بن عدي مدينة كرمان.



فتح هَمَذَان[1]

كانت في سنة ثنتين وعشرين للهجرة، فتوحات كثيرة، منها: فتح هَمَذَان ثانية ثم الري وما بعدها، ثم أذربيجان.

قال الواقدي وأبو معشر: كان فتح أذربيجان في سنة ثنتين وعشرين، وقال سيف: كانت في سنة ثماني عشرة بعد فتح هَمَذَان والرَّي وجُرْجَان، وأبو معشر يقول: بأن أذربيجان كانت بعد هذه البلدان، ولكن عنده أن الجميع كان في هذه السنة، وعند الواقدي أن فتح همذان والرَّي في سنة ثلاث وعشرين، فهمذان افتتحها المغيرة بعد مقتل عمر بستة أشهر، قال: ويقال: كان فتح الرَّي قبل وفاة عمر بسنتين، إلا أن الواقدي وأبا معشر، متفقان على أن أذربيجان في هذه السنة، وتبعهما ابن جرير وغيره.

وكان السبب في ذلك: أن المسلمين لما فرغوا من نهاوند وما وقع من الحرب المتقدم، فتحوا حلوان وهمذان بعد ذلك، ثم إن أهل همذان نقضوا عهدهم الذي صالحهم عليه القعقاع بن عمرو، فكتب عمر إلى نعيم بن مقرن أن يسير إلى همذان، وأن يجعل على مقدمته أخاه سويد بن مقرن، وعلى مجنبتيه ربعي بن عامر الطائي، ومهلهل بن زيد التميمي، فسار حتى نزل على ثنية العسل، ثم تحدر على همذان، واستولى على بلادها، وحاصرها فسألوه الصلح، فصالحهم ودخلها، فبينما هو فيها ومعه اثنا عشر ألفاً من المسلمين، إذ تكاتف الروم والديلم وأهل الري وأهل أذربيجان، واجتمعوا على حرب نعيم بن مقرن في جمع كثير، فعلى الديلم ملكهم واسمه موتا، وعلى أهل الري أبو الفَرُّخان، وعلى أذربيجان إِسْفَنْدَيَاذ أخو رستم، فخرج إليهم بمن معه من المسلمين حتى التقوا بمكان يقال له: «واج الرُّوذ»، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند ولم تك دونها، فقتلوا من المشركين

---

(١) «همذان» بثلاث فتحات، وبالذال المعجمة هي: إحدى مدن فارس، أما «همدان» بالدال المهملة قبلها ميم ساكنة، فهي قبيلة غربية وليست المرادة هنا.

جمعاً كثيراً، وجماً غفيراً لا يحصون كثرة، وقتل ملك الديلم موتا وتمزق شملهم، وانهزموا بأجمعهم، بعد من قتل بالمعركة منهم، فكان نعيم بن مقرن أول من قاتل الديلم من المسلمين.

وقد كان نعيم كتب إلى عمر يعلمه باجتماعهم، فهمه ذلك واغتم له، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر بالكتاب فقرىء على الناس، ففرحوا وحمدوا الله عز وجل، ثم قدم عليه بالأخماس ثلاثة من الأمراء وهم: سِمَاك بن خَرَشَة، ويعرف بأبي دجانة، وسماك بن عبيد، وسماك بن مخرمة، فلما استسماهم عمر قال: اللهم اسْمِكْ بهم الإسلام، وأمد بهم الإسلام، ثم كتب إلى نعيم بن مقرن بأن يستخلف على همذان ويسير إلى الرَّي فامتثل نعيم.



فتح الرَّيِّ

استخلف نُعَيم بن مقرن على هَمَذَان، يزيد بن قيس الهَمْدَاني وسار بالجيوش حتى لحق بالرَّي، فلقي هناك جمعاً كثيراً من المشركين، فاقتتلوا عند سفح جبل الرَّي، فصبروا صبراً عظيماً، ثم انهزموا فقتل منهم النعمان بن مقرن مقتلة عظيمة، بحيث عُدُّوا بالقَصَب فيها، وغنموا منهم غنيمة عظيمة قريباً مما غنم المسلمون من المدائن، وصالحه الزينيُّ أبو الفَرُّخان على الرَّي، وكتب له أماناً بذلك وولاه مَرْزُباناً عليهم، ثم كتب نعيم إلى عمر بالفتح، ثم بالأخماس، ولله الحمد والمنة.



فتح قُومِسَ

ولما ورد البشير بفتح الرَّي وأخماسها، كتب عمر إلى نعيم بن مقرن، أن يبعث أخاه سويد بن مقرن إلى قُومِسَ، فسار إليها سويد، فلم يقم له شيء حتى أخذها سلماً وعسكر بها، وكتب لأهلها كتاب أمان وصلح.



فتح جُرجان وغيرها

لما عسكر سويد بقومس بعث إليه أهل بلدان شتى منها جرجان وطبرستان وغيرها يسألونه الصلح على الجزية، فصالح الجميع وكتب لأهل كل بلدة كتاب أمان وصلح، وحكى المدائني أن جرجان فتحت في سنة ثلاثين أيام عثمان فالله أعلم.



فتح أَذَرْبيجان[1]

لما افتتح نعيم بن مقرن هَمَذَان ثم الرَّي، وكان قد بعث بين يديه بكير بن عبد الله من همذان إلى أذربيجان، وأردفه بسماك بن خَرَشَة، فلقي إِسْفَنْدَياذ بن الفَرُّخْزَاذ، بُكيراً وأصحابه، قبل أن يقدم عليهم سماك، فاقتتلوا فهزم الله المشركين، وأسر بكير إِسْفَنْدَيَاذ، فقال له إِسْفَنْدَيَاذ: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ فقال: بل الصلح، قال: فأمسكني عندك، فأمسكه ثم جعل يفتح بلداً بلداً، وعتبة بن فرقد أيضاً يفتح معه بلداً بلداً، في مقابلته من الجانب الآخر، ثم جاء كتاب عمر بأن يتقد بكير إلى الباب، وجعل سماك موضعه نائباً لعتبة بن فرقد، وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد، وسلم إليه بكيرٌ إِسْفَنْدَياذ، وسار كما أمره عمر إلى الباب.

قالوا: وقد كان اعترض بهرام بن فَرُّخْزَاذ لعتبة بن فرقد، فهزمه عتبة وهرب بهرام، فلما بلغ ذلك إسفندياذ وهو في الأسر عند بكير قال: الآن تم الصلح وطفئت الحرب، فصالحه فأجاب إلى ذلك كلهم، وعادت أذربيجان سلماً، وكتب بذلك عتبة وبكير إلى عمر، وبعثوا بالأخماس إليه، وكتب عتبة حين انتهت إمرة أذربيجان لأهلها كتاب أمان وصلح.



(١) لقد اختصر ابن كثير «فتح «أذربيجان» اختصاراً غير حسن، وكذا في كثير من المواضع، ولو أنه نقل عن ابن جرير نصه لكان أحسن وأوضح.

فتح الباب أو: باب الأبواب

روى ابن جرير عن سيف: أنه في السنة الثانية والعشرين، كتب عمر بن الخطاب كتاباً بالإمرة على هذه الغزوة لسراقة بن عمرو ـ الملقب بذي النور ـ وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة، ويقال له: ذو النور أيضاً، وجعل على إحدى المجنبتين حذيفة بن أسيد، وعلى الأخرى بكير بن عبد الله الليثي، وكان قد تقدمهم إلى الباب، وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة، فساروا كما أمرهم عمر، وعلى تعبئته، فلما انتهى مقدم العساكر ـ وهو عبد الرحمن بن ربيعة ـ إلى الملك الذي هناك عند الباب، وهو: شهربراز ملك أرمينية، وهو من بيت الملك الذي قتل بني إسرائيل، وغزا الشام في قديم الزمان، فكتب شهربراز لعبد الرحمن واستأمنه، فأمنه عبد الرحمن بن ربيعة، فقدم عليه الملك، فأنهى إليه أنّ صَغْوَه[1] إلى المسلمين، وأنه مناصح للمسلمين، فقال له: إن فوقي رجلاً فاذهب إليه، فبعثه إلى سراقة بن عمرو أمير الجيش، فسأل من سراقة الأمان، فكتب إلى عمر، فأجاز ما أعطاه من الأمان، واستحسنه، فكتب له سراقة كتاباً بذلك.

ثم بعث سراقة بكيراً، وحبيب بن مسلمة، وحذيفة بن أسيد، وسلمان بن ربيعة، إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية جبال اللاَّن وتَفْليس ومُوقان، فافتتح بكير مُوقان، وكتب لهم كتاب أمان، ومات في غضون ذلك أمير المسلمين هنالك، وهو سراقة بن عمرو، واستخلف بعده عبد الرحمن بن ربيعة، فلما بلغ عمر ذلك أقره على ذلك وأمره بغزو الترك.

* * *

(١) «صَغْوَه» بالغين المعجمة، أي: ميله.

أَوَّلُ غزو التُّرك[1]

وهو تصديق الحديث المتقدم الثابت في الصحيح، عن أبي هريرة وعمرو بن تغلب: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً عراض الوجوه، ذُلف[2] الأنوف، حمر الوجوه، كأن وجوههم المجانُ المُطْرَقَة».

لما جاء كتاب عمر إلى عبد الرحمن بن ربيعة يأمره بأن يغزو الترك، سار حتى قطع الباب قاصداً لما أمره عمر، فقال له شهربراز أين تريد؟ قال: أريد ملك الترك بلنجر، فقال له شهربراز: إنا لنرضى منهم بالموادعة، ونحن من وراء الباب، فقال له عبد الرحمن: إن الله بعث إلينا رسولاً، ووعدنا على لسانه بالنصر والظفر، ونحن لا نزال منصورين، فقاتل الترك وسار في بلاد بلنجر مائتي فرسخ، وغزا مرات متعددة، ثم إنه غزاهم غزوات في زمن عثمان فظفر بهم، كما كان يظفر بغيرهم، فلما ولي عثمان على الكوفة بعض من كان ارتد، غزاهم فتذامرت الترك وقال بعضهم لبعض: إنهم لا يموتون، قال: انظروا وفعلوا فاختفوا لهم في الغياض، فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين على غرة، فقتله وهرب عنه أصحابه، فخرجوا على المسلمين بعد ذلك حتى عرفوا أن المسلمين يموتون، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ونادى مناد من الجو: صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة، فقاتل عبد الرحمن حتى قتل، وانكشف الناس وأخذ الراية سلمان بن ربيعة فقاتل بها، ونادى المنادي من الجو: صبراً آل سلمان بن ربيعة، فقاتل قتالاً شديداً، ثم تحيز سلمان وأبو هريرة بالمسلمين، وفروا من كثرة الترك ورميهم الشديد السديد على جيلان، فقطعوها إلى جرجان، واجترأت الترك بعدها، ومع هذا أخذت الترك عبد الرحمن بن ربيعة فدفنوه في بلادهم.

---

(١) ليس المراد بالترك «الأتراك» المعروفون اليوم في «جمهورية تركيا»، بل يشمل جميع بلاد تركستان في آسيا الوسطى كلها.

(٢) قوله ﷺ: «ذلف» بضم الذال المعجمة أي: صغار الأنوف.

فتح خراسان مع الأحنف بن قيس

وذلك أن الأحنف بن قيس، هو الذي أشار على عمر بأن يتوسع المسلمون بالفتوحات في بلاد العجم، ويضيقوا على كسرى يزدجرد، فإنه هو الذي يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين، فأذن عمر بن الخطاب في ذلك عن رأيه، وأمّر الأحنف، وأمره بغزو بلاد خراسان، فركب الأحنف في جيش كثيف إلى خراسان، قاصداً حرب يزدجرد، فدخل خراسان فافتتح هَرَاة عَنْوة، واستخلف عليها صُحَار بن فلان العبدي، ثم سار إلى مرو الشّاهجان وفيها يزدجرد، وبعث الأحنف بين يديه مطرف بن عبد الله بن الشِّخير إلى نيسابور، والحارث بن حسان إلى سَرْخَس، ولما اقترب الأحنف من مرو الشاهجان، ترحل منها يزدجرد إلى مروالرُّوذ، فافتتح الأحنف مرو الشاهجان فنزلها، وكتب يزدجرد حين نزل مَرْوَالرُّوذ إلى خاقان ملك الترك يستمده، وكتب إلى ملك الصُّغْدِ[1] يستمده، وكتب إلى ملك الصين يستعينه، وقصده الأحنف بن قيس إلى مروالروذ وقد استخلف على مرو الشاهجان حارثة بن النعمان، وقد وفدت إلى الأحنف أمدد من أهل الكوفة مع أربعة أمراء، فلما بلغ مسيره إلى يزدجرد ترحل إلى بَلْخ، فالتقى معه ببلخ يزدجرد فهزمه الله عز وجل، وهرب هو ومن بقي معه من جيشه فعبر النهر، واستوثق ملك خراسان على يدي الأحنف بن قيس، واستخلف في كل بلدة أميراً، ورجع الأحنف فنزل مروالرُّوذ، وكتب إلى عمر بما فتح الله عليه من بلاد خراسان بكمالها، فقال عمر: وددت أنه كان بيننا وبين خراسان بحر من نار، فقال له علي: ولم يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن أهلها سينقضون عهدهم ثلاث مرات فيجتاحون في الثالثة، فقال: يا أمير المؤمنين لأن يكون ذلك بأهلها، أحب إلي من يكون ذلك بالمسلمين، وكتب عمر إلى الأحنف ينهاه عن العبور إلى ما رواء النهر، وقال: احفظ ما بيدك من بلاد خراسان.

---

(١) «الصغد» بضم الصاد المهملة وسكون الغين المعجمة هي: قصبة سمرقند، وتسمى قصبة بخارى: صغداً.

ولما وصل رسول يزدجرد إلى اللذين استنجد بهما لم يحتفلا بأمره، فلما عبر يزدجرد النهر ودخل في بلادهما، تعين عليهما إنجاده في شرع الملوك، فسار معه خاقان الأعظم ملك الترك، ورجع يزدجرد بجنود عظيمة، فيهم ملك التتار خاقان، فوصل إلى بلخ واسترجعها، وفر عمال الأحنف إليه إلى مَرْوالرُّوذ، وخرج المشركون من بلخ حتى نزلوا على الأحنف بمروالروذ، فتبرز الأحنف بمن معه من أهل البصرة وأهل الكوفة، والجميع عشرون ألفاً، فسمع رجلاً يقول لآخر: إن كان الأمير ذا رأي، فإنه يقف دون هذا الجبل فيجعله وراء ظهره، ويبقى هذا النهر خندقاً حوله، فلا يأتيه العدو إلا من جهة واحدة، فلما أصبح الأحنف أمر المسلمين، فوقفوا في ذلك الموقف بعينه، وكان أمارة النصر والرشد، وجاء الأتراك والفرس في جمع عظيم هائل مزعج، فقام الأحنف في الناس خطيباً فقال: إنكم قليل وعدوكم كثير، فلا يهولنكم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1] فكانت الترك يقاتلون بالنهار، ولا يدري الأحنف أين يذهبون في الليل، فسار ليلة مع طليعة من أصحابه نحو جيش خاقان، فلما كان قريب الصبح، خرج فارس من الترك طليعة وعليه طوق، وضرب بطبله فتقدم إليه الأحنف، فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز.

إنَّ على كلِّ رئيسٍ حقّاً أن يَخْضِبَ الصَّعْدَةَ[2] أو تَنْدَقَّا

إنَّ لها شيخاً بها مُلَقَّى سَيْفَ أبي حفصٍ الذي تَبَقَّى

قال: ثم استلب التركي طوقه ووقف موضعه، فخرج آخر ومعه طبل فجعل يضرب بطبله، فتقدم إليه الأحنف فقتله أيضاً، واستلبه طوقه ووقف موضعه، فخرج ثالث فقتله وأخذ طوقه، ثم أسرع الأحنف الرجوع إلى جيشه، ولا يعلم بذلك أحد من الترك بكلية، وكان من عادتهم أنهم لا يخرجون حتى تخرج ثلاثة من كهولهم بين أيديهم يضرب الأول بطبله، ثم الثاني ثم الثالث، ثم يخرجون بعد الثالث؛ فلما خرجت الترك ليلتئذ بعد الثالث، فأتوا على فرسانهم مقتلين، تشاءم بذلك الملك خاقان وتطير، وقال لعسكره: قد طال مقامنا، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم نصب بمثله، مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا، فرجعوا إلى بلادهم، وانتظرهم المسلمون يومهم ذلك ليخرجوا إليهم من شعبهم، فلم يروا أحداً منهم، ثم بلغهم انصرافهم إلى بَلْخ راجعين عنهم، وقد كان يزدجرد ـ وخاقان في مقابلة الأحنف بن قيس ومقاتلته ـ ذهب إلى مرو الشاهجان فحاصرها وحارثة بن النعمان

(١) الآية «٢٤٩» من سورة «البقرة».

(٢) «الصعدة» آلة أصغر من الحربة.

بها، واستخرج منها خزانته التي كان دفنها بها، ثم رجع وانتظره خاقان ببلخ حتى رجع إليه.

وقد قال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتباعهم؟ فقال: أقيموا بمكانكم ودعوهم، وقد أصاب الأحنف في ذلك، فقد جاء في الحديث: «اتركوا الترك ما تركوكم» ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[1].

ورجع كسرى خاسراً الصفقة، لم يشف له غليل، ولا حصل على خير، ولا انتصر كما كان في زعمه، بل تخلى عنه من كان يرجو النصر منه، وتنحى عنه وتبرأ منه أحوج ما كان إليه، وبقى مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[2] وتحير في أمره ماذا يصنع؟ وإلى أين يذهب؟ وقد أشار عليه بعض أولي النهى من قومه حين قال: قد عزمت أن أذهب إلى بلاد الصين، أو أكون مع خاقان في بلاده فقالوا: إنا نرى أن نصانع هؤلاء القوم، فإن لهم ذمة وديناً يرجعون إليه، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورونا، فهم خير لنا من غيرهم، فأبى عليهم كسرى ذلك، ثم بعث إلى ملك الصين يستغيث به ويستنجده، فجعل ملك الصين يسأل الرسول، عن صفة هؤلاء القوم الذين قد فتحوا البلاد وقهروا رقاب العباد، فجعل يخبره عن صفتهم، وكيف يركبون الخيل والإبل، وماذا يصنعون؟ وكيف يصلون؟ فكتب معه إلى يزدجرد: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم، لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو جئت لنصرك أزالوني ما داموا على ما وصف لي رسولك، فسالمهم وارض منهم بالمسالمة، فأقام كسرى وآل كسرى في بعض البلاد مقهورين، ولم يزل ذلك دأبه حتى قتل بعد سنتين من إمارة عثمان كما سنورده في موضعه.

ولما بعث الأحنف بكتاب الفتح، وما أفاء الله عليهم من أموال الترك ومن كان معهم، وأنهم قتلوا منهم مع ذلك مقتلة عظيمة، ثم ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، فقام عمر على المنبر، وقرىء الكتاب بين يديه، ثم قال عمر: «إن الله بعث محمداً بالهدى، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة،

---

(١) الآية «٢٥» من سورة «الأحزاب».

(٢) الآية «٨٨» من سورة «النساء».

فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1] فالحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر جنده، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، فقوموا في أمره على وجل، يوف لكم بعهده، ويؤتكم وعده، ولا تغيروا يستبدل قوماً غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم».



(١) الآية «٣٣» من سورة «التوبة».

فتح إِصطَخر ثانية

قال الواقدي وأبو معشر: كان فتح إِصْطَخْر وهَمَذَان سنة ثلاث وعشرين[1]، وقال سيف: كان فتحها بعد فتح تَوَّج الآخرة، ثم ذكر أن الذي افتتح تَوّج مجاشع بن مسعود، بعد ما قتل من الفرس مقتلة عظيمة وغنم منهم غنائم جمَّة، ثم ضرب الجزية على أهلها، وعقد لهم الذمة، ثم بعث بالفتح وخمس الغنائم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم ذكر: أن عثمان بن أبي العاص افتتح جُور بعد قتال شديد كان عندها، ثم افتتح المسلمون إصطخر ـ وهذه المرة الثانية ـ وكان أهلها قد نقضوا العهد، بعد ما كان جند العلاء بن الحضرمي افتتحوها حين جاز في البحر ـ من أرض البحرين ـ والتقوا هم والفرس في مكان يقال له: طاوس، كما تقدم بسط ذلك في[2] موضعه.

ثم صالحه الهِرْبِذُ على الجزية، وأن يضرب لهم الذمة، ثم بعث بالأخماس والبشارة إلى عمر، قال ابن جرير: وكانت الرسل لها جوائز، وتقضى لهم حوائج، كما كان رسول الله ﷺ يعاملهم بذلك.

ثم إن شهرك خلع العهد، ونقض الذمة، ونشط الفرس فنقضوا، فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص ابنه وأخاه الحكم، فاقتتلوا مع الفرس، فهزم الله جيوش المشركين، وقتل الحكم بن أبي العاص شهرك، وقتل ابنه معه أيضاً.

وقال أبو معشر: كانت فارس الأولى وإصطخر الآخرة، سنة ثمان وعشرين في إمارة عثمان، وكانت فارس الآخرة ووقعة جُور في سنة تسع وعشرين.

---

(١) وفي هذه السنة توفي أمير المؤمنين، بل أول أمير مؤمنين: الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد تقدم بيانه في أول هذا القسم.

(٢) تقدم بيانه في «غزو بلاد فارس من ناحية البحرين أو فتح إصطخر المرة الأولى» في هذا الفصل.

فتح فَسَا[1] ودَرَابِجَرْد، وقصة سارية بن زُنَيم

ذكر سيف عن مشايخه: أن سارية بن زُنَيم، قصد فَسَا ودَرَابِجَرْد، وذلك سنة ثلاث وعشرين، فاجتمع له جموع ـ من الفرس والأكراد ـ عظيمة، ودهم المسلمين منهم أمر عظيم وجمع كثير، فرأى عمر في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في وقت من النهار، وأنهم في صحراء، وهنا جبل إن أسندوا إليه لم يؤتوا إلا من وجه واحد، فنادى من الغد الصلاة جامعة، حتى إذا كانت الساعة التي رأى أنهم اجتمعوا فيها، خرج إلى الناس وصعد المنبر، فخطب الناس وأخبرهم بصفة ما رأى، ثم قال: يا سارية الجبلَ الجبلَ، ثم أقبل عليهم وقال: إن لله جنوداً، ولعل بعضها أن يبلِّغهم، قال: ففعلوا ما قال عمر، فنصرهم الله على عدوهم، وفتحوا البلد.

وذكر سيف في رواية أخرى عن شيوخه: أن عمر بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قال: ياسارية بن زُنيم الجبلَ الجبلَ، فلجأ المسلمون إلى جبل هناك، فلم يقدر العدو عليهم إلا من جهة واحدة، فأظفرهم الله بهم، وفتحوا البلد، وغنموا شيئاً كثيراً، فكان من جملة ذلك سَفَط من جوهر، فاستوهبه سارية من المسلمين لعمر، فلما وصل إليه مع الأخماس، قدم الرسول بالخمس فوجد عمر قائماً في يده عصا وهو يطعم المسلمين سماطهم، فلما رآه عمر قال له: اجلس ـ ولم يعرفه ـ فجلس الرجل فأكل مع الناس، فلما فرغوا انطلق عمر إلى منزله واتبعه الرجل، فاستأذن فأذن له، وإذا هو قد وضع له خبز وزيت وملح، فقال: ادْنُ فكل، فقال: فجلست فجعل يقول لامرأته: ألا تخرجين يا هذه فتأكلين؟ فقالت: إني أسمع حس رجل عندك، فقال: أجل، فقالت: لو أردت أن أبرز للرجال، اشتريت لي غير هذه الكسوة، فقال: أو ما ترضين أن يقال: أم كلثوم بنت علي وامرأة عمر، فقالت: ما أقل غناء ذلك عنى، ثم قال للرجل: ادن فكل، فلو كانت راضية لكان أطيب مما

---

(١) «فسا» بفتح الفاء والسين المهملة و «درابجرد» بفتح الدال المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الراء، وفي المطبوعة «دار أبجرد» وهو تصحيف.

ترى، فأكلا، فلما فرغا قال: أنا رسول سارية بن زُنيم يا أمير المؤمنين؛ فقال: مرحباً أهلاً، ثم أدناه حتى مست ركبتُه ركبته، ثم سأله عن المسلمين، ثم سأله عن سارية بن زنيم فأخبره، ثم ذكر له شأن السَّفَط من الجوهر، فأبى أن يقبله وأمر برده إلى الجند.

وقد سأل أهل المدينة رسول سارية عن الفتح فأخبرهم، فسألوه: هل سمعوا صوتاً يوم الوقعة؟ قال: نعم، سمعنا قائلاً يقول: يا سارية الجبل، وقد كدنا نهلك، فلجأنا إليه ففتح الله علينا، ثم رواه سيف عن مجالد عن الشعبي بنحو هذا.

وقال عبد الله بن وهب، عن يحيى بن أيوب، عن ابن عجلان، عن نافع عن ابن عمر: أن عمر وجه جيشاً، ورأس عليهم رجلاً يقال له: سارية، قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادي: يا ساري الجبَلَ، ثلاثاً، ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر: فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلك، إذ سمعنا منادياً: يا سارية الجبل ثلاثاً، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله، قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك، وهذا إسناد جيد حسن.

وقال الواقدي: حدثني نافع بن أبي نعيم، عن نافع مولى ابن عمر: أن عمر قال على المنبر: يا سارية ابن زُنيم الجبل، فلم يدر الناس ما يقول، حتى قدم سارية بن زنيم المدينة على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، كنا محاصري العدو، فكنا نقيم الأيام لا يخرج علينا منهم أحد، نحن في خفض من الأرض وهم في حصن عال، فسمعت صائحاً ينادي بكذا وكذا: يا سارية بن زُنيم الجبل، فعلوت بأصحابي الجبل، فما كان إلا ساعة حتى فتح الله علينا، وقد رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر بنحوه، وفي صحته من حديث مالك نظر.

وقال الواقدي: حدثني أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه، وأبو سليمان عن يعقوب بن زيد قالا: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الجمعة إلى الصلاة فصعد المنبر ثم صاح: يا سارية بن زُنيم الجبل، يا سارية بن زُنيم الجبل، ظَلَمَ من استرعى الذئب الغنم، ثم خطب حتى فرغ، فجاء كتاب سارية إلى عمر: إن الله قد فتح علينا يوم الجمعة ساعة كذا وكذا ـ لتلك الساعة التي خرج فيها عمر فتكلم على المنبر ـ قال: سارية فسمعت صوتاً يا سارية بن زُنيم الجبل، يا سارية بن زنيم الجبل، ظَلَم من استرعى الذئب الغنم، فعلوت بأصحابي الجبل، ونحن قبل ذلك في بطن واد، ونحن محاصرو العدو ففتح الله علينا، فقيل لعمر بن الخطاب ما ذلك الكلام؟ فقال: «والله ما ألقيت له إلا بشيء ألقي على لساني». فهذه طرق يشد بعضها بعضاً.

فتح كرمَان وسِجِسْتَان ومُكْرَان

ذكر ابن جرير من طريق سيف عن شيوخه: فتحَ «كَرْمَان» على يدي سهيل بن عدي، وأمده عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان، وقيل، على يدي عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي.

وذكر فتح سِجِسْتَان على يدي عاصم بن عمرو، بعد قتال شديد، وكانت ثغورها متسعة، وبلادها متنائية، ما بين السند إلى نهر بلخ، وكانوا يقاتلون القُنْدُهَار والترك من ثغورها وفروجها.

وذكر فتح «مُكْران» على يدي الحكم بن عمرو، وأمده بشهاب بن المخارق بن شهاب، وسهيل بن عدي، وعبد الله بن عبد الله، واقتتلوا مع ملك السِّند، فهزم الله جموع السند، وغنم المسلمون منهم غنيمة كثيرة، وكتب الحكم بن عمر وبالفتح وبعث بالأخماس مع صُحَار العبدي إلى عمر رضي الله عنه، وكان ذلك في سنة ثلاثة وعشرين.



غزوة الأكراد

ذكر ابن جرير بسنده عن سيف عن شيوخه: أن جماعة من الأكراد والتف إليهم طائفة من الفرس، اجتمعوا، فلقيهم أبو موسى بمكان من أرض بيروذ قريب من نهر تِيرَى، ثم سار عنهم أبو موسى إلى أصبهان، وقد استخلف على حربهم الربيع بن زياد، بعد مقتل أخيه المهاجر بن زياد، فتسلم الحرب وحنق عليهم، فهزم الله العدو وله الحمد والمنة، كما هي عادته المستمرة وسنته المستقرة، في عباده المؤمنين، وحزبه المفلحين، من أتباع سيد المرسلين، ثم خمست الغنيمة وبعث بالفتح والخمس إلى عمر رضي الله عنه[1].



(١) ثم ذكر ابن كثير بعد «غزوة الأكراد» هذه، قصة وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونبذة عن حياته، وقد نقلناها إلى أول «الفصل الأول» من خلافته رضي الله عنه لأنه الأحسن وفق ترتيبنا.

الفصل الخامس

مما وقع من الحوادث زَمَنَ الفاروق

رضي الله عنه

* حوادث السنة الثالثة عَشْرَة.
* حوادث السنة الرابعة عَشْرَة.
* حوادث السنة السادسة عَشْرَة.
* حوادث السنة السابعة عَشْرَة.
* حوادث السنة الثامنة عَشْرَة.
* حوادث السنة العشرين.
* حوادث السنة الثالثة والعشرين.



حوادث السنة الثالثة عشرة

فيها: توفي خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة منها.

فولَّى قضاءَ المدينة عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، واستناب على الشام أبا عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، وعزل عنها خالد بن الوليد المخزومي، وأبقاه على شورى الحرب.

* وفيها: استنفر عمر قبائل العرب لغزو العراق والشام، فأقبلوا من كل النواحي، فرمى بهم الشام والعراق.

* وفيها: فتحت بُصْرى صلحاً، وهي أول مدينة فتحت في الشام، وفيها فتحت دمشق في قول سيف وغيره كما قدمنا، واستنيب فيها يزيد بن أبي سفيان، فهو أول من وليها من أمراء المسلمين رضي الله عنهم.

* وفيها: كانت وقعة فِحْلٍ من أرض الغور، وقتل بها جماعة من الصحابه وغيرهم.

* وفيها: كانت وقعة جسر أبي عبيد، فقتل فيها أربعة آلاف من المسلمين، منهم أميرهم: أبو عُبيد بن مسعود الثقفي، وهو والد صفية امرأة عبد الله بن عمر، وكانت امرأة صالحة رحمها الله، ووالد المختار بن أبي عبيد كذاب ثقيف، وقد كان نائباً على العراق في بعض وقعات العراق.

* وفيها: توفي المثنى بن حارثه، في قول ابن إسحاق، وقد كان نائباً على العراق، استخلفه خالد بن الوليد حين سار إلى الشام، وقد شهد مواقف مشهورة، وله أيام مذكورة، ولا سيما يوم البُوَيب بعد جسر أبي عبيد، قتل فيه من الفرس وغرق بالفرات قريب من مائة ألف.

حوادث السنة الرابعة عشرة

* قال ابن جرير والواقدي: في سنة أربع عشرة، جمع عمر بن الخطاب الناس على أبي بن كعب في التراويح، وذلك في شهر رمضان منها، وكتب إلى الأمصار يأمرهم بالإجتماع في قيام شهر رمضان.



حوادث السنة السادسة عشرة

* قال الواقدي: وفي ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني: سنة ست عشرة ـ كتب عمر بن الخطاب التاريخ، وهو أول من كتبه، وذلك أنه رفع إلى عمر صك مكتوب لرجل على آخر، بدين يحل عليه في شعبان، فقال: أي شعبان؟ أمن هذه السنة أم التي قبلها، أم التي بعدها؟ ثم جمع الناس فقال: ضعوا للناس شيئاً يعرفون فيه حلول ديونهم، فيقال: إنهم أراد بعضهم أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم، كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده، فكرهوا ذلك، ومنهم من قال: أرخوا بتاريخ الروم من زمان إسكندر، فكرهوا ذلك، ولطوله أيضاً، وقال قائلون: أَرخوا من مولد رسول الله ﷺ، وقال آخرون من مبعثه عليه الصلاة والسلام، وأشار علي بن أبي طالب وآخرون، أن يؤرخ من هجرته من مكة إلى المدينة، لظهوره لكل أحد، فإنه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن ذلك عمر والصحابة، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله ﷺ، وأرخوا من أول تلك السنة من محرمها.

وعند مالك رحمه الله فيما حكاه السهيلي وغيره: أن أول السنة من ربيع الأول، لقدومه عليه السلام إلى المدينة، والجمهور على أن أول السنة من المحرم، لأنه أضبط لئلا تختلف الشهور، فإن المحرم أول السنة الهلالية العربية.

* وفيها: توفيت مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وذلك في المحرم منها، فيما ذكره الواقدي وابن جرير وغير واحد، وصلى عليها عمر بن الخطاب، وكان يجمع الناس لشهود جنازتها، ودفنت بالبقيع رضي الله عنها وأرضاها، وهي: مارية القبطية، أهداها صاحب إسكندرية ـ وهو جريج بن مينا ـ في جملة تحف وهدايا لرسول الله ﷺ، فقبل ذلك منه، وكان معها أختها شيرين التي وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان، ويقال: أهدى المقوقس معهما جاريتين أخرتين، فيحتمل أنهما كانتا خادمتين لمارية وسيرين. وأهدى معهن غلاماً خصياً اسمه مابور، وأهدى مع ذلك بغلة شهباء اسمها الدُّلْدُل، وأهدي حُلَّة حرير من عمل الإسكندرية، وكان قدوم هذه الهدية سنة ثمان، فحملت مارية من

رسول الله ﷺ بإبراهيم عليه السلام، فعاش عشرين شهراً، ومات قبل أبيه رسول الله ﷺ بسنة سواء، وقد حزن عليه رسول الله ﷺ وبكى عليه وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»، وقد تقدم ذلك في سنة عشر.

وكانت مارية هذه من الصالحات الخيرات الحسان، وقد حظيت عند رسول الله ﷺ وأعجب بها، وكانت جميلة ملاحة، أي: حلوة، وهي تشابه هاجر سُرِّيَّة الخليل، فإن كلاً منهما من ديار مصر، وتَسَرَّاها نبي كريم، وخليل جليل، عليهما السلام.



حوادث السنة السابعة عشرة

* في هذه السنة: وقع الطاعون في بلاد الشام الذي عرف بـ «طاعون عَمْواس»[1]. في قول ابن جرير عن سيف بن عمر التميمي، وقد خالفه محمد بن إسحاق وأبو معشر وغير واحد، فذهبوا إلى أنه كان في سنة ثماني عشرة، وتوفي بهذا الوباء: أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من أشراف الصحابة وغيرهم.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة: قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام فوصل إلى سَرْغ[2] في قول محمد بن إسحاق، وقال سيف: وصل إلى الجابية. قلت: والأشهر أنه وصل سَرْغ، وقد تلقاه أمراء الأجناد: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، إلى سرغ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار عمر المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه، فمن قائل يقول: أنت قد جئت لأمر فلا ترجع عنه، ومن قائل يقول: لا نرى أن تقدم بوجوه أصحاب رسول الله ﷺ على هذا الوباء، فيقال: إن عمر أمر الناس بالرجوع من الغد، فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ قال: نعم! نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو هبطت وادياً ذا عُدْوَتَين: إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة، فإن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن أنت رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ ثم قال: لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة.

قال ابن إسحاق في روايته ـ وهو في صحيح البخاري ـ: وكان عبد الرحمن بن عوف متغيباً في بعض شأنه، فلما قدم قال: إن عندي من ذلك علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه، وإذا

---

(١) «عمواس» هي: بلدة بين القدس والرملة، نسب إليها هذا الوباء، لأنه أول ما نجم بها ثم انتشر في بلاد الشام.

(٢) «سرغ» بفتح السين المهملة وسكون الراء هو: أول الحجاز وآخر الشام.

وقع بأرض وأنتم فيها، فلا تخرجوا فراراً منه»، فحمد الله عمر ـ يعني: لكونه وافق رأيه ـ ورجع بالناس.

وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص، وخزيمة بن ثابت، وأسامة بن زيد قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب، عُذِّب به قوم قبلكم، فإذا وقع بأرض أنتم فيها، فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه»، ورواه الإمام أحمد أيضاً من حديث سعيد بن المسيب ويحيى بن سعيد، عن سعد بن أبي وقاص به.

قال سيف بن عمر: كان الوباء قد وقع بالشام في المحرم من هذه السنة ثم ارتفع، وكأن سيفاً يعتقد أن هذا الوباء هو: طاعون عمواس، الذي هلك فيه خلق من الأمراء ووجوه المسلمين، وليس الأمر كما زعم، بل طاعون عمواس من السنة المستقبلة بعد هذه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وذكر سيف بن عمر: أن أمير المؤمنين عمر، كان قد عزم على أن يطوف البلدان، ويزور الأمراء، وينظر فيما اعتمدوه وما آثروا من الخير، فاختلف عليه الصحابة، فمن قائل يقول: ابدأ بالعراق، ومن قائل يقول: بالشام، فعزم عمر على قدوم الشام، لأجل قسم مواريث من مات من المسلمين في طاعون عمواس، فإنه أشكل قسمها على المسلمين بالشام، فعزم على ذلك، وهذا يقتضي أن عمر عزم على قدوم الشام بعد طاعون عمواس، وقد كان الطاعون في سنة ثماني عشرة كما سيأتي، فهو قدوم آخر غير قدوم سرغ. والله أعلم.

قال سيف، عن أبي عثمان، وأبي حارثة، والربيع بن النعمان قالوا: قال عمر: ضاعت مواريث الناس بالشام، أبدأ بها فأقسم المواريث، وأقيم لهم ما في نفسي، ثم أرجع فأتقلب في البلاد، وأنبذ إليهم أمري، قالوا: فأتى عمر الشام أربع مرات، مرتين في سنة ست عشرة، ومرتين في سنة سبع عشرة، ولم يدخلها في الأولى من الأخريين.

قال محمد بن إسحاق عن شعبة، عن المختار بن عبد الله البجلي، عن طارق بن شهاب البجلي. قال: أتينا أبا موسى وهو في داره بالكوفة لنتحدث عنده، فلما جلسنا قال: لا تُجْفُوا، فقد أصيب في الدار إنسان بهذا السقم، ولا عليكم أن تتنزهوا عن هذه القرية، فتخرجوا في فسيح بلادكم ونزهها، حتى يرتفع هذا البلاء، فإني سأخبركم بما يُكره مما يُتَّقى، من ذلك: أن يَظُنَّ من خرج: أنه لو قام مات، ويظن من أقام فأصابه ذلك: أنه لو خرج لم يصبه، فإذا لم يظن ذلك هذا المرء

المسلم، فلا عليه أن يخرج وأن يتنزه عنه، إني كنت مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام عام طاعون عمواس، فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك أما بعد: فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك بها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا، أن لا تضعه من يدك حتى تقبل إليّ، قال: فعرف أبو عبيدة، أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء، فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين، ثم كتب إليه: يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند من المسلمين، لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه، فخلني من عَزْمَتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأنْ قدِ، قال: ثم كتب إليه: «سلام عليك أما بعد: فإنك أنزلت الناس أرضاً عميقة، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة»، قال أبو موسى: فلما أتاه كتابه دعاني فقال: يا أبا موسى، إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى، فاخرج فارتَدْ للناس منزلاً حتى أتبعك بهم، فرجعت إلى منزلي لأرتحل، فوجدت صاحبتي، فرجعت إليه وقلت: والله لقد كان في أهلي حدث، فقال: لعل صاحبتك قد أصيبت؟ قلت: نعم، فأمر ببعير فرحل له، فلما وضع رجله في غَرْزه طُعِنَ، فقال: والله لقد أصبت، ثم سار بالناس حتى نزل الجابية، ورُفع عن الناس الوباء.

قال ابن إسحاق: ولما انتهى إلى عمر مصاب أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان، أمَّر معاوية على جند دمشق وخراجها، وأمَّر شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها.

وقال سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما كان طاعون عمواس وقع مرتين لم ير مثلهما، وطال مكثه، وفني خلق كثير من الناس، حتى طمع العدو وتخوفت قلوب المسلمين لذلك.

قلت: ولهذا قدم عمر بعد ذلك إلى الشام، فقسم مواريث الذين ماتوا، لما أشكل أمرها على الأمراء، وطابت قلوب الناس بقدومه، وانقمعت الأعداء من كل جانب لمجيئه إلى الشام ولله الحمد والمنة.

وقال سيف، بعد ذكره قدوم عمر بعد طاعون عمواس في آخر سنة سبع عشرة، قال: فلما أراد القفول إلى المدينة في ذي الحجة منها، خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ألا إني قد وُلِّيت عليكم، وقضيت الذي علي في الذي ولاَّني الله من أمركم إن شاء الله، فبسطنا بينكم فَيْأكم ومنازلكم ومغازيكم،

وأبلغناكم ما لدينا، فَجَنَّدنا لكم الجنود، وهيأنا لكم العروج، وبوأنا لكم، ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤكم، وما قاتلتم عليه من شامكم، وسمينا لكم أطعماتكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم، فمن علم شيئاً ينبغي العمل به فليعلمنا، نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله» قال سيف: وحضرت الصلاة فقال الناس: لو أمرت بلالاً فأذن؟ فأمره فأذن، فلم يبق أحد كان أدرك رسول الله ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بل لحيته، وعمر أشدهم بكاء، وبكى من لم يدركه لبكائهم ولذكره ﷺ.

وذكر ابن جرير في هذه السنة، من طريق سيف بن عمر عن أبي المجالد: أن عمر بن الخطاب بعث ينكر على خالد بن الوليد في دخوله إلى الحمام، وتدلكه بعد النُّورة بعُصْفُر معجون بخمر، فقال في كتابه: «إن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه، كما حرم ظاهر الإثم وباطنه، وقد حرم مس الخمر، فلا تمسوها أجسامكم فإنها نجس، فإن فعلتم فلا تعودوا»، فكتب إليه خالد: إنا قتلناها فعادت غَسُولاً غير خمر، فكتب إليه عمر: «إني أظن أن آل المغيرة، قد ابتُلُوا بالجفاء، فلا أماتكم الله عليه»، فانتَهَى لذلك.

قال سيف: وأصاب أهل البصرة تلك السنة طاعون أيضاً، فمات بشر كثير وجم غفير، رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين.

قال الواقدي توفي: في عام طاعون عمواس من المسلمين بالشام خمسة وعشرون ألفاً، وقال غيره: ثلاثون ألفاً.

قلت: هذا الطاعون منسوب إلى بلدة صغيرة يقال لها: «عَمْوَاس»، وهي: بين القدس والرملة، لأنها كان أول ما نجم الداء بها، ثم انتشر في الشام منها فنسب إليها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

* قال الواقدي: وفيها: تزوج عمر بأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ودخل بها في ذي القعدة، وأمهرها أربعين ألفاً، وقال: إنما تزوجتها لقول رسول الله ﷺ: «كل سَبَب ونسب فإنه ينقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي»[1].

---

(١) هذا حديث صحيح، رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورواه الطبراني عن عبد الله بن عباس، والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما.

حوادث السنة الثامنة عشرة

* المشهور الذي عليه الجمهور: أن «طاعون عمواس» كان بها، وقد تبعنا قول سيف بن عمر وابن جرير، في إيراده ذلك في السنة التي قبلها.

قال ابن إسحاق، وأبو معشر: كان في هذه السنة: «طاعون عمواس، وعام الرَّمادة» فتفانى فيهما الناس.

قلت: كان في عام الرمادة جدب عَمَّ أرض الحجاز، وجاع الناس جوعاً شديداً، وسميت «عام الرمادة»، لأن الأرض اسودت من قلة المطر، حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد، وقيل: لأنها تسفي الريح تراباً كالرماد، ويمكن أن تكون سميت لكل منهما والله أعلم.

وقد أجدبت الناس في هذه السنة بأرض الحجاز، وجفلت الأحياء إلى المدينة ولم يبق عند أحد منهم زاد، فلجأوا إلى أمير المؤمنين، فأنفق فيهم من حواصل بيت المال، مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفده، وألزم نفسه أن لا يأكل سمناً ولا سميناً حتى يُكشف ما بالناس، فكان في زمن الخصب يُبَثُّ له الخبز باللبن والسمن، ثم كان عام الرمادة يُبَثُّ له بالزيت والخل، وكان يستمرىء الزيت، وكان لا يشبع مع ذلك، فاسود لون عمر رضي الله عنه، وتغير جسمه حتى كان يخشى عليه من الضعف، واستمر هذا الحال في الناس تسعة أشهر، ثم تحول الحال إلى الخصب والدعة، وانشمر الناس عن المدينة إلى أماكنهم.

قال الشافعي: بلغني أن رجلاً من العرب، قال لعمر حين ترحلت الأحياء عن المدينة: لقد انجلت عنك، ولأنك لابْنُ حرة، أي: واسيت الناس وأنصفتهم وأحسنت إليهم.

وقد رُوِّينا: أن عمر عَسَّ المدينة ذات ليلة عام الرمادة، فلم يجد أحداً يضحك، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة، ولم ير سائلاً يسأل، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: يا أمير المؤمنين إن السُّؤَّال سألوا فلم يعطوا، فقطعوا السؤال،

والناس في هم وضيق، فهم لا يتحدثون ولا يضحكون، فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة: أن ياغوثاه لأمة محمد، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر: أن ياغوثاه لأمة محمد، فبعث إليه كل واحد منهم بقافلة عظيمة، تحمل البر وسائر الأطعمات، ووصلت ميرة عمرو في البحر إلى جدة، ومن جدة إلى مكة. وهذا الأثر جيد الإسناد، لكن ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل، فإن مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة، فإما أن يكون عام الرمادة بعد سنة ثماني عشرة، أو يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة وهم والله أعلم.

وذكر سيف عن شيوخه: أن أبا عبيدة قدم المدينة، ومعه أربعة آلاف راحلة تحمل طعاماً، فأمره عمر بتفريقها في الأحياء حول المدينة، فلما فرغ من ذلك، أمر له بأربعة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها، فلح عليه عمر حتى قبلها.



حوادث السنة العشرين

* قال الواقدي: وفيها: أجلى عمر يهود خيبر عنها إلى أَذْرِعات وغيرها.

* وقال: وفيها: أجلى عمر يهود نجران منها أيضاً إلى الكوفة، وقسم خيبر، ووادي القرى، ونجران بين المسلمين.

* وقال الواقدي: وفيها: دَوَّن عمر الدّواوين، وزعم غيره أنه دوّنها قبل ذلك فالله أعلم.

* وقال الواقدي: وفيها: بعث عمر علقمة بن مُجَزِّز المدلجي إلى الحبشة في البحر فأصيبوا، فآلى عمر على نفسه أن لا يبعث جيشاً في البحر بعدها، وقد خالف الواقدي في هذا أبو معشر، فزعم أن غزوة الحبشة إنما كانت في سنة إحدى وثلاثين ـ يعني: في خلافة عثمان بن عفان ـ والله أعلم.

* قال الواقدي: وفيها: تزوج عمر فاطمة بنت الوليد بن عتبة التي مات عنها الحارث بن هشام في الطاعون، وهي أخت خالد بن الوليد.



حوادث السنة الثالثة والعشرين

* قال ابن جرير: وفي هذه السنة: حج عمر بأزواج النبي ﷺ، وهي آخر حجة حجها رضي الله عنه.

* وقال ابن جرير: وفي هذه السنة: كانت وفاة عمر رضي الله عنه، وذكر قصة قتله مطولاً.



القسم الثالث

خلافةُ عُثْمَانَ بن عَفّانَ
رضي الله عنه

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: ولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه.

الفصل الثاني: الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه.

الفصل الثالث: فتنة البُغَاة، ومَقْتَلُ عثمان.

الفصل الرابع: مما وقع من الحوادث في عهد عثمان رضي الله عنه.



الفصل الأول

ولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه

* نُبْذَةٌ عن حياته رضي الله عنه.
* مبايعة عثمان بالخلافة.



نُبذَةٌ عن حياة عثمان رضي الله عنه

هو: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أبو عَمْرو، وأبو عبد الله[1]، القرشي، الأموي، أمير المؤمنين، ذو النورين، وصاحب الهجرتين، وزوج الابنتين.

وأمه: أَروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس، وأمها أم حكيم وهي: البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثلاثة الذين خلصت لهم الخلافة من الستة، ثم تعينت فيه بإجماع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فكان ثالث الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، المأمور باتباعهم والاقتداء بهم.

أسلم عثمان رضي الله عنه قديماً على يدي أبي بكر الصديق، ثم تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ.

وهاجر إلى الحبشة أول الناس، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة، فلما كانت وقعة بدر اشتغل بتمريض ابنة رسول الله ﷺ، وأقام بسببها في المدينة، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه منها وأجره فيها، فهو معدود فيمن شهدها، فلما توفيت زَوَّجه رسول الله ﷺ بأختها أم كلثوم، فتوفيت أيضاً في صحبته، وقال رسول الله ﷺ: «لو كان عندنا أخرى لزوجناها بعثمان»، وشهد أُحداً وفر يومئذ فيمن تولى، وقد نص الله على العفو

(١) لعثمان رضي الله عنه كنيتان و «أبو عمرو» أشهر، وعليها اقتصر البخاري في صحيحه حيث قال: [باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي الله عنه].

عنهم، وشهد الخندق والحديبية، وبايع عنه رسول الله ﷺ يومئذ بإحدى يديه، وشهد خيبر وعمرة القضاء، وحضر الفتح، وهوازن، والطائف، وغزوة تبوك، وجهز جيش العسرة، وتقدم[1] عن عبد الرحمن بن خباب، أنه جهزهم يومئذ بثلاثمائة بعير بأقتابها وأحلاسها، وعن عبد الرحمن بن سمرة، أنه جاء يومئذ بألف دينار، فصبها في حجر رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «ما ضر عثمانَ ما فعل بعد هذا اليوم، ما ضَرَّ عثمانَ ما فعل بعد هذا اليوم».

وحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وتوفي وهو عنه راض، وصحب أبا بكر فأحسن صحبته، وتوفي وهو عنه راض، وصحب عمر فأحسن صحبته، وتوفي وهو عنه راض، ونص عليه في أهل الشورى الستة، فكان خيرهم كما سيأتي.

فولي الخلافة بعده، ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار، وتوسعت المملكة الإسلامية، وامتدت الدولة المحمدية، وبلغت الرسالة المصطفوية في مشارق الأرض ومغاربها، وظهر للناس مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3] وقوله ﷺ: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقُنَّ كنوزهما في سبيل الله»[4]، وهذا كله تحقق وقوعه وتأكد وتوطد في زمان عثمان رضي الله عنه.

وقد كان رضي الله عنه حسن الشكل، مليح الوجه، كريم الأخلاق، ذا حياء كثير، وكرم غزير، يؤثر أهله وأقاربه في الله، تأليفاً لقلوبهم من متاع الحياة الدنيا الفاني، لعله يرغبهم في إيثار ما يبقى على ما يفنى، كما كان النبي ﷺ يعطي أقواماً ويدع آخرين، يعطي أقواماً خشية أن يكبهم الله على وجوههم في النار، ويكل آخرين إلى ما جعل الله في قلوبهم من الهدى والإيمان، وقد تَعَنَّتَ عليه بسبب هذه الخصلة

---

(١) سبق بيانه في «غزوة تبوك» في الجزء الثاني.

(٢) الآية «٥٥» من سورة «النور».

(٣) الآية «٣٣» من سورة «التوبة».

(٤) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أقوام، كما تعنت بعض الخوارج على رسول الله ﷺ في الإيثار، وقد قدمنا ذلك في «غزوة حنين»[(١)] حيث قسم غنائمها.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل عثمان رضي الله عنه، نذكر ما تيسر منها إن شاء الله وبه الثقة، وهي قسمان:

* القسم الأول: فيما ورد في فضائله مع غيره:

فمن ذلك: الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال: «صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف فقال: «اسْكُنْ أُحُد ـ أظنه ضربه برجله ـ فليس عليك إلا نبي وصِدِّيق وشهيدان» تفرد به دون مسلم[(٢)].

وعن أبي موسى الأشعري قال: كنت مع رسول الله ﷺ في حائط، فأمرني بحفظ الباب، فجاء رجل يستأذن فقلت: من هذا؟ قال: أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له، وبشّره بالجنة»، ثم جاء عمر فقال: «ائذن له وبشّره بالجنة»، ثم جاء عثمان فقال: «ائذن له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه»، فدخل وهو يقول: اللهم صبراً، وفي رواية: الله المستعان. رواه البخاري ومسلم، وهو في الصحيحين أيضاً من حديث سعيد بن المسيب عن أبي موسى، وفيه: «أن أبا بكر وعمر دليا أرجلهما مع رسول الله في باب القُفّ[(٣)] ـ وهو: في البئر، ـ وجاء عثمان فلم يجد له موضعاً»، قال سعيد: فأولت ذلك قبورهم، اجتمعت وانفرد عثمان، وقد رواه الإمام أحمد عن نافع بن الحارث قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل حائطاً فقال: امسك عليَّ الباب، فجاء حتى جلس على القُفّ ودلى رجليه، فَضُرب الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر، قال: «ائذن له وبشّره بالجنة»، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ على القف، ودلّى رجليه في البئر، ثم ضُرب الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عمر، قلت: يا رسول الله هذا عمر، قال: «ائذن له وبشّره بالجنة»، ففعلت، فجاء فجلس مع رسول الله على القُفّ، ودلّى رجليه في البئر، ثم ضُرب الباب فقلت: من هذا؟ قال: عثمان، قلت: يا رسول الله هذا عثمان، قال: «ائذن له وبشّره بالجنة معها بلاء»، فأذنت له وبشّرته

(١) سبق هذا في «المغازي النبوية» من الجزء الثاني.

(٢) قوله: «تفرد به دون مسلم» أي: لم يخرجه مسلم، بل انفرد البخاري بإخراجه، ورواه أيضاً أبو داود والترمذي.

(٣) «القف» بضم القاف هو: الدكة التي تجعل حول البئر، وأصله: ما غلظ من الأرض وارتفع.

بالجنة، فجلس مع رسول الله ﷺ على القُفّ، ودلّى رجليه في البئر»، هكذا وقع في هذه الرواية، وقد أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي سلمة، فيحتمل أن أبا موسى ونافع بن عبد الحارث، كانا موكلين بالباب، أو: أنها قصة أخرى.

وروى الإمام أحمد عن سعيد بن العاص: أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه: أن أبا بكر استأذن على النبي ﷺ وهو مضطجع على فراشه، لابسٌ مِرْطَ[1] عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك. فقضى إليه حاجته ثم انصرف، فاستأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحالة، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس وقال: «اجمعي عليك ثيابك»، فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله! ما لي لا أراك فزعت لأبي بكر وعمر، كما فزعت لعثمان؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حَيِيٌّ، وإني خشيت إنْ أذنت له على تلك الحالة، لا يُبْلِغْ إليّ حاجته»، قال الليث: وقال جماعة الناس: إن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة؟» ،ورواه مسلم وأبو يعلى الموصلي والطبراني والبزّار.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأشدها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أُبَيّ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وفي صحيح البخاري ومسلم آخره: «ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

* القسم الثاني: فيما ورد من فضائله وحده:

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا أبو عوانة، ثنا عثمان بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر حج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر! إني سائلك عن شيء فحدثني، هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أُحد؟ قال: نعم، قال: تعلم أنه تغيب يوم بدر ولم يشهدها؟ قال: نعم، قال: تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان ولم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر، قال ابن عمر: تعال أُبيِّن لك، أما فراره يوم أُحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته

---

(١) «مرط» بكسر الميم هو: كساء من صوف.

بنت رسول الله وكانت مريضة، فقال له رسول الله: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان»، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك. تفرد به دون مسلم.

قال البخاري: حدثنا أحمد بن شبيب بن سعيد، حدثني أبي عن يونس قال ابن شهاب: أخبرني عروة، أن عبيد الله بن عدي بن الخِيَار أخبره، أن المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا[1]: ما يمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد[2]، فقد أكثر الناس فيه؟ فقصدت لعثمان حين خرج إلى الصلاة فقلت: إن لي إليك حاجة، وهي نصيحة لك، فقال: يا أيها المرء[3] منك، قال معمر: أُرَاهُ قال: أعوذ بالله منك، فانصرفت فرجعت إليهما، إذ جاء رسول عثمان فأتيته فقال: ما نصيحتك؟ فقلت: إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكنتَ ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ، فهاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هَدْيَهُ، وقد أكثر الناس في شأن الوليد، قال: أدركْتَ رسول الله ﷺ؟ فقلت: لا! ولكن خَلَصَ إليَّ من علمه، ما يَخْلُصُ إلى العذراء في سترها[4]، قال: أما بعد، فإن الله بعث محمداً بالحق، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله، فآمنتُ بما بُعث به، وهاجرت الهجرتين كما قلتَ، وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته، فوالله ما عصيته ولا غششته، حتى توفاه الله عز وجل، ثم أبو بكر مثله، ثم عمر مثله، ثم اسْتُخْلِفْتُ، أفليس لي من الحق مثلُ الذي لهم؟ قلت: بلى، قال: فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم؟ أما ما ذكرت من شأن الوليد، فسآخذ فيه بالحق إن شاء الله، ثم دعا علياً فأمره أن يجلده، فجلده ثمانين.

ومن مناقبه الكبار وحسناته العظيمة: أنه جَمَع الناس على قراءة واحدة، وكتب

---

(١) «قالا» أي: لعبيد الله بن عدي.

(٢) الوليد هذا هو: الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط وكان أخا عثمان لأمه، فولاه عثمان الكوفة بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص، وقد أكثر الناس الكلام فيه، لأنه صلى الصبح أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال: أزيدكم؟ وكان سكران.
أو الضمير يرجع إلى عثمان، أي: أنكروا على عثمان على توليته وعزل سعد بن أبي وقاص.

(٣) أي: أعوذ بالله منك، كما سيأتي في قول معمر بن راشد البصري.

(٤) أي: كان علمه ﷺ شائعاً ذائعاً، فوصل إلى العذراء من وراء الحجاب، فوصوله إليه بطريق الأولى.

المصحف على العرضة الأخيرة، التي درسها جبريل على رسول الله ﷺ في آخر سني حياته، وكان سبب ذلك: أن حذيفة بن اليمان كان في بعض الغزوات، وقد اجتمع فيها خلق من أهل الشام، ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود، وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق، ممن يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود، وأبي موسى، وجعل من لا يعلم بسوغان القراءة على سبعة أحرف، يفضل قراءته على قراءة غيره، وربما خطأ الآخر أو كفره، فأدى ذلك إلى اختلاف شديد، وانتشار في الكلام السيىء بين الناس، فركب حذيفة إلى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها، كاختلاف اليهود والنصارى في كتبهم، وذكر له ما شاهد من اختلاف الناس في القراءة، فعند ذلك جمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به، دون ما سواه، لما رأى في ذلك من مصلحة كف المنازعة، ودفع الاختلاف، فاستدعى بالصحف التي كان الصديق أمر زيد بن ثابت بجمعها، فكانت عند الصديق أيام حياته، ثم كانت عند عمر، فلما توفي صارت إلى حفصة أم المؤمنين، فاستدعى بها عثمان، وأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب، وأن يملي عليه سعيد بن العاص الأموي، بحضرة عبد الله بن الزبير الأسدي، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش.

فكتب لأهل الشام مصحفاً، ولأهل مصر آخر، وبعث إلى البصرة مصحفاً، وإلى الكوفة بآخر، وأرسل إلى مكة مصحفاً، وإلى اليمن مثله، وأقر بالمدينة مصحفاً، ويقال لهذه المصاحف: «الأئمة»، وليست كلها بخط عثمان، بل ولا واحد منها، وإنما هي بخط زيد بن ثابت، وإنما يقال لها: «المصاحف العثمانية»، نسبة إلى أمره وزمانه، وإمارته، كما يقال: دينار هرقلي، أي: ضرب في زمانه ودولته.

ثم عمد إلى بقية المصاحف التي بأيدي الناس، مما يخالف ما كتبه فحرقه، لئلا يقع بسببه اختلاف.

ومما كان يعتمده عثمان بن عفان، أنه كان يلزم عماله بحضور الموسم كل عام، ويكتب إلى الرعايا: من كانت له عند أحد منهم مظلمة، فليواف إلى الموسم، فإني آخذ له حقه من عامله، وكان عثمان قد سمح لكثير من كبار الصحابة، في المسير حيث شاءوا من البلاد، وكان عمر يحجر عليهم في ذلك، حتى ولا في الغزو، ويقول: إني أخاف أن تروا الدنيا، وأن يراكم أبناؤها، فلما خرجوا في زمان عثمان، اجتمع عليهم الناس، وصار لكل واحد أصحاب، وطمع كل قوم في تولية صاحبهم الإمارة العامة بعد عثمان، فاستعجلوا موته، واستطالوا حياته، حتى وقع ما

وقع من بعض أهل الأمصار، كما سيأتي، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز العلي العظيم.

تزوج عثمان رضي الله عنه برُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ، فولد له منها عبد الله، وبه كان يكنى، بعدما كان يكنى في الجاهلية بأبي عمرو، ثم لما توفيت تزوج بأختها أم كلثوم، ثم توفيت فتزوج بفاختة بنت غزوان بن جابر، فولد له منها عبيد الله الأصغر، وتزوج بأم عمرو بنت جندب بن عمرو الأزدية، فولدت له عمراً، وخالداً، وأباناً، وعمر، ومريم، وتزوج بفاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزومية، فولدت له الوليد وسعيداً، وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية، فولدت له عبد الملك، ويقال: وعتبة، وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو، بناتِ عثمان، وتزوج نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص، فولدت له مريم، ويقال: وعنبسة، وقتل رضي الله عنه وعنده أربع: نائلة، ورملة، وأم البنين، وفاختة، ويقال: إنه طلق أم البنين وهو محصور.



مبايعة عثمان بالخلافة

في أول يوم من سنة أربع وعشرين، دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الأحد في قول، وبعد ثلاثة أيام بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وكان عمر رضي الله عنه، قد جعل الأمر بعده شورى بين ستة نفر وهم: «عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف» رضي الله عنهم، وتحرج أن يجعلها لواحد من هؤلاء على التعيين، وقال: «لا أتحمل أمرهم حياً وميتاً، وإن يرد الله بكم خيراً، يجمعكم على خير هؤلاء، كما جمعكم على خيركم بعد نبيكم»، ومن تمام ورعه، لم يذكر في الشورى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، لأنه ابن عمه، خشي أن يراعى فيولّى لكونه ابن عمه، فلذلك تركه، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، بل جاء في رواية المدائني عن شيوخه أنه استثناه من بينهم، وقال: لست مدخله فيهم، وقال لأهل الشورى: يحضركم عبد الله ـ يعني: ابنه ـ وليس إليه من الأمر شيء ـ يعني: بل يحضر الشورى، ويشير بالنصح ولا يولّى شيئاً ـ وأوصى أن يصلي بالناس صهيب بن سنان الرومي ثلاثة أيام، حتى تنقضي الشورى، وأن يجتمع أهل الشورى ويوكل بهم أناس حتى ينبرم الأمر، ووكل بهم خمسين رجلاً من المسلمين، وجعل عليهم مستحثاً أبا طلحة الأنصاري، والمقداد بن الأسود الكندي، وقد قال عمر بن الخطاب: ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلي أحداً، إنهما كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل عليه.

قالوا: فلما مات عمر رضي الله عنه وأحضرت جنازته، تبادر إليها علي وعثمان أيهما يصلي عليه، فقال لهما عبد الرحمن بن عوف: لستما من هذا في شيء، إنما هذا إلى صهيب، الذي أمره عمر أن يصلي بالناس، فتقدم صهيب وصلى عليه، ونزل في قبره مع ابنه عبد الله، أهلُ الشورى سوى طلحة، فإنه كان غائباً، فلما فرغ من شأن عمر، جمعهم المقداد بن الأسود في بيت المسور بن مخرمة، وقيل: في

حجرة عائشة، وقيل: في بيت المال، وقيل: في بيت فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس، والأول أشبه والله أعلم.

والمقصود: أن القوم خلصوا من الناس في بيت يتشاورون في أمرهم، فكثر القول، وعلت الأصوات، وقال أبو طلحة: إني كنت أظن أن تدافعوها، ولم أكن أظن أن تنافسوها، ثم صار الأمر بعد حضور طلحة، إلى أن فَوَّضَ ثلاثة منهم، ما لهم في ذلك إلى ثلاثة، ففوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علي، وفوض سعد ما له في ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، وترك طلحة حقه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال عبد الرحمن لعلي وعثمان: أيكما يبرأ من هذا الأمر، فنفوض الأمر إليه، والله عليه والإسلام، ليولِّين أفضل الرجلين الباقيين؟ فأُسكت الشيخان علي وعثمان، فقال عبد الرحمن: إني أترك حقي من ذلك، والله علي والإسلام، أن أجتهد فأولِّي أَوْلاكما بالحق، فقالا: نعم! ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل، وأخذ عليه العهد والميثاق، لئن ولاه ليعدلن، ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعن، فقال كل منهما: نعم، ثم تفرقوا، ويروى أن أهل الشورى، جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن، ليجتهد للمسلمين في أفضلهم ليوليه، فيذكر أنه سأل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم، فلا يشير إلا بعثمان بن عفان، حتى إنه قال لعلي: أرأيت إن لم أُوَلِّك، بمن تشير به علي؟ قال: بعثمان، وقال لعثمان: أرأيت إن لم أولك، بمن تشير به؟ قال: بعلي بن أبي طالب.

والظاهر: أن هذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة، وينخلع عبد الرحمن منها، لينظر الأفضل، والله عليه والإسلام ليجتهدن في أفضل الرجلين فيوليه.

ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس، وأقيادهم جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى، ومجتمعين، سراً وجهراً، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة، في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد، أنهما أشارا بعلي بن أبي طالب، ثم بايعا مع الناس على ما سنذكره، فسعى في ذلك عبد الرحمن، ثلاثة أيام بلياليها، لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاء واستخارة، وسؤالاً من ذوي الرأي عنهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما كانت الليلة يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب، جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة فقال: أنائم يا

مسور؟ والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث، اذهب فادع إلي علياً وعثمان، قال المسور: فقلت: بأيهما أبدأ؟ فقال: بأيهما شئت، قال: فذهبت إلى علي فقلت: أجب خالي، فقال: أمرك أن تدعو معي أحداً؟ قلت: نعم، قال: من؟ قلت: عثمان بن عفان، قال: بأينا بدأ؟ قلت: لم يأمرني بذلك، بل قال: ادعُ لي أيهما شئت أولاً، فجئت إليك، قال: فخرج معي، فلما مررنا بدار عثمان بن عفان، جلس علي حتى دخلت، فوجدته يوتر مع الفجر، فقال لي كما قال لي علي سواء، ثم خرج، فدخلت بهما على خالي وهو قائم يصلي، فلما انصرف أقبل على علي وعثمان فقال: إني قد سألت الناس عنكما، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً، ثم أخذ العهد على كل منهما أيضاً: لئن ولأه ليعدلن، ولئن ولّى عليه ليسمعن وليطيعن، ثم خرج بهما إلى المسجد، وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه رسول الله ﷺ، وتقلد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس عامة: الصلاة جامعة، فامتلأ المسجد حتى غص بالناس، وتراص الناس وتراصوا، حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس، إلا في أخريات الناس ـ وكان رجلاً حيياً رضي الله عنه ـ ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ، فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا دعاء طويلاً، لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال: أيها الناس، إني سألتكم سراً وجهراً بأمانيكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين: إما علي، وإما عثمان، فقم إلي يا علي، فقام إليه، فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: «اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال: فأرسل يده وقال: قم إلي يا عثمان، فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم، قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان، حتى غشوه تحت المنبر، قال: فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ، وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء إليه الناس يبايعونه، وبايعه علي بن أبي طالب أولاً، ويقال: آخراً.

وما يذكره كثير من المؤرخين، كابن جرير وغيره، عن رجال لا يعرفون: أن علياً قال لعبد الرحمن: خدعتني، وإنك إنما وليته لأنه صهرك، ولتشاورك كل يوم في شأنه، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ

﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[1] إلى غير ذلك من الأخبار، المخالفة لما ثبت في الصحاح، فهي مردودة على قائليها وناقليها، والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص، الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها، ومستقيمها وسقيمها، ومبادها وقويمها، والله الموفق للصواب.

وقد اختلف علماء السير، في اليوم الذي بويع فيه لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فروى الواقدي عن شيوخه أنه بويع يوم الإثنين، لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين، وهذا غريب جداً.

وقد روى الواقدي أيضاً، عن ابن جرير عن ابن أبي مليكة قال: بويع لعثمان بن عفان، لعشر خلون من المحرم بعد مقتل عمر بثلاث ليال، وهذا أغرب من الذي قبله، وكذا روى سيف بن عمر عن عامر الشعبي أنه قال: اجتمع أهل الشورى على عثمان، لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وعشرين، وقد دخل وقت العصر وقد أذن مؤذن صهيب، واجتمع الناس بين الأذان والإقامة، فخرج فصلى بهم العصر.

وقال سيف عن خليفة بن زفر ومجالد قالا: استخلف عثمان لثلاث خلون من المحرم سنة ثلاث وعشرين، فخرج فصلى بالناس العصر، وزاد الناسَ ـ يعني: في أعطياتهم ـ مائة، ووفد أهل الأمصار، وهو أول من صنع ذلك.

وكان أول صلاة صلاها الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان بالمسلمين صلاة العصر، كما ذكره الشعبي وغيره.

وأما أول خطبة خطبها بالمسلمين، فروى سيف بن عمر، عن بدر بن عثمان عن عمه قال: لما بايع أهل الشورى عثمان، خرج وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر النبي ﷺ فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، وقال: إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبَّحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا، أين أبناء الدنيا وإخوانها، الذين أثاروها وعمروها، ومُتِّعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلاً، بالذي هو خير فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ

(١) الآية «العاشرة» من سورة «الفتح».

﴿ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[1] قال: وأقبل الناس يبايعونه.

قلت: وهذه الخطبة، إما بعد صلاة العصر يومئذ، أو قبل الزوال وعبد الرحمن بن عوف جالس في رأس المنبر، وهو الأشبه والله أعلم.

وما يذكره بعض الناس، من أن عثمان لما خطب أول خطبة، أُرتج عليه، فلم يدر ما يقول حتى قال: «أيها الناس، إن أول مركب صعب، وإن أعش فستأتيكم الخطبة على وجهها»، فهو شيء يذكره صاحب «العقد الفريد» وغيره، ممن يذكر طرف الفوائد، ولكن لم أر هذا بإسناد تسكن النفس إليه والله أعلم.

وأما قول الشعبي: إنه زاد الناس مائة مائة - يعني: في عطاء كل واحد من جند المسلمين - زاده على ما فرض له عمر مائة درهم من بيت المال، وكان قد جعل لكل نفس من المسلمين، في كل ليلة من رمضان، درهماً من بيت المال يفطر عليه، ولأمهات المؤمنين درهمين درهمين، فلما ولى عثمان أقر ذلك وزاده، واتخذ سماطاً في المسجد أيضاً للمتعبدين، والمعتكفين، وأبناء السبيل، والفقراء، والمساكين، رضي الله عنه.

وقد كان أبو بكر إذا خطب، يقوم على الدرجة التي تحت الدرجة التي كان رسول الله ﷺ يقف عليها، فلما ولي عمر نزل درجة أخرى عن درجة أبي بكر رضي الله عنهما، فلما ولي عثمان قال: إن هذا يطول، فصعد إلى الدرجة التي كان يخطب عليها رسول الله ﷺ إذا جلس على المنبر.

وأما أول حكومة حكم فيها، فقضية عبيد الله بن عمر، وذلك أنه غدا على ابنة أبي لؤلؤة قاتل عمر فقتلها، وضرب رجلاً نصرانياً يقال له: جفينة، بالسيف فقتله، وضرب الهرمزان الذي كان صاحب تستر فقتله، وكان قد قيل: إنهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر فالله أعلم.

وقد كان عمر قد أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده، فلما ولي عثمان وجلس للناس، كان أول ما تحوكم إليه في شأن عبيد الله، فقال علي: ما من العدل تركه، وأمر بقتله، وقال بعض المهاجرين: أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، قد برأك الله من ذلك، قضية لم تكن في

---

(١) الآيتان «٤٥ و ٤٦» من سورة «الكهف».

أيامك، فدعها عنك، فودى عثمان رضي الله عنه أولئك القتلى من ماله، لأن أمرهم إليه، إذ لا وارث لهم إلا بيت المال، والإمام يرى الأصلح في ذلك، وخلى سبيل عبيد الله.

ثم كتب عثمان بن عفان إلى عماله على الأمصار أمراء الحرب، والأئمة على الصلوات، والأمناء على بيوت المال، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله، ويحرضهم على الاتباع وترك الابتداع.



الفصل الثاني

الفتوحات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

* غزو أذربيجان وأرمينية بعد نقض أهلهما العهد.
* نجدة أهل الشام ضد الروم.
* غزوة إفريقية.
* غزوة الأندلس.
* وقعة جرجير والبربر مع المسلمين.
* فتح جزيرة قبرص.
* غزوة ذات الصَّوَاري.



غزوة أذربيجان وأرمينية بعد نقض أهلهما العهد

قال ابن جرير: وفي هذه السنة ـ أعني: سنة أربع وعشرين ـ غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية، حين منع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الإسلام في أيام عمر بن الخطاب، وهذا في رواية أبي مِخْنَف[1]، وأما في رواية غيره: فإن ذلك كان في سنة ست وعشرين. وقال الواقدي: فتحت أرمينية سنة إحدى وثلاثين، على يدي حبيب بن مسلمة.

ثم ذكر ابن جرير ههنا هذه الوقعة، وملخصها: أن الوليد بن عقبة سار بجيش الكوفة نحو أذربيجان وأرمينية، حين نقضوا العهد، فوطىء بلادهم وأغار بأراضي تلك الناحية، فغنم وسبى وأخذ أموالاً جزيلة، فلما أيقنوا بالهلكة، صالحهم أهلها على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان: ثمانمائة ألف درهم في كل سنة، فقبض منهم جزية سنة، ثم رجع سالماً غانماً إلى الكوفة، فمر بالموصل، وجاءه كتاب عثمان، وهو بها يأمره أن يمد أهل الشام على حرب أهل الروم.



(١) «أبو مخنف» كمنبر، هو: لوط بن يحيى، أخباري شيعي تالف متروك، كذا في القاموس المحيط، ولكن ابن كثير وصفه بأنه: «أحد أئمة هذا الشأن» أي: التاريخ، ذكره فيما وقع سنة سبع وثلاثين، وكثير من روايات ابن جرير الطبري عنه.

نَجدَةُ أهلِ الشّام ضدّ الرُّوم

قال ابن جرير: وفي هذه السنة ـ أي: سنة أربع وعشرين ـ جاشت الروم، حتى خاف أهل الشام، وبعثوا إلى عثمان رضي الله عنه يستمدونه، فكتب إلى الوليد بن عقبة: أن إذا جاءك كتابي هذا، فابعث رجلاً أميناً كريماً شجاعاً، في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إلى إخوانكم بالشام، فقام الوليد بن عقبة في الناس خطيباً، حين وصل إليه كتاب عثمان، فأخبرهم بما أمره به أمير المؤمنين، وندب الناس وحثهم على الجهاد، ومعاونة معاوية وأهل الشام، وأمَّر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام، فانتدب في ثلاثة أيام ثمانية آلاف، فبعثهم إلى الشام، وعلى جند المسلمين حبيب بن مسلم الفهري، فلما اجتمع الجيشان، شنوا الغارات على بلاد الروم، فغنموا وسبوا شيئاً كثيراً، وفتحوا حصوناً كثيرة ولله الحمد.

وزعم الواقدي: أن الذي أمد أهل الشام بسلمان بن ربيعة، إنما هو سعيد بن العاص، عن كتاب عثمان رضي الله عنه، فبعث سعيد بن العاص سلمان بن ربيعة بستة آلاف فارس، حتى انتهى إلى حبيب بن مسلمة، وقد أقبل إليه الموريان الرومي في ثمانين ألفاً من الروم والترك، وكان حبيب بن مسلمة شجاعاً شهماً، فعزم على أن يُبيِّت جيش الروم، فسمعته امرأته يقول للأمراء ذلك، فقالت له: فأين موعدي معك ـ تعني: أين أجتمع بك غداً ـ فقال لها: موعدك سرادق الموريان أو الجنة، ثم نهض إليهم في ذلك الليل بمن معه من المسلمين، فقتل مَنْ أشرف له، وسبقته امرأته إلى سرادق الموريان، فكانت أول امرأة من العرب، ضُرب عليها سرادق، وقد مات عنها حبيب بن مسلمة بعد ذلك، فخلف عليها بعده الضحاك بن قيس الفهري، فهي أم ولده.

غزوة إفريقية

أمر عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، أن يغزو بلاد إفريقية، فإذا افتتحها الله عليه فله خمس الخمس من الغنيمة نفلاً، فسار إليها في عشرة آلاف، فافتتحها سهلها وجبلها، وقتل خلقاً كثيراً من أهلها، ثم اجتمعوا على الطاعة والإسلام، وحسن إسلامهم، وأخذ عبد الله بن سعد خمس الخمس من الغنيمة، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان، وقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الجيش، فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار.

قال الواقدي: وصالحه بِطْريقها على ألفي ألف دينار وعشرين ألف دينار، فأطلقها كلها عثمان في يوم واحد لآل الحكم، ويقال: لآل مروان.



غزوة الأَندلس

لما افتتحت إفريقية، بعث عثمان إلى عبد الله بن نافع بن عبد قيس، وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين، من فورهما إلى الأندلس، فأتياها من قبل البحر، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول: إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس، فأنتم شركاء لمن يفتتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان والسلام، قال: فساروا إليها فافتتحوها ولله الحمد والمنة.



وقعة جرجير والبربر مع المسلمين

لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وفي جيشه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل: في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان، أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم يرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه، قال عبد الله بن الزبير: فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف، وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان، قال: فأمر بهم فحموا ظهري، وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه ـ وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك ـ فلما اقتربت منه أحس مني الشر، ففر على برذونه، فلحقته فطعنته برمحي، وذَفَّفت[1] عليه بسيفي، وأخذت رأسه، فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر، فَرَقُوا وفروا كفرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فغنموا غنائم جمة وأموالاً كثيرة، وسبياً عظيماً، وذلك ببلد يقال له: سبيطلة ـ على يومين من القيروان ـ فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين.



(١) «ذففت عليه» بفتح الذال المعجمة بعدها فاءان أي: أجهزت عليه.

فتح جزيرة قُبرُص

ذكر ابن جرير فتح قبرص في سنة ثمان وعشرين تبعاً للواقدي، وهو قول الجمهور، وخالف أبو معشر فقال: كانت في سنة ثلاث وثلاثين، وهي: جزيرة غربي بلاد الشام في البحر، مخلصة وحدها، ولها ذنب مستطيل إلى نحو الساحل مما يلي دمشق، وغربيها أعرضها، وفيها فواكه كثيرة، ومعادن، وهي بلد جيد.

وكان فتحها على يدي معاوية بن أبي سفيان، ركب إليها في جيش كثيف من المسلمين، ومعه عبادة بن الصامت وزوجته أم حَرَام بنت مَلْحَان، التي من حديثها في ذلك، حين نام رسول الله ﷺ في بيتها ثم استيقظ يضحك فقالت: ما أضحكك يا رسول الله، فقال: «ناس من أمتي عُرضوا عليَّ، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، مثلَ الملوك على الأَسرة»، فقالت: يا رسول، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت من الأولين»، فكانت في هذه الغزوة وماتت بها، وكانت الثانية عبارة عن غزوة قسطنطينية بعد هذا كما سنذكره.

والمقصود: أن معاوية ركب البحر في مراكب، فقصد الجزيرة المعروفة بقبرص، ومعه جيش عظيم من المسلمين، وذلك بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه له في ذلك بعد سؤاله إياه، وقد كان سأل في ذلك عمر بن الخطاب، فأبى أن يمكنه من حمل المسلمين على هذا الخَلْق العظيم، الذي لو اضطرب لهلكوا عن آخرهم، فلما كان عثمان لحَّ معاوية عليه في ذلك، فأذن له، فركب في المراكب فانتهى إليها، ووافاه عبد الله بن سعد بن أبي سرح إليها من الجانب الآخر، فالتقيا على أهلها، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبايا كثيرة، وغنموا مالاً جزيلاً جيداً، ولما جيء بالأسارى، جعل أبو الدرداء يبكي، فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة، لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سُلط على قوم السبي، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى، إذا تركوا أمره؟!

ثم صالحهم معاوية على سبعة آلاف دينار في كل سنة، وهادنهم، فلما أرادوا الخروج منها، قُدِّمت لأم حرام بغلة لتركبها، فسقطت عنها فاندقت عنقها فماتت هناك فقبرها هنالك[1].



(١) ونقول ونحن في العام السادس عشر بعد المائة الرابعة والألف للهجرة النبوية: إن قبر هذه الصحابية الجليلة ما زال موجوداً، خلف الجدار القبلي لمسجد هناك، بالقرب من مدينة «لارنكا» الواقعة الآن تحت سيطرة القبارصة اليونان، بعد طردهم المسلمين الأتراك من هذه المدينة، ومن معظم أراضي قبرص، والمسجد المذكور مهجور منذ إخراج المسلمين الأتراك من تلك البلاد، وقد حولته السلطة اليونانية القبرصية إلى مرفق سياحي، واتخذوا إلى جوار المسجد ملهىً كبيراً، وقد شاهدت ذلك بنفسي، والله المستعان.

غزوة ذات الصَّواري

كانت «غزوة الصواري»، و «غزوة الأساودة» في البحر، في سنة إحدى وثلاثين فيما ذكره الواقدي، وقال أبو معشر: كانت غزوة الصواري سنة أربع وثلاثين.

وملخص ذلك فيما ذكره الواقدي وسيف وغيرهما: أن الشام كان قد جمعها لمعاوية بن أبي سفيان، لسنتين مضتا من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد أحرزه غاية الحفظ وحمى حوزته، ومع هذا له في كل سنة غزوة في بلاد الروم في زمن الصيف، ـ ولهذا يسمون هذه الغزوة الصائفة ـ فيقتلون خلقاً، ويأسرون آخرين، ويفتحون حصوناً ويغنمون أموالاً ويرعبون الأعداء، فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح، من أصاب من الفرنج والبربر، ببلاد إفريقية والأندلس، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لم ير مثله منذ كان الإسلام، خرجوا في خمسمائة مركب، وقصدوا عبد الله بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب، فلما تراءى الجمعان، بات الروم يقسقسون ويصلبون، وبات المسلمون يقرؤن ويصلون، فلما أصبحوا صف عبد الله بن سعد أصحابه صفوفاً في المراكب، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن، قال بعض من حضر ذلك: فأقبلوا إلينا في أمر لم ير مثله من كثرة المراكب، وعقدوا صواريها، وكانت الريح لهم وعلينا، فأرسينا، ثم سكنت الريح عنا، فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر، فمات الأعجل منا ومنكم، قال: فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا: الماء الماء، قال: فدنونا منهم، وربطنا سفننا بسفنهم، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر، وضربت الأمواج في عيون تلك السفن، حتى ألجأتها إلى الساحل، وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل، حتى صارت مثل الجبل العظيم، وغلب الدم على لون الماء، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط، وقتل منهم بشر كثير، ومن الروم أضعاف ذلك، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهرب قسطنطين وجيشه ـ وقد قلوا جداً ـ وبه جراحات شديدة مكينة، مكث حيناً يداوى

منها بعد ذلك، وأقام عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بذات الصواري أياماً، ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً.

قال الواقدي: فحدثني معمر عن الزهري قال: كان في هذه الغزوة محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر، فأظهرا عيب عثمان وما غَيَّر وما خالف أبا بكر وعمر، ويقولان: دمه حلال، لأنه استعمل عبد الله بن سعد، وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم، وأباح رسول الله ﷺ دمه، وأخرج رسول الله ﷺ أقواماً واستعملهم عثمان، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين، ولقوا العدو فكانا أنكل المسلمين قتالاً، فقيل لهما في ذلك فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه؟ فأرسل إليهما عبد الله بن سعد، فنهاهما أشد النهي وقال: والله لولا لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين، لعاقبتكما وحبستكما.



الفصل الثالث

فتنة البُغَاةِ، ومقتل عثمان رضي الله عنه

* أولُ ظُهور الفتنة.
* مَجيءُ البُغَاةِ إلى المدينة.
* حَصْرُ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.
* صِفَةُ قتله رضي الله عنه.



أوَّل ظهور الفتنة

كان ذلك في سنة ثلاث وثلاثين، حين سَيَّر أمير المؤمنين جماعة من قراء أهل الكوفة إلى الشام، وكان سبب ذلك: أنهم تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر، فكتب إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه عثمان، أن يجليهم عن بلده إلى الشام، وكتب عثمان إلى معاوية أمير الشام، أنه قد أُخرج إليك قراء من أهل الكوفة، فأنزلهم وأكرمهم وتألفهم، فلما قدموا، أنزلهم معاوية وأكرمهم، واجتمع بهم ووعظهم، ونصحهم فيما يعتمدونه من اتباع الجماعة وترك الانفراد والابتعاد، فأجابه متكلمهم والمترجم عنهم، بكلام فيه بشاعة وشناعة، فاحتملهم معاوية لحلمه، وأخذ في مدح قريش ـ وكانوا قد نالوا منهم ـ وأخذ في المدح لرسول الله ﷺ، والثناء عليه، والصلاة والتسليم، وافتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه، وقال فيما قال: وأظن أبا سفيان، لو وَلَدَ الناسَ كلهم لم يلد إلا حازماً، فقال له صعصعة بن صوحان: كذبت، قد ولد الناس كلهم لمن هو خير من أبي سفيان، من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البر والفاجر، والأحمق والكيس، ثم بذل لهم النصح مرة أخرى، فإذا هم يتمادون في غيهم، ويستمرون على جهالتهم وحماقتهم، فعند ذلك أخرجهم من بلده ونفاهم عن الشام، لئلا يشوشوا عقول الطِّغام، وذلك أنه كان يشتمل مطاوي كلامهم، على القدح في قريش، كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه، من نصرة الدين وقمع المفسدين، وإنما يريدون بهذا التنقيص والعيب ورجم الغيب، وكانوا يشتمون عثمان وسعيد بن العاص، وكانوا عشرة، وقيل: تسعة وهو الأشبه، منهم: كميل بن زياد، والأشتر النخعي واسمه: مالك بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعي، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد وعمرو بن الحَمِقِ الخزاعي.

فلما خرجوا من دمشق، أَوَوْا إلى الجَزيرة، فاجتمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان نائباً على الجزيرة، ثم ولي بعد ذلك، فهددهم وتوعدهم،

فاعتذروا إليه، وأنابوا إلى الإقلاع عما كانوا عليه، فدعا لهم وسير مالكاً الأشتر النخعي إلى عثمان بن عفان، ليعتذر إليه عن أصحابه بين يديه، فقبل ذلك منهم وكف عنهم، وخيرهم أن يقيموا حيث أحبوا، فاختاروا أن يكونوا في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقدموا عليه حمص، فأمرهم بالمقام بالساحل، وأجرى عليهم الرزق.

ويقال: بل لما مقتهم معاوية، كتب فيهم إلى عثمان، فجاءه كتاب عثمان أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه، فلما رجعوا كانوا أزلق ألسنة، وأكثر شراً، فضج منهم سعيد بن العاص إلى عثمان، فأمره أن يسيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص، وأن يلزموا الدروب.

وسَيَّر عثمان أيضاً بعض أهل البصرة منها إلى الشام، وإلى مصر، بأسباب مسوغة لما فعل رضي الله عنه، فكان هؤلاء ممن يؤلب عليه، ويمالىء الأعداء في الحطِّ والكلام فيه، وهم الظالمون في ذلك، وهو البارّ الراشد رضي الله عنه.

ثم تكاتب المنحرفون عن طاعة عثمان، وكان جمهورهم من أهل الكوفة ـ وهم في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص ـ منفيون عن الكوفة، وثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة، وتألبوا عليه، ونالوا منه ومن عثمان، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما فعل، وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة، وتولية جماعة من بني أمية من أقربائه، وأغلظوا له في القول، وطلبوا منه أن يعزل عماله، ويستبدل أئمة غيرهم من السابقين ومن الصحابة، حتى شق ذلك عليه جداً، وبعث إلى أمراء الأجناد، فأحضرهم عنده ليستشيرهم، فاجتمع إليه: معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمرو بن العاص أمير مصر، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير المغرب، وسعيد بن العاص أمير الكوفة، وعبد الله بن عامر أمير البصرة، فاستشارهم فيما حدث من الأمر وافتراق الكلمة.

فأشار عبد الله بن عامر، أن يشغلهم بالغزو عما هم فيه من الشر، فلا يكون همّ أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دُبُرِ دابته وقَمْلِ فروته، فإن غوغاء الناس إذا تفرغوا وبطلوا، اشتغلوا بما لا يغني، وتكلموا بما لا يرضي، وإذا تفرقوا نفعوا أنفسهم وغيرهم.

وأشار سعيد بن العاص، بأن يستأصل شأفة المفسدين ويقطع دابرهم، وأشار معاوية بأن يرد عماله إلى أقاليمهم، وأن لا يلتفت إلى هؤلاء وما تألبوا عليه من الشر، فإنهم أقل وأضعف جنداً.

وأشار عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بأن يتألفهم بالمال، فيعطيهم منه ما يكف به شرهم، ويأمن غائلتهم، ويعطف به قلوبهم إليه.

وأما عمرو بن العاص فقام فقال: أما بعد يا عثمان، فإنك قد ركبت الناس ما يكرهون، فإما أن تعزل عنهم ما يكرهون، وإما أن تقدم، فتنزل عمالك على ما هم عليه، وقال له كلاماً فيه غلظة، ثم اعتذر إليه في السر بأنه إنما قال هذا، ليبلغ عنه مَنْ كان حاضراً من الناس إليهم، ليرضوا من عثمان بهذا، فعند ذلك قرر عثمان عماله على ما كانوا عليه، وتألف قلوب أولئك بالمال، وأمر بأن يبعثوا إلى الغزو إلى الثغور، فجمع بين المصالح كلها.

ولما رجعت العمال إلى أقاليمها، امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاص، ولبسوا السلاح، وحلفوا أن لا يمكنوه من الدخول فيها، حتى يعزله عثمان ويولي عليهم أبا موسى الأشعري، وكان اجتماعهم بمكان يقال له: الجَرَعَة[1]، وأحجم سعيد عن قتالهم، وصمموا على منعه، وقد اجتمع في مسجد الكوفة في هذا اليوم، حذيفة وأبو مسعود عقبة بن عمرو، فجعل أبو مسعود يقول: والله لا يرجع سعيد بن العاص حتى يكون دماء، فجعل حذيفة يقول: والله ليرجعن، ولا يكون فيها محجمة من دم، وما أعلم اليوم شيئاً إلا وقد علمته ومحمد ﷺ حي.

والمقصود: أن سعيد بن العاص، كر راجعاً إلى المدينة وكسر الفتنة، فأعجب ذلك أهل الكوفة، وكتبوا إلى عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري بذلك، فأجابهم عثمان إلى ما سألوا إزاحة لعذرهم، وإزالة لشبههم، وقطعاً لعللهم.

وذكر سيف بن عمر: أن سبب تألب الأحزاب على عثمان، أن رجلاً يقال له: «عبد الله بن سبأ»، كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر، فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، مضمونه أنه يقول للرجل: أليس قد ثبت أن عيسى ابن مريم سيعود إلى هذه الدنيا؟ فيقول الرجل: نعم! فيقول له، فرسول الله ﷺ أفضل منه، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا، وهو أشرف من عيسى ابن مريم؟ ثم يقول: وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب، فمحمد خاتم الأنبياء، وعليّ خاتم الأوصياء، ثم يقول: فهو أحق بالإمرة من عثمان، وعثمان معتد في ولايته ما ليس له، فأنكروا عليه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فافتتن

---

(١) «الجَرَعة» بثلاث فتحات، مكان مشرف قرب القادسية.

به بشر كثير من أهل مصر، وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة، فتمالئوا على ذلك، وتكاتبوا فيه، وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان، وأرسلوا إليه من يناظره، ويذكر له ما ينقمون عليه، من توليته أقرباءه وذوي رحمه، وعزله كبار الصحابة، فدخل هذا في قلوب كثير من الناس، فجمع عثمان بن عفان نوابه من الأمصار، فاستشارهم فأشاروا عليه بما تقدم ذكرنا له فالله أعلم.

وقال الواقدي فيما رواه عن عبد الله بن محمد عن أبيه قال: لما كانت سنة أربع وثلاثين، أكثر الناس بالمقالة على عثمان بن عفان، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، فكلم الناس علي بن أبي طالب أن يدخل على عثمان، فدخل عليه فقال له: إن الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمور خفي عنك إدراكها، وقد رأيت وسمعت، وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا، ولا سبقاك إلى شيء، فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تُبصر مِنْ عَمى، ولا تعلم مِنْ جَهْل، وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة، تعلم يا عثمان، أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُدي وهَدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة معلومة، فوالله إن كلاً لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله، إمام جائر ضل وأضل به، فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم، فيدور فيها كما تدور الرحا، ثم يرتطم في غمرة جهنم»، وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقمته، فإن عذابه أليم شديد، واحذر أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبس أمورها عليها، ويتركون شيعاً لا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرحون فيها مرحاً؛ فقال عثمان: قد والله علمت لتقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني، ما عنفتك ولا أسلمتك، ولا عبت عليك، ولا جئت منكراً، إني وصلت رحماً، وسددت خلة، وآويت ضائعاً، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي، أنشدك الله يا علي، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم! قال: فتعلم أن عمر ولاه؟ قال: نعم! قال: فلم تلوموني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ فقال علي: سأخبرك؟ إن عمر كان كلما ولى أميراً،

فإنما يطأ على صماخيه، وأنه إن بلغه حرف جاء به، ثم بلغ به أقصى الغاية في العقوبة، وأنت لا تفعل، ضعفت ورفقت على أقربائك، فقال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً، فقال علي: لعمري إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم، قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية خلافته كلها، فقد وليته، فقال علي: أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من «يَرْفَأ» غلام عمر منه؟ قال: نعم! قال علي: فإن معاوية يقطع الأمور دونك، وأنت تعلمها، ويقول للناس: هذا أمر عثمان، فليبلغك فلا تنكر ولا تغير على معاوية.

ثم خرج عليّ من عنده وخرج عثمان على إثره، فصعد المنبر فوعظ وحذر وأنذر، وتهدد وتوعد، وأبرق وأرعد، فكان فيما قال: ألا فقد والله عبتم علي بما أقررتم به لابن الخطاب، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم علي، أما والله لأنا أعز نفراً، وأقرب ناصراً، وأكثر عدداً وأقمن إن قلت: هلمّ إليّ إليّ، ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلت عليكم فضولاً، وكشرت لكم عن نابي، فأخرجتم مني خُلُقاً لم أكن أحسنه، ومنطقاً لم أنطق به، فكفوا ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يليكم، لرضيتم منه بدون منطقي هذا، ألا فما تفقدون من حقكم؟ فوالله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ثم اعتذر عما كان يعطي أقرباءه، بأنه من فضل ماله؛ فقام مروان بن الحكم فقال: إن شئتم والله حكمنا بيننا وبينكم السيف، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر:

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنونَ في دِمَنِ الثَّرَى

فقال عثمان: اسكت لا سكتَّ، دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا، ألم أتقدم إليك أن لا تنطق، فسكت مروان ونزل عثمان رضي الله عنه.

وذكر سيف بن عمر وغيره: أن معاوية لما ودعه عثمان حين عزم على الخروج إلى الشام، عرض عليه أن يرحل معه إلى الشام، فإنهم قوم كثيرة طاعتهم للأمراء، فقال: لا أختار بجوار رسول الله ﷺ سواه، فقال: أجهز لك جيشاً من الشام، يكونون عندك ينصرونك؟ فقال: إني أخشى أن أضيق بهم بلد رسول الله ﷺ على أصحابه من المهاجرين والأنصار، قال معاوية: فوالله يا أمير المؤمنين لتغتالن ـ أو قال: لتغزين ـ فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم خرج معاوية من عنده، وهو متقلد السيف وقوسه في يده، فمر على ملأ

من المهاجرين والأنصار، فيهم علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، فوقف عليهم واتكأ على قوسه، وتكلم بكلام بليغ يشتمل على الوصاة بعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، والتحذير من إسلامه إلى أعدائه، ثم انصرف ذاهباً، فقال الزبير: ما رأيته أهيب في عيني من يومه هذا.



مجيء البغاة إلى المدينة

كان ذلك في سنة خمس وثلاثين، وكان السبب في ذلك: أن عمرو بن العاص حين عزله عثمان عن مصر، ولّى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان سبب ذلك، أن الخوارج من المصريين، كانوا محصورين من عمرو بن العاص، مقهورين معه، لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفة ولا أمير، فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان، لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو ألين منه، فلم يزل ذلك دأبهم، حتى عزل عمراً عن الحرب، وتركه على الصلاة، وولى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ ثم سعوا فيما بينهما بالنميمة فوقع بينهما، حتى كان بينهما كلام قبيح، فأرسل عثمان فجمع لابن أبي سرح جميع عمالة مصر، خراجها وحربها وصلاتها، وبعث إلى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك، فأقدم إلي، فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة، وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشر كبير، فكلمه فيما كان من أمره بنفس، وتقاولا في ذلك، وافتخر عمرو بن العاص بأبيه على عثمان، وأنه كان أعز منه، فقال له عثمان: دع هذا فإنه من أمر الجاهلية، وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان، وكان بمصر جماعة يبغضون عثمان، ويتكلمون فيه بكلام قبيح على ما قدمنا، وينقمون عليه في عزله جماعة من علية الصحابة، وتوليته من دونهم، أو من لا يصلح عندهم للولاية.

وكره أهل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بعد عمرو بن العاص، واشتغل عبد الله بن سعد عنهم بقتال أهل المغرب، وفتحه بلاد البربر والأندلس وإفريقية، ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة، يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه، وكان عظم ذلك مسنداً إلى محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، حتى استنفرا نحواً من ستمائة راكب، يذهبون إلى المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب، لينكروا على عثمان، فساروا إليها تحت أربع رفاق، وأمر الجميع إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر

التجيبي، وسودان بن حمران السَّكوني؛ وأقبل معهم محمد بن أبي بكر، وأقام بمصر محمد بن أبي حذيفة، يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء.

وكتب عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان، يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة، منكرين عليه في صفة معتمرين، فلما اقتربوا من المدينة، أمر عثمان علي بن أبي طالب أن يخرج إليهم، ليردهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة؛ ويقال: بل ندب الناس إليهم، فانتدب علي لذلك فبعثه، وخرج معه جماعة الأشراف، وأمره أن يأخذ معه عمار بن ياسر، فقال علي لعمار، فأبى عمار أن يخرج معه، فبعث عثمان سعد بن أبي وقاص، أن يذهب إلى عمار ليحرضه على الخروج مع علي إليهم، فأبى عمار كل الإباء، وامتنع أشد الامتناع، وكان متعصباً على عثمان، بسبب تأديبه له على أمر وضربه إياه في ذلك، وذلك بسبب شتمه عباس بن عتبة بن أبي لهب، فأدبهما عثمان، فتآمر عمار عليه لذلك، وجعل يحرض الناس عليه، فنهاه سعد بن أبي وقاص عن ذلك ولامه عليه، فلم يقلع عنه ولم يرجع ولم ينزع.

فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره، فردهم وأنبهم وشتمهم، فرجعوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به، ويقال: إنه ناظرهم في عثمان، وسألهم ماذا ينقمون عليه؟ فذكروا أشياء منها: أنه يحمي الحمى، وأنه حرق المصاحف، وأنه أتم[1] الصلاة، وأنه ولَّى الأحداثَ الولايات، وترك الصحابة الأكابر، وأعطى بني أمية أكثر من الناس، فأجاب علي عن ذلك: أما الحمى، فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه، وقد حماه عمر من قبله؛ وأما المصاحف، فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة، وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتمها، وأما توليته الأحداث فلم يول إلا رجلاً سوياً عدلاً، وقد ولَّى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولَّى أسامة بن زيد بن حارثة، وطعن الناس في إمارته، فقال: «إنه لخليق بالأمارة»، وأما إيثاره قومه بني أمية، فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشاً على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي، لأدخلت بني أمية إليها.

(١) قوله: «وأنه أتم الصلاة» أي: في منى.

ويقال: إنهم عتبوا عليه في عمار ومحمد بن أبي بكر، فذكر عثمان عذره في ذلك، وأنه أقام فيهما ما كان يجب عليهما.

وعتبوا عليه في إيوائه الحكم بن أبي العاص، وقد نفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف، فذكر أن رسول الله ﷺ كان قد نفاه إلى الطائف ثم رده، ثم نفاه إليها، قال: فقد نفاه رسول الله ﷺ ثم رده.

وروي أن عثمان، خطب الناس بهذا كله، بمحضر من الصحابة، وجعل يستشهد بهم، فيشهدون له فيما فيه شهادة له؛ ويروى أنهم بعثوا طائفة منهم، فشهدوا خطبة عثمان هذه.

فلما تمهدت الأعذار، وانزاحت عللهم، ولم يبق لهم شبهة، أشار جماعة من الصحابة على عثمان بتأديبهم، فصفح عنهم، رضي الله عنه، وردهم إلى قومهم، فرجعوا خائبين من حيث أتوا، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا أملوا وراموا، ورجع علي إلى عثمان، فأخبره برجوعهم عنه، وسماعهم منه، وأشار على عثمان، أن يخطب الناس خطبة، يعتذر إليهم فيها مما كان وقع في الأثرة لبعض أقاربه، ويشهدهم عليه بأنه قد تاب من ذلك، وأناب إلى الاستمرار على ما كان عليه من سيرة الشيخين قبله، وأنه لا محيد عنها، كما كان الأمر أولاً في مدة ست سنين الأول، فاستمع عثمان هذه النصيحة، وقابلها بالسمع والطاعة، ولما كان يوم الجمعة وخطب الناس، رفع يديه في أثناء الخطبة، وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أول تائب مما كان مني، وأرسل عينيه بالبكاء، فبكى المسلمون أجمعون، وحصل للناس رقة شديدة على إمامهم، وأشهد عثمان الناس على نفسه بذلك، وأنه قد لزم ما كان عليه الشيخان، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنه قد سبل بابه، لمن أراد الدخول عليه، لا يمنع أحد من ذلك، ونزل فصلى بالناس، ثم دخل منزله وجعل من أراد الدخول على أمير المؤمنين لحاجة أو مسألة أو سؤال، لا يمنع أحد من ذلك مدة.

قال الواقدي[١]: فحدثني علي بن عمر[٢] عن أبيه قال: ثم إن علياً جاء عثمان بعد انصراف المصريين فقال له: تكلم كلاماً تَسمعه الناس منك ويشهدون عليك،

---

(١) قوله: «قال الواقدي... إلخ»، لم يذكر ابن جرير هذه الرواية، بل أشار إليها وذكر سبب عدم ذكرها فقال:
[وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسير المصريين إلى عثمان، ونزولهم ذا خُشُبٍ، أموراً كثيرة منها ما تقدم ذكره، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته].

(٢) هو: عمر بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإن البلاد قد تمخضت عليك، ولا آمن ركباً آخرين يقدمون من قبل الكوفة، فتقول: يا علي اركب إليهم، ويقدم آخرون من البصرة فتقول: يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل، قطعت رحمك واستخففت بحقك، قال: فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها، وأعلم الناس من نفسه التوبة، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فوالله ما عاب من عاب شيئاً أجهله، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه، ولكن ضلّ رشدي، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زل فليتب، ومن أخطأ فليتب، ولا يتمادى في الهلكة، إن من تمادى في الجور، كان أبعد عن الطريق، فأنا أول من اتعظ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت، فليأتني أشرافكم، فوالله لأكوننّ كالمرقوق، إن مُلِكَ صَبَر، وإن عَتَقَ شكر، وما عن الله مذهب إلا إليه»، قال: فَرَقَّ الناس له، وبكى من بكى، وقام إليه سعيد بن زيد فقال: يا أمير المؤمنين! الله الله في نفسك! فأتمم على ما قلتَ، فلما انصرف عثمان إلى منزله، وجد به جماعة من أكابر الناس، وجاءه مروان بن الحكم فقال: أتكلم يا أمير المؤمنين أم أصمت؟ فقالت امرأة عثمان ـ نائلة بنت الفرافصة الكلبية ـ من وراء الحجاب: بل اصمت، فوالله إنهم لقاتلوه، ولقد قال مقالة لا ينبغي النزوع عنها، فقال لها: وما أنت وذاك!؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ، فقالت له: دع ذكر الآباء، ونالت من أبيه الحكم، فأعرض عنها مروان، وقال لعثمان: يا أمير المؤمنين، أتكلم أم أصمت؟ فقال له عثمان: بل تكلم؛ فقال مروان: بأبي أنت وأمي، لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممنع منيع، فكنت أول من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت، حين جاوز الحِزَام الطُّبْيَيْن[1]، وبلغ السيل الزُّبَا[2]، وحين أعطى الخُطَّة الذليلة الذليلُ، والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها، خير من توبة تُخَوَّفُ عليها، وإنك لو شئت، لعزمت التوبة ولم تقرر بالخطيئة، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس، فقال عثمان: قم فاخرج إليهم فكلمهم، فإني أستحي أن أكلمهم، قال: فخرج مروان إلى الباب، والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم؟ كأنكم قد جئتم لنهب، شاهت الوجوه، كل إنسان آخذ بأذن صاحبه ألاَ مَنْ أُرِيدَ، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا

(١) قوله: «حين جاوز الحزام الطبيين» مثنى «طبي» بكسر الطاء المهملة وضمها، جمعه «أَطْبَاء» وهي: حلمات ضرع الحيوانات، وهو مثل يضرب على أمر فات أوانه.

(٢) «الزبا» جمع «زُبْيَة» بضم الزاي، وهي: الروابي التي لا يعلوها الماء، والمعنى: تجاوز الأمر حدوده.

عنا، أما والله لئن رمتمونا، ليمرن عليكم منا أمر يسؤكم ولا تحمدوا غِبَّ رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا، قال: فرجع الناس، وخرج بعضهم حتى أتى علياً فأخبره الخبر، فجاء علي مغضباً حتى دخل على عثمان، فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك، إلا بتَحَرُّفك عن دينك وعقلك؟! وإن مثلك مثل جمل الظعينة، يقاد حيث يسار به، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله، إني لأراه سيوردك ثم لا يُصْدِرُكَ، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت سوقك، وغُلبت على أمرك، فلما خرج علي، دخلت نائلة على عثمان فقالت: أتكلم أو أسكت؟ فقال: تكلمي، فقالت: سمعت قول علي أنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان حيث شاء؟، قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وحده لا شريك له، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الله قدر ولا هيبة ولا محبة، فأرسل إلى علي فاستصلحه، فإن له قرابة منك وهو لا يعصى، قال: فأرسل عثمان إلى علي، فأبى أن يأتيه، وقال: لقد أعلمته أني لست بعائد، قال: وبلغ مروان قول نائلة فيه، فجاء إلى عثمان فقال: أتكلم أو سكت؟ فقال: تكلم، فقال: إن نائلة الفرافصة، فقال عثمان: لا تذكرها بحرف فأسوء إلى وجهك، فهي والله أنصح لي منك؛ قال: فكف مروان.

ثم إن أهل الأمصار، لما بلغهم خبر مروان، وغضب عليّ على عثمان بسببه، ووجدوا الأمر على ما كان عليه لم يتغير، ولم يسلك سيرة صاحبيه، تكاتب أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وتراسلوا، وزُوِّرت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة، وعلى لسان علي وطلحة والزبير، يدعون الناس إلى قتال عثمان ونصر الدين، وأنه أكبر الجهاد اليوم.

وذكر سيف بن عمر التميمي، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، وقاله غيرهم أيضاً، قالوا:

لما كان في شوال سنة خمس وثلاثين، خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء، المقلِّل لهم يقول: ستمائة، والمكثر يقول: ألف، على الرفاق عبد الرحمن بن عُدَيس البَلَوي، وكنانة بن بشر التُّجيبي، وعروة بن شييم الليثي، وسودان بن حُمْران السَّكُوني، وقُتَيرة السَّكوني، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العَكِّي، وخرجوا فيما يظهرون للناس حجاجاً، ومعهم ابن السوداء، وكان أصله ذمياً، فأظهر الإسلام وأحدث بدعاً قولية وفعلية، قبحه الله.

وخرج أهل الكوفة في عدتهم في أربع رفاق أيضاً، وأمراؤهم: زيد بن صُوحان، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم، وعددهم كعدد أهل مصر، وعلى الجميع عمرو بن الأصم.

وخرج أهل البصرة في عدتهم أيضاً في أربع رايات، مع حُكَيْم بن جبلة العبدي، وبشر بن شريح بن ضُبيعة القيسي، وذريح بن عباد العبدي، وعليهم كلهم حُرقوص بن زهير السعدي.

وأهل مصر مصرون على ولاية علي بن أبي طالب، وأهل الكوفة عازمون على تأمير الزبير، وأهل البصرة مصممون على تولية طلحة، لا تشك كل فرقة أن أمرها سيتم، فسار كل طائفة من بلدهم حتى توافوا حول المدينة، كما تواعدوا في كتبهم، في شهر شوال، فنزل طائفة منهم بذي خُشُبٍ، وطائفة بالأعوص، والجمهور بذي المروة، وهم على وجل من أهل المدينة، فبعثوا قصاداً وعيوناً بين أيديهم، ليخبروا الناس أنهم إنما جاؤا للحج لا لغيره، وليستعفوا هذا الوالي من بعض عماله، ما جئنا إلا لذلك، واستأذنوا للدخول، فكل الناس أبى دخولهم ونهى عنه، فتجاسروا واقتربوا من المدينة.

وجاءت طائفة من المصريين إلى علي، وهو في عسكر عند أحجار الزيت، عليه حُلَّةُ أَفْوافٍ[1]، معتم بشقيقة حمراء يمانية، متقلداً السيف وليس عليه قميص، وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه، فسلم عليه المصريون فصاح بهم وطردهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خب، ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لا صبحكم الله، قالوا: نعم! وانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي، وقد أرسل ابنيه إلى عثمان، فسلموا عليه فصاح بهم وطردهم، وقال لهم كما قال علي لأهل مصر، وكذلك كان رد الزبير على أهل الكوفة.

فرجع كل فريق منهم إلى قومهم، وأظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم، وساروا أياماً راجعين، ثم كروا عائدين إلى المدينة، فما كان غير قليل، حتى سمع أهل المدينة التكبير، وإذا القوم قد زحفوا على المدينة وأحاطوا بها، وجمهورهم عند

---

(١) «أفواف» جمع «فوف» بضم الفاء الأولى وهو: القطن.

دار عثمان بن عفان، وقالوا للناس: من كف يده فهو آمن، فكف الناس ولزموا بيوتهم، وأقام الناس على ذلك أياماً، هذا كله ولا يدري الناس ما القوم صانعون، ولا على ما هم عازمون، وفي كل ذلك، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان، يخرج من داره فيصلي بالناس، فيصلي وراءه أهل المدينة وأولئك الآخرون، وذهب الصحابة إلى هؤلاء يؤنبونهم ويعذلونهم على رجوعهم، حتى قال علي لأهل مصر: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ فقالوا: وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا، وكذلك قال البصريون لطلحة، والكوفيون للزبير، وقال أهل كل مصر: إنما جئنا لننصر أصحابنا، فقال لهم الصحابة: كيف علمتم بذلك من أصحابكم، وقد افترقتم وصار بينكم مراحل؟ إنما هذا أمر اتفقتم عليه، فقالوا: ضعوه على ما أردتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا ونحن نعتزله، يعنون: أنه إن نزل عن الخلافة تركوه آمناً.

وكان المصريون فيما ذكر، لما رجعوا إلى بلادهم وجدوا في الطريق بريداً يسير، فأخذوه ففتشوه، فإذا معه في إداوة كتاباً على لسان عثمان، فيه الأمر بقتل طائفة منهم، وبصلب آخرين، وبقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم، وكان على الكتاب طابع بخاتم عثمان، والبريد أحد غلمان عثمان وعلى جمله، فلما رجعوا جاءوا بالكتاب وداروا به على الناس، فكلم الناس أمير المؤمنين في ذلك، فقال: بينة عليَّ بذلك، وإلا فوالله لا كتبت ولا أمليت، ولا دريت بشيء من ذلك، والخاتم قد يزور على الخاتم، فصدقه الصادقون في ذلك، وكذبه الكاذبون.

ويقال: إن أهل مصر، كانوا قد سألوا من عثمان، أن يعزل عنهم ابن أبي سَرْح، ويولّي محمد بن أبي بكر، فأجابهم إلى ذلك، فلما وجدوا ذلك البريد، ومعه الكتاب بقتل محمد بن أبي بكر، وآخرين معه، فرجعوا، وقد حنقوا عليه حنقاً شديداً، وطافوا بالكتاب على الناس، فدخل ذلك في أذهان كثير من الناس.

وروى ابن جرير، من طريق محمد بن إسحاق، عن عمه عبد الرحمن بن يسار: أن الذي كان معه هذه الرسالة، من جهة عثمان إلى مصر، أبو الأعور السلمي، على جمل لعثمان.

وذكر ابن جرير من هذه الطريق: أن الصحابة كتبوا إلى الآفاق من المدينة، يأمرون الناس بالقدوم على عثمان ليقاتلوه، وهذا كذب على الصحابة، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم، كما كتبوا من جهة علي وطلحة والزبير، إلى الخوارج كتباً مزورة عليهم أنكروها، وهكذا زور هذا الكتاب على عثمان أيضاً، فإنه لم يأمر به ولم يعلم به أيضاً.

واستمر عثمان يصلي بالناس في تلك الأيام كلها، وهم أحقر في عينه من التراب، فلما كان في بعض الجمعات وقام على المنبر، وفي يده العصا التي كان يعتمد عليها رسول الله ﷺ في خطبته، وكذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من بعده، فقام إليه رجل من أولئك فسبه ونال منه، وأنزله على المنبر، فطمع الناس فيه من يومئذ، كما قال الواقدي: حدثني أسامة بن زيد، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: بينا أنا أنظر إلى عثمان على عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر، فقال له جهجاه: قم يا نَعْثَل[1] فانزل عن هذا المنبر، وأخذ العصا فكسرها على ركبته اليمنى، فدخلت شظية منها فيها، فبقي الجرح حتى أصابته الأَكِلَةُ[2] فرأيتها تَدَوَّدُ، فنزل عثمان وحملوه وأمر بالعصا فشدوها، فكانت مضببة، فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خَرْجَةً أو خرجتين، حتى حُصِرَ فقتل.

قال ابن جرير: وحدثنا أحمد بن إبراهيم، ثنا عبد الله بن إدريس، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع: أن الجهجاه الغفاري، أخذ عصا كانت في يد عثمان، فكسرها على ركبته، فرمي في ذلك المكان بأكلة.

وقال الواقدي: وحدثني ابن أبي الزناد، عن موسى بن عقبة، عن ابن أبي حبيبة قال: خطب عثمان الناس في بعض أيامه، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إنك ركبت نَهَابير[3] وركبناها معك، فتب نتب معك، فاستقبل عثمان القبلة وشمر يديه، قال ابن أبي حبيبة: فلم أرَ يوماً أكثر باكياً ولا باكية من يومئذ، ثم لما كان بعد ذلك، خطب الناس، فقام إليه جهجاه الغفاري فصاح إليه: يا عثمان ألا إن هذه شارِفٌ[4] قد جئنا بها، عليها عباءة وجامعة[5]، فانزل فلنُدَرِّعَنَّكَ العباءة، ولنطرحك في الجامعة، ولنحملك على الشارف ثم نطرحك في جبل الدخان، فقال عثمان: قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم نزل عثمان، قال ابن أبي حبيبة: وكان آخر ما رأيته فيه.

وقال الواقدي: حدثني أبو بكر بن إسماعيل عن أبيه، عن عامر بن سعد،

---

(١) «يانعثل» كجعفر، هو: رجل من بني لحيان، كان يشبه به عثمان رضي الله عنه إذا نيل منه.

(٢) «الأَكِلَة» كفَرِحَة، هو: داء في العضو يأتكل منه.

(٣) «نهابير» بالنون أوله، والباء الموحدة بعد الهاء، أي: مهالك، وفي المطبوعة «بهاتير» وهو تحريف.

(٤) «شارف»، هي: المسنة الهرمة من النوق.

(٥) «وجامعة» أي: غُلّ بضم الغين المعجمة، وهو القيد في العنق.

قال: كان أول من اجترأ على عثمان بالنطق السيىء، جبلة بن عمرو الساعدي، مر به عثمان وهو في نادي قومه، وفي يد جبلة جامعة، فلما مر عثمان سلم فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون عليه؟ رجل قال كذا وكذا، ثم أقبل على عثمان فقال: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك، أو لتتركن بطانتك هذه، فقال عثمان: أيُّ بطانة؟ فوالله لأتخير الناس، فقال: مروان تخيرته، ومعاوية تخيرته، وعبد الله بن عامر بن كريز تخيرته، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح تخيرته، منهم من نزل القرآن بذمه، وأباح رسول الله ﷺ دمه، قال: فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم.

وذكر سيف بن عمر: أن عثمان بعد أن صلى بالناس يوم الجمعة، صعد المنبر فخطبهم أيضاً فقال في خطبته: يا هؤلاء الغرباء! الله الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فامحوا الخطأ بالصواب، فإن الله لا يمحو السيىء إلا بالحسن، فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأخذه حُكَيم بن جبلة فأقعده، فقام زيد بن ثابت فقال: إنه في الكتاب، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي مريرة فأقعده وقال: يا نطع، وثار القوم بأجمعهم، فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشياً عليه، فاحتمل وأدخل داره، وكان المصريون لا يطمعون في أحد من الناس أن يساعدهم إلا محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر، وأقبل علي وطلحة والزبير، إلى عثمان في أناس يعودونه، ويشكون إليه بثهم وما حل بالناس، ثم رجعوا إلى منازلهم، واستقبل جماعة من الصحابة، منهم: أبو هريرة وابن عمر، وزيد بن ثابت في المحاربة عن عثمان، فبعث إليهم يقسم عليهم، لما كفوا أيديهم وسكنوا، حتى يقضي الله ما يشاء.



حَصْرُ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

لما وقع ما وقع يوم الجمعة، وشج أمير المؤمنين عثمان، وهو في رأس المنبر، وسقط مغشياً عليه، واحتمل إلى داره وتفاقم الأمر، وطمع فيه أولئك الأجلاف الأخلاط من الناس، وألجأوه إلى داره وضيقوا عليه، وأحاطوا بها محاصرين له، ولزم كثير من الصحابة بيوتهم، وسار إلى جماعة من أبناء الصحابة، عن أمر آبائهم، منهم الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير - وكان أمير الدار - وعبد الله بن عمرو، وصاروا، يحاجون عنه، ويناضلون دون أن يصل إليه أحد منهم، وأسلمه بعض الناس رجاء أن يجيب أولئك إلى واحدة مما سألوا، فإنهم كانوا قد طلبوا منه: إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، ولم يقع في خلد أحد، أن القتل كان في نفس الخارجين.

وانقطع عثمان عن المسجد، فكان لا يخرج إلا قليلاً في أوائل الأمر، ثم انقطع بالكلية في آخره، وكان يصلي بالناس في هذه الأيام الغافقي بن حرب، وقد استمر الحصر أكثر من شهر، وقيل: أربعين يوماً، حتى كان آخر ذلك أن قتل شهيداً رضي الله عنه، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

والذي ذكره ابن جرير: أن الذي كان يصلي بالناس في هذه المدة وعثمان محصور، طلحة بن عبيد الله[١]، وروى الواقدي: أن علياً صلى أيضاً، وصلى أبو أيوب، وصلى بهم سهل بن حنيف، وكان يجمع بهم علي، وهو الذي صلى بهم بعد، وقد خاطب الناس في غُبُون ذلك بأشياء، وجرت أمور سنورد منها ما تيسر وبالله المستعان.

روى الإمام أحمد عن عمرو بن جاوان قال: قال الأحنف: انطلقنا حجاجاً

---

(١) ولكن الذي هو مدون في تاريخ ابن جرير: أن الذي صلى بالناس حينها، هو خالد بن زيد أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

فمررنا بالمدينة، فبينا نحن في منزلنا، إذ جاءنا آت فقال: الناس في المسجد، فانطلقت أنا وصاحبي، فإذا الناس مجتمعون على نفر في المسجد، قال: فتخللتهم حتى قمت عليهم، فإذا علي بن أبي طالب، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، قال: فلم يكن ذلك بأسرع من أن جاء عثمان يمشي، فقال: ههنا علي؟ قالوا: نعم! قال: ههنا الزبير؟ قالوا: نعم! قال: ههنا طلحة؟ قالوا: نعم! قال: ههنا سعد بن أبي وقاص؟ قالوا: نعم! قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يبتاع مربد بني فلان غفر الله له»، فابتعته فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني قد ابتعته، فقال: «اجعله في مسجدنا وأجره لك»؟ قالوا: نعم! قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من يبتاع بئر رومة غفر الله له»، فابتعتها بكذا وكذا، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني قد ابتعتها - يعني: بئر رومة - قال: «اجعلها سقاية للمسلمين ولك أجرها»، قالوا: نعم! قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، تعلمون أن رسول الله ﷺ، نظر في وجوه القوم يوم جيش العسرة فقال: «من يجهز هؤلاء غفر الله له؟» فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً؟»، قالوا: اللهم نعم! فقال: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثم انصرف، ورواه النسائي من حديث حصين وعنده: إذ جاء رجل وعليه ملاءة صفراء.

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمر: أن عثمان أشرف على أصحابه وهو محصور، فقال: عَلاَمَ تقتلونني؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرىء إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو قتل عمداً فعليه القود، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل»، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت أحداً فأقيد نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. ورواه النسائي.

وروى الإمام أحمد، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: كنت مع عثمان في الدار وهو محصور، قال: وكنا ندخل مدخلاً إذا دخلناه سمعنا كلام مَنْ على البلاط، قال: فدخل عثمان يوماً لحاجته، فخرج إلينا منتقعاً لونه، فقال: إنهم ليتواعدوني بالقتل آنفاً، قال: قلنا: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين، قال: ولِمَ يقتلونني؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس»، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا تمنيت بدلاً بديني منذ هداني الله له، ولا قتلت نفساً، فبم يقتلونني؟، وقد رواه أهل السنن الأربعة.

وقد ذكر ابن جرير: أن عثمان رضي الله عنه، لما رأى ما فعل هؤلاء الخوارج من أهل الأمصار، من محاصرته في داره، ومنعه الخروج إلى المسجد، كتب إلى معاوية بالشام، وإلى ابن عامر بالبصرة وإلى أهل الكوفة، يستنجدهم في بعض جيش يطردون هؤلاء من المدينة، فبعث معاوية مسلمة بن أبي حبيب، وانتدب يزيد بن أسد القشيري في جيش، وبعث أهل الكوفة جيشاً، وأهل البصرة جيشاً، فلما سمع أولئك بخروج الجيوش إليهم صمموا في الحصار، فما اقترب الجيوش إلى المدينة حتى جاءهم قتل عثمان رضي الله عنه كما سنذكره.

وذكر ابن جرير: أن عثمان استدعى الأشتر النخعي، ووضعت لعثمان وسادة في كَوّة من داره، فأشرف على الناس، فقال له عثمان: يا أشتر ماذا يريدون؟ فقال: إنهم يريدون منك: إما أن تعزل نفسك عن الإمرة، وإما أن تفتدي من نفسك من قد ضربته، أو جلدته، أو حبسته، وإما أن يقتلوك، وفي رواية: أنهم طلبوا منه، أن يعزل نوابه عن الأمصار، ويولي عليها من يريدون هم، وإن لم يعزل نفسه، أن يسلم لهم مروان بن الحكم فيعاقبوه، كما زوّر على عثمان كتابه إلى مصر، فخشي عثمان إن سلمه إليهم أن يقتلوه، فيكون سبباً في قتل امرىء مسلم، وما فعل من الأمر ما يستحق بسببه القتل، واعتذر عن الاقتصاص مما قالوا، بأنه رجل ضعيف البدن كبير السن، وأما ما سألوه من خلعه نفسه، فإنه لا يفعل، ولا ينزع قميصاً قمصه الله إياه، ويترك أمة محمد يعدو بعضها على بعض، ويولي السفهاء من الناس من يختاروه هم، فيقع الهرج ويفسد الأمر بسبب ذلك، ووقع الأمر كما ظنه، فسدت الأمة ووقع الهرج.

وقال لهم فيما قال: وأي شيء إليّ من الأمر، إن كنت كلما كرهتم أميراً عزلته، وكلما رضيتم عنه وليته؟

وقال لهم فيما قال: والله لئن قتلتموني لا تتحابوا بعدي، ولا تصلوا جميعاً أبداً، ولا تقاتلوا بعدي عدواً جميعاً أبداً، وقد صدق رضي الله عنه فيما قال.

وكان الحصار مستمراً من أواخر ذي القعدة، إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة، فلما كان قبل ذلك بيوم، قال عثمان للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار ـ وكانوا قريباً من سبعمائة ـ ، فيهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن، والحسين، ومروان، وأبو هريرة، وخلق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه فقال لهم: أقسم على مَنْ لي عليه حق، أن يكفّ يده، وأن ينطلق إلى منزله، وعنده من أعيان الصحابة وأبنائهم جم غفير، وقال لرقيقه: من

أغمد سيفه فهو حر، فبرد القتال من داخل، وحمي من خارج، واشتد الأمر، وكان سبب ذلك، أن عثمان رأى في المنام رؤيا، دلّت على اقتراب أجله، فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده، وشوقاً إلى رسول الله ﷺ، وليكون خير ابني آدم، حيث قال حين أراد أخوه قتله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

وروي: أن آخر من خرج من عند عثمان من الدار، بعد أن عزم عليهم في الخروج: الحسن بن علي، وقد خرج، وكان أمير الحرب على أهل الدار، عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

قال أبو جعفر الداري، عن أيوب السِّخْتياني، عن نافع، عن ابن عمر: إن عثمان رضي الله عنه أصبح يحدّث الناس، قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال: «يا عثمان أفطر عندنا»، فأصبح صائماً، وقتل من يومه.

وقال موسى بن عقبة: حدثني أبو علقمة ـ مولى لعبد الرحمن بن عوف ـ حدثني ابن الصلت قال: أغفى عثمان بن عفان في اليوم الذي قتل فيه، فاستيقظ فقال: لولا أن يقول الناس تمنى عثمان أمنية لحدثتكم، قال: قلنا: أصلحك الله، حدثنا فلسنا نقول ما يقول الناس، فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي هذا، «فقال: إنك شاهد معنا الجمعة».

وروى أبو يعلى الموصلي، وعبد الله ابن الإمام أحمد، عن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان: أن عثمان أعتق عشرين مملوكاً، ودعا بسراويل فشدها، ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، وأبا بكر وعمر، وأنهم قالوا لي: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه، فقتل وهو بين يديه.

قلت: إنما لبس السراويل رضي الله عنه في هذا اليوم، لئلا تبدو عورته إذا قتل، فإنه كان شديد الحياء، كانت تستحي منه ملائكة السماء، كما نطق بذلك النبي ﷺ، ووضع بين يديه المصحف يتلو فيه، واستسلم لقضاء الله عز وجل، وكف يده عن القتال، وأمر الناس وعزم عليهم أن لا يقاتلوا دونه، ولولا عزيمته عليهم لنصروه من أعدائه، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً.

---

(١) الآية «٢٩» من سورة «المائدة».

صفة قتله رضي الله عنه

قال خليفة بن خياط: حدثنا ابن علية، ثنا ابن عوف عن الحسن قال: أنبأني رباب، قال: بعثني عثمان فدعوت له الأشتر فقال: ما يريد الناس؟ قال: ثلاث ليس من إحداهن بد، قال: ما هن؟ قال: يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول: هذا أمركم فاختاروا من شئتم، وبين أن تقتص من نفسك، فإن أبيت فإن القوم قاتلوك، فقال: أما أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله، وأما أن أقتص لهم من نفسي، فوالله لئن قتلتموني لا تحابون بعدي، ولا تصلون بعدي جميعاً، ولا تقاتلون بعدي جميعاً عدواً أبداً، قال: وجاء رويجل كأنه ذئب، فاطّلع من باب ورجع، وجاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً، فأخذ بلحيته، فعال بها حتى سمعت وقع أضراسه، فقال: ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن عامر، وما أغنت عنك كتبك، قال: أرسل لحيتي يا ابن أخي، قال رباب: فأنا رأيته استعدى رجلاً من القوم بعينه - يعني: أشار إليه - فقام إليه بِمِشْقَصٍ فَوَجَى[1] به رأسه، قلت: ثم مَهْ؟ قال: ثم تعاوروا عليه حتى قتلوه.

وروى الحافظ ابن عساكر: أن عثمان لما عزم على أهل الدار في الانصراف، ولم يبق عنده سوى أهله، تسوروا عليه الدار، وأحرقوا الباب، ودخلوا عليه، وليس فيهم أحد من الصحابة ولا أبنائهم، إلا محمد بن أبي بكر، وسبقه بعضهم، فضربوه حتى غشي عليه، وصاح النسوة فانزعروا وخرجوا، ودخل محمد بن أبي بكر وهو يظن أنه قد قتل، فلما رآه قد أفاق قال: على أي دين أنت يا نَعْثَل[2]؟ قال: على دين الإسلام، ولست بنعثل ولكني أمير المؤمنين، فقال: غيرت كتاب الله، فقال: كتاب الله بيني وبينكم، فتقدم إليه وأخذ بلحيته وقال: إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن

---

(١) «بمشقص فوجى به رأسه» «المشقص» بكسر الميم هو: نصل عريض، أو سهم فيه نصل عريض، وقوله: «فوجى به» وتهمز - فوجأ به» أي: ضربه به.

(٢) «نعثل» كجعفر هو: رجل من بني لحيان، كان يشبه به عثمان رضي الله عنه إذا نيل منه.

نقول: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾[1] وشطحه بيده من البيت إلى باب الدار، وهو يقول: يا ابن أخي، ما كان أبوك ليأخذ بلحيتي؛ وجاء رجل من كندة من أهل مصر، يلقب: حماراً، ويكنى بأبي رومان، وقال قتادة: اسمه رومان، وقال غيره: كان أزرق أشقر، وقيل: كان اسمه سودان بن رومان المرادي، وعن ابن عمر قال: كان اسم الذي قتل عثمان: أسود بن حمران، ضربه بحربة وبيده السيف صلتاً، قال: ثم جاء فضربه به في صدره حتى أقعصه، ثم وضع ذباب السيف في بطنه، واتكىء عليه وتحامل حتى قتله، وقامت نائلة دونه، فقطع السيف أصابعها رضي الله عنها.

ويروى: أن محمد بن أبي بكر، طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت في حلقه، والصحيح: أن الذي فعل ذلك غيره، وأنه استحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها، فتذمم من ذلك وغطى وجهه ورجع، وحاجز دونه فلم يفد، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً.

وروى ابن عساكر عن ابن عون: أن كنانة بن بشر، ضرب جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد فخر لجنبه، وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتله، وأما عمرو بن الحَمِقِ، فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات، وقال: أما ثلاث منهن فلله، وست لما كان في صدري عليه.

وثبت من غير وجه: أن أول قطرة من دمه سقطت على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] ويروى أنه كان قد وصل إليها في التلاوة أيضاً حين دخلوا عليه، وليس ببعيد، فإنه كان قد وضع المصحف يقرأ فيه القرآن.

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده: أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم، وصلب بعضهم، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان، متأولاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا أَوْ يُصَلَّبُوٓا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾[3] وعنده أن هؤلاء الذين

---

(١) الآية «٦٧» من سورة «الأحزاب».

(٢) من الآية «١٣٧» من سورة «البقرة».

(٣) الآية «٣٣» من سورة «المائدة».

خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، من جملة المفسدين في الأرض، ولا شك أنهم كذلك، لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان، ويكتب على لسانه بغير علمه، ويزور على خطه وخاتمه، ويبعث غلامه على بعيره، بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين، على تأمير محمد بن أبي بكر على مصر، بخلاف ذلك كله، ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب على خلاف ما وقع الاتفاق عليه، وظنوا أنه من عثمان، أعظموا ذلك، مع ما هم مشتملون عليه من الشر، فرجعوا إلى المدينة، فطافوا به على رؤوس الصحابة، وأعانهم على ذلك قوم آخرون، حتى ظن بعض الصحابة، أن هذا عن أمر عثمان رضي الله عنه، فلما قيل لعثمان رضي الله عنه، في أمر هذا الكتاب، بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين، حلف بالله العظيم، وهو الصادق البار الراشد، أنه لم يكتب هذا الكتاب ولا أملاه على من كتبه، ولا علم به، فقالوا له: فإن عليه خاتمك؛ فقال: إن الرجل قد يزور على خطه وخاتمه، قالوا: فإنه مع غلامك وعلى جملك، فقال: والله لم أشعر بشيء من ذلك، فقالوا له بعد كل مقالة: إن كنت قد كتبته فقد خنت، وإن لم تكن قد كتبته، بل كتب على لسانك وأنت لا تعلم، فقد عجزت، ومثلك لا يصلح للخلافة، إما لخيانتك، وإما لعجزك.

وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير، فإنه لو فرض أنه كتب الكتاب، وهو لم يكتبه في نفس الأمر، لا يضره ذلك، لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة، في إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الإمام، وأما إذا لم يكن قد علم به، فأي عجز ينسب إليه، إذا لم يكن قد اطلع عليه وزور على لسانه؟ وليس هو بمعصوم، بل الخطأ والغفلة جائزان عليه رضي الله عنه، وإنما هؤلاء الجهلة البغاة متعنتون خونة، ظلمة مفترون، ولهذا صمموا بعد هذا على حصره والتضييق عليه، حتى منعوه الميرة والماء والخروج إلى المسجد، وتهددوه بالقتل، ولهذا خاطبهم بما خاطبهم به من توسعة المسجد وهو أول من منع منه، ومن وقفه بئر رومة على المسلمين وهو أول من منع ماءها، ومن أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلاَّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، وذكر أنه لم يقتل نفساً، ولا ارتد بعد إيمانه، ولا زنى في جاهلية ولا إسلام، بل ولا مس فرجه بيمينه، بعد أن بايع بها رسول الله ﷺ، وفي رواية: بعد أن كتب بها المفصل، ثم ذكر لهم من فضائله ومناقبه، ما لعله ينجع فيهم بالكف عنه، والرجوع إلى الطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر منهم، فأبوا إلا الاستمرار على ما هم عليه من البغي والعدوان، ومنعوا الناس

من الدخول إليه والخروج من عنده، حتى اشتد عليه الحال، وضاق المجال، ونفد ما عنده من الماء، فاستغاث بالمسلمين في ذلك، فركب علي بنفسه، وحمل معه قرباً من الماء، فبالجهد حتى أوصلها إليه، بعدما ناله من جهلة أولئك كلام غليظ، وتنفير لدابته، وإخراق عظيم بليغ؛ وكان قد زجرهم أتم الزجر، حتى قال لهم فيما قال: والله إن فارس والروم لا يفعلون كفعلكم هذا بهذا الرجل، والله إنهم ليأسرون فيطعمون ويسقون، فأبوا أن يقبلوا منه حتى رمى بعمامته في وسط الدار، وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها، فقالوا: ما جاء بك؟ فقالت: إن عنده وصايا بني أمية، لأيتام وأرامل، فأحببت أن أذكره بها، فكذبوها في ذلك، ونالها منهم شدة عظيمة، وقطعوا حزام البغلة وندّت بها، وكادت أو سقطت عنها، وكادت تقتل، لولا تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابتها، ووقع أمر كبير جداً، ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء، إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما وقع هذا أعظمه الناس جداً، ولزم أكثر الناس بيوتهم، وجاء وقت الحج، فخرجت أم المؤمنين عائشة في هذه السنة إلى الحج، فقيل لها: إنك لو أقمت كان أصلح، لعل هؤلاء القوم يهابونك، فقالت: إني أخشى أن أشير عليهم برأي، فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة، فعزمت على الخروج، واستخلف عثمان رضي الله عنه في هذه السنة على الحج عبد الله بن عباس، فقال له عبد الله بن عباس: إن مقامي على بابك أحاجف عنك، أفضل من الحج، فعزم عليه، فخرج بالناس إلى الحج.

واستمر الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق، ورجع اليسير من الحج، فأخبر بسلامة الناس، وأخبر أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة، ليكفوكم عن أمير المؤمنين، وبلغتهم أيضاً أن معاوية قد بعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، قد نفذ آخر مع معاوية بن خديج، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو في جيش، وأن أهل البصرة بعثوا مجاشعاً في جيش، فعند ذلك صمموا على أمرهم وبالغوا فيه، وانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغيبتهم في الحج، وأحاطوا بالدار، وجدوا في الحصار، وأحرقوا الباب، وتسوروا من الدار المتاخمة للدار، كدار عمرو بن حزم وغيرها، وحاجف الناس عن عثمان أشد المحاجفة، واقتتلوا على الباب قتالاً شديداً، وتبارزوا وتراجزوا بالشعر في مبارزتهم، وجعل أبو هريرة يقول: هذا يوم طاب الضراب فيه؛ وقتل طائفة من أهل الدار وآخرون من أولئك الفجار، وجرح عبد الله بن الزبير جراحات كثيرة، وكذلك

جرح الحسن بن علي، ومروان بن الحكم، فقطع إحدى علباويه[1] فعاش أَوْقَصَ[2] حتى مات.

ومن أعيان من قتل من أصحاب عثمان: زياد بن نعيم الفهري، والمغيرة بن الأخنس بن شريق، ونيار بن عبد الله الأسلمي، في أناس وقت المعركة، ويقال: إنه انهزم أصحاب عثمان ثم رجعوا.

ولما رأى عثمان ذلك، عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم، فانصرفوا كما تقدم، فلم يبق عنده أحد سوى أهله، فدخلوا عليه من الباب، ومن الجدران وفزع عثمان إلى الصلاة وافتتح سورة طه، وكان سريع القراءة ـ فقرأها والناس في غلبة عظيمة، قد احترق الباب والسقيفة التي عنده، وخافوا أن يصل الحريق إلى بيت المال، ثم فرغ عثمان من صلاته، وجلس وبين يديه المصحف، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[3] فكان أول من دخل عليه رجل يقال له: الموت الأسود، فخنقه خنقاً شديداً حتى غشي عليه، وجعلت نفسه تتردد في حلقه، فتركه وهو يظن أنه قد قتله، ودخل ابن أبي بكر، فمسك بلحيته ثم ند وخرج، ثم دخل عليه آخر ومعه سيف، فضربه به فاتقاه بيده فقطعها، فقيل: إنه أبانها، وقيل: بل قطعها ولم يبنها، إلا أن عثمان قال: والله إنها أول يد كتبت المفصل، فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[4]، ثم جاء آخر شاهراً سيفه، فاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه منه، وأخذت السيف فانتزعه منها فقطع أصابعها، ثم إنه تقدم إليه، فوضع السيف في بطنه فتحامل عليه، رضي الله عن عثمان.

وفي رواية: أن الغافقي بن حرب، تقدم إليه بعد محمد بن أبي بكر، فضربه بحديدة في فيه، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله، فاستدار المصحف ثم استقر بين يدي عثمان رضي الله عنه، وسالت عليه الدماء، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف، فمانَعَتْهُ نائلة، فقطع أصابعها فولت، فضرب عجيزتها بيده وقال: إنها

---

(١) «علباويه» مثنى «علباء» بكسر العين المهملة هو: عصب العنق.

(٢) «أوقص» أي: قصير العنق.

(٣) الآية «١٧٣» من سورة «آل عمران».

(٤) ختام الآية «١٣٧» من سورة «البقرة».

لكبيرة العجيزة؛ وضرب عثمان فقتله، فجاء غلام عثمان فضرب سودان فقتله، فضرب الغلام رجل يقال له: قترة فقتله.

وذكر ابن جرير: أنهم أرادوا حز رأسه بعد قتله، فصاح النساء وضربن وجوههن، فيهن امرأتاه نائلة وأم البنين، وبناته، فقال ابن عديس: اتركوه، فتركوه، ثم مال هؤلاء الفجرة على ما في البيت فنهبوه، وذلك أنه نادى مناد منهم: أيحل لنا دمه ولا يحل لنا ماله، فانتهبوه ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه، فلما خرجوا إلى صحن الدار، وثب غلام لعثمان على قترة فقتله، وجعلوا لا يمرون على شيء إلا أخذوه، حتى استلب رجلا يقال له: كلثوم التجيبي، ملاءة نائلة، فضربه غلام لعثمان فقتله، وقتل الغلام أيضاً، ثم تنادى القوم: أن أدركوا بيت المال لا تستبقوا إليه، فسمعهم حفظة بيت المال فقالوا: يا قوم النَّجاء النَّجاء، فإن هؤلاء القوم لم يصدقوا فيما قالوا، من أن قصدهم قيام الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما ادعوا أنهم إنما قاموا لأجله، وكذبوا إنما قصدهم الدنيا، فانهزموا، وجاء الخوارج فأخذوا مال بيت المال، وكان فيه شيء كثير جداً.

ولما وقع هذا الأمر العظيم، الفظيع الشنيع، أُسقط في يدي الناس، فأعظموه جداً، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج بما صنعوا، وأشبهوا من تقدمهم ممن قصّ الله علينا خبرهم في كتابه العزيز، من الذين عبدوا العجل، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[1].

ولما بلغ الزبير مقتل عثمان ـ وكان قد خرج من المدينة ـ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم ترحم على عثمان، وبلغه أن الذين قتلوه ندموا فقال: تباً لهم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2] وبلغ علياً قتله فترحم عليه، وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[3] ولما بلغ سعد بن أبي وقاص قتل عثمان، استغفر له وترحم عليه، وتلا في حق الذين قتلوه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ

---

(١) الآية «١٤٩» من سورة «الأعراف».

(٢) الآيتان «٤٩ و ٥٠» من سورة «يس».

(٣) الآية «١٦» من سورة «الحشر».

أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1] ثم قال سعد: اللهم أندمهم ثم خذهم، وقد أقسم بعض السلف بالله: إنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً. رواه ابن جرير.

وهكذا ينبغي أن يكون لوجوه، منها: دعوة سعد المستجابة، كما ثبت في الحديث الصحيح، وقال بعضهم: ما مات أحد منهم حتى جن.

ولما رجع الحج، وجدوا عثمان رضي الله عنه قد قتل، وبايع الناس علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولما بلغ أمهات المؤمنين في أثناء الطريق أن عثمان قد قتل، رجعن إلى مكة فأقمن بها نحواً من أربعة أشهر.

وكانت مدة حصار عثمان رضي الله عنه في داره أربعين يوماً على المشهور، وقيل: كانت بضعاً وأربعين يوماً؛ وقال الشعبي: كانت ثنتين وعشرين ليلة؛ ثم كان قتله رضي الله عنه في يوم الجمعة بلا خلاف، قال سيف بن عمر عن مشايخه: في آخر ساعة منها، ونص عليه مصعب بن الزبير وآخرون، وقال آخرون: ضحوة نهارها، وهذا أشبه، وكان ذلك لثماني عشر ليلة خلت من ذي الحجة على المشهور، وقيل: في أيام التشريق كما رواه ابن جرير عن الزهري قال: قتل عثمان، فزعم بعض الناس أنه قتل في أيام التشريق، وقال بعضهم: قتل يوم الجمعة لثلاث خلت من ذي الحجة.

وقيل: قتل يوم النحر، حكاه ابن عساكر ويستشهد له بقول الشاعر:

ضَحَّوا بأشمطَ عنوانُ السجودِ بهِ ... يُقَطِّعُ الليلَ تسبيحاً وقرآنا

قال ابن جرير: والأول هو الأشهر، وقيل: إنه قتل يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين على الصحيح المشهور، وقيل: سنة ست وثلاثين، قال مصعب بن الزبير وطائفة: وهو غريب.

فكانت خلافته، ثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، لأنه بويع له في مستهل المحرم سنة أربع وعشرين.

فأما عمره رضي الله عنه، فإنه جاوز ثنتين وثمانين سنة، وقال صالح بن كيسان: توفي عن ثنتين وثمانين سنة وأشهر، وقيل: عن أربع وثمانين سنة، وقال قتادة: توفي عن ثمان وثمانين أو تسعين سنة، وفي رواية عنه: توفي عن ست

---

(١) الآيتان «١٠٣ و ١٠٤» من سورة «الكهف».

وثمانين سنة، وعن هشام بن الكلبي: توفي عن خمس وسبعين سنة، وهذا غريب جداً، وأغرب منه ما رواه سيف بن عمر عن مشايخه، وهم: محمد وطلحة وأبو عثمان وأبو حارثة أنهم قالوا: قتل عثمان رضي الله عنه عن ثلاث وستين سنة.

وأما موضع قبره، فلا خلاف أنه دفن بحش كوكب ـ شرقي البقيع ـ وقد بني عليه زمان بني أمية قبة عظيمة، وهي باقية إلى اليوم[1]، قال الإمام مالك رضي الله عنه: بلغني أن عثمان رضي الله عنه، كان يمر بمكان قبره من حش كوكب فيقول: إنه سيدفن ههنا رجل صالح.

وقد ذكر ابن جرير: أن عثمان رضي الله عنه، بقي بعد أن قتل ثلاثة أيام لا يدفن؛ قلت: وكأنه اشتغل الناس عنه بمبايعة علي رضي الله عنه حتى تمت، وقيل: إنه مكث ليلتين، وقيل: بل دفن من ليلته، ثم كان دفنه ما بين المغرب والعشاء خيفة من الخوارج، وقيل: بل استؤذن في ذلك بعض رؤوسائهم، فخرجوا به في نفر قليل من الصحابة، فيهم حكيم بن حزام، وحويطب بن عبد العزى، وأبو الجهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم الأسلمي، وجبير بن مطعم، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، وطلحة والزبير، وعلي بن أبي طالب، وجماعة من أصحابه ونسائه، منهن امرأتاه نائلة، وأم البنين بنت عتبة بن حصين، وصبيان، وهذا مجموع من كلام الواقدي وسيف بن عمر التميمي، وحمله جماعة من خدمه على باب، بعدما غسلوه وكفنوه، وزعم بعضهم أنه لم يغسل ولم يكفن، والصحيح الأول.

وصلى عليه جبير بن مطعم، وقيل: الزبير بن العوام، وقيل: حكيم بن حزام، وقيل: مروان بن الحكم، وقيل: المسور بن مخرمة، وقد عارضه بعض الخوارج وأرادوا رجمه، وإلقاءه عن سريره، وعزموا أن يدفن بمقبرة اليهود بدير سلع، حتى بعث علي رضي الله عنه إليهم من نهاهم عن ذلك، وحمل جنازته حكيم بن حزام، وقيل: مروان بن الحكم، وقيل: المسور بن مخرمة، وأبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم، وجبير بن مطعم.

وذكر الواقدي: أنه لما وضع ليصلى عليه ـ عند مصلى الجنائز ـ أراد بعض الأنصار أن يمنعهم من ذلك، فقال أبو جهم بن حذيفة: ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته، ثم قالوا: لا يدفن في البقيع، ولكن ادفنوه وراء الحائط، فدفنوه شرقي البقيع تحت نخلات هناك.

---

(١) ولكن هذه القبة قد أزيلت مع غيرها من القباب في عصرنا.

وذكر الواقدي: أن عمير بن ضابي، نزا على سريره وهو موضوع للصلاة عليه، فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: أَحَبَسْتَ ضابياً حتى مات في السجن؟ وقد قتل الحجاج فيما بعد عمير بن ضابي هذا.

وقال البخاري في التاريخ: حدثنا موسى بن إسماعيل، عن عيسى بن منهال، ثنا غالب، عن محمد بن سيرين قال: كنت أطوف بالكعبة، وإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أن تغفر لي، فقلت: يا عبد الله، ما سمعت أحداً يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت لله عهداً، إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قتل، وضع على سريره في البيت، والناس يجيئون يصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته وقد يبست يميني، قال ابن سيرين: فرأيتها يابسة كأنها عود.

ثم أخرجوا بعبدي عثمان اللذين قتلا في الدار، وهما: صبيح ونجيح، رضي الله عنهما، فدفنا إلى جانبه بحش كوكب، وقيل: إن الخوارج لم يمكنوا من دفنهما، بل جروهما بأرجلهما حتى ألقوهما بالبلاط، فأكلتهما الكلاب.

وقد اعتنى معاوية في أيام إمارته بقبر عثمان، ورفع الجدار بينه وبين البقيع، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حوله، حتى اتصلت بمقابر المسلمين.

فإن قال قائل: كيف وقع قتل عثمان رضي الله عنه بالمدينة، وفيها جماعة من كبار الصحابة رضي الله عنهم؟ فجوابه من جوه:

أحدها: أن كثيراً منهم، بل أكثرهم أو كلهم، لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلى قتله، فإن أولئك الأحزاب، لم يكونوا يحاولون قتله عيناً، بل طلبوا منه أحد أمور ثلاثة: إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسلم إلى الناس مروان، أو أن يعزل نفسه، ويستريح من هذه الضائقة الشديدة، وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع، ولا أن هؤلاء يجترؤون عليه إلى ما هذا حده، حتى وقع ما وقع والله أعلم.

الثاني: أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة، ولكن لما وقع التضييق الشديد، عزم عثمان على الناس أن يكفوا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا، فتمكن أولئك مما أرادوا، ومع هذا ما ظن أحد من الناس أنه يقتل بالكلية.

الثالث: أن هؤلاء الخوارج، لما اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج، ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة، بل لما اقترب مجيئهم، انتهزوا

فرصتهم، قبحهم الله، وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم.

الرابع: أن هؤلاء الخوارج، كانوا قريباً من ألفي مقاتل من الأبطال، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة، لأن الناس كانوا في الثغور، وفي الأقاليم في كل جهة، ومع هذا كان كثير من الصحابة، اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد، لا يجيء إلا ومعه السيف، يضعه على حبوته إذا احتبى، والخوارج محدقون بدار عثمان رضي الله عنه، وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لما أمكنهم ذلك، ولكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلى الدار يحاجفون عن عثمان رضي الله عنه، لكي تقدم الجيوش من الأمصار لنصرته، فما فجيء الناس، إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها، وأحرقوا بابها، وتسوروا عليه حتى قتلوه.

وأما ما يذكره بعض الناس، من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة، أنه رضي بقتل عثمان رضي الله عنه، بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يود لو خلع نفسه من الأمر، كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحَمِقِ وغيرهم.

قال أبو عمر بن عبد البر: دفنوا عثمان رضي الله عنه بحُشِّ كوكب، وكان قد اشتراه وزاده في البقيع، ولقد أحسن بعض السلف إذ يقول وقد سئل عن عثمان: هو أمير البررة، وقتيل الفجرة، مخذول من خذله، منصور من نصره.



الفصل الرابع

مما وقع من الحوادث
زمن عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه

* حوادث السنة الرابعة والعشرين.
* حوادث السنة التاسعة والعشرين.
* حوادث السنة الثلاثين.
* حوادث السنة الحادية والثلاثين.
* حوادث السنة الثانية والثلاثين.
* حوادث السنة الرابعة والثلاثين.



حوادث السنة الرابعة والعشرين

* في أول يوم منها: دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الأحد في قول، وبعد ثلاثة أيام بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

* قال ابن جرير: واختلف فيمن حج بالناس في هذه السنة، فقال الواقدي وأبو معشر: حج بهم عبد الرحمن بن عوف بأمر عثمان، وقال آخرون: حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه، والأول هو الأشهر، فإن عثمان لم يتمكن من الحج في هذه السنة، لأجل رُعافٍ أصابه مع الناس في هذه السنة حتى خشي عليه، وكان يقال لهذه السنة: سنة الرُّعاف.

* وفيها: افتتح أبو موسى الأشعري الرَّيَّ، بعدما نقضوا العهد الذي كان واثقهم عليه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.



حوادث السنة التاسعة والعشرين

* وفيها: وَسَّعَ عثمان بن عفان مسجد النبي ﷺ، وبناه بالقَصَّة وهي: الكلس كان يؤتى به من بطن نخل، والحجارة المنقوشة، وجعل عمده حجارة مرصعة، وسقفه بالساج، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه ستة، على ما كانت عليه في زمان عمر بن الخطاب، ابتدأ بناءه في ربيع الأول منها.

* وفيها: حج بالناس عثمان بن عفان، وضرب له بمنى فسطاطاً، فكان أول فسطاط ضربه عثمان بمنى، وأتم الصلاة عامه هذا، فأنكر ذلك عليه غير واحد من الصحابة، كعلي وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود، حتى قال ابن مسعود: ليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان، وقد ناظره عبد الرحمن بن عوف فيما فعله، فروى ابن جرير أنه قال: تأهلت بمكة، فقال له: ولك أهل بالمدينة، وإنك تقوم حيث أهلك بالمدينة؛ قال: وإن لي مالاً بالطائف، أريد أن أطلعه بعد الصَّدَر، قال: إن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاثة، فقال: وإن طائفة من أهل اليمن قالوا: إن الصلاة بالحضر ركعتان، فربما رأوني أصلي ركعتين فيحتجون بي، فقال له: قد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي، والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل، وكان يصلي ههنا ركعتين، وكان أبو بكر يصلي ههنا ركعتين، وكذلك عمر بن الخطاب، وصليت أنت ركعتين صَدْراً من إمارتك، قال: فسكت عثمان ثم قال: إنما هو رأي رأيته.

حوادث السنة الثلاثين

* وفي هذه السنة: سقط خاتم النبي ﷺ من يد عثمان في بئر أَرِيس، وهي على ميلين من المدينة، وهي من أقل الآبار ماء، فلم يدرك خبره بعد بذل مال جزيل، والاجتهاد في طلبه، حتى الساعة، فاستخلف عثمان بعده خاتماً من فضة، ونقش عليه: «محمد رسول الله»، فلما قتل عثمان، ذهب الخاتم فلم يدر من أخذه.

وكان الخاتم في يد النبي ﷺ، ثم في يد أبي بكر، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان ست سنين، ثم إنه وقع في بئر أَرِيس[1].



(١) وكان النبي ﷺ قد اتخذ خاتماً نقش عليه من الأسفل إلى الأعلى ثلاثة أسطر: «محمد رسول الله»، وقد سبق تفصيل القول فيه في «السيرة النبوية» من الجزء الثاني.

حوادث السنة الحادية والثلاثين

* وفيها: قتل كسرى ملك الفرس، وهو «يَزْدَجُرد»، آخر الأكاسرة.

قال ابن إسحاق: هرب يزدجرد من كرمان في جماعة يسيرة إلى مرو، فسأل من بعض أهلها مالاً، فمنعوه وخافوه على أنفسهم، فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه، فأتوه فقتلوا أصحابه، وهرب هو حتى أتى منزل رجل ينقر الأرحية على شط، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله.

وقال المدائني: لما هرب بعد قتل أصحابه، انطلق ماشياً عليه تاجه ومنطقته وسيفه، فانتهى إلى منزل هذا الرجل الذي ينقر الأرحية، فجلس عنده، فاستغفله وقتله وأخذ ما كان عليه، وجاءت الترك في طلبه، فوجدوه قد قتله وأخذ حاصله، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته، وأخذوا ما كان مع كسرى، ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى إصطخر.

وكان ملك يزدجرد عشرين سنة، منها أربع سنين في دعة، وباقي ذلك هارباً من بلد إلى بلد، خوفاً من الإسلام وأهله، وهو آخر ملوك الفرس في الدنيا على الإطلاق، لقول رسول الله ﷺ: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» رواه البخاري، وثبت في الحديث الصحيح: أنه لما جاءه كتاب النبي ﷺ مزقه، فدعا عليه النبي ﷺ أن يمزق كلَّ ممزق[1]، فوقع الأمر كذلك.

****

(١) وقد سبق بيانه في «المغازي النبوية» من الجزء الثالث.

حوادث السنة الثانية والثلاثين

* وفيها: غزا معاوية بلاد الروم حتى بلغ المضيق ـ مضيق القسطنطينية ـ ومعه زوجته عاتكة، ويقال: فاطمة بنت قرطة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، قاله أبو معشر والواقدي.

* وفيها: استعمل سعيد بن العاص، سلمان بن ربيعة على جيش، وأمره أن يغزو الباب، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة نائب تلك الناحية بمساعدته، فسار حتى بلغ بلنجر، فحصروها ونصبت عليها المجانيق والعرادات، ثم إن أهل بلنجر خرجوا إليهم، وعاونهم الترك فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الترك تهاب قتال المسلمين، ويظنون أنهم لا يموتون، حتى اجترأوا عليهم بعد ذلك، فلما كان هذا اليوم التقوا معهم فاقتتلوا، فقتل يومئذ عبد الرحمن بن ربيعة ـ وكان يقال له: ذو النون ـ وانهزم المسلمون فافترقوا فرقتين، ففرقة ذهبت إلى بلاد الخَزَر، وفرقة سلكوا ناحية جيلان وجرجان، وفي هؤلاء أبو هريرة وسلمان الفارسي؛ وأخذت الترك جسد عبد الرحمن بن ربيعة، وكان من سادات المسلمين وشجعانهم.

ولما قتل عبد الرحمن بن ربيعة، استعمل سعيد بن العاص على ذلك الفرع سلمان بن ربيعة، وأمدهم عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتنازع حبيب وسلمان في الإمرة حتى اختلفا، فكان أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام.

* وفيها: فتح ابن عامر مَرْوَ الرُّوذ، والطالقان، والفارياب، والجوزجان، وطخارستان؛ فأما مرو الروذ فبعث إليهم ابن عامر، الأحنفَ بن قيس فحصرها، فخرجوا إليه فقاتلهم حتى كسرهم، فاضطرهم إلى حصنهم، ثم صالحوه على مال جزيل، وعلى أن يضرب على أراضي الرعية الخراج، ويدع الأرض التي كان اقتطعها كسرى لوالد المرزبان، صاحب مرو، حين قتل الحية التي كانت تقطع الطريق على الناس وتأكلهم، فصالحهم الأحنف على ذلك، وكتب لهم كتاب صلح بذلك، ثم

بعث الأحنف الأقرع بن حابس إلى الجوزجان، ففتحها بعد قتال وقع بينهم، قتل فيه خلق من شجعان المسلمين، ثم نصروا فقال في ذلك أبو كثير النهشلي قصيدة طويلة فيها:

سقى مزنُ السحابِ إذا استهلتْ مصارعَ فتيةٍ بالجُوزَجانِ
إلى القصرينِ من رُسْتَاقِ خُوطٍ أبادهُمُ هناكَ الأقرعانِ

ثم سار الأحنف من مَرْو الرُّوذ إلى بَلْخ، فحاصرهم حتى صالحوه على أربعمائة ألف، واستناب ابن عمه أسيد بن المُتَشَمِّس على قبض المال، ثم ارتحل يريد الجهاد، وداهمه الشتاء فقال لأصحابه: ما تشاءون؟ فقالوا: قد قال عمرو بن معد يكرب:

إذا لم تَستطعْ أمراً فدعْهُ وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

فأمر الأحنف بالرحيل إلى بلخ، فأقام بها مدة الشتاء، ثم عاد إلى ابن عامر، فقيل لابن عامر: ما فتح على أحد ما فتح عليك: فارس وكرمان وسجستان، وعامر خراسان، فقال: لا جرم، لأجعلن شكري لله على ذلك، أن أحرم بعمرة من موقفي هذا مشمراً، فأحرم بعمرة من نيسابور، فلما قدم على عثمان، لامه على إحرامه من خراسان.



حوادث السنة الرابعة والثلاثين

* في هذه السنة: بدأ البغاة فتنتهم ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان جمهورهم من أهل الكوفة كما تقدم في الفصل السابق.



القِسْمُ الرابع

خِلافَةُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

* وفيه: سبعة فصول:

الفصل الأول: حياة عليٍّ بن أبي طالب وفضائله رضي الله عنه.

الفصل الثاني: تَوَلِّيه الخلافة.

الفصل الثالث: وَقْعَة الجَمَل.

الفصل الرابع: وَقْعَة صِفِّين.

الفصل الخامس: ظهور فتنة الخوارج.

الفصل السادس: مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

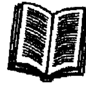
الفصل السابع: مما وقع من الحوادث في خلافته رضي الله عنه.



الفصل الأول

حياة علي بن أبي طالب وفضائله رضي الله عنه

* نَسَبُه وحياتُه.
* زوجاته وبَنُوه وبناته.
* فضائل علي رضي الله عنه.
* من مواعظه البليغة رضي الله عنه.



نَسَبُه وحياته

هو: أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب واسمه: عبد مناف، بن عبد المطلب واسمه: شيبة، بن هاشم واسمه: عمرو، بن عبد مناف واسمه: المغيرة، بن قصي واسمه: زيد، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن مَعَدٍّ، بن عدنان.

وهو أبو الحسن والحسين، ويكنى بأبي تراب، وأبي القسم الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وَخَتَنُه على ابنته فاطمة الزهراء.

وأمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ويقال: إنها أول هاشمية ولدت هاشمياً.

وكان له من الإخوة: طالب، وعقيل، وجعفر، وكانوا أكبر منه، بين كل واحد منهم وبين الآخر عشر سنين، وله أختان: أم هانىء، وجمانة، وكلهم من فاطمة بنت أسد، وقد أسلمت وهاجرت.

كان علي رضي الله عنه، أحد العشرة المشهود لهم[١] بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى[٢]، وكان ممن توفي ورسول الله ﷺ راض عنهم، وكان رابع الخلفاء الراشدين.

---

(١) العشرة المبشرون بالجنة هم: الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والصحابة: عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

(٢) «أصحاب الشورى» هم: الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، ليكون الخليفة بعده واحداً منهم وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وجميعهم من العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم.

وكان رجلاً آدم شديد الأدمة، أشكل العينين عظيمهما، ذو بطن، أصلع، وهو إلى القصر أقرب، وكان عظيم اللحية، قد ملأت صدره ومنكبيه، أبيضها، وكان كثير شعر الصدر والكتفين، حسن الوجه ضحوك السن، خفيف المشي على الأرض.

أسلم علي قديماً، وهو ابن سبع، وقيل: ابن ثمان، وقيل: تسع، وقيل: عشر، وقيل: إحدى عشرة، وقيل: اثني عشرة، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: أربع عشرة، وقيل: ابن خمس عشرة، أو: ست عشرة سنة، قاله عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن، ويقال: إنه أول من أسلم، والصحيح أنه أول من أسلم من الغلمان، كما أن خديجة أول من أسلمت من النساء، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي، وأبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار.

وكان سبب إسلام علي صغيراً، أنه كان في كفالة رسول الله ﷺ، لأنه كان قد أصابتهم سَنَةُ مجاعة، فأخذه من أبيه، فكان عنده، فلما بعثه الله بالحق، آمنت خديجة وأهل البيت ومن جملتهم علي، وكان الإيمان النافع المتعدي نفعه إلى الناس، إيمانَ الصديق رضي الله عنه، وقد ورد عن علي أنه قال: «أنا أول من أسلم»، ولا يصح إسناده إليه، وقد روي في هذا المعنى أحاديث كثيرة منكرة أوردها ابن عساكر، لا يصح شيء منها والله أعلم، وقد روى الإمام أحمد من حديث شعبة عن عمرو بن مرة، سمعت أبا حمزة ـ رجلاً من موالي الأنصار ـ قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي، وفي رواية: أول من صلَّى، قال عمرو: فذكرت ذلك للنَّخَعي فأنكره وقال: أبو بكر أول من أسلم.

ثم هاجر رضي الله عنه إلى المدينة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين سهل بن حنيف، وذكر ابن إسحاق وغيره من أهل السير والمغازي: أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين نفسه، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة، لا يصح شيء منها لضعف أسانيدها، وركة بعض متونها، فإن في بعضها: «أنت أخي ووارثي وخليفتي، وخير من أَمَّرَ بعدي»، وهذا الحديث موضوع، مخالف لما ثبت في الصحيحين وغيرهما والله أعلم.

وقد شهد عليّ بدراً، وكان له اليد البيضاء فيها، بارز يومئذ فغلب وظهر، وفيه وفي عمه حمزة وابن عمه عبيدة بن الحارث، وخصومهم الثلاثة: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة[1]، نزل قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[2].

---

(١) روى ذلك البخاري عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٢) الآية «١٩» من سورة «الحج».

وقال الحسن بن عرفة: حدثني عمار بن محمد، عن سعيد بن محمد الحنظلي، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: نادى مناد في السماء يوم بدر يقال له، رضوان: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي»، قال ابن عساكر: وهذا مرسل، وإنما تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر، ثم وهبه من علي بعد ذلك.

وشهد علي أحداً وكان على الميمنة، ومعه الراية بعد مصعب بن عمير، وعلى الميسرة المنذر بن عمرو الأنصاري، وحمزة بن عبد المطلب على القلب، وعلى الرَّجالة الزبير بن العوام، وقيل: المقداد بن الأسود، وقد قاتل علي يوم أحد قتالاً شديداً، وقتل خلقاً كثيراً من المشركين، وغسل عن وجه النبي ﷺ الدم الذي كان أصابه من الجراح، حين شج في وجهه وكسرت رَبَاعِيَتُه.

وشهد يوم الخندق، فقتل يومئذ فارس العرب، وأحد شجعانهم المشاهير: عمرو بن عبدُ وَدٍ العامري، كما قدمنا ذلك[1] في غزوة الخندق.

وشهد الحديبية وبيعة الرضوان، وشهد خيبر وكانت له بها مواقف هائلة، ومشاهد طائلة، منها: أن رسول الله ﷺ قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس يذكرون أَيُّهم يعطاها، فدعا علياً ـ وكان أرمد ـ فدعا له، وبصق في عينه، فلم يرمد بعدها، فبرأ وأعطاه الراية، ففتح الله على يديه[2]، وقتل مَرْحَباً اليهودي، وشهد عمرة القضاء.

وما يذكره كثير من القصاص، في مقاتلته الجن في بئر ذات العلم ـ وهو: بئر قريب من الجُحْفَة ـ فلا أصل له، وهو من وضع الجهلة من الأخباريين، فلا يغتر به.

وشهد الفتح وحنيناً والطائف، وقاتل في هذه المشاهد قتالاً كثيراً، واعتمر من الجعرانة مع رسول الله ﷺ، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك واستخلفه على المدينة، قال له: يا رسول الله، أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي؟»[3] وبعثه رسول الله ﷺ

---

(١) سبق بيانه في «المغازي النبوية» بالجزء الثالث.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وسيأتي مرة أخرى في بيان «فضائله» رضي الله عنه، في هذا الفصل.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما كما سيأتي في «فضائله» رضي الله عنه في هذا الفصل.

أميراً وحاكما على اليمن، ومعه خالد بن الوليد، ثم وافى رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، إلى مكة، وساق معه هديا، وأهلّ كإهلال النبي ﷺ، فأشركه في هديه، واستمر على إحرامه، ونحرا هديهما بعد فراغ نسكهما كما تقدم.

ولما مرض رسول الله ﷺ قال له العباس: سل رسول الله ﷺ فيمن الأمر بعده؟ فقال: «والله لا أسأله فإنه إن منعناها، لا يعطيناها الناس بعده أبداً»، والأحاديث الصحيحة الصريحة، دالة على أن رسول الله ﷺ، لم يوص إليه ولا إلى غيره بالخلافة، بل لوح بذكر الصديق، وأشار إشارة مفهمة ظاهرة جداً إليه، كما قدمنا ذلك ولله الحمد.

وأما ما يفتريه كثير من جهلة القُصّاص، من أنه أوصى إلى عليّ بالخلافة، فكذب وبهت وافتراء عظيم، يلزم منه خطأ كبير، من تخوين الصحابة، وممالأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته، وإيصالها إلى مَنْ أوصي إليه، وصرفهم إياها إلى غيره، لا لمعنى ولا لسبب، وكل مؤمن بالله ورسوله يتحقق أن دين الإسلام هو الحق، يعلم بطلان هذا الافتراء، لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء، وهم خير قرون هذه الأمة، التي هي أشرف الأمم بنص القرآن، وإجماع السلف والخلف، في الدنيا والآخرة، ولله الحمد.

وما قد يقصه بعض القصاص، من العوام وغيرهم، في الأسواق وغيرها، من الوصية لعلي في الآداب والأخلاق، في المأكل والمشرب والملبس، مثل ما يقولون: يا علي لا تعتم وأنت قاعد، يا علي لا تلبس سراويلك وأنت قائم، يا علي لا تمسك عضادتي الباب، ولا تجلس على أُسْكُفَّة الباب، ولا تخط ثوبك وهو عليك، ونحو ذلك، كل ذلك من الهذيانات فلا أصل لشيء منه، بل هو اختلاق بعض السفلة الجهلة، ولا يعول على ذلك ويغتر به إلا غَبِيٌّ عَيِيٌّ.

ثم لما مات رسول الله ﷺ، كان علي من جملة من غسله وكفنه وولي دفنه كما تقدم ذلك[1] مفصلا ولله الحمد والمنة، وسيأتي ذكر تزويج رسول الله ﷺ له من فاطمة بعد وقعة بدر.

ولما بويع الصديق يوم السقيفة، كان علي من جملة من بايع بالمسجد كما قدمنا، وكان بين يدي الصديق كغيره من أمراء الصحابة، يرى طاعته فرضاً عليه، وأحب الأشياء إليه، ولما توفيت فاطمة بعد ستة أشهر ـ وكانت قد تغضبت بعض

(١) سبق بيانه في «وفاته ﷺ» من السيرة النبوية بالجزء الثاني.

الشيء على أبي بكر، بسبب الميراث الذي فاتها من أبيها عليه الصلاة والسلام، ولم تكن اطلعت على النص المختص بالأنبياء وأنهم لا يورثون، فلما بلغها سألت أبا بكر أن يكون زوجها ناظراً على هذه الصدقة، فأبى ذلك عليها، فبقي في نفسها شيء كما قدمنا[1]، واحتاج علي أن يداريها بعض المداراة، فلما توفيت، جدد البيعة مع الصديق رضي الله عنهما، فلما توفي أبو بكر، وقام عمر في الخلافة بوصية أبي بكر إليه بذلك، كان علي من جملة من بايعه، وكان معه يشاوره في الأمور، ويقال: إنه استقضاه في أيام خلافته، وقدم معه من جملة سادات أمراء الصحابة إلى الشام، وشهد خطبته بالجابية، فلما طُعِنَ عمر، وجعل الأمر شورى في ستة أحدهم علي، ثم خلص منهم بعثمان وعلي كما سيأتي، فَقُدِّمَ عثمانُ على عليّ، فسمع وأطاع.



(١) تقدم ذكره في «وفاته ﷺ» من «السيرة النبوية» بالجزء الثاني.

زوجاته وبنوه وبناته

أول زوجة تزوجها علي رضي الله عنه هي: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، بنى بها بعد وقعة بدر، فولدت له: الحسن وحسيناً، ويقال: ومحسناً ومات وهو صغير، وولدت له: زينب الكبرى، وأم كلثوم وهذه تزوج بها عمر بن الخطاب كما تقدم.

ولم يتزوج عليّ على فاطمة، حتى توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر، فلما ماتت، تزوج بعدها بزوجات كثيرة، منهن من توفيت في حياته، ومنهن من طلقها، وتوفي عن أربع كما سيأتي، فمن زوجاته:

* «أم البنين بنت حرام»، وهو: المُحِلّ بن خالد بن ربيعة بن كعب بن عامر ابن كلاب، فولدت له: العباس، وجعفراً، وعبد الله، وعثمان، وقد قتل هؤلاء مع أخيهم الحسين بكربلاء، ولا عقب لهم سوى العباس.

* و «ليلى بنت مسعود بن خالد بن مالك» من بني تميم، فولدت له: عبيد الله، وأبا بكر، قال هشام بن الكلبي: وقد قتلا بكربلاء أيضاً.

* و «أسماء بنت عميس الخثعمية»، فولت له: يحيى، ومحمداً الأصغر، قاله الكلبي، وقال الواقدي: ولدت له يحيى وعوناً، قال الواقدي: أما محمد الأصغر فمن أم ولد.

* و «أم حبيبة بنت زمعة بن بحر بن العبد بن علقمة»، وهي أم ولد من السَّبي الذين سباهم خالد من بني تغلب، حين أغار على عين التمر، فولدت له: عمر ـ وقد عُمِّرَ خمساً وثلاثين سنة ـ ورقية.

* و «أم سعيد بنت عروة بن مسعود بن مغيث بن مالك الثقفي»، فولدت له: أم الحسن، ورملة الكبرى.

* و «ابنة امرىء القيس بن عدي الكلبية»، فولدت له: جارية، فكانت تخرج مع علي إلى المسجد وهي صغيرة فيقال لها: مَنْ أخوالك؟ فتقول وَهْ وَهْ، تعني: بني كلب.

* و «أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي»، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي التي كان رسول الله ﷺ يحملها وهو في الصلاة، إذا قام حملها، وإذا سجد وضعها، فولدت له: محمداً الأوسط، وأما ابنه محمد الأكبر، فهو ابن «الحنفية»، وهي: «خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل»، سباها خالد أيام الصديق، أيام الردة من بني حنيفة، فصارت لعلي بن أبي طالب، فولدت له محمداً هذا، ومن الشيعة من يدعي فيه الإمامة والعصمة، وقد كان من سادات المسلمين ولكن ليس بمعصوم، ولا أبوه معصوم، بل ولا من هو أفضل من أبيه من الخلفاء الراشدين قبله، ليسوا بواجبي العصمة كما هو مقرر في موضعه والله أعلم.

وقد كان لعلي أولاد كثيرة آخرون، من أمهات أولاد شتى، فإنه مات عن أربع نسوة، وتسع عشرة سُرِّية رضي الله عنه، فمن أولاده رضي الله عنه، ممن لا يعرف أسماء أمهاتهم: أم هانىء، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الكبرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم جعفر، وأم سلمة، وجمانة.

قال ابن جرير: فجميع ولد علي: أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أنثى، قال الواقدي: وإنما كان النسل من خمسة وهم: الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية، والعباس ابن الكلابية، وعمر ابن التغلبية رضي الله عنهم أجمعين.



فضائل علي رضي الله عنه

من ذلك: أنه أقرب العشر المشهود لهم بالجنة، نسباً من رسول الله ﷺ، فإنه ابن عم رسول الله ﷺ، وأبوه هو: العم الشقيق الرفيق، أبو طالب واسمه: عبد مناف، كذا نص على ذلك الإمام أحمد بن حنبل، وهو وغير واحد من علماء النسب وأيام الناس، وزعمت الروافض: أن اسم أبي طالب عمران، وأنه المراد من قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1] وقد أخطأوا في ذلك خطأ كثيراً، ولم يتأملوا القرآن قبل أن يقولوا هذا البهتان، من القول في تفسيرهم له، على غير مراد الله تعالى، فإنه قد ذكر بعد هذه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾[2] فذكر ميلاد مريم بنت عمران عليها السلام وهذا ظاهر ولله الحمد.

وقد كان أبو طالب، كثير المحبة الطبيعية لرسول الله ﷺ، ولم يؤمن به إلى أن مات على دينه، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، من رواية سعيد بن المسَيَّب عن أبيه، في عرضه ﷺ على عمه أبي طالب وهو في السياق أن يقول: لا إله إلا الله، فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فخرج رسول الله وهو يقول: «أَمَا لأستغفرنَّ لك، ما لم أُنْهَ عنك»، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[3] ثم نزل بالمدينة قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[4].

---

(١) الآية «٣٣» من سورة «آل عمران».

(٢) الآية «٣٥» من سورة «آل عمران».

(٣) الآية «٥٦» من سورة «القصص».

(٤) الآيتان «١١٣ و ١١٤» من سورة «التوبة».

وأما علي رضي الله عنه، فإنه أسلم قديماً وهو دون البلوغ على المشهور، ويقال: إنه أول من أسلم من الغلمان، كما أن خديجة أول من أسلم من النساء، وأبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي.

وقد روى الترمذي وأبو يعلى، عن إسماعيل بن السدي، عن علي بن عياش، عن مسلم الملائي، عن حَبَّة بن جُوَين عن علي - وَحبَّةُ لا يساوي حبة -[1] عن أنس بن مالك قال: «بُعث رسول الله يوم الإثنين، وصلّى علي يوم الثلاثاء»، وقد روى سلمة بن كهيل، عن حبة، عن علي قال: «عبدت الله مع رسول الله سبع سنين، قبل أن يعبده أحد»، وهذا لا يصح أبداً وهو كذب، وروى سفيان الثوري وشعبة، عن سلمة عن حبة عن علي قال: «أنا أول من أسلم»، وهذا لا يصح أيضاً، وحَبَّةُ ضعيف، وقال سويد بن سعيد: ثنا نوح بن قيس بن سليمان بن عبد الله، عن معاذة العدوية قالت: سمعت علي بن أبي طالب على منبر البصرة يقول: «أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم» وهذا لا يصح، قاله البخاري، وقد ثبت عنه رضي الله عنه بالتواتر، أنه قال على منبر الكوفة: «أيها الناس، إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ولو شئت أن أسمي الثالث لسميت».

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: «أول من صلّى - وفي رواية: أسلم - مع رسول الله بعد خديجة علي بن أبي طالب» رواه الترمذي.

وقد ورد في أنه أول من أسلم من هذه الأمة أحاديث كثيرة، لا يصح منها شيء، وأجود ما في ذلك ما ذكرنا، على أنه قد خولف فيه، وقد اعتنى الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في تاريخه بتطريق هذه الروايات، فمن أراد كشف ذلك، فعليه بكتابه التاريخ والله الموفق للصواب، وقد روى الترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم قال: «أول من أسلم علي»[2] قال الترمذي: حسن صحيح.

وصحب عليّ رسول الله ﷺ مدة مقامه بمكة، وكان عنده في المنزل وفي كفالته في حياة أبيه، لفقر حصل لأبيه في بعض السنين مع كثرة العيال، ثم استمر في نفقة رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى زمن الهجرة، وقد خَلّفه رسول الله ﷺ ليؤدي ما كان عنده عليه الصلاة والسلام من ودائع الناس، فإنه كان يعرف في قومه

---

(١) قوله: «وحبة لا يساوي حبة»، كناية عن تضعيفه، أي: لا يساوي شيئاً.

(٢) أي: أول من أسلم من الغلمان.

بالأمين، فكانوا يودعونه الأموال والأشياء النفيسة، ثم هاجر عليّ بعد رسول الله ﷺ.

وصحب علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ، إلى أن توفي وهو راض عنه، وحضر معه مشاهده كلها، وجرت له مواقف شريفة بين يديه في مواطن الحرب، كما بينا ذلك في السيرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، كيوم بدر وأحد والأحزاب وخيبر وغيرها، ولما استخلفه عام تبوك على أهله بالمدينة قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي؟»[1].

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع، فكان بين مكة والمدينة بمكان يقال له: «غدير خُمٍّ»، خطب الناس هنالك، في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة، فقال في خطبته: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[2] وفي بعض الروايات: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» والمحفوظ الأول، وإنما كان سبب هذه الخطبة والتنبيه على فضله، ما ذكره ابن إسحاق، من أن علياً لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أميراً هو وخالد بن الوليد، ورجع علي فوافى رسول الله ﷺ بمكة في حجة الوداع، وقد كثرت فيه المقالة، وتكلم فيه بعض من كان معه، بسبب استرجاعه منهم خِلَعاً كان خلعها نائبه عليهم، لما تعجل السير إلى رسول الله ﷺ، فلما تفرغ رسول الله من حجة الوداع، أحب أن يبرىء ساحة علي مما نسب إليه من القول الذي لا أصل له، وقد اتخذت الروافض هذا اليوم عيداً، فكانت تضرب فيه الطبول ببغداد في أيام بني بويه، في حدود الأربعمائة كما سننبه[3] عليه إذا انتهينا إليه إن شاء الله، ثم بعد ذلك بنحو من عشرين يوماً، تُعَلَّق المسوح على أبواب الدكاكين ويذر التبن والرماد، وتدور الذراري والنساء في سكك البلد، تنوح على الحسين بن علي يوم عاشوراء، صبيحة قراءتهم المصرع المكذوب في قتله، وسنبين[4] الحق في صفة قتله كيف وقع الأمر على الجلية إن شاء الله تعالى.

وقد كان بعض بني أمية، يعيب علياً بتسميته «أبا تراب»، وهذا الاسم إنما سماه به رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد: أن علياً غاضب

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما، وسيأتي في «فضائله» رضي الله عنه في هذا الفصل بعونه تعالى.
(٢) رواه أحمد والنسائي والطبراني، وسيأتي في «فضائله» رضي الله عنه في هذا الفصل.
(٣) سيأتي بيانه بعونه تعالى في «تاريخ الدولة العباسية» بالجزء السادس.
(٤) سيأتي بيانه في «الفصل السادس» بعونه تعالى.

فاطمة فراح إلى المسجد، فجاءه رسول الله فوجده نائماً وقد لصق التراب بجلده، فجعل ينفض عنه التراب ويقول: «اجلس أبا تراب».

وروى الحاكم عن مكحول، عن أبي أمامة قال: «لما آخى رسول الله ﷺ بين الناس آخى بينه وبين علي»، ثم قال الحاكم: لم نكتبه من حديث مكحول إلا من هذا الوجه، وكان المشايخ يعجبهم هذا الحديث، لكونه من رواية أهل الشام، قلت: وفي صحة هذا الحديث نظر، وورد من طريق أنس وعمر: أن رسول الله ﷺ قال: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»، وكذلك من طريق زيد بن أبي أوفى، وابن عباس، ومَخْدُوج بن زيد الذُّهْلي، وجابر بن عبد الله، وعامر بن ربيعة، وأبي ذر، وعلي نفسه نحو ذلك، وأسانيدها كلها ضعيفة، لا يقوم بشيء منها حجة والله أعلم.

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: «آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخِ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» ثم قال: هذا حديث حسن غريب، وفيه عن زيد بن أبي أوفى.

وقد شهد رضي الله عنه بدراً، وقد قال رسول الله ﷺ لعمر: «ما يدريك؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١) وبارز يومئذ كما تقدم(٢)، وكانت له اليد البيضاء، ودفع إليه رسول الله ﷺ الراية يومئذ وهو ابن عشرين سنة، قاله الحكم عن مقسم عن ابن عباس، قال: وكانت تكون معه راية المهاجرين في المواقف كلها، وكذلك قال سعيد بن المسيب وقتادة.

وشهد بيعة الرضوان، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾(٣) وقال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحد بايع تحت الشجرة النار»(٤).

وقد ثبت في الصحاح(٥) وغيرها: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطين الراية غداً، رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفَرَّار، يفتح الله على

---

(١) رواه البخاري وأحمد وأبو داود من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي بعث بالكتاب إلى أهل مكة، يخبرهم فيه بعزم النبي ﷺ على فتح مكة.

(٢) سبق هذا المعنى والحديث الوارد فيه، في «نسبه وحياته» رضي الله عنه في هذا الفصل.

(٣) الآية «١٨» من سورة «الفتح».

(٤) رواه مسلم وأحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد سبق في هذا الفصل، وسيأتي في «فضائله» رضي الله عنه في هذا الفصل أيضاً.

يديه»، فبات الناس يَدُوكون[1]: أيهم يعطاها؟ حتى قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، فلما أصبح أعطاها علياً، ففتح الله على يديه، ورواه جماعة منهم: مالك، والحسن، ويعقوب بن عبد الرحمن، وجرير بن عبد الحميد، وحماد بن سلمة، وعبد العزيز بن المختار، وخالد بن عبد الله بن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة، أخرجه مسلم، ورواه ابن أبي حازم، عن سهل بن سعد وأخرجاه في الصحيحين وقال في حديثه: «فدعا به رسول الله وهو أرمد، فبصق في عينيه فبرأ»، ورواه إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه، ويزيد بن أبي عبيد عن مولاه سلمة أيضاً، وحديثه عنه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان أبي يسير مع علي، وكان علي يلبس ثياب الصيف في الشتاء، وثياب الشتاء في الصيف، فقيل له: لو سألته، فسأله فقال: «إن رسول الله ﷺ بعث إلي وأنا أرمد العين يوم خيبر، فقلت: يا رسول الله إني أرمد العين، فتفل في عيني فقال: «اللهم أذهب عنه الحر والبرد»، فما وجدت حراً ولا برداً منذ يومئذ، وقال: «لأُعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار»، فتشرف لها أصحاب النبي ﷺ فأعطانيها. تفرد به أحمد، وقد رواه غير واحد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن علي به مطولاً.

وثبت في الصحيحين من حديث شعبة، عن سعد بن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص: أن رسول الله ﷺ، قال لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي».

وروى أحمد ومسلم والترمذي، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال له: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أَمَا مَا ذَكَرْتَ ثلاثاً قالهنَّ له رسول الله ﷺ؟ لأن تكون لي واحدة منهن، أحبُّ إلي من حُمْرِ النَّعَم، سمعت رسول الله ﷺ يقول - وخَلَّفه في بعض[2] مغازيه - فقال له علي: يا رسول الله، أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي»، وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، قال: فتطاولت لها، قال: «ادعوا لي علياً»، فأتي به أرمد، فبصق في عينيه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ

---

(١) «يدوكون» أي: يتبادلون الكلام ويخوضون.

(٢) قوله: «وخَلَّفه في بعض مغازيه»، أي: خلف رسول الله ﷺ عليًا، وذلك في غزوة «تبوك».

﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾[1] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ثم قال: «اللهم هؤلاء أهلي»، وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سعيد بن المسيب عن سعد: أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وقال الترمذي: ويستغرب من رواية سعيد عن سعد.

وروى الإمام أحمد عن حمزة بن عبد الله عن أبيه ـ يعني: عبد الله بن عمر ـ عن سعد قال: لما خرج رسول الله إلى تبوك، خلف علياً فقال: أتخلفني؟ قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي»، وهذا إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقال الحافظ ابن عساكر: وقد ورى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، جماعة من الصحابة منهم: عمر، وعلي، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، ومعاوية، وجابر بن عبد الله، وجابر بن سمرة، وأبو سعيد، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وزيد بن أبي أوفى، ونبيط بن شريط، وحُبْشي بن جنادة، ومالك بن الحويرث، وأنس بن مالك، وأبو الفضل، وأم سلمة، وأسماء بنت عميس، وفاطمة بنت حمزة. وقد تقصى الحافظ ابن عساكر هذه الأحاديث في ترجمة علي في تاريخه فأجاد وأفاد، وَبَرَّزَ على النُّظَراء والأشباه والأنداد، رحمه رب العباد يوم التناد.

وروى أحمد عن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد، قال: فقال ﷺ يوماً: «سُدُّوا هذه الأبواب، إلا بابَ علي»، قال: فتكلم في ذلك أناس، فقام رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته، ولكن أُمرت بشيء فاتبعته»، وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري من أمره عليه الصلاة والسلام في مرض الموت، بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد، إلا باب أبي بكر الصديق، لأن نفي هذا في حق علي، كان في حال حياته، لاحتياج فاطمة إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها، فجعل هذا رفقاً بها، وأما بعد وفاته، فزالت هذه العلة، فاحتيج إلى فتح باب الصديق، لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس، إذ كان الخليفة عليهم بعد موته عليه الصلاة والسلام، وفيه إشارة إلى خلافته.

وروى الحاكم وغير واحد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن بريدة بن

---

(١) الآية «٦١» من سورة «آل عمران».

الحُصَيْب: قال غزوت مع علي إلى اليمن، فرأيت منه جفوة، فقدمت على رسول الله ﷺ فذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير فقال: «يا بريدة، ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟»، فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: «من كنت مولاه، فعليٌّ مولاه».

وروى أحمد والنسائي، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فعلي وليه».

وروى أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «بعث رسول الله ﷺ علياً إلى خالد بن الوليد ليقبض الخمس، قال: فأصبح ورأسه تقطر، فقال خالد لبريدة: ألا ترى ما يصنع هذا؟ قال: فلما رجعت إلى رسول الله، أخبرته ما صنع علي، قال: ـ وكنت أبغض علياً ـ فقال: «يا بريدة، أتبغض علياً»؟ فقلت: نعم، فقال: «لا تبغضه وأحبه، فإن له في الخمس أكثر من ذلك»، وقد رواه البخاري في الصحيح مطولاً.

أما حديث غدير خُمٍّ، فرواه الإمام أحمد عن أبي الطفيل[1] قال: جمع عليٌّ الناسَ في الرَّحْبَة[2] ثم قال لهم: أنشد الله كلَّ امرىء مسلم، سمع رسول الله ﷺ يقول غدير خُمٍّ ما سمع، لَمَا قام، فقام كثير من الناس، فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس: «أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «من كنت مولاه، فهذا مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه»، قال: فخرجت كأن في نفسي شيئاً، فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا، قال: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك له. ورواه النسائي أتم من ذلك، ورواه الطبراني عن عميرة بن سعد.

وقال عبد الرزاق: أنا الثوري عن الأعمش عن عدي بن ثابت عن زر بن حبيش قال: سمعت علياً يقول: والذي فَلَقَ الحبة وبرأ النَّسَمَةَ، إنه لعهد النبي ﷺ إليَّ: «أنه لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق» ورواه أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه، وقد روي من غير وجه عن علي، وهذا الذي أوردناه هو الصحيح من ذلك والله أعلم.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد، وغير واحد أيضاً، عن علي رضي الله عنه

---

(١) «أبو الطفيل» هو: عامر بن واثلة.

(٢) «الرحبة» هي: رَحْبَةُ الكوفة.

قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إن فيك من عيسى ابن مريم مثلاً، أبغضته يهود حتى بَهَتُوا أمه، وأحبوه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس هو له»، قال علي: «ألا وإنه يَهْلِكُ فيَّ اثنان: محبٌّ مُطْرِيّ مُفْرِطٌ يَفْرِطُني[1] بما ليس فيَّ، ومبغضٌ يحمله شَنآني على أن يَبْهَتَنِي، ألاَ وإني لست بنبي، ولا يوحى إليَّ، ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت، فما أمرتكم من طاعة الله، حُقَّ عليكم طاعتي، فيما أحببتم وكرهتم».

قلت: وما يتوهمه بعض العوام، بل هو مشهور بين كثير منهم: أن علياً هو الساقي على الحوض، فليس له أصل، ولم يجىء من طريق مرضي يعتمد عليه، والذي ثبت أن رسول الله ﷺ هو الذي يسقي الناس، وهكذا الحديث الوارد، في أنه ليس أحد يأتي يوم القيامة راكباً إلا أربعة: رسول الله على البراق، وصالح على ناقته، وحمزة على العضباء، وعلي على ناقة من نوق الجنة رافعاً صوته بالتهليل، وكذلك ما في أفواه الناس من اليمين بعلي، يقول أحدهم: خذ بعلي، أعطني بعلي، ونحو ذلك، كلُّ ذلك لا أصل له، بل ذلك من نزعات الروافض ومقالاتهم، ولا يصح من شيء من الوجوه، وهو من وضع الرافضة، ويخشى على من اعتاد ذلك، سلب الإيمان عند الموت، ومن حلف بغير الله فقد أشرك.

وأما ما روي من حديث: أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعمران بن حصين، وأنس، وثوبان، وعائشة، وأبي ذر، وجابر: أن رسول الله ﷺ قال: «النظر إلى وجه علي عبادة»، وفي حديث عن عائشة: «ذكر علي عبادة»، فلا يصح شيء منها، فإنه لا يخلو كل سند منها عن كذاب، أو مجهول لا يعرف حاله، أو هو شيعي.

وروى الطبراني عن عيسى بن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب، حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2] فخرج رسول الله ﷺ فدخل المسجد والناس يصلون بين راكع وقائم، وإذا سائل، فقال: «يا سائل، هل أعطاك أحد شيئاً؟»، فقال: لا، إلا هذاك الراكع ـ لعلي ـ أعطاني خاتمه.

---

(١) «يفرطني» أي: يُسْرف في القول عليّ، وهذا ينطبق على الذين ألّهوه، أما المبغضون له فقد كَفَّروه، وهم: الخوارج، قبحهم الله جميعاً.

(٢) الآية «٥٥» من سورة «المائدة».

وروى الحافظ ابن عساكر، عن موسى بن قيس عن سلمة قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1] وهذا لا يصح بوجه من الوجوه لضعف أسانيده، ولم ينزل في علي شيء من القرآن بخصوصيته، وكل ما يرددونه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2] وقوله ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[3] وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[4] وغير ذلك من الآيات والأحاديث، الواردة في أنها نزلت في علي، لا يصح شيء منها، وأما قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْۖ﴾[5] فثبت في الصحيح[6] أنه نزل في علي وحمزة وعبيدة من المؤمنين، وفي عتبة وشيبة والوليد بن عتبة من الكافرين.

وما روي عن ابن عباس أنه قال: ما نزل في أحد من الناس ما نزل في علي، وفي رواية عنه أنه قال: نزل فيه ثلثمائة آية، فلا يصح ذلك عنه، لا هذا ولا هذا.

أما الحديث الوارد عن علي وحذيفة مرفوعاً: «علي خير البشر، من أبى فقد كفر، ومن رضى فقد شكر»، فهو موضوع من الطريقين معاً، قبح الله من وضعه واختلقه.

وروى أبو عيسى الترمذي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا دار الحكمة وعلي بابها»، ثم قال: هذا الحديث غريب، قال: رَوى بعضهم هذا الحديث عن ابن عباس.

قلت: رواه سويد بن سعيد، عن شريك، عن سلمة عن الصنابحي عن علي مرفوعاً: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت باب المدينة»، وأما حديث ابن عباس، فرواه ابن عدي من طريق أحمد بن سلمة أبي عمرو الجرجاني، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم، فليأتها من قبل بابها» ثم قال ابن عدي: وهذا الحديث يعرف بأبي الصَّلْت الهروي، عن أبي معاوية، سَرَقَهُ منه

(١) الآية «٥٥» من سورة «المائدة».
(٢) الآية «السابعة» من سورة «الرعد».
(٣) الآية «الثامنة» من سورة «الإنسان».
(٤) الآية «١٩» من سورة «التوبة».
(٥) الآية «١٩» من سورة «الحج».
(٦) روى ذلك البخاري عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

أحمد بن سلمة هذا، ومعه جماعة من الضعفاء، هكذا قال رحمه الله، وقد روى أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز، عن ابن معين أنه قال: أخبرني ابن أيمن، أن أبا معاوية حدث بهذا الحديث قديماً ثم كف عنه، قال: وكان أبو الصلت رجلاً موسراً يكرم المشايخ، ويحدثونه بهذه الأحاديث، وساقه ابن عساكر بإسناد مظلم، عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده، عن جابر بن عبد الله، فذكره مرفوعاً، ومن طريق أخرى عن جابر: قال ابن عدي: وهو موضوع أيضاً، وقال أبو الفتح الأودي: لا يصح في هذا الباب شيء.

وروى ابن عساكر من طريق سفيان الثوري، عن عبد الله بن مسعود قال: كنت عند النبي ﷺ فسئل عن علي فقال: «قُسمت الحكمة عشرة أجزاء، أُعطي علي تسعة، والناس جزءاً واحداً»، وسكت الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث، ولم ينبه على أمره، وهو منكر، بل موضوع مركب على سفيان الثوري بإسناده، قبح الله واضعه ومن افتراه واختلقه.

وروى أبو يعلى الموصلي، عن علي قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، وأنا حديث السن، ليس لي علم بالقضاء قال: فضرب في صدري وقال: «إن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك»، قال: فما شككت في قضاء بين اثنين بعد، وقد ثبت عن عمر أنه كان يقول: «علي أقضانا، وأُبَيّ اقرؤنا للقرآن»، وكان عمر يقول: «أعوذ بالله من معضلة ولا أبو حسن لها».

وقال أبو نعيم: سمعت سفيان الثوري يقول: ما بنى علي لبنة، ولا قصبةً على لبنة، وإن كان ليؤتى بحبوبه من المدينة في جِراب.

وروى يعقوب بن سفيان، عن مجمع بن سمعان التيمي قال: خرج علي بن أبي طالب بسيفه إلى السوق فقال: من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزاراً ما بعته.

وعن أبي هاشم عن زاذان قال: كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال، فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1]، ثم يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع، من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس.

---

(١) الآية «٨٣» من سورة «القصص».

وقال يحيى بن معين: عن علي بن الجعد، عن الحسن بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز، فقال قائلون: فلان، وقال قائلون: فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب.

وقال هشام بن حسان: بينا نحن عند الحسن البصري، إذ أقبل رجل من الأزارقة فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: فاحمرت وجنتا الحسن وقال: رحم الله علياً، إن علياً كان سهماً لله صائباً في أعدائه،وكان في محلة العلم، أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ، وكان رهباني هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقَة، ولا في أمر الله بالنُّوَمَةِ، أعطى القرآنَ عزائمه، وَعَمَلَهُ وعِلْمَهُ، فكان منه في رياض مُونِقَةٍ، وأعلام بينة، ذاك عليُّ بن أبي طالب يا لُكَعُ[1].



(١) قوله «يا لكع» بضم اللام وفتح الكاف أي: يا أحمق.

مواعظ علي رضي الله عنه البليغة

قال وكيع، عن عمرو بن منبه، عن أوفى بن دلهم، عن علي بن أبي طالب أنه قال:

«تَعَلَّموا العلمَ تُعْرَفُوا به، واعملوا تكونوا من أهله، فإنه يأتي من بعدكم زمانٌ، يُنْكَرُ فيه من الحقِّ تسعةُ أعشاره، وإنه لا ينجو منه، إلاَّ كلُّ أوَّاب مُنيب، أولئك أئمة الهدى، ومصابيح العلم، ليسوا بالعُجُلِ[1] المذاييع[2] البُذُر»[3]، ثم قال: «ألاَ وإن الدنيا قد ارتحلت مُدْبِرَةً، وإن الآخرة قد أتت مقبلةً، ولكل واحدةٍ بَنُون، فكونوا من أبناءِ الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وإن الزاهدين في الدنيا، اتخذوا الأرضَ بساطاً، والترابَ فراشاً، والماءَ طِيباً، ألاَ مَن اشتاقَ إلى الآخرة سَلاَ عن الشهوات، ومن أشفق من النار، رَجَعَ عن المحرمات، ومن طلب الجنةَ، سارع إلى الطاعات، ومَنْ زهد في الدنيا، هانت عليه المصائب، ألاَ إنَّ لله عباداً، كَمَنْ رأى أهلَ الجنة في الجنة مخلَّدين، وأهلَ النار في النار معذَّبين، شرورُهم مأمونة، وقلوبُهم مَحْزُونة، وأنفسهم عفيفَةٌ، وحوائجهم خفيفَةٌ، صبروا أياماً قليلةً، لِعُقْبَى راحةٍ طويلة، أمَّا الليلُ، فصافُّون أقدامَهم، تجري دموعُهم على خُدودهم، يَجْأَرون إلى الله في فِكَاكِ رقابهم؛ وأما النهار، فَظِمَاءُ حُلَماءُ، بررةٌ أتقياء، كأنهم القِدَاحُ، ينظر إليهم الناظرُ فيقول: مَرْضَى، وما بالقوم مِنْ مرض، وخُولِطُوا، ولقد خالط القومَ أمْرٌ عظيم».

وعن الأُصْبَغ بن نُبَاتة قال: صَعَدَ عليّ ذاتَ يومٍ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر الموت فقال:

---

(١) «بالعُجُل» بضم العين المهملة والجيم، جمع «عجول» وهو الذي فيه عجلة وعدم تأنٍّ.

(٢) «المَذَاييع» بالذال المعجمة بعدها ياءان مثناتان، جمع«مذاع» كشداد، وهو: الكذاب ومن لا وفاء له.

(٣) «البُذُرِ» بضم الموحدة والذال المعجمة، جمع «بذور وبذير» بفتح الموحدة، وهو: النمّام ومن لا يكتم سره.

«عباد الله، الموتُ ليس منه فَوْتٌ، إن أقمتم له أَخَذَكم، وإن فررتم منه أَدْرَكَكُم، فالنَّجَا النَّجَا، والوَحَا الوَحَا، إن وراءكم طالبٌ حثيثٌ القبرُ، فاحذروا ضَغْطَتَهُ وظُلمته ووَحْشَتَهُ، ألاَ وإن القبرَ حفرةٌ من حُفَرِ النار، أو روضةٌ من رياض الجنة، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث مرات فيقول: أنا بيت الظُّلْمةِ، أنا بيت الدُّودِ، أنا بيت الوَحْشَةِ، ألاَ وإن وراءَ ذلك يومٌ يشيب فيه الصغير، ويَسْكَرُ فيه الكبير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1] ألاَ وإن وراءَ ذلك ما هو أشد منه، نارٌ حَرُّها شديد، وقَعْرُها بعيد، ومقامعها حديد، وماؤها صَديد، وخازنها مالك، ليس لله فيه رحمة»، قال: ثم بكى وبكى المسلمون حولَهُ، ثم قال: «ألاَ وإن وراءَ ذلك جَنَّةٌ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين، جعلنا اللّهُ وإياكم من المتقين، وأجارَنا وإياكم من العذاب الأليم». ورواه ليث بن أبي سليم عن مجاهد، حدثني من سمع علياً، فذكر نحوه.

وقال وكيع، عن عمرو بن منبه، عن أوفى بن دلهم قال: خطب علي فقال:

«أما بعد: فإن الدنيا قد أدبرت، وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت، وأشرفت بإِطْلاع[2]، وإن المضمارَ اليوم، وغداً السِّباق، ألاَ وإنكم في أيام أَمَلٍ من ورائه أَجَلٌ، فمَن قَصَّر في أيام أَمَله قبلَ حضور أَجَله، فقد خابَ عَمَلُه، ألاَ فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة، ألا وإنه لم أَرَ كالجنة نام طالبُها، ولم أَرَ كالنار نام هاربُها، وإنه مَنْ لم ينفعه الحقُّ ضَرَّهُ الباطلُ، ومَنْ لم يستقم به الهدى، حاد به الضَّلالُ، ألاَ وإنكم قد أُمرتم بالظَّعْنِ، ودُلِلْتُم على الزاد، ألا أيها الناس إنما الدنيا عَرْضٌ حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجر، وإن الآخرة وَعْدٌ صادق، يَحْكُم فيها مَلِكٌ قادر، ألاَ إن الشيطانَ يَعِدُكم الفَقْرَ ويأمركم بالفحشاء، والله يَعِدُكم مغفرةً منه وفضلاً والله واسع عليم.

أيها الناس: أَحْسِنوا في أعماركم، تُحْفَظُوا في أَعقابكم، فإن الله وَعَدَ جَنَّتَهُ مَنْ أطاعه، وأوعد نارَهُ من عصاه، إنها نارٌ لا يهدأُ زَفيرُهَا، ولا يُفَكُّ أسيرُها، ولا يُجْبَرُ كسيرُها، حَرُّها شديد، وقَعْرُها بعيد، وماؤها صديد، وإن أخوفَ ما أخافُ عليكم، اتباعُ الهوى وطولُ الأملِ»، وفي رواية: «فإن اتباعَ الهوى يَصُدُّ عن الحق، وإن طولَ الأمل يُنسي الآخرة».

---

(١) الآية «الثانية» من سورة «الحج».

(٢) «بإطلاع» بكسر الهمزة وسكون الطاء المهملة أي: بظهور.

وعن عاصم بن ضمرة قال: ذَمَّ رجلٌ الدنيا عند علي فقال عليّ:

«الدنيا دارُ صِدْقٍ لمن صَدَقَها، ودار نجاةٍ لمن فَهِمَ عنها، ودار غَنَاءٍ وزادٍ لمن تَزَوَّدَ منها، ومَهْبِطُ وحيِ الله، ومصلَّى ملائكته، ومسجدُ أنبيائه، وَمَتْجَرُ أوليائه، ربحوا فيها الرحمةَ، واكتسبوا فيها الجنةَ، فَمَنْ ذا يَذُمُّها وقد آذَنَتْ بغَيْلها[1]، ونادَتْ بفراقها، وشابَتْ بشرورها السُّرورَ، وببلائها الرغبةَ فيها والحرصَ عليها، ترغيباً وترهيباً، فيا أيها الذامُّ للدنيا، المعلِّلُ نفسَهُ بالأماني، متى خدعتك الدنيا؟ أو متى اشتَدَّتْ[2] إليك؟ أَبمصارع آبائك في البِلاَ؟ أم بمضاجع أمهاتك تحت الثَّرَى؟ كم مَرَّضْتَ بيديكَ، وعَلَّلْتَ بكفيكَ، ممن تطلب له الشِّفاءَ، وتَسْتوصِفُ له الأطباءَ، لا يُغني عنه دواؤكَ، ولا ينفعه بكاؤكَ».

وقال سفيان الثوري والأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري قال: جاء رجل إلى علي فأطراه ـ وكان يُبْغِضُ علياً ـ فقال له: «لستُ كما تقول، وأنا فوق ما في نفسك».

وقال سفيان الثوري عن زبيد اليامي، عن مهاجر العامري قال: كتب علي بن أبي طالب عهداً لبعض أصحابه على بلد، فيه:

«أما بعد: فلا تُطَوِّلَنَّ حِجَابَكَ على رعيتك، فإن احتجابَ الولاةِ عن الرعية، شُعْبَةُ الضِّيْقِ، وقلةُ علم بالأمور، والاحتجابُ يقطع عنهم علمَ ما احْتُجِبُوا دونه، فَيَضْعُفُ عندهم الكبيرُ، ويَعْظُمُ الصغيرُ، وَيَقْبُحُ الحَسَنُ، ويَحْسُنُ القبيحُ، ويُشَابُ الحقُّ بالباطل، وإنما الوالي بَشَرٌ، لا يَعرفُ ما يواري عنه الناس به من الأمور، وليس على القوم سِمَاتٌ يُعْرَفُ بها ضروبُ الصِّدق من الكذب، فَتَحَصَّنْ من الإدخال في الحقوق، بلين الحجاب، وإنما أنت أَحَدُ الرجلين، إما امرؤٌ شَحَّتْ نَفْسُكَ بالبذل في الحق، ففيمَ احتجابُكَ مِنْ حَقٍّ واجبٌ عليك أن تُعطيه، وخُلُقٍ كريم تُسْدِ به؟ وإما مبتلىً بالمنع والشُّحِّ، فما أَسْرَعَ زوالَ نعمتك، وما أسرعَ كَفَّ الناسِ عن مسألتك، إذا يئسوا من ذلك، مع أَنَّ أكثَرَ حاجاتِ الناس إليك، ما لا مَؤُنَةَ فيه عليك، من شِكَايَةِ مَظْلَمَةٍ، أو طلبِ إِنْصَافٍ، فانْتَفِعْ بما وَصَفْتُ لك، واقتَصِرْ على حَظِّك ورُشْدِكَ، إن شاء الله».

---

(١) «بغَيْلها» أي: خِدَاعها، أي: أَعْلَمَتْ أنها للناس خادعة غرّارة، كقوله تعالى: **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** [الآية ٣٣ من سورة لقمان].

(٢) «اشتدت» أي: أسرعت.

الفصل الثاني

تَوَلِّي علي الخلافَةَ
رضي الله عنه

* مبايعة علي رضي الله عنه بالخلافة.

* تَوْليته النُّوَّابَ على الأمصار، وما وقع بسبب ذلك من خلاف.



مبايعة علي رضي الله عنه بالخلافة

قتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة، سنة خمسة وثلاثين على المشهور، فعدل الناس إلى علي فبايعوه، قبل أن يدفن عثمان، وقيل: بعد دفنه كما تقدم، وقد امتنع علي من إجابتهم على قبول الإمارة، حتى تكرر قولهم له، وفر منهم إلى حائط بني عمرو بن مبدول وأغلق بابه، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه، وجاؤوا معهم بطلحة والزبير، فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب.

ويقال: إن أول من بايعه طلحة بن عبيد الله بيده اليمنى، وكانت شَلاَّء من يوم أحد، لما وَقَى بها رسولَ الله ﷺ، فقال بعض القوم: والله إن هذا الأمر لا يتم، وخرج عليٌ إلى المسجد، فصعد المنبر وعليه إزار وعمامة خَزٍّ، ونعلاه في يده، فتوكأ على قوسه، فبايعه عامة الناس، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

قال الواقدي: بايع الناس علياً بالمدينة، وتربص سبعة نفر لم يبايعوا، منهم: ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن أبي مسلمة، وسلمة بن سلامة بن وقش، وأسامة بن زيد، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم.

وذكر سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه قالوا: بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على علي، وهو يهرب منهم إلى الحيطان، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا فيما بينهم: لا نولّي أحداً من هؤلاء الثلاثة، فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا: إنك من أهل الشورى، فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا في أمرهم، ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة، اختلف الناس في

أمرهم، ولم نَسْلَمْ، فرجعوا إلى علي، فألحوا عليه، وأخذ الأشتر بيده، فبايعه وبايعه الناس، وأهل الكوفة يقولون: أول من بايعه الأشتر النخعي، وذلك يوم الخميس الرابع والعشرون من ذي الحجة، وذلك بعد مراجعة الناس لهم في ذلك، وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا علي، فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس، وكان أول من بايعه طلحة بيده الشَّلاَّء، فقال قائل: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم الزبير، ثم قال الزبير: إنما بايعت علياً واللُّجُّ[1] على عنقي والسلام، ثم راح إلى مكة فأقام أربعة أشهر.

وكانت هذه البيعة يوم الجمعة لخمسة بقين من ذي الحجة، وكان أول خطبة خطبها، أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً، بَيَّنَ فيه الخيرَ والشرَّ، فخذوا بالخير، ودَعُوا الشرَّ، إن الله حَرَّم حُرَماً مجهولَةً، وَفَضَّل حُرْمَةَ المسلم على الحُرَم كلِّها، وشَدَّ بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين، والمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلاَّ بما يَجِبُ، بادِرُوا أَمْرَ العامَّة، وخاصَّةَ أَحَدِكم الموتَ، فإن الناسَ أمامكم، وإنما خَلْفَكُمُ الساعَةُ تَحْدُو بكم، فَتَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فإنما ينتظر بالناسُ أُخراهم، اتقوا الله عبادَهُ، في عباده وبلاده، فإنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تَعْصُوه، وإذا رأيتَم الخيرَ فخذوا به، وإذا رأيتم الشرَّ فدعوه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].



(١) «اللُّجُّ» بضم اللام والجيم مشددتين هو: السيف.

(٢) الآية «٢٦» من سورة «الأنفال».

تَوْلية عليٍّ النُّوَّابَ على الأَمصار وما وقع بسبب ذلك من خلاف

ولما قتل عثمان بن عفان، خرج النعمان بن بشير، ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت، حين حاجفت عنه بيدها، فقطعت مع بعض الكف، فورد به على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص، وندب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه، فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله سنة، وحث بعضهم بعضا على الأخذ بثأره، واعتزل أكثر الناس النساء في هذا العام، وقام في الناس معاوية، وجماعة من الصحابة معه، يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان، ممن قتله من أولئك الخوارج، منهم: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أمامة؛ وعمرو بن عنبسة وغيرهم من الصحابة، ومن التابعين: شريك بن حباشة، وأبو مسلم الخولاني، وعبد الرحمن بن غنم، وغيرهم من التابعين.

ولما استقر أمر بيعة علي، دخل عليه طلحة والزبير ورؤس الصحابة رضي الله عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان، فاعتذر إليهم، بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة، ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج، وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان رضي الله عنه، فقال لهما: مهلاً عليَّ، حتى أنظر في هذا الأمر.

ودخل عليه المغيرة بن شعبة على إثر ذلك فقال له: إني أرى أن تقر عمالك على البلاد، فإذا أتتك طاعتهم، استبدلت بعد ذلك بمن شئت، وتركت من شئت، ثم جاءه من الغد فقال له: إني أرى أن تعزلهم، لتعلم من يطيعك ممن يعصيك، فعرض ذلك عليٌّ على ابن عباس فقال: لقد نصحك بالأمس وغَشَّكَ اليوم، فبلغ

ذلك المغيرة فقال: نعم نصحته، فلما لم يقبل غششته، ثم خرج المغيرة فلحق بمكة، ولحقه جماعة منهم طلحة والزبير، وكانوا قد استأذنوا علياً في الاعتمار فأذن لهم.

ثم إن ابن عباس، أشار على عليّ باستمرار نوابه في البلاد، إلى أن يتمكن الأمر، وأن يقر معاوية خصوصاً على الشام وقال له: إني أخشى إن عزلته عنها، أن يطلبك بدم عثمان، ولا آمن طلحة والزبير، أن يتكلما عليك بسبب ذلك، فقال علي: إني لا أرى هذا، ولكن اذهب أنت إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس لعلي: إني أخشى من معاوية أن يقتلني بعثمان، أو يحبسني لقرابتي منك، ولكن اكتب معي إلى معاوية فمنّه وَعِدْهُ، فقال علي: والله إن هذا ما لا يكون أبداً، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، «الحرب خَدْعَة»[1] كما قال رسول الله ﷺ، فوالله لئن أطعتني، لأُورِدَنَّهم بعد صُدُرِهم[2]، ونهى ابنُ عباس علياً فيما أشار عليه، أن يقبل من هؤلاء الذين يحسّنون إليه الرحيل إلى العراق، ومفارقة المدينة، فأبى عليه ذلك له، وطاوع أمر أولئك الأمراء من أولئك الخوارج من أهل الأمصار.

فولّى عبد الله بن عباس على اليمن، وولّى عثمان بن حنيف على البصرة فاختلف عليه أهلها، وعمار بن شهاب على الكوفة، فصَدَّه عنها طلحة بن خويلد غضباً لعثمان، فرجع إلى علي فأخبره، وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية، فسار حتى بلغ تبوك، فتلقته خيل معاوية، فقالوا: من أنت؟ فقال: أمير، قالوا: على أيِّ شيء؟ قال: على الشام، فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحيَّ هَلاً بك، وإن كان غيره فارجع، فقال: أَوَما سمعتم الذي كان؟ قالوا: بلى، فرجع إلى علي.

وولّى نيابة الديار المصرية لقيس بن سعد بن عبادة، وكان على نيابتها في أيام عثمان، عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما توجه أولئك الأحزاب من خوارج المصريين إلى عثمان، وكان الذي جهزهم إليه مع عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، محمد بن أبي حذيفة بن عتبة، وكان لما قتل أبوه باليمامة أوصى به إلى عثمان، فكفله ورباه في حجره ومنزله، وأحسن إليه إحساناً كثيراً، ونشأ في عبادة

---

(١) «الحرب خدعة»، رواه الشيخان وأحمد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه، والطبراني عن عدد وفير من الصحابة رضوان الله عليهم، وقوله ﷺ «خدعة» قال الإمام النووي: وأفصح اللغات فيها فتح الخاء وسكون الدال المهملة وهي لغة النبي ﷺ، والمعنى: أن المماكرة في الحرب أنفع من الطعن والضرب.

(٢) قوله: «لأوردنهم بعد صدروهم» أي: لأعيدنهم إلى الطاعة بعد أن خرجوا منها.

وزهادة، وسأل من عثمان أن يوليه عملاً فقال له: متى ما صرت أهلاً لذلك وليتك، فتعتب في نفسه على عثمان، فسأل من عثمان أن يخرج إلى الغزو فأذن له، فقصد الديار المصرية، وحضر مع أميرها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح غزوة الصَّوَاري كما قدمنا[1]، وجعل ينتقص عثمان رضي الله عنه وساعده على ذلك محمد بن أبي بكر، فكتب بذلك ابن أبي سرح إلى عثمان يشكوهما إليه، فلم يعبأ بهما عثمان، ولم يزل ذلك دأب محمد بن أبي حذيفة، حتى استنفر أولئك إلى عثمان، فلما بلغه أنهم قد حصروا عثمان، تغلب على الديار المصرية، وأخرج منها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وصلَّى بالناس فيها، فلما كان ابن أبي سرح ببعض الطريق، جاءه الخبر بقتل أمير المؤمنين عثمان فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وبلغه أن علياً قد بعث على إمرة مصر، قيس بن سعد بن عبادة، فشمت بمحمد بن أبي حذيفة، إذ لم يمتع بملك الديار المصرية سنة، وسار عبد الله بن سعد إلى الشام إلى معاوية، فأخبره بما كان من أمره بديار مصر، وأن محمد بن أبي حذيفة قد استحوذ عليها، فسار معاوية وعمرو بن العاص ليخرجاه منها، لأنه من أكبر الأعوان على قتل عثمان، مع أنه كان قد رباه وكفله وأحسن إليه، فعالجا دخول مصر فلم يقدرا، فلم يزالا يخدعانه حتى خرج إلى العريش في ألف رجل فتحصن بها، وجاء عمرو بن العاص، فنصب عليه المنجنيق، حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فقتلوا، ذكره محمد بن جرير.

ثم سار إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بولاية من علي، فدخل مصر في سبعة نفر، فرقي المنبر، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد الله كثيراً الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فإن الله بحسن صنيعه وتقديره وتدبيره، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به الرسل إلى عباده، وخَصَّ به من انتخب من خلقه، فكان ممن أكرم الله به هذه الأمة، وخصهم به من الفضيلة، أن بعث محمداً ﷺ يعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة، لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرقوا، وزكاهم لكي يتطهروا، ووفقهم لكيلا يجوروا، فلما قضى من ذلك ما عليه، قبضه الله إليه، صلوات الله وسلامه عليه وبركاته ورحمته، ثم إن المسلمين استخلفوا بعده أميرين

---

(١) سبق ذكرها في «الفصل الثاني» من خلافة عثمان رضي الله عنه.

صالحين، عملا بالكتاب، وأحسنا السيرة، ولم يَعْدُوَا السُّنَّة، ثم توفاهما الله، فرحمهما الله، ثم وَلي بعدهما والٍ أحدث أحداثاً، فَوَجَدَت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا عليه فغيروا، ثم جاءوني فبايعوني، فأستهدي الله بهداه، وأستعينه على التقوى، ألاَ وإن لكم علينا العملَ بكتاب الله وسنة رسول الله، والقيامَ عليكم بحقه، والنصحَ لكم بالغيب، والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل، وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة، فوازروه وكانفوه، وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدة على مريبكم، والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصيحته، أسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً، ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وكتب عبد الله بن أبي رافع، في صفر سنة ست وثلاثين قال: ثم قام قيس بن سعد، فخطب الناس ودعاهم إلى البيعة لعلي، فقام الناس فبايعوه، واستقامت له طاعة بلاد مصر سوى قرية منها يقال لها: «خربتا»[1]، فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان ـ وكانوا سادة الناس ووجوههم، وكانوا في نحو من عشرة آلاف، وعليهم رجل يقال له: يزيد بن الحارث المدلجي ـ وبعثوا إلى قيس بن سعد فوادعهم، وكذلك مسلمة بن مدلج الأنصاري تأخر عن البيعة، فتركه قيس بن سعد ووادعه، ثم كتب معاوية بن أبي سفيان ـ وقد استوثق له أمر الشام بحذافيره إلى أقصى بلاد الروم، والسواحل وجزيرة قبرص أيضاً تحت حكمه، وبعض بلاد الجزيرة كالرُّها وحَرَّان وقَرْقِيسِيَا وغيرها، وقد ضوى إليها الذين هربوا يوم الجمل من العثمانية، وقد أراد الأشتر انتزاع هذه البلاد من يد نواب معاوية، فبعث إليه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ففر منه الأشتر، واستقر أمر معاوية على تلك البلاد ـ فكتب إلى قيس بن سعد، يدعوه إلى القيام بطلب دم عثمان، وأن يكون مؤازراً له، على ما هو بصدده من القيام في ذلك، ووعده أن يكون نائبه على العراقين إذا تم له الأمر ما دام سلطاناً، فلما بلغه الكتاب ـ وكان قيس رجلاً حازماً ـ لم يخالفه ولم يوافقه، بل بعث يلاطف معه الأمر، وذلك لبعده عن علي، وقربه من بلاد الشام، وما مع معاوية من الجنود، فسالمه وتاركه، ولم يواقعه على ما دعاه إليه ولا وافقه عليه، فكتب إليه معاوية: إنه لا يسعك معي تسويفك بي وخديعتك لي، ولا بد أن أعلم

---

(١) «خربتا»، بلدة كانت حوالي الإسكندرية، وهي الآن خراب لا تعرف، وضبطت بفتح الخاء المعجمة وبكسرها، وبكسر الراء وسكون الباء الموحدة بعدها تاء مثناة فوقية، كذا في «معجم البلدان».

أنك سَلْمٌ أو عدو، وكان معاوية حازماً أيضاً، فكتب إليه بما صمم عليه: إني مع علي، إذ هو أحق بالأمر منك، فلما بلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان يئس منه ورجع، ثم أشاع بعض أهل الشام، أن قيس بن سعد يكاتبهم في الباطن، ويمالئهم على أهل العراق، وروى ابن جرير: أنه جاء من جهته كتاب مزور بمبايعته معاوية والله أعلم بصحته، ولما بلغ ذلك علياً فاتهمه، وكتب له أن يغزو أهل «خَرِبْتَا»[1] الذين تخلفوا عن البيعة، فبعث إليه يعتذر إليه بأنهم عدد كثير، وهم وجوه الناس، وكتب إليه: إن كنت إنما أمرتني بهذا لتختبرني لأنك اتهمتني، فابعث على عملك بمصر غيري، فبعث عليّ على إمرة مصر الأشتر النَّخعي، فسار إليها الأشتر النخعي، فلما بلغ القُلْزُمَ[2] شرب شربة من عسل، فكان فيها حتفه، فبلغ ذلك أهل الشام فقالوا: إن لله جنداً من عسل، فلما بلغ علياً مهلك الأشتر، بعث محمد بن أبي بكر على إمرة مصر، وقد قيل وهو الأصح: أن علياً ولَّى محمد بن أبي بكر بعد قيس بن سعد، فارتحل قيس إلى المدينة، ثم ركب هو وسهل بن حنيف إلى علي، فاعتذر إليه قيس بن سعد، فعذره علي، وشهدا على صفين كما سنذكره.

فلم يزل محمد بن أبي بكر بمصر، قائم الأمر مهيباً بالديار المصرية، حتى كانت وقعة صفين، وبلغ أهل مصر، خبر عزم معاوية ومن معه من أهل الشام، على قتال أهل العراق، وصاروا إلى التحكيم، فطمع أهل مصر في محمد بن أبي بكر، واجترأوا عليه، وبارزوه بالعداوة، فكان من أمره ما سنذكره[3] وكان عمرو بن العاص، قد بايع معاوية على القيام بطلب دم عثمان، وكان قد خرج من المدينة حين أرادوا حصره لئلا يشهد مهلكه، مع أنه كان متعتباً عليه، بسبب عزله له عن ديار مصر، وتوليته بدله عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فتسرح عن المدينة على تَغَضُّبٍ، فنزل قريباً من الأردن، فلما قتل عثمان صار إلى معاوية فبايعه.

وانتشرت الفتنة، وتفاقم الأمر، واختلفت الكلمة، وكتب أبو موسى إلى علي بطاعة أهل الكوفة ومبايعتهم، إلا القليل منهم، وبعث علي إلى معاوية كتباً كثيرة، لم يرد عليه جوابها، وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر، ثم

---

(١) ارجع إلى التعليق السابق.

(٢) «القلزم» بضم القاف وسكون اللام بعدها زاي مضمومة هو: البحر المعروف من زماننا بالبحر الأحمر، أما «بحر الروم» فهو المعروف في عصرنا بالبحر الأبيض المتوسط.

(٣) وهو أن عمرو بن العاص أخذ منه مصر، ثم قتل في آخر الأمر، كما سيأتي في «حوادث السنة الثامنة والثلاثين» من «الفصل السابع»، في هذا الجزء بعونه تعالى.

بعث معاوية طُوماراً[1] مع رجل، فدخل به على علي فقال: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَدَ، كلهم موتور، تركت سبعين ألف شيخ، يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي، فهمّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد، وعزم علي رضي الله عنه على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبي موسى بالكوفة: وبعث إلى عثمان بن حنيف بذلك، وخطب الناس فحثهم على ذلك، وعزم على التجهز، وخرج من المدينة، واستخلف عليها قُثَمَ بن العبّاس، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه، مَنْ عصاه وخرج عن أمره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسن بن علي فقال: يا أبتي، دع هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع اختلاف بينهم، فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، ورتب الجيش، فدفع اللواء إلى ابنه محمد ابن الحنفية، وجعل ابن العباس على الميمنة، وعمرو بن أبي سلمة على الميسرة، وقيل: جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح، ابن أخي أبي عبيدة، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً إلى الشام، حتى جاءه ما شغله عن ذلك كله، وهو ما سنورده[2].



(١) «طوماراً» بضم الطاء المهملة هو: الصحيفة.

(٢) سيأتي هذا في «وقعة الجمل» في «الفصل الثالث التالي» بعونه تعالى.

الفصل الثالث

وَقْعَةُ الجَمَل

* ابتداءُ أَمْرِ وَقْعَةِ الجَمَل.
* مَسير عليّ من المدينة إلى البصرة بدلاً من الشَّام.
* اتفاق الفريقين على الصُّلح.
* البُغَاةُ قَتَلَةُ عثمانَ يُفْسدون الصُّلْحَ.
* حَمْلُ قَتَلَةِ عثمانَ على هَوْدَج عائشة وجَمَلِهَا.
* إكرامُ عليٍّ أمَّ المؤمنين بعد انهزام جيشها.
* أعيان من قُتِلَ يوم الجمل.



ابتداءُ أَمرِ وَقْعَة الجَمَل

لما وقع قتل عثمان بعد أيام التشريق، كان أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، قد خرجن إلى الحج في هذا العام، فراراً من الفتنة، فلما بلغ الناسَ أن عثمان قد قُتل، أقمن مع الناس بمكة، وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ويتحسسون الأخبار، فلما بويع لعلي، وصار أَحَظُّ الناس عنده ـ بحكم الحال وغلبة الرأي، لا عن اختيار منه لذلك ـ رؤوسُ أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن علياً في نفس الأمر يكرههم، ولكنه تربص بهم الدوائر، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق الله منهم، ولكن لما وقع الأمر هكذا، واستحوذوا عليه، وحجبوا عنه علية الصحابة، فرّ جماعة من بني أمية وغيرهم إلى مكة، واستأذنه طلحة والزبير في الاعتمار، فأذن لهما، فخرجا إلى مكة وتبعهم خلق كثير، وجم غفير، وكان علي لَمَّا عزم على قتال أهل الشام، قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه، فطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب، وحرضه على الخروج معه، فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة، إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام، ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة، وقدم إلى مكة أيضاً في هذا العام، يعلى بن أمية من اليمن، ـ وكان عاملاً عليها لعثمان ـ، ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وقدم لها عبد الله بن عامر من البصرة، وكان نائبها لعثمان، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة، وأمهات المؤمنين.

فقامت عائشة رضي الله عنها في الناس تخطبهم، وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان، وذكرت ما افتات به أولئك، من قتله في بلد حرام وشهر حرام، ولم يراقبوا جوار رسول الله ﷺ وقد سفكوا الدماء، وأخذوا الأموال، فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة، وقالوا لها: حيثما ما سرت سرنا معك، فقال قائل: نذهب إلى الشام، فقال بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها ـ ولو قَدِمُوها لغَلَبُوا، واجتمع الأمر كله لهم، لأن أكابر الصحابة معهم ـ وقال آخرون: نذهب إلى المدينة، فنطلب من علي أن يُسْلم إلينا قَتَلَةَ عثمان فيقتلون، وقال آخرون: بل نذهب إلى البصرة، فنتقوى من هنالك بالخيل والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان، فاتفق الرأي على ذلك.

وكان بقية أمهات المؤمنين، قد وافقن عائشة على المسير إلى المدينة، فلما اتفق الناس على المسير إلى البصرة، رجعن عن ذلك وقلن: لا نسير إلى غير المدينة، وجهز الناسَ يعلى بن أمية، فأنفق فيهم ستمائة بعير، وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر أيضاً بمال كثير، وكانت حفصة بنت عمر أم المؤمنين، قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة، فمنعها أخوها عبد الله من ذلك، وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة، وسار الناس صحبة عائشة في ألف فارس، وقيل: تسعمائة فارس، من أهل المدينة ومكة، وتلاحق بهم آخرون، فصاروا في ثلاثة آلاف، وأم المؤمنين عائشة تُحمل في هودج على جمل اسمه عسكر، اشتراه يعلى بن أمية، من رجل من عُرَينة بمائتي دينار، وقيل: بثمانين ديناراً، وقيل غير ذلك، وسار معها أمهات المؤمنين إلى «ذات عِرْق»، ففارقنها هنالك وبكين للوداع، وتباكى الناس، وكان ذلك اليوم يسمى يوم النَّحيب، وسار الناس قاصدين البصرة، وكان الذي يصلي بالناس عن أمر عائشة، ابن أختها عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم يؤذن للناس في أوقات الصلوات، وقد مروا في مسيرهم ليلاً بماء يقال له: «الحَوْأب»، فنبحتهم كلابٌ عنده، فلما سمعت ذلك عائشة قالت: «ما اسم هذا المكان؟» قالوا: الحَوْأَب، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظنني إلا راجعة»، قالوا: ولم؟ قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «ليت شعري، أَيَّتُكُنَّ التي تَنْبَحُها كلابُ الحَوْأَب؟»، ثم ضربت عَضُد بعيرها فأناخته، وقالت: رُدُّوني رُدُّوني، أنا والله صاحبة ماء الحَوْأَب، وقد أوردنا هذا الحديث بطرقه وألفاظه في دلائل النبوة كما سبق، فأناخ الناس حولها يوماً وليلة، وقال لها عبد الله بن الزبير: إن الذي أخبرك، أن هذا ماء الحَوْأَبِ قد كذب، ثم قال الناس: النَّجاءَ النَّجاءَ، هذا جيش علي بن أبي طالب قد أقبل، فارتحلوا نحو البصرة، فلما اقتربت من البصرة كتبت إلى الأحنف بن قيس، وغيره من رؤوس الناس، أنها قد قدمت، فبعث عثمان بن حنيف، عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي إليها، ليعلما ما جاءت له، فلما قدما عليها، سلما عليها واستعلما منها ما جاءت له، فذكرت لهما ما الذي جاءت له، من القيام بطلب دم عثمان، لأنه قتل مظلوماً في شهر حرام وبلد حرام، وتلت قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[1] فخرجا من عندها فجاءا

---

(١) الآية «١١٤» من سورة «النساء».

إلى طلحة فقالا له: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان، فقالا: أما بايعت علياً؟ قال: بلى والسيف على عنقي، ولا أستقبله إن هو لم يُخل بيننا وبين قتلة عثمان، فذهبا إلى الزبير فقال مثل ذلك، قال: فرجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف، فقال عثمان بن حنيف لعمران بن حُصَين: أشِرْ عليَّ، فقال: اعتزل، فإني قاعد في منزلي، أو قال: قاعد على بعيري، فذهب، فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين، فنادى في الناس يأمرهم بلبس السلاح، والاجتماع في المسجد، فاجتمعوا فأمرهم بالتجهز، فقام رجل وعثمان على المنبر فقال: أيها الناس، إن كان هؤلاء القوم، جاؤا خائفين، فقد جاؤا من بلد يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤا يطلبون بدم عثمان، فما نحن بقتلته، فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤا، فقام الأسود بن سريع السعدي فقال: إنما جاؤا يستعينون بنا على قتلة عثمان، منا ومن غيرنا، فحصبه الناس، فعلم عثمان بن حنيف، أن لقتلة عثمان بالبصرة أنصاراً، فكره ذلك، وقدمت أم المؤمنين بمن معها من الناس، فنزلوا المربد من أعلاه قريباً من البصرة، وخرج إليها من أهل البصرة، من أراد أن يكون معها، وخرج عثمان بن حنيف بالجيش، فاجتمعوا بالمربد، فتكلم طلحة ـ وكان على الميمنة ـ فندب إلى الأخذ بثأر عثمان، والطلب بدمه، وتابعه الزبير فتكلم بمثل مقالته، فرد عليهما ناس من جيش عثمان بن حنيف، وتكلمت أم المؤمنين، فحرضت وحثت على القتال، فتثاور طوائف من أطراف الجيش، فتراموا بالحجارة، ثم تحاجز الناس، ورجع كل فريق إلى حوزته، وقد صارت طائفة من جيش عثمان بن حنيف إلى جيش عائشة، فكثروا، وجاء حارثة بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين! والله لقتل عثمان، أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل، عرضَةً للسلاح، إن كنت أتيتنا طائعة، فارجعي من حيث جئت إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مكرهة، فاستعيني بالناس في الرجوع، وأقبل حكيم بن جبلة ـ وكان على خيل عثمان بن حنيف ـ فأنشب القتال، وجعل أصحاب أم المؤمنين، يكفون أيديهم ويمتنعون من القتال، وجعل حكيم يقتحم عليهم، فاقتتلوا على فم السكة، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا، حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن، وحجز الليل بينهم، فلما كان اليوم الثاني قصدوا للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً، إلى أن زال النهار، وقتل خلق كثير من أصحاب ابن حنيف، وكثرت الجراح في الفريقين، فلما عضتهم الحرب، تداعوا إلى الصلح، على أن يكتبوا بينهم كتاباً، ويبعثوا رسولاً إلى أهل المدينة يسأل أهلها، إن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة، خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها، وإن لم يكونا أكرها على البيعة، خرج

طلحة والزبير عنها وأخلوها لهم، وبعثوا بذلك كعب بن سور القاضي، فقدم المدينة يوم الجمعة، فقام في الناس، فسألهم: هل بايع طلحة والزبير طائعين أو مكرهين؟ فسكت الناس، فلم يتكلم إلا أسامة بن زيد، فقال: بل كانا مكرهين، فثار إليه بعض الناس، فأرادوا ضربه، فحاجف دونه صهيب، وأبو أيوب، وجماعة حتى خَلَّصوه، وقالوا له: ما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ فقال: لا والله، ما كنت أرى أن الأمر ينتهي إلى هذا، وكتب عليٌّ إلى عثمان بن حنيف يقول له: إنهما لم يُكْرَها على فرقة، ولقد أُكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك، نظرا ونظرنا، وقدم كعب بن سور على عثمان بكتاب علي، فقال عثمان: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه، وبعث طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف أن يخرج إليهما فأبى، فجمعا الرجال في ليلة مظلمة، وشهدا بهم صلاة العشاء في المسجد الجامع، ولم يخرج عثمان بن حنيف تلك الليلة، فصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ووقع من رَعَاع الناس من أهل البصرة كلام وضرب، فقتل منهم نحو أربعين رجلاً، ودخل الناس على عثمان بن حنيف قصره، فأخرجوه إلى طلحة والزبير، ولم يبق في وجهه شعرة إلا نتفوها، فاستعظما ذلك، وبعثا إلى عائشة فأعلماها الخبر، فأمرت أن تخلي سبيله، فأطلقوه، ووَلَّوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر، وقسم طلحة والزبير أموال بيت المال في الناس، وفضلوا أهل الطاعة، وأكب عليهم الناس يأخذون أرزاقهم، وأخذوا الحرس، واستبدوا في الأمر بالبصرة، فحمي لذلك جماعة من قوم قتلة عثمان وأنصارهم، فركبوا في جيش قريب من ثلثمائة، ومقدمهم حكيم بن جبلة، وهو أحد من باشر قتل عثمان، فبارزوا وقاتلوا، فضرب رَجُل رِجْلَ حكيم بن جبلة فقطعها، فزحف حتى أخذها، وضرب بها ضاربه فقتله، ثم اتكأ عليه وجعل يقول:

يــا ســاقُ لــن تــراعــي إنّ لــــكِ ذراعــــي
أحــمــي بــهــا كُــرَاعــي

وقال أيضاً:

لــيــس عــلــيّ أن أمــوتَ عــارُ والــعــارُ فــي الــنــاس هــو الــفــرارُ
والــمــجــدُ لا يــفــضــحــه الــدَّمَــارُ

فمر عليه رجل وهو متكىء برأسه على ذلك الرَّجُل، فقال له: من قتلك؟ فقال له: وسادتي، ثم مات حكيم قتيلاً، هو ونحو من سبعين من قتلة عثمان، وأنصارهم أهل المدينة، فضعف جأش من خالف طلحة والزبير من أهل البصرة، ويقال: إن

أهل البصرة بايعوا طلحة والزبير، وندب الزبير ألف فارس يأخذها معه، ويلتقي بها علياً قبل أن يجيء، فلم يجبه أحد، وكتبوا بذلك إلى أهل الشام يبشرونهم بذلك، وقد كانت هذه الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر، سنة ست وثلاثين، وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان، تدعوه إلى نصرتها والقيام معها، فإن لم يجيء، فليكف يده، وليلزم منزله، أي: لا يكون عليها ولا لها، فقال: أنا في نصرتك ما دمت في منزلك، وأبى أن يطيعها في ذلك، وقال: رحم الله أم المؤمنين، أَمَرَها الله أن تلزم بيتها، وأَمَرنا أن نقاتل، فخرجت من منزلها وأَمَرَتْنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي أحق بذلك منا، وكتبت عائشة إلى أهل اليمامة والكوفة بمثل ذلك.



مسير علي من المدينة إلى البصرة بدلاً من الشام

كان علي قد تجهز قاصداً الشام كما ذكرنا، فلما بلغه قصد طلحة والزبير البصرة، خطب الناس وحثهم على المسير إلى البصرة، ليمنع أولئك من دخولها، إن أمكن، أو يطردهم عنها إن كانوا قد دخلوها، فتثاقل عنه أكثر أهل المدينة، واستجاب له بعضهم، قال الشعبي: ما نهض معه في هذا الأمر غير ستة نفر من البدريين، ليس لهم سابع، وقال غيره: أربعة.

وذكر ابن جرير وغيره قالوا: كان من استجاب له من كبار الصحابة: أبو الهيثم بن التَّيْهان، وأبو قتادة الأنصاري، وزياد بن حنظلة، وخزيمة بن ثابت، قالوا: وليس بذي الشهادتين[1]، ذاك مات في زمان عثمان رضي الله عنه.

وسار علي من المدينة نحو البصرة، على تعبئته المتقدم ذكرها، غير أنه استخلف على المدينة تمام بن عباس، وعلى مكة قثم بن عباس، وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وخرج علي من المدينة في نحو من تسعمائة مقاتل، وقد لقي عبد الله بن سلام رضي الله عنه علياً وهو بالرَّبَذَة، فأخذ بعنان فرسه وقال: يا أمير المؤمنين! لا تخرج منها، فوالله لئن خرجت منها، لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً، فسبَّه بعض الناس، فقال علي: دعوه فنعم الرجل من أصحاب النبي ﷺ، وجاء الحسن بن علي إلى أبيه في الطريق فقال: لقد نهيتك فعصيتني، تقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك، فقال له علي: إنك لا تزال تحنُّ عليّ حنينَ الجارية، وما الذي نهيتني عنه فعصيتك؟ فقال: ألم آمرك قبل مقتل عثمان، أن

(١) قوله: «وليس بذي الشهادتين»، أي: كان صحابيان يدعى كل منهما «خزيمة بن ثابت»، أحدهما هذا الذي ذكر المؤرخون أنه خرج مع علي، والآخر «خزيمة بن ثابت» المعروف بذي الشهادتين أي: الذي جعل النبي ﷺ شهادته تعدل شهادتين وتقبل شهادته بينةً كاملة، وذلك أن النبي ﷺ جعل شهادته شهادة رجلين كما في البخاري، وقد توفي ذو الشهادتين في زمن عثمان رضي الله عنهما.

تخرج منها لئلا يقتل وأنت بها، فيقول قائل أو يتحدث متحدث؟ ألم آمرك أن لا تبايع الناس بعد قتل عثمان، حتى يبعث إليك أهل مصر ببيعتهم؟ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذا الرجلان، أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فعصيتني في ذلك كله؟ فقال له علي: أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان، فلقد أُحيط بنا كما أحيط به، وأما مبايعتي قبل مجيء بيعة الأمصار، فكرهت أن يضيع هذا الأمر، وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه، فتريد مني أن أكون كالضبع التي يحاط بها، ويقال: ليست ههنا، حتى يُشَقَّ عرقوبها فتخرج؟ فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكف عني يا بني.

ولما انتهى إليه خبر ما صنع القوم بالبصرة، من الأمر الذي قدمنا، كتب إلى أهل الكوفة مع محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، إني قد اخترتكم على أهل الأمصار، فرغبت إليكم وفرغت لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصاراً، وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد، لتعود هذه الأمة إخواناً، فمضيا، وأرسل إلى المدينة، فأخذ ما أراد من سلاح ودواب، وقام في الناس خطيباً فقال:

«إن الله أعزنا بالإسلام، ورفعنا به، وجعلنا به إخواناً، بعد ذلة وقلة، وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم، والحق قائم بينهم، والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم، الذين نزغهم الشيطان، لِيَنْزَغَ بين هذه الأمة، ألا وإن هذه الأمة لا بد مفترقة، كما افترقت الأمم قبلها، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن».

ثم عاد ثانية فقال: «إنه لا بد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين فرقة، وشرها فرقة تحبني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم، فالزموا دينكم، واهتدوا بهديي، فإنه هدي نبيكم، واتبعوا سنته، وأعرضوا عما أشكل عليكم، حتى تعرضوه على الكتاب، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله ربآ، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن حكماً وإماماً».

قال: فلما عزم على المسير من الرَّبَذَة، قام إليه ابن أبي رفاعة بن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منا وأجابوا إليه، فقال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: ندعهم بغدرهم، ونعطيهم الحق ونصبر، قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذاً، فقام إليه الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، والله لينصرني الله كما سمانا أنصاراً.

قال: وأتت جماعة من طيء وعليٌّ بالرَّبَذَة، فقيل له: هؤلاء جماعة جاؤا من طيء، منهم من يريد الخروج معك، ومنهم من يريد السلام عليك، فقال: جزى الله كلاً خيراً ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] قالوا: فسار علي من الرَّبَذَة على تعبئته، وهو راكب ناقة حمراء، يقود فرساً كُميتاً، فلما كان بفَيْدٍ، جاءه جماعة من أسد وطيء، فعرضوا أنفسهم عليه فقال: فيمن معي كفاية، وجاء رجل من أهل الكوفة يقال له: عامر بن مطر الشيباني، فقال له عليٌّ: ما وراءك؟ فأخبره الخبر، فسأله عن أبي موسى فقال: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه، فقال عليٌّ: والله ما أريد إلا الصلح ممن تمرد علينا، وسار، فلما اقترب من الكوفة، وجاءه الخبر بما وقع من الأمر على جليته، من قتل ومن إخراج عثمان بن حنيف من البصرة، وأخذهم أموال بيت المال، جعل يقول: اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير، فلما انتهى إلى ذي قار، أتاه عثمان بن حنيف مهشماً، وليس في وجهه شعرة فقال: يا أمير المؤمنين، بعثتني إلى البصرة وأنا ذو لحية، وقد جئتك أمرداً، فقال: أصبت خيراً وأجراً، وقال عن طلحة والزبير: اللهم احلل ما عقدا، ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما، وأرهما المساءة فيما قد عملا، يعني: في هذا الأمر.

وأقام علي بذي قار، ينتظر جواب ما كتب به مع محمد بن أبي بكر، وصاحبه محمد بن جعفر، وكانا قد قدما بكتابه على أبي موسى، وقاما في الناس بأمره، فلم يجابا في شيء، فلما أمسوا، دخل أناس من ذوى الحجي على أبي موسى، يعرضون عليه الطاعة لعلي، فقال: كان هذا بالأمس، فغضب محمد ومحمد فقالا له قولاً غليظاً، فقال لهما: والله إن بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بد من قتال، فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان، حيث كانوا ومن كانوا، فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر، وهو بذي قار، فقال للأشتر: أنت صاحب أبي موسى، والمعرض في كل شيء، فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت، فخرجا فقدما الكوفة، وكلما أبا موسى، واستعانا عليه بنفر من الكوفة، فقام في الناس فقال: أيها الناس، إن أصحاب محمد ﷺ الذين صحبوه، أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً، وأنا مؤد إليكم نصيحة، كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله، وأن لا تجترئوا على أمره، وهذه فتنةٌ النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير من

---

(١) الآية «٩٥» من سورة «النساء».

الساعي، فأغمدوا السيوف، وانْصُلوا الأَسنة، واقطعوا الأوتار، وآووا المضطهَدَ والمظلوم، حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة، فرجع ابن عباس والأشتر إلى علي، فأخبراه الخبر، فأرسل الحسن وعمار بن ياسر، وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت، فانطلقا حتى دخلا المسجد، فكان أول من سلم عليهما مسروق بن الأجدع، فقال لعمار: علامَ قتلتم عثمان؟ فقال: على شتم أعراضنا، وضرب أبشارنا، فقال: والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به، ولو صبرتم لكان خيراً للصابرين، قال: وخرج أبو موسى، فلقي الحسن بن علي فضمه إليه، وقال لعمار: يا أبا اليقظان، أعدوتَ على أمير المؤمنين عثمان فقتلته؟ فقال: لم أفعل، ولم يسؤني ذلك، فقطع عليهما الحسن بن علي، فقالا لأبي موسى: لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء، فقال: صدقت بأبي وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، سمعت من النبي ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب»(١) وقد جعلنا الله إخواناً، وحرم علينا دماءنا وأموالنا، فغضب عمار وسبه، وقال: يا أيها الناس، إنما قال له رسول الله ﷺ وحده: أنت فيها قاعداً خير منك قائماً، فغضب رجل من بني تميم لأبي موسى ونال من عمار، وثار آخرون، وجعل أبو موسى يكفكف الناس، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وقال أبو موسى: أيها الناس، أطيعوني، وكونوا خير قوم من خير أمم العرب، يأوي إليهم المظلوم، ويأمن فيهم الخائف، وإن الفتنة إذا أقبلت شُبِّهَتْ، وإذا أدبرت تَبَيَّنَتْ، ثم أمر الناس بكف أيديهم ولزوم بيوتهم، فقام زيد بن صوحان فقال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، سيروا إليه أجمعون، فقام القعقاع بن عمرو فقال: إن الحق ما قاله الأمير، ولكن لا بد للناس من أمير، يردع الظالم ويعدي المظلوم، وينتظم به شمل الناس، وأمير المؤمنين علي مليّ بما ولي، وقد أنصف بالدعاء، وإنما يريد الإصلاح، فانفروا إليه، وقام عبد خير فقال: الناس أربع فرق، علي بمن معه في ظاهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا تقاتل ولا عناء بها، فقال أبو موسى: أولئك خير الفرق، وهذه فتنة.

ثم تراسل الناس في الكلام، ثم قام عمار والحسن بن علي في الناس على المنبر، يدعوان الناس إلى النفير إلى أمير المؤمنين، فإنه إنما يريد الإصلاح بين الناس، وسمع عمار رجلاً يسب عائشة فقال: اسكت مقبوحاً منبوحاً، والله إنها

---

(١) الحديث: رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها، ليعلم أتطيعوه أو إياها، رواه البخاري، وقام حُجْر بن عدي فقال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1] وجعل الناس، كلما قام رجل فحرض الناس على النفير، يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر، وعمار والحسن معه على المنبر، حتى قال له الحسن بن علي: ويحك! اعتزلنا لا أمَّ لك، ودع منبرنا، ويقال: إن علياً بعث الأشتر فعزل أبا موسى عن الكوفة، وأخرجه من قصر الإمارة من تلك الليلة، واستجاب الناس للنفير، فخرج مع الحسن تسعة آلاف في البر وفي دجلة، وقدموا على أمير المؤمنين، فتلقاهم بذي قار إلى أثناء الطريق في جماعة، منهم ابن عباس، فرحب بهم وقال: يا أهل الكوفة، أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبو داويناهم بالرفق حتى يبدؤنا بالظلم، ولم ندع أمراً فيه صلاح، إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى.

فاجتمعوا عنده بذي قار، وكان من المشهورين من رؤساء من انضاف إلى علي: القعقاع بن عمرو، وسعد بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم بن شهاب، وزيد بن صوحان، والأشتر، وعدي بن حاتم، والمسيب بن نجبة، ويزيد بن قيس، وحجر بن عدي وأمثالهم، وكانت عبد القيس بكمالها، بين علي وبين البصرة ينتظرونه وهم ألوف، فبعث علي القعقاع رسولاً إلى طلحة والزبير بالبصرة، يدعوهم إلى الألفة والجماعة، ويعظم عليهما الفرقة والاختلاف.



(١) الآية «٤١» من سورة «التوبة».

اتفاق الفريقين على الصلح

ذهب القعقاع إلى البصرة، فبدأ بعائشة أم المؤمنين، فقال: أيْ أماه! ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أيْ بنيّ! الإصلاح بين الناس، فسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها، فحضرا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت: إنما جئت للإصلاح بين الناس، فقالا: ونحن كذلك، قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح، وعلى أي شيء يكون؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن، ولئن أنكرناه لا نصطلحن، قالا: قتلة عثمان، فإن هذا إن تُرك كان تركاً للقرآن، فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم حرقوص بن زهير، فمنعه ستة آلاف، فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون، وإن قاتلتموهم فأُديلوا عليكم، كان الذي حَذِرتم وَفَرَقْتُم من هذا الأمر، أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون[1] منه، وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير، لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله، فعلي أعذر في تركه الآن قتل قتلة عثمان، وإنما أخر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم، فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة، ثم أعلمهم أن خلقا من ربيعة ومضر، قد اجتمعوا لحربهم، بسبب هذا الأمر الذي وقع، فقالت له عائشة أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا، فعلامة خير وتباشير رحمة، وإدراك الثأر، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واتتنافه، كانت علامة شر وذهاب هذا الملك، فآثروا العافية تُرْزَقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم، وأَيْم الله، إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف أن لا يتم، حتى يأخذ الله حاجته من هذه

---

(١) معناه: أن الذي تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة، ولكنه يترتب عليه مفسدة هي أربى منها، وقد ذكر ابن كثير هذا المعنى معترضاً في سياق القصة، فرأينا إفراده تعليقاً.

الأمة التي قَلَّ متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة القبيلة، فقالوا: قد أصبت وأحسنت فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح الأمر، قال: فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كره، ورضيه من رضيه، وأرسلت عائشة إلى علي تعلمه، أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام علي في الناس خطيباً، فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعها بعد نبيه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة، أقوام طلبوا الدنيا، وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي من الله بها، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره، ثم قال: ألا إني مرتحل غداً فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس.



البغاةُ قَتَلَةُ عثمان يُفسدون الصلح

فلما قال عليٌّ هذا، اجتمع من رؤسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة، وغلاب بن الهيثم، وغيرهم في ألفين وخمسمائة، وليس فيهم صحابي ولله الحمد، فقالوا: ما هذا الرأي؟ وعليٌّ والله، أعلم بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غداً يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟ فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما رأي علي فلم نعرفه إلى اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم، فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا، ألحقنا علياً بعثمان، فرضي القوم منا بالسكوت، فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت، لو قتلناه قتلنا، فإنا يا معشر قتلة عثمان في ألفين وخمسمائة، وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف، لا طاقة لكم بهم، وهم إنما يريدونكم، فقال غلاب بن الهيثم: دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمتنع بها، فقال ابن السوداء: بئس ما قلت، إذاً والله كان يتخطفكم الناس، ثم قال ابن السوداء قبحه الله: يا قوم، إن عَيْرَكُم[1] في خُلْطَة الناس، فإذا التقى الناس، فأَنْشِبُوا الحربَ والقتالَ بين الناس، ولا تدعوهم يجتمعون، فمن أنتم معه، لا يجد بداً من أن يمتنع، ويشغل الله طلحة والزبير ومن معهما عما يحبون، ويأتيهم ما يكرهون، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه.

وأصبح علي مرتحلاً، ومر بعبد القيس، فسار ومن معه، حتى نزلوا بالزاوية، وسار منها يريد البصرة، وسار طلحة والزبير ومن معهما للقائه، فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد، ونزل الناس كل في ناحية، وقد سبق عليّ جيشه وهم يتلاحقون به، فمكثوا ثلاثة أيام والرسل بينهم، فكان ذلك للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، فأشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة، من قتلة عثمان،

(١) «عيركم» بفتح العين المهملة، يعني هنا: سطوتكم وقوتكم.

فقالا: إن علياً أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك، وقام علي في الناس خطيباً، فقام إليه الأعور بن نيار المنقري، فسأله عن إقدامه على أهل البصرة، فقال: الإصلاح وإطفاء الثائرة، ليجتمع الناس على الخير، ويلتئم شمل هذه الأمة، قال: فإن لم يجيبونا؟ قال: تركناهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا، قال: فهل لهم في هذا الأمر مثل الذي لنا؟ قال: نعم! وقام إليه أبو سلام الدالاني فقال: هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم، إن كانوا أرادوا الله في ذلك؟ قال: نعم! قال: فهل لك من حجة في تأخيرك ذلك؟ قال: نعم! قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً؟ قال: إني لأرجو، أن لا يقتل منا ومنهم أحد نَقّى قلبه لله، إلا أدخله الله الجنة، وقال في خطبته: «أيها الناس أمسكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم، وإياكم أن يسبقونا غداً، فإن المخصوم غداً مخصوم اليوم».

وجاء في غُبُون ذلك الأحنف بن قيس في جماعة، فانضاف إلى عليّ، وكان قد منع حُرْقوص بن زهير من طلحة والزبير، وكان قد بايع علياً بالمدينة، وذلك أنه قدم المدينة وعثمان محصور، فسأل عائشة وطلحة والزبير: إن قتل عثمان من أبايع؟ فقالوا: بايع علياً، فلما قتل عثمان بايع علياً، قال: ثم رجعت إلى قومي، فجاءني بعد ذلك ما هو أفظع، حتى قال الناس: هذه عائشة جاءت لتأخذ بدم عثمان، فحرت في أمري لمن أتبع، فمنعني الله بحديث سمعته من أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ وقد بلغه أن الفرس قد ملكوا عليهم ابنة كسرى فقال: «لن يفلح قوم وَلَّوْا أمرهم امرأة»، وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري.

والمقصود: أن الأحنف لما انحاز إلى علي ومعه ستة آلاف قوس، فقال لعلي: إن شئت قاتلت معك، وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف، فقال: اكفف عنا عشرة آلاف سيف، ثم بعث علي إلى طلحة والزبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو، فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر، فأرسلا إليه في جواب رسالته: إنا على ما فارقنا القعقاع بن عمرو، من الصلح بين الناس، فاطمأنت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث عليّ عبد الله بن عباس إليهم، وبعثوا إليه محمد بن طليحة السجاد، وبات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون، وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغَلَس، فنهضوا من قبل طلوع الفجر، وهم قريب من ألفي رجل، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم، فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح، فقالوا طرقتنا أهل الكوفة

ليلاً، وبيتونا وغدروا بنا، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علي، فبلغ الأمر علياً فقال: ما للناس؟ فقالوا: بيتنا أهل البصرة، فثار كل فريق إلى سلاحه، ولبسوا اللأمة وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم، بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1] وقامت الحرب على ساق وقدم، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان، فنشبت الحرب، وتواقف الفريقان، وقد اجتمع على علي عشرون ألفاً، والتف على عائشة ومن معها، نحو من ثلاثين ألفاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والسابئة أصحاب ابن السوداء قبحه الله، لا يفترون عن القتل، ومنادي عليّ ينادي: ألا كفوا، ألا كفوا، فلا يسمع أحد.

وجاء كعب بن سوار قاضي البصرة فقال: يا أم المؤمنين، أدركي الناس، لعل الله يصلح بك بين الناس، فجلست في هودجها فوق بعيرها، وستروا الهودج بالدروع، وجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس عند حركاتهم، فتصاولوا وتجاولوا، وكان في جملة من تبارز الزبير وعمار، فجعل عمار يَحُوزه بالرمح، والزبير كافٌّ عنه، ويقول له: أتقتلني يا أبا اليقظان؟ فيقول: لا يا أبا عبد الله، وإنما تركه الزبير لقول رسول الله ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»[2]، وإلا فالزبير أقدر عليه منه عليه، فلهذا كف عنه، وقد كان من سنتهم في هذا اليوم، أنه لا يُذَفَّفُ[3] على جريح، ولا يتبع مدبر، وقد قتل مع هذا خلق كثير جداً، حتى جعل علي يقول لابنه الحسن: يا بني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً، فقال له: يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا.

قال سعيد بن أبي عجرة عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة قال: قال علي يوم الجمل: «يا حسن، ليت أباك مات منذ عشرين سنة، فقال له: يا أَبَهْ قد كنت أنهاك عن هذا، قال: يا بني، إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا».

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن بن أبي بكرة: لما اشتد القتال يوم الجمل، ورأى عليٌّ الرؤوسَ تَنْدُر[4]، أخذ عليّ ابنه الحسن، فضمه إلى صدره ثم قال: إنا لله يا حسن! أيُّ خير يرجى بعد هذا؟ فلما ركب الجيشان وتراآى الجمعان، وطلب علي طلحة والزبير ليكلمهما، فاجتمعوا حتى التفت أعناق خيولهم، فيقال:

---

(١) من الآية «٣٨» من سورة «الأحزاب».

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد، وسيأتي برواياته في «وقعة صفين» في الفصل الرابع.

(٣) «لا يذفف على جريح» أي: لا يجهز عليه.

(٤) «تندر» أي: تسقط.

إنه قال لهما: إني أراكما قد جمعتما خيلاً ورجالاً وعدداً، فهل أعددتما عذراً يوم القيامة؟ فاتقيا الله، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، ألم أكن حاكماً في دمكما، تحرمان دمي وأحرم دمكما؟ فهل من حديث أحل لكما دمي؟ فقال طلحة: أَلَّبْتَ على عثمان، فقال علي ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ[1]﴾، ثم قال: لعن الله قتلة عثمان، ثم قال: يا طلحة! أجئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها، وخبأت عرسك في البيت؟ أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي، وقال للزبير: ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك بهذا الأمر أولى به مني، فقال له علي: أما تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم، فنظر إليَّ وضحكَ وضحكتُ إليه، فقلتَ: لا يدع ابن أبي طالب زَهْوَه، فقال لك رسول الله ﷺ: «إنه ليس بمتمرد، لتقاتلَنَّهُ وأنت ظالم له»؟ فقال الزبير: اللهم نعم! ولو ذكرتُ، ما سرت مسيري هذا، ووالله لا أقاتلك.

وفي هذا السياق كله نظر، والمحفوظ منه الحديث الذي رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن أبي حزم المازني، قال: شهدت علياً والزبير حين تواقفا، فقال له علي: يا زبير، أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك تقاتلني وأنتم ظالم»؟ قال: نعم، لم أذكره إلا في موقفي هذا، ثم انصرف. وقد رواه البيهقي.

وقال عبد الرزاق: أنا معمر عن قتادة قال: لما ولَّى الزبير يوم الجمل، بلغ علياً فقال: لو كان ابن صفية يعلم أنه على حق، ما ولَّى، وذلك أن رسول الله ﷺ لقيهما في سقيفة بني ساعدة فقال: «أتحبه يا زبير»؟ فقال: وما يمنعني؟ قال: «فكيف بك إذا قاتلته وأنتم ظالم له؟» قال: فيرون أنه إنما ولَّى لذلك، قال البيهقي: «وهذا مرسل، وقد روي موصولاً من وجه آخر»، ثم روى البيهقي هذا الحديث بسنده أنه: لما دنا علي وأصحابه من طلحة والزبير، ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج علي وهو على بغلة رسول الله ﷺ، فنادى: ادعو لي الزبير بن العوام، فإني عليٌّ، فدعي له الزبير، فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال علي: يا زبير نشدتك الله، أتذكر يوم مرّ بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا وكذا، فقال: «يا زبير ألا تحب علياً؟» فقلت: ألا أحب ابن خالي، وابن عمي، وعلى ديني؟ فقال: «يَا زبير، أَمَا والله، لتقاتلنه وأنت ظالم له؟»، فقال الزبير: بلى، والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ، ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك، فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير، فقال: ما لك، فقال: ذكّرني علي حديثاً

---

(١) من الآية «٢٥» من سورة «النور».

سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لتقاتلنه وأنت ظالم له»، فقال: أَوَللقتال جئت؟ إنما جئتَ لتصلح بين الناس، ويصلح الله بك هذا الأمر، قال: قد حلفت أن لا أقاتله، قال: أعتق غلامك سَرْجَس، وقف حتى تصلح بين الناس، فأعتق غلامه ووقف، فلما اختلف أمر الناس ذهب على فرسه، قالوا: فرجع الزبير إلى عائشة، فذكر أنه قد آلى أن لا يقاتل علياً، فقال له ابنه عبد الله: إنك جمعت الناس، فلما تراآى بعضهم لبعض خرجت من بينهم، كَفِّر عن يمينك واحضر، فأعتق غلاماً، وقيل: غلامه سرجس.

وقد قيل: إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عماراً مع علي، وقد سمع رسول الله ﷺ يقول لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[1]، فخشي أن يُقتل عمار في هذا اليوم.

وعندي: أن الحديث الذي أوردناه، إن كان صحيحاً عنه، فما رَجَعَهُ سواه، ويبعد أن يكفر عن يمينه، ثم يحضر بعد ذلك لقتال علي والله أعلم.

والمقصود: أن الزبير لما رجع يوم الجمل، سار فنزل وادياً يقال له: وادي السباع، فاتبعه رجل يقال له عمرو بن جُرْمُوز، فجاءه وهو نائم، فقتله غيلة كما سنذكر تفصيله.

وأما طلحة، فجاءه في المعركة سهمٌ غَرْبٌ، يقال: رماه به مروان بن الحكم فالله أعلم، فانتظم رجله مع فرسه، فجمحت به الفرس، فجعل يقول: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، فاتبعه مولى له فأمسكها، فقال له: ويحك، اعدل بي إلى البيوت، وامتلأ خفه دماً، فقال لغلامه: اردفني، وذلك أنه نزفه الدم وضعف، فركب وراءه، وجاء به إلى البيت في البصرة فمات فيه، رضي الله عنه.



(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما وسيأتي بتمامه في «وقعة صفين» في «الفصل الرابع» بعونه تعالى.

حَمْلُ قَتَلة عثمان على هودج عائشة وجملها

وتقدمت عائشة رضي الله عنها في هودجها، وناولت كعب بن سوار قاضي البصرة مصحفاً وقالت: ادعهم إليه، وذلك حين اشتد الحرب، وحمى القتال، ورجع الزبير، وقتل طلحة رضي الله عنهما، فلما تقدم كعب بن سوار بالمصحف يدعو إليه، استقبله مقدمة جيش الكوفيين، وكان عبد الله بن سبأ ـ وهو ابن السوداء ـ واتباعه بين يدي الجيش، يقتلون من قدروا عليه من البصرة، لا يتوقفون في أحد، فلما رأوا كعب بن سوار رافعاً المصحف، رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه، ووصلت النبال إلى هودج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فجعلت تنادي: الله الله! يا بني، اذكروا يوم الحساب، ورفعت يديها تدعو على أولئك النفر من قتلة عثمان، فضج الناس معها بالدعاء، حتى بلغت الضجة إلى علي فقال: ما هذا؟ فقالوا: أم المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم، فقال: اللهم العن قتلة عثمان، وجعل أولئك النفر، لا يقلعون عن رشق هودجها بالنبال، حتى بقي مثل القنفذ، وجعلت تحرض الناس على منعهم وكفهم، فحملت معه الحفيظة، فطردوهم حتى وصلت الحملة إلى الموضع الذي فيه علي بن أبي طالب، فقال لابنه محمد بن الحنفية: ويحك! تقدم بالراية، فلم يستطع، فأخذها عليّ من يده فتقدم بها، وجعلت الحرب تأخذ وتعطي، فتارة لأهل البصرة، وتارة لأهل الكوفة، وقتل خلق كثير، وجم غفير، ولم تُر وقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة، وجعلت عائشة تحرض الناس على أولئك النفر من قتلة عثمان، ونظرت عن يمينها فقالت: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: نحن بكر بن وائل، فقالت: لكم يقول القائل:

وجاؤوا إلينا في الحديدِ كأنهمُ ... مِنَ العِزَّة القعساءِ بكرُ بنُ وائلِ

ثم لجأ إليها بنو ناجية، ثم بنو ضبة، فقتل عنده منهم خلق كثير، ويقال: إنه قطعت يد سبعين رجلاً وهي آخذة بخطام الجمل، فلما أثخنوا، تقدم بنو عدي بن عبد مناف، فقاتلوا قتالاً شديداً، ورفعوا رأس الجمل، وجعل أولئك يقصدون الجمل، وقالوا: لا يزال الحرب قائماً ما دام هذا الجمل واقفاً، ورأس الجمل في يد

عمرة بن يثربي، وقيل[1]: أخو عمرو بن يثربي، ثم صَمَدَ إليه عِلْبَاءُ بن الهيثم السدوسي، وكان من الشجعان المذكورين فقتله ابن يثربي، وقتل أيضاً: هند بن عمرو الجَمَلي، وزيد بن هُوحان، فدعاه عمار إلى البراز، فبرز له، فتجاولا بين الصفين، وعمار ابن تسعين سنة، عليه فروة، قد ربط وسطه بحبل ليف، فقال الناس: إنا لله وإنا إليه راجعون، الآن يلحق عماراً بأصحابه، فضربه ابن يثربي بالسيف، فاتقاه عمار بَدَرَقته، فغض فيها السيف ونشب، وضربه عمار فقطع رجليه، وأُخذ أسيراً إلى بين يدي علي فقال: استبقني يا أمير المؤمنين، فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم؟ ثم أمر به فقتل، واستمر زمام الجمل، بعده، بيد رجل كان قد استنابه فيه من بني عدي، فبرز إليه ربيعة العقيلي، فتجاولا حتى قتل كل واحد صاحبه، وأخذ الزمام الحارث الضبي، فما رؤي أشد منه.

فكلما قتل واحد ممن يمسك الجمل، يقوم غيره، حتى قتل منهم أربعون رجلاً، قالت عائشة: ما زال جملي معتدلاً، حتى فقدت أصوات بني ضبة، ثم أخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش، وكل واحد يُقتل بعد صاحبه، فكان منهم محمد بن طلحة المعروف بالسجاد، فقال لعائشة: مريني بأمرك يا أُمَّهْ، فقالت: آمرك أن تكون كخير ابني آدم، فامتنع أن ينصرف، وثبت في مكانه، وجعل يقول: حم لا ينصرون، فتقدم إليه نفر، فحملوا عليه فقتلوه، وصار لكل واحد منهم بعد ذلك يدعي قتله.

وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف، فجعل لا يدنو منه أحد إلا حطه بالسيف، فأقبل إليه الحارث بن زهير الأزدي وهو يقول:

يا أُمنا يا خيرَ أُمٍ نَعلمُ ... أما ترين كم شجاعٍ يُكلَمُ
وتُختلى هامَتُهُ والمِعْصَمُ؟

واختلفا ضربتين، فقتل كل واحد صاحبه.

وأحدقَ أهل النجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الراية ولا بخطام الجمل، إلا شجاع معروف، فيقتل من قصده، ثم يقتل بعد ذلك، وقد فقأ بعضهم عين عدي بن حاتم ذلك اليوم، ثم تقدم عبد الله بن الزبير، فأخذ بخطام الجمل وهو لا يتكلم، فقيل لعائشة: إنه ابنك ابن أختك، فقالت: واثُكْلَ أسماء! وجاء

(١) قوله: «وقيل: أخو عمرو بن يثربي»، هذا قول آخر، وقد ذكر القولين الطبري، ولهذا لم يجزم ابن كثير بأحدهما، فسماه فيما يلي من قوله: «ابن يثربي» من دون ذكر الاسم صريحاً.

مالك بن الحارث الأشتر النخعي، فاقتتلا، فضربه الأشتر على رأسه، فجرحه جرحاً شديداً وضربه عبد الله ضربة خفيفة، ثم اعتنقا وسقطا إلى الأرض يعتركان، فجعل عبد الله بن الزبير يقول:

اقتلوني ومالكاً ... واقتلوا مالكاً معي

فجعل الناس لا يعرفون «مالكاً» من هو، وإنما هو معروف بالأشتر، ولو عرفوه لقتلوه، فحمل أصحاب علي وعائشة فخلصوهما، وقد جرح عبد الله بن الزبير يوم الجمل بهذه الجراحة سبعاً وثلاثين جراحة، وجرح مروان بن الحكم أيضاً.

ثم جاء رجل، فضرب الجمل على قوائمه، فعقره وسقط إلى الأرض، فسمع له عَجيج، ما سمع أشد ولا أنفذ منه، وآخر من كان الزمام بيده زفر بن الحارث، فعقر الجمل وهو في يده، ويقال: إنه اتفق هو وبُجَير[١] بن دُلْجَة على عَقْره، ويقال: إن الذي أشار بعقر الجمل علي، وقيل: القعقاع بن عمرو، لئلا تصاب أم المؤمنين، فإنها بقيت غرضاً للرماة، ومن يمسك بالزمام بُرْجاساً[٢] للرماح، ولينفصل هذا الموقف الذي قد تفانى فيه الناس.



(١) وروى الطبري هنا، أن الذي عقر الجمل رجل من بني ضَبَّة يقال له: ابن دُلْجَةَ: عمرو أو بُجَيْر.

(٢) «برجاساً»، بضم الباء الموحدة هو: غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه، وهو لفظ مولَّد، كذا في القاموس المحيط.

إكرام عليّ أمَّ المؤمنين بعد انهزام جيشها

ولما سقط البعير إلى الأرض، انهزم من حوله من الناس، وحمل هودج عائشة وإنه لكالقنفذ من السهام، ونادى منادي عليّ في الناس: إنه لا يتبع مدبر، ولا يُذَفَّفُ على جريح، ولا يدخلوا الدور، وأمر عليّ نفراً أن يحملوا الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر وعماراً أن يضربا عليها قبة، وجاء إليها أخوها محمد فسألها: هل وصل إليك شيء من الجراح؟ فقالت: لا، وما أنت ذاك يا ابن الخثعمية، وسلم عليها عمار فقال: كيف أنت يا أُمُّ؟ فقالت: لست لك بأم، قال: بلى، وإن كرهتِ، وجاء إليها علي بن أبي طالب أمير المؤمنين مسلماً فقال: كيف أنت يا أُمَّه؟ قالت: بخير، فقال: يغفر الله لك.

وجاء وجوه الناس من الأمراء والأعيان، يسلمون على أم المؤمنين رضي الله عنها، ويقال: إن أَعْيَنَ بن ضُبَيْعَةَ المجاشعي، اطلع في الهودج فقالت: إليك لعنك الله، فقال: والله ما أرى إلا حُميراء، فقالت: هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدى عورتك، فقتل بالبصرة، وسلب، وقطعت يده، ورمي عرياناً في خربة من خرابات الأزد.

فلما كان الليل، دخلت أم المؤمنين البصرة، ومعها أخوها محمد بن أبي بكر، فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وهي أعظم دار بالبصرة، على صفية بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وهي أم طلحة الطلحات: عبد الله بن خلف، وتسلل الجرحى من بين القتلى، فدخلوا البصرة، وقد طاف عليّ بين القتلى، فجعل كما مر برجل يعرفه، ترحم عليه ويقول: يعز عليَّ أن أرى قريشاً صرعى، وقد مَرَّ ـ على ما ذُكر ـ على طلحة بن عبيد الله وهو مقتول فقال: لَهَفِي عليك يا أبا محمد، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت كما قال الشاعر:

فتىً كانَ يُدْنيهِ الغِنَى مِنْ صَديقهِ ... إذا ما هو استغنى ويُبعدهُ الفقرُ

وأقام عليٌّ بظاهر البصرة ثلاثاً، ثم صلَّى على القتلى من الفريقين، وخص

قريشاً بصلاة من بينهم، ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر، وأمر به أن يحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئاً هو لأهلهم فليأخذه، إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان.

وكان مجموع من قتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف[1]، خمسة من هؤلاء، وخمسة من هؤلاء، رحمهم الله، ورضي عن الصحابة منهم.

وقد سأل بعض أصحاب عليّ علياً، أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير، فأبى عليهم، فطعن فيه السَّبَأيَّة وقالوا: كيف يحل لنا دماؤهم، ولا تحل لنا أموالهم؟ فبلغ ذلك علياً فقال: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه؟ فسكت القوم، ولهذا لما دخل البصرة، فض في أصحابه أموال بيت المال، فنال كل رجل منهم خمسمائة، وقال: لكم مثلها من الشام، فتكلم فيه السبائية أيضاً، ونالوا منه من وراء وراء.

ولما فرغ علي من أمر الجمل، أتاه وجوه الناس يسلمون عليه، فكان ممن جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد ـ وكانوا قد اعتزلوا القتال ـ فقال له علي: تربعت ـ يعني: بنا ـ فقال: ما كنت أراني إلا قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فارفق فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إليَّ غداً، أحوج منك أمس، فاعرف إحساني، واستبق مودتي لغد، ولا تقل مثل هذا، فإني لم أزل لك ناصحاً.

قالوا: ثم دخل عليٌّ البصرة يوم الإثنين، فبايعه أهلها على راياتهم، حتى الجرحى والمستأمنة، وجاءه عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي فبايعه، فقال له علي: أين المريض؟ ـ يعني: أباه ـ فقال: إنه والله مريض يا أمير المؤمنين، وإنه على مسرتك لحريص، فقال: امش أمامي، فمضى إليه فعاده، واعتذر إليه أبو بكرة فعذره، وعرض عليه البصرة، فامتنع وقال: رجل من أهلك يسكن إليه الناس، وأشار عليه بابن عباس، فولاه على البصرة، وجعل معه زياد بن أبيه على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع من زياد ـ وكان زياد معتزلاً ـ ثم جاء عليّ إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة، فاستأذن ودخل فسلم عليها ورحبت به، وإذا النساء في دار بني خلف، يبكين على من قتل، منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف،

---

(١) قوله: «عشرة الآف» وقيل: يزويدن على ستة آلاف، كذا روى الطبري عن سعيد القُطَعي، فالله أعلم، ورحم الله الجميع من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قضوا من الفريقين، ورضي الله عنهم، وعن الصالحين من التابعين منهما.

فعبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع علي، فلما دخل عليّ قالت له صفية امرأة عبد الله، أم طلحة الطلحات: أَيتم الله منك أولادك، كما أيتمت أولادي، فلم يرد عليها عليٌّ شيئاً، فلما خرج، أعادت عليه المقالة أيضاً فسكت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فقال: ويحك! إنا أُمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟ فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن على الباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر عليٌّ القعقاع بن عمرو، أن يجلد كل واحد منهما مائة، وأن يخرجهما من ثيابهما، وقد سألت عائشة عمن قتل معها من المسلمين، ومن قتل من عسكر عليّ، فجعلت كلما ذكر لها واحد منهم، ترحمت عليه ودعت له.

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة، بعث إليها علي رضي الله عنه، بكل ما ينبغي، من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها، أن يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه، جاء علي فوقف على الباب، وحضر الناس، وخرجت من الدار في الهودج، فودعت الناس ودعت لهم، وقالت: يا بني، لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم، إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه علَى مَعْتَبتي لمن الأخيار، فقال عليّ: صدقت، والله ما كان بيني وبينك إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، وسار عليّ معها مودعاً ومشيعاً أميالاً، وسَرَّح بنيه معها بقية ذلك اليوم، وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين، وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكة، فأقامت بها إلى أن حجت عامها ذلك، ثم رجعت إلى المدينة رضي الله عنها.

وأما مروان بن الحكم، فإنه لما فرَّ استجار بمالك بن مسمع، فأجاره ووفى له، ولهذا كان بنو مروان يكرمون مالكاً ويشرفونه، ويقال: إنه نزل دار بني خلف، فلما خرجت عائشة خرج معها، فلما سارت هي إلى مكة سار إلى المدينة.

قالوا: وقد علم مَنْ بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة يوم الوقعة، وذلك مما كانت النسور تخطفه من الأيدي والأقدام، فيسقط منها هنالك، حتى إن أهل المدينة، علموا بذلك يوم الجمل، قبل أن تغرب الشمس، وذلك أن نسراً مر بهم معه شيء، فسقط فإذا هوكف فيه خاتم نقشه: «عبد الرحمن بن عتاب».

هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر بن جرير رحمه الله عن أئمة هذا الشأن، وليس

فيما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم، من الأحاديث المختلقة على الصحابة، والأخبار الموضوعة التي ينقلونها بما فيها، وإذا دُعُوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه وقالوا: لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن حينئذ نقول لهم: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين.



أعيان من قُتل يوم الجمل

قد قدمنا: أن عدة القتلى نحو من عشرة آلاف، وأما الجرحى فلا يحصون كثرة، فممن قتل يوم الجمل في المعركة:

*** أبو محمد: طَلْحَةُ بن عُبيد الله التَّيمي:**

ويعرف بطلحة الخير، وطلحة الفياض لكرمه ولكثرة جوده، أسلم قديماً على يدي أبي بكر الصديق، فكان نوفل بن خويلد بن العدوية، يشدهما في حبل واحد، ولا تستطيع بنو تَيْم أن تمنعهما منه، فلذلك كان يقال لطلحة وأبي بكر: القرينان.

وقد هاجر، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدراً ـ فإنه كان بالشام لتجارة ـ وقيل: في رسالة، ولهذا ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره من بدر، وكانت له يوم أحد اليد البيضاء، وشُلَّت يده يوم أحد، وَقَى بها رسولَ الله ﷺ واستمرت كذلك إلى أن مات، وكان الصديق إذا حَدَّثَ عن يده أحداً يقول: ذاك يوم كان كله لطلحة، وقد قال له رسول الله ﷺ يومئذ: «أوجب طلحة»، وذلك أنه كان على رسول الله ﷺ درعان، فأراد أن ينهض وهما عليه، ليصعد صخرة هنالك، فما استطاع، فطأطأ له طلحة، فصعد على ظهره حتى استوى عليها، وقال: «أوجب طلحة»، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة[1]، وأحد الستة أصحاب الشورى[2].

---

(١) العشرة المبشرون بالجنة هم: الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والصحابة: عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

(٢) «أصحاب الشورى» هم: الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، ليكون الخليفة بعده واحداً منهم وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وجميعهم من العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم.

وقد صحب رسول الله ﷺ فأحسن صحبته، حتى توفي وهو عنه راض، وكذلك أبو بكر وعمر، فلما كان قضية عثمان، اعتزل عنه، فنسبه بعض الناس إلى تحامل فيه، فلهذا لما حضر يوم الجمل واجتمع به علي فوعظه، تأخر فوقف في بعض الصفوف، فجاءه سهمٌ غَرْبٌ[1] فوقع في ركبته، وقيل: في رقبته، والأول أشهر، وانتظم السهم مع ساقه خاصرة الفرس، فجمح به حتى كاد يلقيه، وجعل يقول: إليّ عباد الله، فأدركه مولى له، فركب وراءه وأدخله البصرة، فمات بدار فيها، ويقال: إنه مات بالمعركة، وإن علياً لما دار بين القتلى رآه، فجعل يمسح عن وجهه التراب وقال: رحمة الله عليك أبا محمد، يعز عليّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري[2]، والله لوددت أني كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

ويقال: إن الذي رماه بهذا السهم مروان بن الحكم، وقال لأبان بن عثمان: قد كفيتك رجلاً من قتلة عثمان، وقد قيل: إن الذي رماه غيره، وهذا عندي أقرب، وإن كان الأول مشهوراً والله أعلم.

وكان يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، ودفن طلحة إلى جانب الكلأ، وكان عمره ستين سنة، وقيل: بضعاً وستين سنة، وكان آدم، وقيل: أبيض، حسن الوجه، كثير الشعر، إلى القصر أقرب، وكانت غلته في كل يوم ألف درهم.

وروى حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبيه: أن رجلاً رأى طلحة في منامه وهو يقول: حولوني عن قبري، فقد أذاني الماء، ثلاث ليال، فأتى ابن عباس فأخبره، وكان نائباً على البصرة، فاشتروا له داراً بالبصرة بعشرة آلاف درهم، فحولوه من قبره إليها، فإذا قد اخْضَرَّ من جسده ما يلي الماء، وإذا هو كهيئته يوم أصيب.

وقد وردت له فضائل كثيرة، فمن ذلك: ما رواه أبو القاسم البغوي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على رجليه، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

وقد روي من غير وجه عن علي أنه قال: «إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة

---

(١) «سهم غرب» من دون إضافة، ويصح بالإضافة، هو: السهم الذي لا يعرف راميه.

(٢) «عُجَري وبُجَري» أي: أمري كلّه.

والـزبـيـر وعـثـمـان، مـمـن قـال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾»[١].

* وأبو عبد الله: الزبير بن العوام بن خُويلد الأسدي:

وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، أسلم قديماً وعمره خمس عشرة سنة، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمة بن سلامة بن وَقْش.

وقد شهد المشاهد كلها، وقد قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم»؟ فقال: أنا، ثم ندب الناس فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبيّ حواريّاً، وحواريَّ الزبير»، ثبت ذلك من رواية زِرٍّ عن علي[٢]، وثبت عن الزبير أنه قال[٣]: «جمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم بني قريظة».

وروي: أنه أول من سل سيفاً في سبيل الله، وذلك بمكة حين بلغ الصحابة، أن رسول الله قد قتل، فجاء شاهراً سيفه حتى رأى رسول الله ﷺ فشام سيفه، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة[٤]، وأحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض[٥].

---

(١) الآية «٤٧» من سورة «الحجر».

(٢) رواه عن زر بن حُبيش عن علي الإمام أحمد، ورواه البخاري ومسلم وأحمد عن جابر بن عبد الله، وأن ذلك كان يوم الأحزاب، حين قال النبي ﷺ: «من يأتيني بخبر القوم؟» ـ أي: بني قريظة ـ فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً، وحواريَّ الزبير». والمراد: الناصر، وكان الحواريون من أصحاب عيسى عليه السلام أنصاراً له.

(٣) قوله: «وجمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم بني قريظة»، أي قال له النبي ﷺ: «فداك أمي وأبي» وذلك أن النبي ﷺ قال يومها: «من يأتيني بخبر بني قريظة، فقال الزبير: أنا أذهب، فلما جاء قال له: «فداك أمي وأبي»، والحديث رواه الشيخان عن الزبير رضي الله عنه، وذلك أن الزبير ذهب مرتين أو ثلاثاً إلى بني قريظة يستطلع خبرهم كما في البخاري.

(٤) قوله «والعشرة المبشرون بالجنة» هم: الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والصحابة: عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

(٥) «أصحاب الشورى» هم: الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، ليكون الخليفة بعده واحداً منهم وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن =

وصحب الصديق فأحسن صحبته، وكان خَتَنَهُ على ابنته أسماء بنت الصديق، وابنه عبد الله منها، أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة، وخرج مع الناس إلى الشام مجاهداً، فشهد اليرموك فتشرفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العلياء، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين من أولهم إلى آخرهم، وكان من جملة من دافع عن عثمان وحاجف عنه، فلما كان يوم الجمل، ذكَّره علي بما ذكَّره به، فرجع عن القتال وكر راجعاً إلى المدينة، فمر بقوم الأحنف بن قيس ـ وكانوا قد انعزلوا عن الفريقين ـ فقال قائل يقال له الأحنف: ما بال هذا، جمع بين الناس، حتى إذا التقوا كر راجعاً إلى بيته؟ مَنْ رجل يكشف لنا خبره؟ فاتبعه عمرو بن جُرموز، وفضالة بن حابس، ونفيع، في طائفة من غواة بني تميم، فيقال: إنهم لما أدركوه تعاونوا عليه حتى قتلوه، ويقال: بل أدركه عمرو بن جرموز، فقال له عمرو: إن لي إليك حاجة، فقال: ادن، فقال مولى الزبير، ـ واسمه عطية ـ إن معه سلاحاً فقال: وإن، فتقدم إليه، فجعل يحدثه وكان وقت الصلاة، فقال له الزبير: الصلاة، فقال: الصلاة، فتقدم الزبير ليصلي بهما، فطعنه عمرو بن جرموز فقتله، ويقال: بل أدركه عمرو بواد يقال له: وادي السباع وهو نائم في القائلة، فهجم عليه فقتله، وهذا القول هو الأشهر، ويشهد له شعر امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت آخر من تزوجها، وكانت قبله تحت عمر بن الخطاب فقتل عنها، وكانت قبله تحت عبد الله بن أبي بكر الصديق فقتل عنها، فلما قتل الزبير رثته بقصيدة محكمة المعنى فقالت:

غَدَرَ ابنُ جُرموزٍ بفارسِ بَهْمَةٍ ... يومَ اللقاءِ وكانَ غيرَ مُعَرِّدِ[1]

يا عمرو لو نَبَّهتَهُ لوجدتَهُ ... لا طائشاً رَعْشَ الجَنانِ ولا اليَدِ

ثكلتك أُمُّكَ أنْ ظَفِرْتَ بمثلِهِ ... ممنْ بقي ممنْ يروحُ ويَغْتَدي

والله ربِّي إنْ قتلتَ لمسلماً ... حَلَّت عليكَ عُقوبةُ المتعمِّدِ

ولما قتله عمرو بن جرموز، فاحتز رأسه وذهب به إلى علي، ورأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده، فاستأذن، فقال علي: لا تأذنوا له، وبشروه بالنار، وفي رواية أن علياً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»[2]،

عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وجميعهم من العشرة المبشرين بالجنة. رضي الله عنهم.

(١) «معرِّد» أي: منهزم.

(٢) رواه أحمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه موقوفاً عليه، وروي عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

ودخل ابن جرموز ومعه سيف الزبير، فقال علي: إن هذا السيف، طالما فرج الكُرَبَ عن وجه رسول الله ﷺ، فيقال: إن عمرو بن جرموز لما سمع ذلك قتل نفسه، وقيل: بل عاش إلى أن تأمر مصعب بن الزبير على العراق، فاختفى منها، فقيل لمصعب: إن عمرو بن جرموز ههنا وهو مختف، فهل لك فيه؟ فقال: مروه فليظهر فهو آمن، والله ما كنت لأَقيد للزبير منه، فهو أحقر من أن أجعله عَدْلاً للزبير.

وقد كان الزبير، ذا مال جزيل، وصدقات كثيرة جداً، وكان قتله يوم الخميس، لعشر خلون من جمادى الآخرة، سنة ست وثلاثين، وقد نيف على الستين بست أو سبع، وكان أسمر ربعة من الرجال، معتدل اللحم، خفيف اللحية رضي الله عنه.



الفصل الرابع

وَقْعَةُ صِفِّينَ

بين أهل العراق وأهل الشام

(عام ٣٦ - ٣٧هـ)

* خروج عليّ من الكوفة قاصداً الشام.
* تَقَابُلُ الجيشين في صِفِّين.
* اقتتالُ الفريقين على الماء.
* تكاتُبُ عليٍّ ومعاوية في الصُّلح.
* فَشَلُ الصُّلح، وبَدْءُ القتال.
* مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه.
* رَفْعُ أهلِ الشَّام المصاحفَ.
* قصَّةُ التحكيم.
* اجتماع الحكمين: أبي موسى وعمرو بن العاص بدُومَةَ الجَنْدَل.

روى الإمام أحمد، عن محمد بن سيرين أنه قال: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألوف، فلم يحضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خلد قال لشعبة: إن أبا شيبة روى عن الحَكَم[1] عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، فقال: كذب أبو شيبة، والله لقد ذاكرنا الحَكَم في ذلك، فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت».

وروى ابن بطة، بإسناده عن بكير بن الأشج، أنه قال: أَمَا إن رجالاً من أهل بدر، لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان، فلم يخرجوا إلاَّ إلى قبورهم.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه لما فرغ من وقعة الجمل، ودخل البصرة، وشيع أم المؤمنين عائشة لما أرادت الرجوع إلى مكة، سار من البصرة إلى الكوفة، قال أبو الكنود عبد الرحمن بن عبيد: فدخلها عليّ يوم الإثنين، لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: انزل بالقصر الأبيض، فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكرهه لذلك، فنزل في الرَّحْبة وصلى في الجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همذان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس، وهو على نيابة أذربيجان من زمان عثمان، أن يأخذا البيعة على من هنالك من الرعايا، ثم يقبلا إليه، ففعلا ذلك.

فلما أراد عليّ رضي الله عنه، أن يبعث إلى معاوية رضي الله عنه يدعوه إلى

---

(١) قوله: «عن الحكم» هو: الحكم بن عيينة.

بيعته، قال جرير بن عبد الله: أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين، فإن بيني وبينه وداً، فآخذ لك منه البيعة، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين، فإني أخشى أن يكون هواه معه، فقال علي: دعه، وبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية، يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار في بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله، أعطاه الكتاب، فطلب معاوية عمرو بن العاص ورؤس أهل الشام فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه، حتى يقتل قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فرجع جرير إلى عليّ فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، ألم أنهك أن تبعث جريراً؟ فلو كنت بعثتني، فما فتح معاوية باباً إلا أغلقته، فقال له جرير: لو كنت ثَمَّ لقتلوك بدم عثمان، فقال الأشتر: والله لو بعثني لم يعنني جواب معاوية، ولأعجلنه عن الفكرة، ولو أطاعني قبل لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة، فقام جرير مغضباً وأقام بقَرْقِيسِيَا، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وما قيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه.



خروج علي من الكوفة قاصداً الشام

وخرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من الكوفة، عازماً على الدخول إلى الشام، فعسكر بالنخيلة، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدري الأنصاري، وكان قد أشار عليه جماعة بأن يقيم بالكوفة ويبعث الجنود، وأشار آخرون أن يخرج فيهم بنفسه، وبلغ معاوية أن علياً قد خرج بنفسه، فاستشار عمرو بن العاص فقال له: أخرج أنت أيضاً بنفسك، وقام عمرو بن العاص في الناس فقال: إن صناديد أهل الكوفة والبصرة، قد تفانوا يوم الجمل، ولم يبق مع عليّ إلا شرذمة قليلة من الناس، وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلوه، وكتب إلى أجناد الشام فحضروا، وعقدت الألوية والرايات للأمراء، وتهيأ أهل الشام وتأهبوا، وخرجوا أيضاً إلى نحو الفرات من ناحية صفين، حيث يكون مقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسار علي رضي الله عنه بمن معه من الجنود، من النخيلة قاصداً أرض الشام.



تقابل الجيشين في صفّين

وقد بعث عليّ بين يديه، زياد بن النضر الحارثي، طليعةً في ثمانية آلاف، ومعه شريح بن هانىء، في أربعة آلاف، فساروا في طريق بين يديه غير طريقه، وجاء عليّ، فقطع دجلة من جسر منبج، وسارت المقدمتان، فبلغهم أن معاوية قد ركب في أهل الشام، ليلتقي أمير المؤمنين علياً، فهموا بلقياه، فخافوا من قلة عددهم بالنسبة إليه، فعدلوا عن طريقهم، وجاؤا ليعبروا من عانات، فمنعهم أهل عانات، فساروا فعبروا من هِيت، ثم لحقوا علياً، وقد سبقهم، فقال عليٌّ: مقدمتي تأتي من روائي؟ فاعتذروا إليه بما جرى لهم، فعذرهم، ثم قدمهم أمامه إلى معاوية، بعد أن عبر الفرات، فتلقاهم أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي في مقدمة أهل الشام فتواقفوا، ودعاهم زياد بن النضر أمير مقدمة أهل العراق، إلى البيعة، فلم يجيبوه بشيء، فكتب إلى عليّ بذلك، فبعث إليهم عليٌّ الأشتر النخعي أميراً، وعلى ميمنته زياد، وعلى ميسرته شريح، وأمره أن لا يتقدم إليهم بقتال حتى يبدءوه بالقتال، ولكن لِيَدْعُهُمْ إلى البيعة مرة بعد مرة، فإن امتنعوا، فلا يقاتلهم حتى يقاتلوه، ولا يقرب منهم قرب من يريد الحرب، ولا يبتعد منهم ابتعاد من يهاب الرجال، ولكن صابرهم حتى آتينك، فأنا حثيث السير وراءك إن شاء الله، فتحاجزوا يومهم ذلك، فلما كان آخر النهار، حمل عليهم أبو الأعور السلمي، وبعث معه بكتاب الإمارة على المقدمة مع الحارث بن جهمان الجعفي، فلما قدم الأشتر على المقدمة، امتثل ما أمره به عليّ، فتواقف هو ومقدمة معاوية، وعليها أبو الأعور السلمي، فثبتوا له واصطبروا لهم ساعة، ثم انصرف أهل الشام عند المساء، فلما كان الغد، تواقفوا أيضاً وتصابروا، فحمل الأشتر فقتل عبد الله بن المنذر التنوخي، وكان من فرسان أهل الشام، قتله رجل من أهل العراق يقال له: ظَبْيَان بن عُمَارة التميمي، فعند ذلك حمل عليهم أبو الأعور بمن معه، فتقدموا إليهم، وطلب الأشتر من أبي الأعور أن يبارزه فلم يجبه أبو الأعور إلى ذلك، وكأنه رآه غير كفء له في ذلك والله أعلم.

وتحاجز القوم عن القتال عند إقبال الليل من اليوم الثاني، فلما كان صباح اليوم الثالث، أقبل علي رضي الله عنه في جيوشه، وجاء معاوية رضي الله عنه في جنوده، فتواجه الفريقان وتقابل الطائفتان فبالله المستعان، فتواقفوا طويلاً، وذلك بمكان يقال له: «صِفِّين»، وذلك في أوائل ذي الحجة، سنة ست وثلاثين.



اقتتال الفريقين على الماء

ثم عدل علي رضي الله عنه فارتاد لجيشه منزلاً، وقد كان معاوية سبق بجيشه، فنزلوا على مشرعة الماء، في أسهل موضع وأفسحه، فلما نزل عليّ نزل بعيداً من الماء، وجاء سرعان أهل العراق، ليَرِدُوا من الماء، فمنعهم أهل الشام، فوقع بينهم مقاتلة بسبب ذلك، وقد كان معاوية، وَكَّل على الشريعة[1] أبا الأعور السلمي، وليس هناك مشرعة سواها، فعطش أصحاب علي عطشاً شديداً، فبعث علي الأشعث بن قيس الكندي في جماعة ليصلوا إلى الماء، فمنعهم أولئك وقال: موتوا عطشاً كما منعتم عثمان الماء، فتراموا بالنبل ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك كله، وأمد كل طائفة أهلها، حتى جاء الأشتر النخعي من ناحية العراقيين، وعمرو بن العاص من ناحية الشاميين، واشتدت الحرب بينهم أكثر مما كانت.

ثم ما زال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء، حتى أزاحوهم عنه، وخلوا بينهم وبينه، ثم اصطلحوا على الورود، حتى صاروا يزدحمون في تلك الشريعة، لا يكلم أحد أحداً، ولا يؤذي إنسان إنساناً.

وفي رواية: أن معاوية لما أمر أبا الأعور بحفظ الشريعة، وقف دونها برماح مشرعة، وسيوف مسللة، وسهام مفوقة، وقسيّ موترة، فجاء أصحاب عليّ عليّاً، فشكوا إليه ذلك، فبعث صعصعة بن صُوحان إلى معاوية يقول له: إنا جئنا كافِّين عن قتالكم، حتى نقيم عليكم الحجة، فبعثت إلينا مقدمتك، فقاتلتنا قبل أن نبدأكم، ثم هذه أخرى قد منعونا الماء، فلما بلغه ذلك، قال معاوية للقوم: ماذا تريدون؟ فقال عمرو: خلِّ بينهم وبينه، فليس من النَّصَفِ أن نكون رَيَّانين وهم عطاش، وقال الوليد: دعهم يذوقوا من العطش، ما أذاقوا أمير المؤمنين عثمان، حين حصروه في

---

(١) «الشريعة» أي: مشرعة الماء.

داره، ومنعوه طيب الماء والطعام أربعين صباحاً، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرج: امنعهم الماء إلى الليل، فلعلهم يرجعون إلى بلادهم، فسكت معاوية، فقال له صعصعة بن صُوحان: ماذا جوابك؟ فقال: سيأتيكم رأيي بعد هذا، فلما رجع صعصعة فأخبر الخبر، ركب الخيل والرجال، فما زالوا حتى أزاحوهم عن الماء ووردوه قهراً، ثم اصطلحوا فيما بينهم على ورود الماء، ولا يمنع أحد أحداً منه.



تكاتب علي ومعاوية في الصلح

وأقام علي يومين لا يكاتب معاوية، ولا يكاتبه معاوية، ثم دعا عليّ بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهَمْدَاني، وشَبَثَ بن ربعي السهمي فقال: ائتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الطاعة والجماعة، واسمعوا ما يقول لكم، فلما دخلوا على معاوية، قال له بشير بن عمرو: يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، والله محاسبك بعملك، ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها، فقال له معاوية: هلاّ أوصيت بذلك صاحبكم؟ فقال له: إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر، في فضله ودينه وسابقته وقرابته، وإنه يدعوك إلى مبايعته، فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في آخرتك، فقال معاوية: ويُطَلُّ دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً، ثم أراد سعيد بن قيس الهَمْدَاني أن يتكلم، فبدره شَبَثُ بن ربعي التميمي، فتكلم قبله بكلام فيه غلظة وجفاء في حق معاوية، فزجره معاوية وزبره في افتياته على من هو أشرف منه، وكلامه بما لا علم له به، ثم أمر بهم، فأخرجوا من بين يديه، وصمم على القيام بطلب دم عثمان الذي قتل مظلوماً، فعند ذلك نشبت الحرب بينهم، وأمر عليّ بالطلائع والأمراء أن تتقدم للحرب، وجعل عليّ يؤمر على كل قوم من الحرب أميراً، فمن أمرائه على الحرب: الأشتر النخعي ـ وهو أكبر من كان يخرج للحرب ـ وحُجْر بن عدي، وَشَبثَ بن ربعي، وخالد بن المعتمر، وزياد بن النضر، وزياد بن خَصْفَةَ[1] التيمي، وسعيد بن قيس، ومعقل بن قيس الرياحي، وقيس بن سعد.

وكذلك كان معاوية يبعث على الحرب كل يوم أميراً، فمن أمرائه: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلم، وذو

(١) «خصفة» بفتح الخاء المعجمة وسكون الصاد المهملة، هذا هو الصواب في جميع المواضع، وهو في المطبوعة «حفصة» وهو تصحيف.

الكَلاَع[1] الحميري، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وشرحبيل بن السِّمْط الكندي، وحمزة بن مالك الهَمْدَاني.

وربما اقتتل الناس في اليوم مرتين، وذلك في شهر ذي الحجة بكماله، وحج بالناس في هذه السنة ـ أي: سنة ست وثلاثين ـ عبد الله بن عباس، عن أمر عليّ له بذلك، فلما انسلخ ذو الحجة ودخل المحرم، تداعى الناس للمتاركة، لعل الله أن يصلح بينهم على أمر يكون فيه حقن دمائهم، فكان ما سنذكره.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين، واستلهت هذه السنة، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، متواقف هو ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كل منهما في جنوده بمكان يقال له: «صفِّين» بالقرب من الفرات، شرقي بلاد الشام، وقد اقتتلوا في مدة شهر ذي الحجة كل يوم، وفي بعض الأيام ربما اقتتلوا مرتين، وجرت بينهم حروب يطول ذكرها.

والمقصود: أنه لما دخل شهر المحرم، تحاجز القوم رجاء أن يقع بينهم مهادنة وموادعة، يؤول أمرها إلى الصلح بين الناس وحقن دمائهم، فذكر ابن جرير من طريق هشام، عن أبي مِخْنَفٍ الأزدي قال: حدثني سعيد بن المجاهد الطائي، عن المُحِلّ بن خليفة الطائي: أن علياً بعث عدي بن حاتم، ويزيد بن قيس الأرْحَبي، وشَبَثَ بن ربعي، وزياد بن خَصْفَةَ إلى معاوية، فلما دخلوا عليه، وعمرو بن العاص إلى جانبه، قال عدي بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد يا معاوية، فإنا جئناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمرنا، ويحقن به الدماء، ويُؤَمِّن به السُّبُلَ، ويصلح به ذاتَ البين، إن ابن عمك سيد المسلمين، أفضلها سابقة، وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا، فلم يبق أحد غيرك، وغير من معك من شيعتك، فانته يا معاوية، لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل، فقال له معاوية: كأنك إنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً، هيهات والله يا عدي، كلاً والله، إني لابن حرب، ولا يقعقع لي بالشِّنَان، أما والله، إنك لمن المجلبين على ابن عفان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به، وتكلم شَبَثُ بن ربعي وزياد بن خَصْفَةَ، فذكرا من فضل علي وقالا: اتق الله يا معاوية ولا تخالفه، فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

---

(١) وفي الطبري: «ابن ذي الكلاع»، وهو واحد، و«الكلاع» بفتح الكاف.

فتكلم معاوية، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنكم دعوتموني إلى الجماعة والطاعة، فأما الجماعة فمعنا هي، وأما الطاعة، فكيف أطيع رجلاً أعان على قتل عثمان وهو يزعم أنه لم يقتله؟ ونحن لا نرد ذلك عليه ولا نتهمه به، ولكنه آوى قتلته، فيدفعهم إلينا حتى نقتلهم، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة، فقال له شَبَثُ بن ربعي: أنشدك الله يا معاوية، لو تمكنت من عمار، أكنت قاتله بعثمان؟ قال معاوية: لو تمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان، ولكني كنت قتلته بغلام عثمان، فقال له شَبَثُ بن ربعي: وإله الأرض والسماء، لا تصل إلى قتل عمار حتى تَنْدُرَ الرؤوس عن كواهلها، ويضيق فضاء الأرض ورحبها عليك، فقال معاوية: لو قد كان ذلك، كانت عليك أضيق، وخرج القوم من بين يديه، فذهبوا إلى عليّ فأخبروه بما قال.

وبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وشرحبيل بن السِّمْط، ومعن بن يزيد بن الأخنس، إلى عليّ، فدخلوا عليه، فبدأ حبيب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً، عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله، فاستثقلتم حياته، واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلته إن زعمت أنك لم تقتله، ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم، فيولي الناس أمرهم من جمع عليه رأيهم، فقال له علي: وما أنت لا أُمَّ لك، وهذا الأمر وهذا العزل؟ فاسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك، فقال له حبيب: أما والله لتريني حيث تكره، فقال له علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك، لا أبقى الله عليك إن أبقيت، اذهب فَصَعِّد وصَوِّب ما بدا لك.

ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين علي، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن في مطاوي ذلك الكلام من عليّ، ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وأنهما إنما دخلا في الإسلام ولم يزالا في تردد فيه، وغير ذلك، وإنه قال في غُبون ذلك: لا أقول إن عثمان قتل مظلوماً ولا ظالماً، فقالوا: نحن نبرأ ممن لم يقل إن عثمان قتل مظلوماً، وخرجوا من عنده فقال علي: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾[1] ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالتهم، منكم بالجد في حقكم وطاعة نبيكم.

قلت: وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه.

---

(١) الآيتان «٥٢ و ٥٣» من سورة «الروم».

فَشَلُ الصلح، وبَدْءُ القتال

قال ابن جرير رحمه الله: ثم لم تزل الرسل تتردد بين علي ومعاوية، والناس كافّون عن القتال، حتى انسلخ المحرم من هذه السنة ـ أي: سنة سبع وثلاثين ـ ولم يقع بينهم صلح، فأمر علي بن أبي طالب يزيد بن الحارث الجشمي، فنادى أهل الشام عند غروب الشمس: ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استأنيتكم لتراجعوا الحق، وأقمت عليكم الحجة فلم تجيبوا، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين، ففزع أهل الشام إلى أمرائهم، فاعلموهم بما سمعوا المنادي ينادي، فنهض عند ذلك معاوية وعمرو، فعبيا الجيش ميمنة وميسرة، وبات عليّ يعبي جيشه من ليلته، فجعل على خيلِ أهل الكوفة الأشتر النخعي، وعلى رجالتهم عمار بن ياسر، وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالتهم قيس بن سعد وهاشم بن عتبة، وعلى قرائهم سعد بن فدكى التميمي، وتقدم عليّ إلى الناس، أن لا يبدأوا واحداً بالقتال، حتى يبدأ أهل الشام، وأنه لا يُذَفِّفُ على جريح، ولا يتبع مدبر، ولا يكشف ستر امرأة ولا تهان، وإن شتمت أمراء الناس وصلحاءهم.

وبرز معاوية صبح تلك الليلة، وقد جعل على الميمنة ابن ذي الكَلاَع الحميري، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى المقدمة أبا الأعور السلمي، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص، وعلى رجالتهم الضحاك بن قيس، ذكره ابن جرير.

وقد تعاقد جماعة من أهل الشام على أن لا يفروا، فعقلوا أنفسهم بالعمائم، وكان هؤلاء خمسة صفوف، ومعهم ستة صفوف آخرين، وكذلك أهل العراق، كانوا أحد عشر صفاً أيضاً، فتواقفوا على هذه الصفة أول يوم من صفر، وكان ذلك يوم الأربعاء، وكان أمير الحرب يومئذ للعراقيين الأشتر النخعي، وأمير الحرب يومئذ للشاميين حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا ذلك اليوم قتالاً شديداً، ثم تراجعوا من آخر يومهم، وقد انتصف بعضهم من بعض، وتكافؤا في القتال.

ثم أصبحوا من الغد يوم الخميس، وأمير حرب أهل العراق هاشم بن عتبة، وأمير الشاميين يومئذ أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا قتالاً شديداً، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، ثم تراجعوا من آخر يومهم، وقد صبر كل من الفريقين للآخر وتكافؤا.

ثم خرج في اليوم الثالث ـ وهو يوم الجمعة ـ عمار بن ياسر من ناحية أهل العراق، وخرج إليه عمرو بن العاص في الشاميين، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، وحمل عمار على عمرو بن العاص، فأزاله عن موقفه، وبارز زيادَ بن النضر الحارثي وكان على الخيالة، فلما تواقفا تعارفا فإذا هما أخوان من أم، فانصرف كل واحد منهما إلى قومه وترك صاحبه، وتراجع الناس من العشي، وقد صبر كل فريق لصاحبه.

وخرج في اليوم الرابع ـ وهو: يوم السبت ـ محمد بن علي، وهو ابن الحنفية، ومعه جمع عظيم، فخرج إليه في كثير من جهة الشاميين عبيد الله بن عمر، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، وبرز عبيد الله بن عمر، فطلب من ابن الحنفية أن يبرز إليه، فبرز إليه، فلما كادا أن يقتربا، قال علي: من المبارز؟ قالوا: محمد ابنك وعبيد الله، فيقال: إن علياً حرك دابته، وأمر ابنه أن يتوقف، وتقدم إلى عبيد الله فقال له: تقدم إليّ، فقال له: لا حاجة لي في مبارزتك، فقال: بلى، فقال: لا، فرجع عنه عليٌّ، وتحاجز الناس يومهم ذلك.

ثم خرج في اليوم الخامس، وهو يوم الأحد، في العراقيين عبد الله بن عباس، وفي الشاميين الوليد بن عقبة، واقتتل الناس قتالاً شديداً، وجعل الوليد ينال من ابن عباس، فيما ذكره أبو مِخْنَفٍ ويقول: قتلتم خليفتكم ولم تنالوا ما طلبتم، ووالله إن الله ناصرنا عليكم، فقال له ابن عباس: فابرز إليّ فأبى عليه، ويقال: إن ابن عباس قاتل يومئذ قتالاً شديداً بنفسه رضي الله عنه.

ثم خرج في اليوم السادس، وهو يوم الإثنين، وعلى الناس من جهة العراقيين قيس بن سعد، ومن جهة أهل الشام ابن ذي الكَلاَع، فاقتتلوا قتالاً شديداً أيضاً، وتصابروا ثم تراجعوا.

ثم خرج الأشتر النخعي في اليوم السابع، وهو يوم الثلاثاء، وخرج إليه قرنه حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا قتالاً شديداً أيضاً، ولم يغلب أحد أحداً في هذه الأيام كلها.

قال أبو مِخْنَف: حدثني مالك بن أعين الجهني، عن زيد بن وهب، أن علياً

قال: «حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا؟ ثم قام في الناس عشية الأربعاء بعد العصر فقال: الحمد لله الذي لا يُبْرَمُ ما نَقَضَ، وما أبرم لم ينقضه الناقضون، لو شاء ما اختلف اثنان من خلقه، ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، وألقت بيننا في هذا المكان، فنحن من ربنا بمرأى ومسمع، فلو شاء لعجل النقمة، وكان منه التعسير حتى يكذب الله الظالم، ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة عنده هي دار القرار ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ ألا وإنكم لاقُوا القوم غداً، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله النصر والصبر، والقوة بالجد والحزم، وكونوا صادقين».

قال: فوثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها، قال: ومر بالناس وهم كذلك، كعب بن جعل التغلبي، فرأى ما يصفون فجعل يقول:

أصبحت الأمةُ في أمر عجبْ والملكُ مجموعٌ غداً لمن غَلَبْ
فقلتُ قولاً صادقاً غيرَ كَذِبْ إنّ غداً، تَهلِكُ أعلامُ العَرَبْ

قال: ثم أصبحَ عليٌّ في جنوده، قد عبأهم كما أراد، وقد أمر على كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام، فتقاتل الناس قتالاً عظيماً لا يفر أحد من أحد، ولا يغلب أحد أحداً، ثم تحاجزوا عند العشي.

وأصبح عليّ، فصلى الفجر بغلس وباكر القتال، ثم استقبل أهل الشام، فاستقبلوه بوجوههم، فقال عليّ فيما رواه أبو مِخْنَف عن مالك بن أَعْيَنَ، عن زيد بن وهب: «اللهم رَبَّ السقف المرفوع المحفوظ المكفوف، الذي جعلته سقفاً لليل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر، ومنازل النجوم، وجعلت فيه سِبْطاً[1] من الملائكة لا يسأمون العبادة، ورَبَّ الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام، وما لا يحصى مما نرى وما لا نرى من خلقك العظيم، ورَبَّ الفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناس، ورَبَّ السحاب المسخر بين السماء والأرض، ورَبَّ البحر المسجور المحيط بالعالم، ورَبَّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق متاعاً، إن أظهرتنا على عدونا، فجنبنا البغي والفساد، وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا، فارزقني الشهادة، وجنب بقية أصحابي من الفتنة».

ثم تقدم عليّ وهو في القلب فى أهل المدينة، وعلى ميمنته يومئذ عبد الله بن

(١) «سبطاً» بكسر السين المهملة أي: أمّة.

بديل، وعلى الميسرة عبد الله بن عباس، وعلى القراء عمار بن ياسر وقيس بن سعد، والناس على راياتهم، فزحف بهم إلى القوم، وأقبل معاوية، وقد بايعه أهل الشام على الموت، فتواقف الناس في موطن مهول وأمر عظيم، وحمل عبد الله بن بُدَيْل أمير ميمنة عليّ، على ميسرة أهل الشام وعليها حبيب بن مسلمة، فاضطره حتى ألجأه إلى القلب، وفيه معاوية، وقام عبد الله بن بُدَيْل خطيباً في الناس، يحرضهم على القتال، ويحثهم على الصبر والجهاد، وحرض أمير المؤمنين عليٌّ الناس، على الصبر والثبات والجهاد، وحثهم على قتال أهل الشام، وقام كل أمير في أصحابه يحرضهم وتلا عليهم آيات القتال من أماكن متفرقة من القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾[1].

وقد ذكر علماء التاريخ وغيرهم: أن علياً رضي الله عنه، بارز في أيام صفين، وقاتل وقتل خلقاً، حتى ذكر بعضهم أنه قتل خمسمائة، فمن ذلك: أن كريب بن الصباح قتل أربعة من أهل العراق، ثم وضعهم تحت قدميه ثم نادى: هل من مبارز؟ فبرز إليه عليّ، فتجاولا ساعة، ثم ضربه علي فقتله، ثم قال عليّ: هل من مبارز، فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري فقتله، ثم برز إليه راود بن الحارث الكلاعي فقتله، ثم برز إليه المطاع بن المطلب القيسي فقتله، فتلا عليّ قوله تعالى ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾[2] ثم نادى: ويحك يا معاوية، أبرز إليّ، ولا تفني العرب بيني وبينك، فقال له عمرو بن العاص: اغتنمه، فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة، فقال له معاوية: والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط، وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي، اذهب، إليك، فليس مثلي يُخدع.

وذكروا: أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً، فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض، فبدت سوءته، فرجع عنه، فقال له أصحابه: مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه؟ فقال: أتدرون ما هو؟ قالوا: لا، قال: هذا عمرو بن العاص، تلقاني بسوءته، فذكرني بالرحم، فرجعت عنه، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له: احمد الله واحمد اسْتَكَ.

وقد ذكرنا: أن عبد الله بن بُدَيْل، كسر الميسرة التي فيها حبيب بن مسلمة، حتى أضافها إلى القلب، فأمر معاوية الشجعان أن يعاونوا حبيباً على الكرة، وبعث

(١) الآية «الرابعة» من سورة «الصف».

(٢) من الآية «١٩٤» من سورة «البقرة».

إليه معاوية يأمره بالحملة والكرة على ابن بُدَيْل، فحمل حبيب بمن معه من الشجعان، على ميمنة أهل العراق، فأزالوهم عن أماكنهم، وانكشفوا عن أميرهم، حتى لم يبق معه إلا زهاء ثلثمائة، وانجفل بقية أهل العراق، ولم يبق مع علي من تلك القبائل إلا أهل مكة وعليهم سهل بن حنيف، وثبت ربيعة مع علي رضي الله عنه، واقترب أهل الشام منه حتى جعلت نبالهم تصل إليه، وتقدم إليه مولى بني أمية، فاعترضه مولى لعلي فقتله الأموي، وأقبل يريد علياً وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية، فلما وصل إلى عليّ، أخذه عليّ بيده، فرفعه ثم ألقاه على الأرض، فكسر عضده ومنكبه، وابتدره الحسين ومحمد بأسيافهما فقتلاه، فقال علي للحسن ابنه وهو واقف معه: ما منعك أن تصنع كما صنعا، فقال: كفيانِ أمره يا أمير المؤمنين.

وأسرع إلى عليّ أهل الشام، فجعل علي لا يزيده قربهم منه سرعة في مشيته، بل هو سائر على هينته، فقال له ابنه الحسن: يا أبة لو سعيت أكثر من مشيتك هذه، فقال: يا بني إن لأبيك يوماً لن يعدوه، ولا يبطىء به عند السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إن أباك والله ما يبالي، وقع على الموت أو وقع عليه.

ثم إن علياً أمر الأشتر النخعي أن يلحق المنهزمين فيردهم، فسار فأسرع حتى استقبل المنهزمين من العراق، فجعل يؤنبهم ويوبخهم، ويحرض القبائل والشجعان منهم على الكرة، فجعل طائفة تتابعه وآخرون يستمرون في هزيمتهم، فلم يزل ذلك دأبه، حتى اجتمع عليه خلق عظيم من الناس، فجعل لا يلقى قبيلة إلا كشفها، ولا طائفة إلا ردها، حتى انتهى إلى أمير الميمنة وهو عبد الله بن بُدَيل، ومعه نحو في ثلثمائة، قد ثبتوا في مكانهم، فسألوا عن أمير المؤمنين فقالوا: حيٌّ صالح، فالتفوا إليه، فتقدم بهم حتى تراجع كثير من الناس، وذلك ما بين صلاة العصر إلى الغروب، وأراد ابن بُدَيل أن يتقدم إلى أهل الشام، فأمره الأشتر أن يثبت مكانه فإنه خير له، فأبى عليه ابن بديل، وحمل نحو معاوية، فلما انتهى إليه، وجده واقفاً أمام أصحابه، وفي يده سيفان، وحوله كتائب أمثال الجبال، فلما اقترب ابن بديل، تقدم إليه جماعة منهم، فقتلوه وألقوه إلى الأرض قتيلاً، وفر أصحابه منهزمين وأكثرهم مجروح، فلما انهزم أصحابه قال معاوية لأصحابه: انظروا إلى أميرهم، فجاؤا إليه، فلم يعرفوه، فتقدم معاوية إليه، فإذا هو عبد الله بن بديل، فقال معاوية: هذا والله كما قال الشاعر، وهو حاتم الطائي:

أخو الحربِ إنْ عضّتْ به الحربُ عَضَّها ... وإنْ شمّرتْ يوماً بهِ الحربُ شمرا

ويَحمي إذا ما الموتُ كان لقاءَهُ كذلك ذو الأشبالِ يحمى إذا ما تأمَّرا
كليثٍ هِزَبْرٍ كانَ يحمي ذِمَارَهُ رَمَتْهُ المنايا سهمَها فتقطرا

ثم حمل الأشتر النخعي بمن رجع معه من المنهزمين، فصدق الحملة حتى خالط الصفوف الخمسة، الذين تعاقدوا أن لا يفروا وهم حول معاوية، فخرق منهم أربعة، وبقي بينه وبين معاوية صف، قال الأشتر: فرأيت هولاً عظيماً، وكدت أن أفر، فما ثبتني إلا قول ابن الإطنابة، من الأنصار، وهي: أمه امرأة من بَلْقَيْن[1]، وهو جاهلي:

أبتْ لي عفتي وأبى بلائي وإقدامي على البطل المُشيحِ
وإعطائي على المكروهِ مالي وضربي هامةَ الرجلِ السميحِ
وقولي كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ مكانكِ تُحمدي أو تستريحي

قال: فهذا الذي ثبتني في ذلك الموقف.

ثم إن علياً لما رأى الميمنة قد اجتمعت، رجع إلى الناس، فأنب بعضهم وعذر بعضهم، وحرض الناس وثبتهم، ثم تراجع أهل العراق، فاجتمع شملهم، ودارت رحى الحرب بينهم، وجالوا في الشاميين وصالوا، وتبارز الشجعان، فقتل خلق كثير من الأعيان من الفريقين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقيل: ممن قتل في هذا اليوم عبيد الله بن عمر بن الخطاب من الشاميين، واختلفوا فيمن قتله من العراقيين.



(١) «من بلقين» أي: بني القين، والعرب تلفظه باللام، ومثله «بلهجيم»، وهو شائع في المغرب العربي حتى عصرنا.

مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه

قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه، مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك، سرُّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية[1]، وبان بذلك أن علياً محق، وأن معاوية باغٍ، وما في ذلك من دلائل النبوة.

ذكر ابن جرير من طريق أبي مِخْنَفٍ، حدثني مالك بن أَعْيَنَ الجهني، عن زيد بن وهب الجهني، أن عماراً قال يومئذ: من يبتغي رضوان ربه، ولا يلوي إلى مال ولا ولد؟ قال: فأتته عصابة من الناس فقال:

«أيها الناس، اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان، ويزعمون أنه قتل مظلوماً، والله ما قصدهم الأخذ بدمه، ولا الأخذ بثأره، ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحلوها، واستَمَرُّوا الآخرة فَقَلَوْها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم، حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام، يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم، ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله، التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها، وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله، فخدعوا أتباعهم بقولهم: إمامنا قُتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان، ولكانوا أذل وأخس وأقلّ، ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين، فسيروا إلى الله سيراً جميلاً، واذكروا ذكراً كثيراً»، ثم تقدم فلقيه عمرو بن العاص، وعبيد الله بن عمر، فلامهما وأنبهما ووعظهما، وذكروه من كلامه لهما ما فيه غلظة فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن عمرو بن مرة

---

(١) روى هذا الحديث البخاري ومسلم وغيرهما كما سيأتي في هذا السياق.

سمعت عبد الله بن سلمة يقول: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً آدم طوالاً أخذ الحربة بيده ويده ترعد، فقال: والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى بلغوا بنا سعفات هجر، لعرفت أن مصلحينا على الحق، وأنهم على الضلالة.

وروى الإمام أحمد عن قيس بن عباد قال: قلت لعمار بن ياسر: أرأيت قتالكم مع علي، أرأياً رأيتموه، فإن الرأي يخطىء ويصيب، أو عهداً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، وقد رواه مسلم.

وهذا كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما، عن جماعة من التابعين، منهم: الحارث بن سويد، وقيس بن عبادة، وأبو جحيفة وهب بن عبد الله السُّوائي، ويزيد بن شريك، وأبو حسان الأجرد وغيرهم: أن كلاً منهم قال: قلت لعليّ: هل عندكم شيء عهده إليكم رسول الله ﷺ لم يعهده إلى الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبَرَأَ النَّسَمَة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ فإذا فيها العَقْلَ وفكاك الأسير، وأن لا يُقتلَ مسلم بكافر، وأن المدينة حرم ما بين ثَبير إلى ثور.

وثبت في الصحيحين أيضاً، عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صِفِّين: يا أيها الناس، اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أقدر لرددت على رسول الله ﷺ أمره، ووالله ما حملنا سيوفنا على عواتقنا منذ أسلمنا، لأمر يقطعنا، إلا أسهل بنا إلى أمر نعرفه، غير أمرنا هذا، فإنا لا نسد منه خصماً، إلا انفتح لنا غيره، لا ندري كيف نبالي له.

وقال ابن جرير: وحدثنا أحمد بن محمد، ثنا الوليد بن صالح، ثنا عطاء بن مسلم عن الأعمش قال: قال أبو عبد الرحمن السلمي: كنا مع عليّ بصفين، وكنا قد وكلنا بفرسه نفسين يحفظانه، يمنعانه أن يَحْمِلَ، فكان إذا حانت منهما غفلة، حمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه، وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه، فألقاه إليهم وقال: لولا أنه انثنى ما رجعت، قال: ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين، إلا اتبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ، ورأيته جاء إلى هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علي فقال: يا هاشم تقدم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسنة، وقد فُتحت أبواب الجنة، وتزينت الحور العين،

اليومَ ألقى الأحبة ... محمداً وحِزبَة

ثم حملا هو وهاشم، فقتلا رحمهما الله تعالى، قال: وحمل حينئذ عليّ وأصحابه على أهل الشام، حملة رجل واحد، كأنهما كانا - يعني: عماراً وهاشماً - علماً لهم، قال: فلما كان الليل، قلت: لأدخلن الليلة إلى العسكر الشاميين، حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا؟، وكنا إذا توادعنا من القتال، تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم، فركبت فرسي وقد هدأت الرِّجْل، ثم دخلت عسكرهم، فإذا أنا بأربعة يتسامرون: معاوية، وأبو الأعور السلمي، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله بن عمرو وهو خير الأربعة، قال: فأدخلت فرسي بينهم، مخافة أن يفوتني ما يقول بعضهم لبعض، فقال عبد الله لأبيه: يا أبة، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال؟، قال: وما قال؟ قال: ألم يكن معنا ونحن نبني المسجد، والناس ينقلون حجراً حجراً، ولبنة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين، ولبنتين لبنتين، فغشي عليه، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: «ويحك يا ابن سُمَيَّة، الناس ينقلون حجراً حجراً، ولبنة لبنة، وأنت تنقل حجرين حجرين، ولبنتين لبنتين، رغبة منك في الأجر، وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية» قال: فدفع عمرو صدر فرسه، ثم جذب معاوية إليه فقال: يا معاوية، أما تسمع ما يقول عبد الله؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول... وأخبره الخبر، فقال معاوية: إنك شيخ أخرق، ولا تزال تحدث بالحديث، وأنت تَدْحَضُ في[1] بولك، أَوَنحن قتلنا عماراً؟ إنما قتل عماراً من جاء به؟ قال: فخرج الناس من عند فساطيطهم وأخبيتهم وهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به، فلا أدري من كان أعجب هو أو هم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش عن عبد الرحمن بن أبي زياد قال: إني لأسير مع معاوية منصرفه من صفين، بينه وبين عمرو بن العاص، فقال عبد الله بن عمرو: يا أبة، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: «ويحك يا ابن سمية، تقتلك الفئة الباغية؟»، قال: فقال عمرو لمعاوية: ألا تسمع ما يقول عبد الله هذا؟ فقال معاوية: لا يزال يأتينا بَهَنةٍ بعد هَنَة[2]، أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاءوا به، ثم رواه أحمد عن أبي نعيم، عن سفيان الثوري، عن الأعمش به نحوه، تفرد به أحمد بهذا السياق من هذا الوجه.

---

(١) قوله: «تدحض في بولك» أي: تَزلَّق في بولك.

(٢) «بهنة بعد هنة»، معنى «الهنة»: الشيء اليسير، ومراده: أن عبد الله بن عمرو يأتي معاوية بالأخبار قليلة الشأن.

وهذا التأويل الذي سلكه معاوية رضي الله عنه بعيد، ثم لم ينفرد عبد الله بن عمرو بهذا الحديث، بل قد روي من وجوه أخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن خالد عن عكرمة، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية».

وقد روى البخاري في صحيحه، من حديث عبد العزيز بن المختار، وعبد الوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن عكرمة، عن أبي سعيد الخدري، في قصة بناء المسجد: أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «يا ويح عمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»، قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن، وفي بعض نسخ البخاري: «يا ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار».

وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» ورواه مسلم، وفي رواية أخرى لمسلم بزيادة: «وقاتله في النار».

قال ابن جرير: وقد ذكر أن عماراً لما قتل، قال عليّ لربيعة وهمدان: أنتم درعي ورمحي، فانتدب له نحو من اثني عشر ألفاً، وتقدمهم عليّ ببغلته، فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه، حتى بلغوا معاوية وعلي يقاتل ويقول:

اضربُهمْ ولا أرى معاويه　　　الجاحظَ العينِ عظيمَ الحاويه

قال: ثم دعا عليّ معاوية إلى أن يبارزه، فأشار عليه بالخروج إليه عمرو بن العاص، فقال له معاوية: إنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، ولكنك طمعت فيها بعدي، ثم قَدَّمَ عليٌّ ابنه محمداً في عصابة كثيرة من الناس، فقاتلوه قتالاً شديداً، ثم تبعه عليّ في عصابة أخرى، فحمل بهم فقتل في هذا الموطن خلق كثير من الفريقين، لا يعلمهم إلا الله، وقتل من العراقيين خلق كثير أيضاً، وطارت أكف ومعاصم، ورؤس عن كواهلها، رحمهم الله.

ثم حانت صلاة المغرب، فما صلى بالناس إلا إيماء صلاتي العشاء، واستمر القتال في هذه الليلة كلها، وهي من أعظم الليالي شراً بين المسلمين، وتسمى هذه الليلة: «ليلة الهرير»، وكانت ليلة الجمعة، تقصفت الرماح، ونفدت النبال، وصار الناس إلى السيوف، وعلي رضي الله عنه يحرض القبائل، ويتقدم إليهم يأمر بالصبر والثبات، وهو أمام الناس في قلب الجيش، وعلى الميمنة الأشتر، تولاها بعد قتل عبد الله بن بديل، عشية الخميس ليلة الجمعة، وعلى الميسرة ابن عباس، والناس

يقتتلون من كل جانب، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك، وصلى الناس الصبح إيماء وهم في القتال، حتى تضاحى النهار، وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام، وذلك أن الأشتر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة، فحمل بمن فيها على أهل الشام وتبعه عليّ، فتنقضت غالب صفوفهم وكادوا ينهزمون، فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح: وقالوا: هذا بيننا وبينكم، قد فني الناس فمن للثغور؟ ومن لجهاد المشركين والكفار؟.



رفع أهل الشام المصاحف

ذكر ابن جرير وغيره من أهل التاريخ: أن الذي أشار برفع المصاحف هو: عمرو بن العاص، وذلك لما رأى، أن أهل العراق قد استظهروا في ذلك الموقف، أحب أن ينفصل الحال، وأن يتأخر الأمر، فإن كلاً من الفريقين صابر للآخر، والناس يتفانون، فقال: لمعاوية: إني قد رأيت أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة، أرى أن نرفع المصاحف وندعوهم إليها، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك، برد القتال، وإن اختلفوا فيما بينهم، فمن قائل: نجيبهم، وقائل: لا نجيبهم، فشلوا وذهب ريحهم.

وروى الإمام أحمد عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل في مسجد أهله، أسأله عن هؤلاء القوم، الذين قتلهم عليّ بالنهرَوان، فيما استجابوا له؟ وفيما فارقوه؟ وفيما استحل قتالهم؟ فقال: كنا بصفين، فلما استحَرَّ القتال بأهل الشام، اعتصموا بتل، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى عليّ بمصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لن يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] فقال علي: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله، قال: فجاءته الخوارج، ونحن ندعوهم يومئذ: القراء، وسيوفهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما ينتظر هؤلاء القوم الذين على التل؟ ألا نمشي إليهم بسيوفنا، حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فتكلم سهل بن حنيف فقال: يا أيها الناس اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني: الصلح الذي كان بين رسول الله وبين المشركين - ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ وذكر تمام الحديث كما تقدم في موضعه[2].

---

(١) الآية «٢٣» من سورة «آل عمران».

(٢) تقدم هذا في «صلح الحديبية» في «المغازي النبوية» بالجزء الثالث.

فلما رفعت المصاحف، قال أهل العراق: نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه، ورغب أكثر الناس من العراقيين، وأهلُ الشام بكمالهم، إلى المصالحة والمسالمة مدة، لعله يتفق أمر يكون فيه حقن لدماء المسلمين، فإن الناس تفانوا في هذه المدة، ولا سيما في هذه الثلاثة الأيام المتأخرة، التي آخر أمرها ليلة الجمعة وهي: «ليلة الهرير»، كل من الجيشين فيه من الشجاعة والصبر، ما ليس يوجد في الدنيا مثله، ولهذا لم يفر أحد عن أحد، بل صبروا حتى قتل من الفريقين فيما ذكره غير واحد سبعون ألفاً، خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق، قاله غير واحد، منهم ابن سيرين وسيف وغيره.

وقد روى البيهقي، من طريق يعقوب بن سفيان، عن أبي اليمان، عن صفوان بن عمرو: كان أهل الشام ستين ألفاً، فقتل منهم عشرون ألفاً، وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً، فقتل منهم أربعون ألفاً، وحمل البيهقي هذه الوقعة، على الحديث الذي أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة، حتى تقتتل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مَقْتَلَةٌ عظيمة، ودعواهما واحدة».

وقد ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال[1]: «سألت ربي أن لا يهلك أمتي بسَنَة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من سواهم فيستبيح بيضتهم فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط بعضهم على بعض فمنعنيها»، ذكرنا ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[2] قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون»[3].



(١) الحديث: رواه مسلم وأحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) من الآية «٦٥» من سورة «الأنعام».

(٣) قوله ﷺ «هذا أهون» أي: إلباس الناس شيعاً وإذاقة بعضهم بأس بعضهم، وهذا آخر حديث رواه البخاري، وقد ذكرناه بتمامه في تفسير الآية «٦٥» من سورة «الأنعام» بالجزء الثاني من كتابنا: «فتح القدير، تهذيب تفسير ابن كثير».

قصة التحكيم

ثم تراوض الفريقان، بعد مكاتبات ومراجعات يطول ذكرها، على التحكيم، وهو: أن يحكِّم كل واحد من الأميرين: علي ومعاوية، رجلاً من جهته، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة للمسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص، وأراد عليّ أن يوكل عبد الله بن عباس ـ وليته فعل ـ ولكنه منعه القراء ممن ذكرنا وقالوا: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري.

وذكر الهيثم بن عدي في «كتاب الخوارج» له، أن أول من أشار بأبي موسى الأشعري، الأشعث بن قيس، وتابعه أهل اليمن، ووصفوه أنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال، وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز، فقال علي: فإني أجعل الأشتر حكماً، فقالوا: وهل سعر الحرب، وشعر الأرض، إلا الأشتر؟ قال: فاصنعوا ما شئتم، فقال الأحنف لعلي: والله لقد رُميت بحجر، إنه لا يصلح هؤلاء القوم إلا رجل منهم، يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ويبتعد حتى يصير بمنزلة النجم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً، فاجعلني ثانياً وثالثاً، فإنه لن يعقد عقدة إلا أَحُلُّها، ولا يَحُلُّ عقدة عقدتها، إلا عقدت لك أخرى مثلها أو أحكم منها، قال: فأبوا إلا أبا موسى الأشعري، فذهبت الرسل إلى أبي موسى الأشعري ـ وكان قد اعتزل ـ فلما قيل له: إن الناس قد اصطلحوا، قال: الحمد لله، قيل له: وقد جعلت حكماً، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أخذوه حتى أحضروه إلى علي رضي الله عنه، وكتبوا بينهم كتاباً هذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وليس بأميرنا، فقال الأحنف: لا تكتب إلا أمير المؤمنين، فقال علي: أمح أمير المؤمنين، واكتب: هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب، ثم استشهد علي بقصة الحديبية، حين امتنع أهل مكة: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فامتنع المشركون من ذلك وقالوا: اكتب، هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فكتب الكاتب: هذا ما

تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل العراق، ومن معهم من شيعتهم والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله وكتابه، ونحيي ما أحيى الله، ونميت ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله ـ وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ـ، عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله، فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة».

ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين، العهود والمواثيق، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه، أنهما على ما في هذه الصحيفة، وأَجَّلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك على تراض منهما، وكتب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين، بدومة الجندل في رمضان، ومع كل واحد من الحكمين أربعمائة من أصحابه، فإن لم يجتمعا لذلك، اجتمعا من العام المقبل بأذرح.

وقد ذكر الهيثم في كتابه في «الخوارج»: أن الأشعث بن قيس، لما ذهب إلى معاوية بالكتاب وفيه: «هذا ما قاضى عبد الله علي أمير المؤمنين، معاوية بن أبي سفيان» قال معاوية: لو كان أمير المؤمنين لم أقاتله، ولكن ليكتب اسمه، وليبدأ به قبل اسمي لفضله وسابقته، فرجع إلى عليّ فكتب كما قال معاوية.

وذكر الهيثم: أن أهل الشام، أبوا أن يبدأ باسم عليّ قبل معاوية، وباسم أهل العراق قبلهم، حتى كُتب كتابان كتاب لهؤلاء فيه تقديم معاوية على عليّ، وكتاب آخر لأهل العراق، بتقديم اسم علي وأهل العراق، على معاوية وأهل الشام، وهذه تسمية من شهد على هذا التحكيم من جيش علي: [عبد الله بن عباس، والأشعث ابن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهَمْدَاني، وعبد الله بن الطفيل المعافري، وحُجْر بن يزيد الكندي، وورقاء بن سمي العجلي، وعبد الله بن بلال العجلي، وعقبة بن زياد الأنصاري، ويزيد بن جحفة التميمي، ومالك بن كعب الهَمْدَاني]، فهؤلاء عشرة.

وأما من الشاميين فعشرة آخرون، وهم: [أبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومخارق بن الحارث الزبيدي، ووائل بن علقمة العدوي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، وحمزة بن مالك الهمداني، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعتبة بن أبي سفيان أخو معاوية، ويزيد بن الحر العبسي].

وخرج الأشعث بن قيس بذلك الكتاب، يقرؤه على الناس ويعرضه على الطائفتين، وظهرت فتنة الخوارج كما سيأتي.

ثم شرع الناس في دفن قتلاهم، قال الزهري: بلغني أنه دفن في كل قبر خمسون نفساً، وكان علي قد أسر جماعة من أهل الشام، فلما أراد الانصراف أطلقهم، وكان مثلهم أو قريب منهم في يد معاوية، وكان قد عزم على قتلهم، لظنه أنه قد قتل أسراهم، فلما جاءه أولئك الذين أطلقهم، أطلق معاوية الذين في يده، ويقال: إن رجلاً يقال له: عمرو بن أوس ـ من الأزد ـ كان من الأسارى، فأراد معاوية قتله، فقال: امنن عليّ فإنك خالي، فقال: ويحك! من أين أنا خالك؟ فقال: إن أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ وهي أم المؤمنين، وأنا ابنها، وأنت أخوها، وأنت خالي، فأعجب ذلك معاوية وأطلقه.

وقال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ـ وذكر أهل صفين ـ فقال: كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية، فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام، فتصابروا واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا، دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم، قال الشعبي: هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضاً، فلم يفر أحد من أحد[1].



(١) ونقول: ونحن علينا إحسان الظن بجميع أصحاب رسول الله ﷺ، وإعذارهم فيما جرى بينهم، وأن ندعو لهم ولا نذكرهم إلا بخير عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية العاشرة من سورة الحشر].

اجتماع الحكَمين أبي موسى وعمرو بن العاص بدُومَةَ الجَنْدَل

وذلك في شهر رمضان كما تشارطوا عليه وقت التحكيم بصفين، وقال الواقدي: اجتمعوا في شعبان، وذلك أن علياً رضي الله عنه، لما كان مجيء رمضان، بعث أربعمائة فارس مع شريح بن هانيء، ومعهم أبو موسى، وعبد الله بن عباس وإليه الصلاة، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة فارس من أهل الشام، فتوافوا بدُومَة الجندل بأذرح ـ وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام، وبينهما وبين كل من البلدين تسع مراحل ـ وشهد معهم جماعة من رؤس الناس، كعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهري، وأبي جهم بن حذيفة.

وزعم بعض الناس: أن سعد بن أبي وقاص شهدهم أيضاً، وأنكر حضوره آخرون، وقد ذكر ابن جرير: أن عمر بن سعد خرج إلى أبيه وهو على ماء لبني سليم بالبادية معتزل، فقال: يا أبة، قد بلغك ما كان من الناس بصفين، وقد حكم الناس أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وقد شهدهم نفر من قريش، فاشهدهم، فإنك صاحب رسول الله ﷺ وأحد أصحاب الشورى، ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة، فاحضر إنك أحق الناس بالخلافة، فقال: لا أفعل، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون فتنة، خير الناس فيها الخفيُّ البقيُّ»، والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً، وروى الإمام أحمد عن عمار بن سعد: أن أخاه عمر انطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبة، أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك، والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ»، وهكذا رواه مسلم في صحيحه.

وروى أحمد أيضاً عن عمر بن سعد عن أبيه: أنه جاءه ابنه عامر فقال: يا أبة، الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ههنا؟ فقال: يا بني، أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً؟ لا والله، حتى أعطى سيفاً، إن ضربتُ به مؤمناً نبا عنه، وإن ضربتُ به كافراً قتلته، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب الغنيَّ الخفيَّ التقيَّ» وهذا السياق كان عكس الأول، والظاهر أن عمر بن سعد، استعان بأخيه عامر على أبيه، ليشير عليه أن يحضر أمر التحكيم، لعلهم يعدلون عن معاوية وعلي ويولونه، فامتنع سعد من ذلك، وأباه أشد الأباء، وقنع بما هو فيه من الكفاية والخفاء، كما ثبت في صحيح مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافاً، وقَنَّعَهُ الله بما آتاه»، وكان عمر بن سعد هذا يحب الإمارة، فلم يزل ذلك دأبه، حتى كان هو أمير السرية التي قتلت الحسين بن علي رضي الله عنه، كما سيأتي بيانه في موضعه[1]، ولو قنع بما كان أبوه عليه لم يكن شيء من ذلك.

والمقصود: أن سعداً لم يحضر أمر التحكيم، ولا أراد ذلك، ولا هَمَّ به، وإنما حضره من ذكرنا.

فلما اجتمع الحكمان، تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية، ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس، ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما، وقد أشار أبوموسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال له عمرو: فول ابني عبد الله، فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد، فقال له أبو موسى: إنك قد غمست ابنك في الفتن معك، وهو مع ذلك رجل صدق.

قال أبو مِخْنَف: فحدثني محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال عمرو بن العاص: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضِرْس[2]، يأكل ويطعم، وكانت في ابن عمر غفلة، فقال له ابن الزبير: افْطِنْ فانتبه[3]، فقال ابن عمر: لا والله، لا أرشو عليها شيئاً أبداً، ثم قال: يا ابن العاص، إن العرب قد أسندت إليك أمرها، بعد ما تقارعت بالسيوف، وتشاكت بالرماح، فلا تَرُدَّنهم في فتنة.

---

(١) سيأتي بيانه في «تاريخ الدولة الأموية» بالجزء الخامس بعونه تعالى.

(٢) «له ضرس» أي: مجرب محنك.

(٣) أي: أَغْرِ عمراً بشيء ليقبل بتوليتك، فرفض ابن عمر ذلك.

ثم إن عمرو بن العاص، حاول أبا موسى على أن يقر معاوية وحده على الناس فأبى عليه، ثم حاوله ليكون ابنه عبد الله بن عمرو هو الخليفة، فأبى أيضاً، وطلب أبو موسى من عمرو، أن يوليا عبد الله بن عمر فامتنع عمرو أيضاً، ثم اصطلحا على أن يخلعا معاوية وعلياً، ويتركا الأمر شورى بين الناس، ليتفقوا على من يختارونه لأنفسهم، ثم جاءا إلى المجمع الذي فيه الناس، وكان عمرو لا يتقدم بين يدي أبي موسى، بل يقدمه في كل الأمور أدباً وإجلالاً، فقال له: يا أبا موسى، قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه، فخطب أبو موسى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألم لشعثها، من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع علياً ومعاوية، ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر، فيولوا عليهم من أحبوه، وإني قد خلعت علياً ومعاوية، ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وإنه خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه وليُّ عثمان بن عفان، والطالب بدمه، وهو أحق الناس بمقامه، وكان عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه، يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة، أربى مما الناس فيه من الاختلاف، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهاد يخطىء ويصيب، ويقال: إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة، ورد عليه عمرو بن العاص مثله.

وذكر ابن جرير: أن شريح بن هانىء ـ مقدَّم جيش علي ـ وثب على عمرو بن العاص فضربه بالسوط، وقام إليه ابن لعمرو فضربه بالسوط، وتفرق الناس في كل وجه إلى بلادهم، فأما عمرو وأصحابه، فدخلوا على معاوية، فسلموا عليه بتحية الخلافة، وأما أبو موسى فاستحيى من علي، فذهب إلى مكة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانىء إلى عليّ، فأخبراه بما فعل أبو موسى وعمرو، فاستضعفوا رأي أبي موسى، وعرفوا أنه لا يوازن عمرو بن العاص.



الفصل الخامس

فِتْنَةُ الخوارج

* بَدْءُ ظهور الخوارج.
* خروج الخوارج من الكوفة ومناوأتهم علياً رضي الله عنه.
* مسير أمير المؤمنين عليٍّ إلى الخوارج ومناجزتهم.
* خطبة بليغة لأمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه.
* ذِكْرُ آخَرين خَرَجُوا على أمير المؤمنين عليّ.
* ذِكْرُ بعض ما ورد في الخوارج من الأحاديث.



بدء ظهور الخوارج

بعد اتفاق علي ومعاوية على التحكيم على نحو ما تقدم، تفرق الناس إلى بلادهم من صفين، وخرج معاوية إلى دمشق بأصحابه، ورجع علي إلى الكوفة على طريق هِيت، فلما دخل الكوفة سمع رجلاً يقول: ذهب عليّ ورجع في غير شيء، فقال علي: لَلَّذين فارقناهم خير من هؤلاء، وأنشأ يقول:

أخوكَ الذي إنْ أحْرَجَتْكَ مُلِمَّةٌ   مِنَ الدهرِ لم يبرحْ لبثِّكَ راحماً
وليسَ أخوكَ بالذي إنْ تَشَعَّبتْ   عليكَ أمورٌ ظلَّ يَلْحَاكَ لائماً

ثم مضى فجعل يذكر الله حتى دخل قصر الإمارة من الكوفة، ولما كان قد قارب دخول الكوفة، اعتزل من جيشه قريب من اثني عشر ألفاً، وهم الخوارج، وأبوا أن يساكنوه في بلده، ونزلوا بمكان يقال له: «حَرُوراء» وانكروا عليه أشياء فيما يزعمون أنه ارتكبها، فبعث إليهم علي رضي الله عنه عبد الله بن عباس، فناظرهم فرجع أكثرهم وبقي بقيتهم، فقاتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه كما سيأتي بيانه وتفصيله قريباً إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن هؤلاء الخوارج، هم المشار إليهم في الحديث المتفق على صحته، أن رسول الله ﷺ قال: «تمرق مارقة على حين فرقة من الناس - وفي رواية: من المسلمين، وفي رواية: من أمتي - فيقتلها أَوْلى الطائفتين»، وهذا الحديث له طرق متعددة وألفاظ كثيرة.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق». ورواه مسلم.

وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «تكون أمتي فرقتين، تخرج بينهما مارقة، تلي قتلها أَوْلاهما» ورواه مسلم.

فهذا الحديث من دلائل النبوة، إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطَّغام، من تكفيرهم أهل الشام.

وفيه: أن أصحاب عليّ أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن علياً هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهداً، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علي هو الإمام، فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عياض بن عمرو القارىء قال: جاء عبد الله بن شداد، فدخل على عائشة ونحن عندها، مرجعه من العراق، ليالي قبل عليّ، فقالت له: يا عبد الله بن شداد، هل أنت صادقي عما أسألك عنه؟ فحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليّ، فقال: ومالي لا أصدقك؟ قالت: فحدثني عن قصتهم، قال: فإن علياً لما كاتب معاوية، وحَكَّم الحكمين، خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس، فنزلوا بأرض يقال لها: «حَرُوراء» من جانب الكوفة، وأنهم عتبوا عليه فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله، واسم سماك به الله، ثم انطلقت فحكَّمت في دين الله، ولا حكم إلا لله، فلما أن بلغ علياً ما عتبوا عليه وفارقوه عليه، أمر فأذن مؤذن أن لا يدخل على أمير المؤمنين رجل، إلا رجلاً قد حمل القرآن، فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس، دعا بمصحف إمام عظيم فوضعه بين يديه، فجعل يصكُّه بيده ويقول: أيها المصحف، حَدِّث الناس، فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه، إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه في إمرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[1]. فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من إمرأة ورجل، ونقموا عَليَّ أن كاتبت معاوية كتبتُ «علي بن أبي طالب»، وقد جاءنا سهيل بن عمرو، ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً، فكتب رسول الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا أكتبُ بسم الله الرحمن الرحيم، قال: «كيف تكتب؟» قال: أكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب»، فكتب، فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك، فكتب: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشاً»، يقول الله تعالى في كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[2] فبعث إليهم عبد الله بن عباس،

---

(١) الآية «٣٥» من سورة «النساء».

(٢) الآية «٢١» من سورة «الأحزاب».

فخرجت معه حتى إذا توسطت عسكرهم، فقام ابن الكوا فخطب الناس فقال: يا حملة القرآن، هذا عبد الله بن عباس، فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه، ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه، هذا ممن نزل فيه وفي قومه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1] فرُدُّوه إلى صاحبه ولا تُواضعوه كتاب الله، فقال بعضهم: والله لنواضعنه فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنه، وإن جاء بباطل لنكبتنه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكوا، حتى أدخلهم على عليّ الكوفة، فبعث عليّ إلى بقيتهم فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم، حتى تجتمع أمة محمد ﷺ، بيننا وبينكم، أن لا تسفكوا دماً حراماً، أو تقطعوا سبيلاً، أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم، فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[2] فقالت له عائشة: يا ابن شداد، فقتلهم؟ فقال: والله ما بعث إليهم، حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدماء، واستحلوا أهل الذمة، فقالت: آلله، قال: آلله الذي لا إله إلا هو، قد كان ذلك، قالت: فما شيء بلغني عن أهل العراق، يقولون: ذو الثدي وذو الثدية؟ قال: قد رأيته، وكنت مع علي في القتلى، فدعا الناس فقال: أتعرفون هذا؟ فما أكثر من جاء يقول: قد رأيته في مسجد بني فلان، ورأيته في مسجد بني فلان يصلي، ولم يأتوا فيه بثبت يعرف إلا ذلك؛ قالت: فما قول عليّ حيث قام عليه كما يزعم أهل العراق؟ قال: سمعته يقول: صدق الله ورسوله، قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك؟ قال: اللهم لا، قالت: أجل، صدق الله ورسوله، يرحم الله علياً، إنه كان لا يرى شيئاً يعجبه، إلا قال: صدق الله ورسوله، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه ويزيدون عليه في الحديث. تفرد به أحمد وإسناده صحيح، واختاره الضياء.

ففي هذا السياق ما يقتضي أن عدتهم كانوا ثمانية آلاف، لكن من القراء، وقد يكون واطأهم على مذهبهم آخرون من غيرهم، حتى بلغوا اثني عشر ألفاً، أو ستة عشر ألفاً، ولما ناظرهم ابن عباس، رجع منهم أربعة آلاف، وبقي بقيتهم على ما هم عليه، وقد رواه يعقوب بن سفيان عن ابن عباس فذكر القصة، وأنهم عتبوا عليه في كونه حكم الرجال، وأنه محى اسمه من الإمرة، وأنه غزا يوم الجمل، فقتل الأنفس الحرام، ولم يقسم الأموال والسبي، فأجاب عن الأولين بما تقدم[3]، وعن

---

(١) ختام الآية «٥٨» من سورة «الزخرف».

(٢) ختام الآية «٥٨» من سورة «الأنفال».

(٣) تقدم جواب علي رضي الله عنه عن التحكيم ومحي اسمه من الإمارة في حديث الإمام أحمد قبل هذا.

الثالث بما قال: «قد كان السبي أم المؤمنين، فإن قلتم: ليست لكم بأم فقد كفرتم، وإن استحللتم سبي أمهاتكم فقد كفرتم»، قال: فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فتقاتلوا.

وذكر ابن جرير: أن علياً خرج بنفسه إلى بقيتهم، فلم يزل يناظرهم حتى رجعوا إلى الكوفة، وذلك يوم عيد الفطر أو الأضحى، شك الراوي في ذلك، ثم جعلوا يعرضون له في الكلام ويسمعونه شتماً ويتأولون بتأويل في قوله.

وذكر ابن جرير: أن علياً بينما هو يخطب يوماً، إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا عليّ، أشركت في دين الله الرجال، ولا حكم إلا لله، فتنادوا من كل جانب: لا حكم إلا لله، لا حكم إلا لله، فجعل عليّ يقول: هذه كلمة حق يراد بها باطل، ثم قال: «إن لكم علينا، أن لا نمنعكم فيئاً ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنعكم مساجد الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤنا»، ثم إنهم خرجوا بالكلية عن الكوفة، وتحيزوا إلى النَّهْرَوان.



خروج الخوارج من الكوفة ومناوأتهم علياً

لما بعث عليٌّ أبا موسى ومن معه من الجيش، إلى دُومة الجَنْدل للتحكيم كما تقدم، اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على عليّ وصرحوا بكفره، فجاء إليه رجلان منهم، وهما: زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي فقالا: لا حكم إلا لله، فقال علي: لا حكم إلا لله، فقال له: حرقوص: تب من خطيئتك، واذهب بنا إلى عدونا، حتى نقاتلهم حتى نلقى ربنا، فقال علي: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[1] فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه، فقال له زرعة ابن البرج: أما والله يا علي، لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله، لأقاتلنك أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه، فقال علي: تَبّاً لك ما أشقاك، كأني بك قتيلاً تَسْفي عليك الريح، فقال: وددت أن قد كان ذلك، فقال له علي: إنك لو كنت محقاً كان في الموت تعزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواكم.

فخرجا من عنده يُحَكِّمان[2]، وفشى فيهم ذلك، وجاهروا به الناس، وتعرضوا لعلي في خطبه، وأسمعوه السب والشتم، والتعريض بآيات من القرآن، وذلك أن علياً قام خطيباً في بعض الجمع، فذكر أمر الخوارج فذمه وعابه، فقام جماعة منهم، كلٌّ يقول: لا حكم إلا لله، وقام رجل منهم وهو واضع إصبعه في أذنيه يقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3] فجعل عليّ يقلب يديه هكذا وهكذا وهو على المنبر ويقول: «حكم الله ننتظر فيكم»، ثم قال: «إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا، ما لم تخرجوا علينا، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا».

---

(١) الآية «٩١» من سورة «النحل».

(٢) أي: يتكلمان في أمر التحكيم، ويثيران الفتنة به.

(٣) الآية «٦٥» من سورة «الزمر».

وقال أبو مِخْنف عن عبد الملك عن أبي حُرّة: أن علياً لما بعث أبا موسى لأنفاذ الحكومة، اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، فخطبهم خطبة بليغة، زهدهم في هذه الدنيا، ورغبهم في الآخرة والجنة، وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: فاخرجوا بنا وإخوانَنَا من هذه القرية الظالم أهلها، إلى بعض كُوَرِ الجبال، أو بعض هذه المدائن، منكرين لهذه الأحكام الجائرة، ثم قام حرقوص بن زهير فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تَدْعُوَنَّكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾(١) فقال سنان بن حمزة الأسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم، وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لا بد لكم من عماد وسناد، فبعثوا إلى زيد بن حصن الطائي - وكان من رؤوسهم - فعرضوا عليه الإمارة فأبى، ثم عرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعرضوها على حمزة بن سنان فأبى، وعرضوها على شريح بن أبي أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقبلها وقال: أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا، ولا أدعها فرقاً من الموت.

واجتمعوا أيضاً في بيت زيد بن حصن الطائي السِّنْبِسِي، فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلا عليهم آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٤) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٥) ثم قال: فأَشْهَدُ على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا، أنهم قد اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا في القول والأعمال، وأن جهادهم حق على المؤمنين، فبكى رجل منهم يقال له: عبد الله بن سَخْبَرَة السلمي، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس، وقال في كلامه: اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف، حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم، أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن قتلتم فأي شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته؟.

---

(١) الآية «١٢٨» من سورة «النحل».

(٢) الآية «٢٦» من سورة «ص».

(٣) ختام الآية «٤٤» من سورة «المائدة».

(٤) ختام الآية «٤٥» من سورة «المائدة».

(٥) ختام الآية «٤٧» من سورة «المائدة».

قلت: وهذا الضرب من الناس، من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوع خلقه كما أراد، وسبق في قَدَره العظيم.

وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج: إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾[1].

والمقصود: أن هؤلاء الجهلة الضلال، والأشقياء في الأقوال والأفعال، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطئوا على المسير إلى المدائن، ليملكوها على الناس، ويتحصنوا بها، ويبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم، ممن هو على رأيهم ومذهبهم، من أهل البصرة وغيرها، فيوافوهم إليها، ويكون إجتماعهم عليها، فقال لهم زيد بن حصن الطائي: إن المدائن لا تقدرون عليها، فإن بها جيشاً لا تطيقونه، وسيمنعونها منكم، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جُوخَى، ولا تخرجوا من الكوفة جماعات، ولكن اخرجوا وحدانا لئلا يفطن بكم، فكتبوا كتاباً عاماً إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم، من أهل البصرة وغيرها، وبعثوا به إليهم ليوافوهم إلى النهر، ليكونوا يداً واحدة على الناس، ثم خرجوا يتسللون وحدانا، لئلا يعلم أحد بهم فيمنعوهم من الخروج، فخرجوا من بين الآباء والأمهات، والأخوال والخالات، وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسموات، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر الموبقات، والعظائم والخطيئات، وأنه مما زينه لهم إبليس الشيطان الرجيم، المطرود عن السموات، الذي نصب العداوة لأبينا آدم، ثم لذريته ما دامت أرواحهم في أجسادهم مترددات، والله المسئول أن يعصمنا منه بحوله وقوته، إنه مجيب الدعوات.

وقد تدارك جماعة من الناس بعض أولادهم وإخوانهم، فردوهم وأنبوهم ووبخوهم، فمنهم من استمر على الاستقامة، ومنهم من فر بعد ذلك، فلحق بالخوارج فخسر إلى يوم القيامة، وذهب الباقون إلى ذلك الموضع، ووافى إليهم من كانوا كتبوا إلبه من أهل البصرة وغيرها، واجتمع الجميع بالنَّهْرَوان، وصارت لهم شوكة ومنعة، وهم جند مستقلون، وفيهم شجاعة، وعندهم أنهم متقربون بذلك، فهم لا يصطَلَى لهم بنار، ولا يطمع في أن يؤخذ منهم بثأر، وبالله المستعان.

---

(١) الآيات «١٠٣ ـ ١٠٥» من سورة «الكهف».

وقال أبو مِخْنَف عن أبي روق عن الشعبي: أن علياً لما خرجت الخوارج إلى النهروان، وهرب أبو موسى إلى مكة، ورَدَّ ابن عباس إلى البصرة، قام في الناس بالكوفة خطيباً فقال: «الحمد لله، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدثان الجليل الكادح، وأشهد أن لا إله غيره، وأن محمداً رسول الله، أما بعد: فإن المعصية تشين وتسوء، وتورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين، وفي هذه الحكومة بأمري، ونحلتكم رأيي، فأبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

بذلتُ لهم نصحي بمنعرجِ الُلوى   فلم يستبينوا الرشدَ إلاّ ضُحَى الغَدِ

ثم تكلم فيما فعله الحكمان، فرد عليهما ما حكما به وأنبهما، وقال ما فيه حط عليهما، ثم ندب الناس إلى الخروج إلى الجهاد في أهل الشام، وعين لهم يوم الإثنين يخرجون فيه، وكتب إلى ابن عباس وإلى البصرة، يستنفر له الناس إلى الخروج إلى أهل الشام، وكتب إلى الخوارج يعلمهم أن الذي حكم به الحكمان مردود عليهما، وأنه قد عزم على الذهاب إلى الشام، فهلموا حتى نجتمع على قتالهم، فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك، وإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[1]، فلما قرأ عليّ كتابهم، يئس منهم، وعزم على الذهاب إلى الشام ليناجزهم، وخرج من الكوفة إلى النخيلة، في عسكر كثيف ـ خمسة وستين ألفاً ـ وبعث إليه ابن عباس بثلاثة آلاف ومائتي فارس من أهل البصرة، مع جارية بن قدامة ألف وخمسمائة، ومع أبي الأسود الدؤلي ألف وسبعمائة، فكمُلَ جيش عليٍّ في ثمانية وستين ألف فارس ومائتي فارس.

وقام علي أمير المؤمنين خطيباً، فحثهم على الجهاد والصبر عند لقاء العدو، وهو عازم على الشام، فبينما هو كذلك، إذ بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً وسفكوا الدماء، وقطعوا السبل، واستحلوا المحارم، وكان من جملة من قتلوه: عبد الله بن خَبَّاب، صاحب رسول الله ﷺ، أسروه وامرأته معه وهي حامل فقالوا: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خَبَّابِ صاحبِ[2] رسول الله ﷺ، وإنكم قد روعتموني فقالوا: لا بأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك فقال: سمعت أبي

---

(١) ختام الآية «٥٨» من سورة «الأنفال».

(٢) صاحب رسول الله ﷺ هو: والد عبد الله: «خَبّاب بن الأَرَتّ» رضي الله عنه.

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» فاقتادوه بيده، فبينما هو يسير معهم، إذ لقي بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة، فضربه بعضهم فشق جلده فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمي؟ فذهب إلى ذلك الذمي، فاستحله وأرضاه، وبينا هو معهم، إذ سقطت تمرة من نخلة، فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذن ولا ثمن؟ فألقاها ذاك من فمه، ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه، وجاؤا إلى امرأته فقالت: إني امرأة حبلى، ألا تتقون الله؟، فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها، فلما بلغ الناس هذا من صنيعهم، خافوا إن هم ذهبوا إلى الشام واشتغلوا بقتال أهله، أن يخلفهم هؤلاء في ذراريهم وديارهم، بهذا الصنع، فخافوا غائلتهم، وأشاروا على عليّ بأن يبدأ بهؤلاء، ثم إذا فرغ منهم، ذهب إلى أهل الشام بعد ذلك، والناس آمنون من شر هؤلاء، فاجتمع الرأي على هذا، وفيه خيرة عظيمة لهم ولأهل الشام أيضاً.

فأرسل علي إلى الخوارج رسولاً من جهته، وهو الحرب بن مرة العبدي، فقال: اخْبُرْ لي خبرهم، واعلم لي أمرهم، واكتب إليَّ به على الجلية، فلما قدم عليهم قتلوه ولم ينظروه، فلما بلغ ذلك علياً، عزم على الذهاب إليهم أولاً قبل أهل الشام.



مسير أمير المؤمنين عليّ إلى الخوارج ومناجزتهم

لما عزم عليّ ومن معه من الجيش، على البداءة بالخوارج، نادى مناديه في الناس بالرحيل، فعبر الجسر، فصلى ركعتين عنده، ثم سلك على دير عبد الرحمن، ثم دير أبي موسى، ثم على شاطىء الفرات، فلقيه هنالك مُنَجِّم، فأشارعليه بوقت من النهار يسير فيه، ولا يسير في غيره، فإنه يخشى عليه، فخالفه عليّ فسار على خلاف ما قال، فأظفره الله، وقال علي: إنما أردت أن أبين للناس خطأه، وخشيت أن يقول جاهل: إنما ظفر لكونه وافقه.

وسلك عليٌّ ناحية الأنبار، وبعث بين يديه قيس بن سعد، وأمره أن يأتي المدائن، وأن يتلقاه بنائبها سعد بن مسعود، وهو أخو عبد الله بن مسعود الثقفي، في جيش المدائن فاجتمع الناس هنالك على عليّ، وبعث إلى الخوارج: أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم، حتى أقتلهم ثم أنا تارككم وذاهب إلى العرب، يعني: أهل الشام، ثم لعل الله أن يقبل بقلوبكم، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه، فبعثوا إلى علي يقولون: كلنا قتل إخوانكم، ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم، فتقدم إليهم قيس بن سعد بن عبادة، فوعظهم فيما ارتكبوه من الأمر العظيم والخطب الجسيم، فلم ينفع، وكذلك أبو أيوب الأنصاري، أنبهم ووبخهم فلم ينجع، وتقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إليهم، فوعظهم وخوفهم وحذرهم، وأنذرهم وتوعدهم وقال: إنكم أنكرتم عليٌّ أمراً أنتم دعوتموني إليه، فنهيتكم عنه فلم تقبلوا، وها أنا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه، ولا ترتكبوا محارم الله فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة، لكان عظيماً عند الله، فكيف بدماء المسلمين؟ فلم يكن لهم جواب، إلا أن تنادوا فيما بينهم، أن لا تخاطبوهم ولا تكلموهم، وتهيؤا للقاء الرب عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة.

وتقدموا فاصطفوا للقتال، وتأهبوا للنزال، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصن الطائي السِّنْبِسِيّ، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان،

وعلى الرجالة حرقوص بن زهير السعدي، ووقفوا مقاتلين لعلي وأصحابه.

وجعل عليٌّ على ميمنته حُجُر بن عدي، وعلى الميسرة شَبَثَ بن ربعي، ومعقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة ـ وكانوا في سبعمائة ـ قيس بن سعد بن عبادة، وأَمَر عليٌّ أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم، إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم طوائف كثيرون ـ وكانو في أربعة آلاف ـ فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد الله بن وهب الراسبي، فزحفوا إلى عليٍّ فقدَّم عليٌّ بين يديه الخيل، وقدم منهم الرماة وصف الرجالة وراء الخيالة، وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤكم، وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة، وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلتهم الرماة بالنبل، فرموا وجوههم، وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقتل أمراؤهم: عبد الله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سخبرة السلمي، قبحهم الله.

قال أبو أيوب: وطعنت رجلاً من الخوارج بالرمح، فأنفذته من ظهره وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار، فقال: ستعلم أينا أولى بها صِلِيّاً.

قالوا: ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر، وجعل علي يمشي بين القتلى منهم ويقول: بؤساً لكم، لقد ضركم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ومن غرهم؟ قال: الشيطان وأنفس بالسوء أمارة، غرتهم بالأماني، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون، ثم أمر بالجرحى من بينهم فإذا هم أربعمائة، فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم، وقسم ما وجد من سلاح ومتاع لهم.

وقال الهيثم بن عدي في «كتاب الخوارج»: وحدثنا محمد بن قيس الأسدي، ومنصور بن دينار، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سبرة: أن علياً لم يخمس ما أصاب من الخوارج يوم النَّهْرَوان، ولكن رده إلى أهله كله، حتى كان آخر ذلك مرجل أتي به فرده.

قال أبو مِخْنَف: حدثني عبد الملك بن أبي حرة: أن علياً خرج في طلب «ذي

الثُّدَيَّة»[١] ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو حرة، والريان بن صبرة بن هوذة، فوجده الرياني في حفرة على جانب النهر، في أربعين أو خمسين قتيلاً، قال: فلما اسْتُخرج، نظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة، له حلمة عليها شعرات سواد، فإذا مُدَّتْ، امتدت حتى تحاذي يده الأخرى، ثم تنزل فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما رآه عليّ قال: أما والله ما كذبْتُ، لولا أن تتكلوا على العمل، لأخبرتكم بما قضى الله في قتالهم، عارفاً للحق.

وقال الهيثم بن عدي في كتابه في «الخوارج»:

وحدثني محمد بن ربيعة الأخنسي، عن نافع بن مسلمة الأخنسي قال: كان ذو الثُّدَيَّة رجلاً من عُرَنَة من بَجِيلة، وكان أسود شديد السواد، له ريح منتنة معروف في العسكر، وكان يرافقنا قبل ذلك، وينازلنا وننازله، وحدثني أبو إسماعيل الحنفي، عن الريان بن صبرة الحنفي، قال: شهدنا النهروان مع علي، فلما وَجَدَ المُخْدَجَ[٢]، سجد سجدة طويلة.

وحدثني سفيان الثوري، عن محمد بن قيس الهمداني، عن رجل من قومه يكنى أبا موسى: أن علياً لما وجد المُخْدَجَ، سجد سجدة طويلة.

وحدثني يونس بن أبي إسحاق، حدثني إسماعيل عن حبة العرني، قال: لما أقبل أهل النهروان، جعل الناس يقولون: الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي قطع دابرهم، فقال علي: كلاً والله، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، فإذا خرجوا من بين الشرايين، فقلَّ ما يلقون أحداً، إلا ألبوا أن يظهروا عليه.

وقال الهيثم بن عدي: ثنا إسماعيل عن خالد عن علقمة بن عامر قال: سئل عليّ عن أهل النهروان، أمشركون هم؟ فقال: من الشرك فروا، قيل: أفمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا، فقاتلناهم ببغيهم علينا.

فهذا ما أورده ابن جرير وغيره في هذا المقام.

---

(١) سيأتي بيان هذا الأمر في «ذكر ما ورد في الخوارج من الأحاديث»، في هذا الفصل بعونه تعالى.

(٢) «المخدج» هو: ذو الثدية الآتي ذكره في أحاديث الخوارج.

وذكر ابن جرير عن أبي مِخْنَفِ: لوط بن يحيى، وهو أحد أئمة هذا الشأن[1]: أن قتال علي للخوراج يوم النهروان، كان في سنة سبع وثلاثين، قال ابن جرير: وأكثر أهل السير على أن ذلك كان في سنة ثمان وثلاثين وصححه ابن جرير، قلت: وهو الأشبه كما سننبه عليه في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.



---

(١) ولكن ابن كثير يقول عنه في موضع آخر: إنه متهم فيما يرويه، ولا سيما في باب التشيع. وقد ذمه صاحب «القاموس المحيط»، ويروى عنه ابن جرير كثيراً من الأخبار.

خطبة بليغة لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه

قال الهيثم بن عدي في كتابه الذي جمعه: في الخوارج، وهو من أحسن ما صنف في ذلك قال: وذكر عيسى بن داب قال: لما انصرف علي رضي الله عنه من «النَّهْرَوان»، قام في الناس خطيباً، فقال بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله ﷺ:

أما بعد: فإن الله قد أعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام، فقاموا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين، نفدت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنتنا، فانصرفْ بنا إلى مصرنا، حتى نستعدَّ بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين، يزيد في عِدتنا عِدَّةَ مَنْ فارقنا وهلك منا، فإنه أقوى لنا على عدونا، وكان الذي تكلم بهذا الأشعث بن قيس الكندي، فتابعهم، وأقبل بالناس حتى نزل بالنخيلة، وأمرهم أن يلزموا معسكرهم، ويوطنوا أنفسهم على جهاد عدوهم، ويقلوا زيارة نسائهم وإمائهم، فأقاموا معه أياماً متمسكين برأيه وقوله، ثم تسللوا حتى لم يبق منهم أحد إلا رؤوس أصحابه، فقام علي فيهم خطيباً فقال:

«الحمد لله فاطر الخلق، وفالق الإصباح، وناشر الموتى، وباعث مَنْ في القبور، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأوصيكم بتقوى الله، فإن أفضل ما توسَّل به العبد، الإيمانُ والجهادُ في سبيله، وكلمةُ الإخلاص فإنها الفطرة، وإقامُ الصلاة فإنها الملة، وإيتاءُ الزكاة فإنها من فريضته، وصوم شهر رمضان فإنه جُنَّةٌ من عذابه، وحِجُّ البيت فإنه مَنْفَاة للفقر، مَدْحَضَةٌ للذنب، وصلة الرحم فإنها مَثْرَاةٌ في المال، مَنْسَأة في الأَجَل، محبةٌ في الأهل، وصدقَةُ السر فإنها تكفر الخطيئة، وتطفىء غضب الرب، وصُنْعُ المعروف فإنه يدفع مِيتَةَ السُّوء، ويقي مصارع الهَوْل، أَفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وُعِدَ المتقون، فإن وعد الله أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيكم ﷺ، فإنه أفضل الهدي، واستسنوا بسنته فإنها أفضل السُّنن، وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث، وتفقهوا في الدين فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص، وإذا قرىء عليكم

فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون، وإذا هُديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون، فإن العالم العامل بغير علمه، كالجاهل الجائر الذي لا يستقيم عن جهله، بل قد رأيت أن الحجة أعظم، والحسرةَ أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه، على هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما مُضَلَّل مَثْبور.

لا ترتابوا فَتَشُكُّوا، ولا تشُكُّوا فتكفروا، ولا تُرَخِّصُوا لأنفسكم فَتَذْهَلوا، ولا تَذْهَلوا في الحق فتخسروا، ألا وإن من الحزم أن تثقوا، ومن الثقة أن لا تغتروا، وإنَّ أَنْصَحَكم لنفسه، أطوعُكم لربه، وإن أَغَشَّكم لنفسه، أعصاكم لربه، مَنْ يطع الله يأمنْ ويستبشر، ومن يعص الله يَخَفْ ويندم، ثم سلوا الله اليقين، وارغبوا إليه في العافية، وخيرُ ما دام في القلب اليقين.

إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها، وكل مُحْدَثٍ بدعة، وكل مُحْدِثٍ مبتدع، ومن ابتدع فقد ضَيَّع، وما أحدث مُحْدِثٌ بدعَةً إلا ترك بها سُنَّةً، المغبون من غُبِنَ دينَهُ، والمغبون من خسر نفسه، وإن الرياء من الشرك، وإن الإخلاص من العمل والإيمان.

ومجالس اللهو تنسي القرآن ويحضرها الشيطان، وتدعو إلى كلِّ غَيٍّ، ومجالسة النساء تُزيغ القلوب، وتطمح إليه الأبصار، وهي مصائد الشيطان، فاصدقوا الله، فإن الله مع من صدق، وجانبوا الكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان، ألا إن الصدق على شَرَفٍ، منجاة وكرامة، وإن الكذب على شَرَفٍ، ردىء وهلكة.

ألا وقولوا الحق تُعْرَفُوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم، وصلوا أرحام مَنْ قطعكم، وعودوا بالفضل على من حرمكم، وإذا عاهدتم فأوفوا، وإذا حكمتم فاعدلوا، ولا تُفَاخروا بالآباء، ولا تَنَابَزُوا بالألقاب، ولا تمازحوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً.

وأعينوا الضعيف والمظلوم، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب، وارحموا الأرملة واليتيم.

وأفشوا السلام، وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]. وأكرموا الضيف، وأحسنوا إلى الجار، وعُودُوا المرضى، وشَيِّعوا الجنائز، وكونوا عباد الله إخواناً.

---

(١) الآية «الثانية» من سورة «المائدة».

أما بعد: فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أَظَلَّت وأشرفت باطِّلاع، وإن المضمار اليوم، وغداً السباق، وإن السُّبْقَةَ الجنة، والغاية النارُ، ألا وإنكم في أيام مَهْلٍ من ورائها أَجَلٌ يحثه عَجَلٌ، فمن أخلص لله عمله في أيام مهله قَبْلَ حضور أجله، فقد أحسن عمله ونال أمله، ومن قصر عن ذلك، فقد خسر عَمَلَهُ وخاب أَمَلُهُ، وضرَّه أمله، فاعملوا في الرغبة والرهبة، فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا الله، واجمعوا معها رهبة، وإن نزلت بكم رهبة، فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة، فإن الله قد تأذن المسلمين بالحسنى، ولمن شكر بالزيادة.

وإني لم أر مِثْلَ الجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ولا أكثر مُكْتَسَباً، من شيء كَسَبَهُ ليومٍ تُدَّخَرُ فيه الدخائر، وتُبلى فيه السرائر، وتَجتمع فيه الكبائر، وإنه مَنْ لا ينفعه الحقُّ، يضره الباطل، ومَنْ لا يستقيم به الهدى، يُجَرِّبه الضلال، ومن لا ينفعه اليقين، يضره الشك، ومن لا ينفعه حاضره، فعازبه عنه أعوز، وغائبه عنه أعجز، وإنكم قد أُمرتم بالظَّعْن، ودللتم على الزاد، ألا وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيبعد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد تَرَحَّلَت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة إن استطعتم، ولا تكونوا من بني الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».

وهذه خطبة بليغة، نافعة جامعة للخير، ناهية عن الشر، وقد روي لها شواهد من وجوه أخر متصلة ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر ابن جرير: أن علياً رضي الله عنه لما نكل أهل العراق عن الذهاب إلى الشام، خطبهم فوبخهم وأنبهم، وتوعدهم وهددهم، وتلا عليهم آيات في الجهاد من سور متفرقة، وحث على المسير إلى عدوهم، فأبوا من ذلك وخالفوه ولم يوافقوه، واستمروا في بلادهم، وتفرقوا عنه ههنا وههنا، فدخل عليٌّ الكوفة.



ذكر آخرين خرجوا على عليّ رضي الله عنه

ذكر الهيثم بن عدي: أنه خرج على عليّ بعد النهروان، رجل يقال له: الخِرِّيتُ بن[1] راشد الناجيُّ، قدم مع أهل البصرة، فقال لعلي: إنك قد قاتلت أهل النهروان، في كونهم أنكروا عليك قصة التحكيم، وتزعم أنك قد أعطيت أهل الشام عهودك ومواثيقك، وأنك لست بناقضها، وهذان الحكمان قد اتفقا على خلعك، ثم اختلفا في ولاية معاوية، فولاه عمرو، وامتنع أبو موسى من ذلك، فأنت مخلوع باتفاقهما، وأنا قد خلعتك وخلعت معاوية معك، وتبع الخِّريتَ هذا بَشَر كثير من قومه - بني ناجية وغيرهم - وتحيزوا ناحية، فبعث إليهم عليّ معقل بن قيس الرماحي، في جيش كثيف، فقتلهم معقل قتلاً ذريعاً وسبى من بني ناجية خمسمائة أهل بيت، فقدم بهم ليقدم بهم على علي، فتلقاه رجل يقال له: مصقلة بن هبيرة أو المغلس، وكان عاملاً لعلي على بعض الأقاليم، فتضرروا إليه، وشكوا ما هم فيه من السبي، فاشتراهم مصقلة من معقل بخمسمائة ألف درهم وأعتقهم، فطالبه بالثمن، فهرب منه إلى ابن عباس بالبصرة، فكتب معقل إلى ابن عباس، فقال له مصقلة: إني إنما جئت لأدفع ثمنهم إليك، ثم هرب منه إلى عليّ، فكتب ابن عباس ومعقل إلى عليّ، فطالبه عليّ، فدفع من الثمن مائتي ألف، ثم انشمر هارباً فلحق بمعاوية بن أبي سفيان بالشام، فأمضى عليّ عتقهم وقال: ما بقي من المال في ذمة مصقلة، وأمر بداره في الكوفة فهدمت.

وقد روى الهيثم، عن سفيان الثوري وإسرائيل، عن عمار الذهبي عن أبي الطفيل: أن بني ناجية ارتدوا، فبعث إليهم، معقل بن قيس فسباهم، فاشتراهم مصقلة من عليّ بثلثمائة ألف، فأعتقهم ثم هرب إلى معاوية، قال الهيثم: وهذا قول الشيعة، ولم يُسمع بحيٍّ من العرب ارتدوا بعد الردة التي كانت في أيام الصديق.

---

(١) «الخريت» بالخاء المعجمة مكسورة آخره تاء مثناة فوقية، هذا هو صوابه، وفي المطبوعة «الحرث» وهو تصحيف.

قال الهيثم: ثم خرج على عليّ رجل من أهل البصرة فقتل، فأَمَّر أصحابه عليهم الأشرس بن عوف الشيباني، فقتل هو وأصحابه، قال: ثم خرج على عليّ الأشهب بن بشر البجلي، ثم أحد عُرَينة من أهل الكوفة، فقتل هو وأصحابه، قال: ثم خرج على عليّ سعيد بن نغد التميمي، ثم من بني ثعلبة من أهل الكوفة، فقتل بقنطرة دبرجان فوق المدائن، قال الهيثم: أخبرني بذلك عبد الله بن عياش عن مشيخته.

وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن فُقَيْم، قصةَ خروج الخِرِّيت بن راشد الناجيِّ هذه بوجه آخر قال: كان مع الخِرِّيتِ ثلثمائة رجل من قومه بني ناجية، وكان مع علي بالكوفة، فجاء إلى عليّ فقام بين يديه وقال: والله يا علي لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك، إني لك غداً لمفارق، فقال له علي: ثكلتك أمك، إذاً تعصي ربك، وتنقض عهدك، ولا تضر إلا نفسك، ولم تفعل ذلك؟ قال: لأنك حَكَّمت في الكتاب، وضعفت عن قيام الحق إذ جد الجِدُّ، وركنت إلى القوم الظالمين، فأنا عليك زاري، وعليك ناقم، وإنا لكم جميعاً مباينون، ثم رجع إلى أصحابه، فسار بهم نحو بلاد البصرة، فبعث إليهم معقل بن قيس، ثم أردفه بخالد بن معدان الطائي، وكان من أهل الصلاح والدين والبأس والنجدة، وأمره أن يسمع له ويطيع، فلما اجتمعوا، صاروا جيشاً واحداً، ثم خرجوا في آثار الخِرِّيت وأصحابه، فلحقوهم، وقد أخذوا في جبال رامهرمز.

قال: فصففنا لهم، ثم أقبلنا إليهم، فجعل معقل على ميمنته يزيد بن المُغْفِل، وعلى ميسرته مِنْجاب بن راشد الضَّبِّي، ووقف الخِرِّيت فيمن معه من العرب، فكانوا ميمنة، وجعل من اتبعه من الأكراد والعلوج ميسرة.

قال ابن فُقَيْم: وسار فينا معقل بن قيس فقال: عباد الله، لا تبدؤا القوم، وغضوا أبصاركم، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب، وأبشروا في قتالكم بالأجر، إنما تقاتلون مارقة مرقت من الدين، وعلوجاً كسروا الخراج، ولصوصاً وأكراداً، فإذا حملتُ، فشدوا شدة رجل واحد، ثم تقدم، فحرك دابته تحريكتين، ثم حمل عليهم في الثالثة وحملنا معه جميعنا، فوالله ما صبروا لنا ساعة واحدة، حتى ولوا منهزمين، وقتلنا من العلوج والأكراد نحواً من ثلثمائة، وفر الخِرِّيت منهزماً، حتى لحق بأَسْيَافِ البحر، وبها جماعة من قومه كثيرة، فاتبعوه فقتلوه مع جماعة من أصحابه بِسيفِ البحر، قتله النعمان بن صهبان، وقتل معه في المعركة مائة وسبعون رجلاً.

ثم ذكر ابن جرير وقعات كثيرة كانت بين أصحاب علي والخوارج، ثم قال: حدثني عمر بن شيبة، ثنا أبو الحسن - يعني: المدائني - عن علي بن مجاهد قال: قال الشعبي: لما قتل عليّ أهل النهر، خالفه قوم كثير، وانتقضت أطرافه، وخالفه بنو ناجية، وقدم ابن الحضرمي إلى البصرة، وانْتَقَضَ أهلُ الجبال، وطمع أهل الخراج في كسره، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس - وكان عاملاً عليها - فأشار عليه ابن عباس، بزياد بن أبيه أن يوليه إياها، فولاه إياها، فسار إليها في السنة الأربعين التالية، في جمع كثير، فوطئهم حتى أدوا الخراج.



ذكر ما ورد في الخوارج من الأحاديث

جاء في خروج الخوارج، أحاديث كثيرة، رواها عن النبي ﷺ عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأنس ابن مالك، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي، وسهل بن حنيف، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو ذر الغفاري، وأم المؤمنين عائشة.

وقد أخرج هذه الأحاديث، كما هو مفصل في كتب أئمة الحديث: البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي وغيرهم.

وسنقتصر هنا على ذكر أقوى الروايات وأجمعها، فمنها[(١)]:

ما رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه، عن زيد بن وهب الجهني: أنه كان في الجيش الذين كانوا مع عليّ، الذين ساروا إلى الخوارج، فقال عليّ: يا أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقِيَهم، يَمْرُقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة[(٢)]، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم، ما قُضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتَّكلوا عن العمل، وآية ذلك، أن فيهم رجلاً له عَضُدٌ، وليس له ذراع، على رأس عَضُده مثلُ حَلَمة الثَّدي، عليه

---

(١) من أول هذا الفصل إلى هنا، هو من ترتيبنا ليس من كلام ابن كثير، بل إن ابن كثير رحمه الله، قد سرد كثيراً من الأحاديث برواياتها عن الصحابة الذين ذكرناهم، وقال بعد ذلك: [وإنما أوردنا هذه الطرق كلَّها، ليعلم الواقف عليها، أن ذلك حَقٌّ وصِدْقٌ، وهو من أكبر دلالات النبوة، كما ذكر غير واحد من الأئمة فيها، والله تعالى أعلم].

(٢) «الرمية» بفتح الراء وكسر الميم بعدها ياء مثناة مشددة هي: الطريدة التي ترمى بالسهم، أي: ينفذها السهم حتى يخرج منها.

شعرات بيض»، فَتَذهبون[1] إلى معاوية وأهل الشام، وتَتْرُكون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القومَ، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سَرْحِ الناس، فسيروا على اسم الله، قال سلمة بن كُهَيْل: فَنَزَّلَني زيد بن وهب منزلاً[2] حتى قال: مررنا على قنطرة، فلما التقينا، وعلى الخوارج يومئذٍ عبد الله بن وهب الراسبي، فقال لهم: أَلقوا الرماح وسُلُّوا سيوفكم من جُفُونها، فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حَرُوراء، فرجعوا فَوَحَّشُوا[3] برماحهم وسلوا السيوف، وشَجَرَهم الناس برماحهم، قال: وقُتل بعضهم على بعض، وما أصيب من الناس يومئذٍ إلا رجلان[4]، فقال علي: التمسوا فيهم المُخْدَجَ[5]، فالتمسوه فلم يجدوه، فقام عليّ بنفسه حتى أتى أناساً قد قُتل بعضهم على بعض، فقال: أَخِّرُوهم، فوجدوه مما يلي الأرض، فكبر ثم قال: صدق الله وبَلَّغ رسوله، قال: فقام إليه عَبيدة السَّلْماني فقال: يا أمير المؤمنين،آلله الذي لا إله هو، لَسَمِعْتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والله الذي لا إله هو، حتى استحلفه ثلاثاً، وهو يحلف له، هذا لفظ مسلم[6] وقد رواه أبو داود بنحوه.

وروى الإمام أحمد عن سويد بن غفلة قال: قال عليّ: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أَخِرَّ من السماء، أحب إلي من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم، فإن الحرب خَدْعَة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة،

---

(١) من قوله: «فتذهبون... إلخ» هو من كلام علي رضي الله عنه، وما قبله هو من كلام النبي ﷺ فانتبه.

(٢) قال النووي في شرح مسلم: هو هكذا في معظم النسخ: «منزلاً» مرة واحدة، وفي نادر منها: «منزلاً منزلاً» مرتين، وكذا ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين، وهو وجه الكلام، أي: ذكر لي مراحلهم بالجيش منزلاً منزلاً، حتى بلغ القنطرة التي كان عندها القتال وهي: قنطرة الدبرجان، كذا جاء مبيناً في «سنن النسائي»، وهناك خطبهم علي رضي الله عنه وروى لهم هذه الأحاديث. انتهى قوله.

(٣) «فوحشوا برماحهم» أي: رموا بها عن بعد.

(٤) «إلاّ رجلان» أي: من أصحاب علي رضي الله عنه، أما الخوارج فقتلوا بعضهم على بعض.

(٥) «المخدع» بضم الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الدال، أي: ناقص اليد.

(٦) قوله: «هذا لفظ مسلم»، لم يكن هذا الحديث في المطبوعة بلفظ مسلم الصحيح، بل كان فيه سقط وزيادات وتحريف كثير، فصوبناه وصححناه من صحيح مسلم، فهو الآن بحق بلفظ الإمام مسلم، فانتبه.

فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة»، وأخرجاه في الصحيحين.

وروى مسلم عن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله: أن الحَرُورية لما خرجت ـ وهو مع علي بن أبي طالب ـ قالوا: لا حكم إلا لله، قال عليٌّ: «كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله ﷺ وصف ناساً، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء، يقولون الحق بألسنتهم، لا يجاوز هذا منهم ـ وأشار إلى حلقة ـ مِنْ أبغض خلق الله إليه، منهم أسود، إحدى يديه طُبْيُ[1] شاةٍ أو حَلَمَةُ ثَدْي»، فلما قتلهم علي بن أبي طالب قال: انظروا فنظروا فلم يجدوا شيئاً فقال: ارجعوا فانظروا، فوالله ما كذبت ولا كذبت ـ مرتين أو ثلاثا ـ فوجدوه في خربة، فأتوا به علياً حتى وضعوه بين يديه، قال عبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم، وقول عليّ فيهم.

وروى أحمد من طريق محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني قال: ذكرت الخوارج عند عليّ فقال: فيهم مُخْدَجُ اليد[2] ـ أو: مَثْدُونُ اليد[3]، أو قال: مُودَنُ اليد[4] ـ ولولا أن تَبْطَروا، لحدثتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ، قال: قلت: أنت سمعته من محمد؟ قال: إِي وربِّ الكعبة، إِي وربِّ الكعبة، إِي وربِّ الكعبة، وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين عن عَبيدة عن علي، وله طرق متعددة، تفيد القطع عن كثيرين، عن محمد بن سيرين وقد حلف على أنه سمعه من عَبيدة، وحلف عَبيدة أنه سمعه من علي، وحلف عليٌّ أنه سمعه من رسول الله ﷺ، وقد قال علي: لأن أَخِرَّ من السماء إلى الأرض، أحب إليّ من أن أكذب على رسول لله ﷺ.

وروى عبد الله بن أحمد، عن أبي مريم، عن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: «إن قوماً يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، يقرؤن القرآن، لا يجاوز تراقيهم، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، علامتهم رجل مُخْدَجٌ».

وقال أبو داود في سننه: حدثنا بشر بن خالد، ثنا شبابة بن سوار، عن نعيم

---

(١) «طبي شاة» هو: بطاء مهملة مضمومة، ثم باء موحدة ساكنة، والمراد به: ضرع الشاة، وهو في الشاة مجاز واستعارة، إنما أصل «الطُبْي» للكلبة والسباع.

(٢) «مخدج اليد» بضم الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة، أي: ناقص اليد.

(٣) «أو مَثْدون اليد» بفتح الميم، وثاء مثلثة ساكنة، وهو: صغير اليد مجتمعها كثَنْدُوَة الثدي.

(٤) «مودن اليد» بضم الميم وسكون الواو وفتح الدال المهملة، ويقال بالهمز وتركه، أي: ناقص اليد.

بن حكيم، عن أبي مريم قال: إن كان ذاك المُخْدَجُ لمعنا يومئذٍ في المسجد، نجالسه الليل والنهار، وكان فقيراً، ورأيته مع المساكين يشهد طعام عليّ مع الناس، وقد كسوته بُرْنساً لي، قال أبو مريم: وكان المُخْدَجُ يسمى: نافعاً ذا الثُّدَيَّة، وكان في يده مثل ثَدْي المرأة، على رأسه حَلَمَةٌ مثل حَلمة الثدي، عليه شعرات مثل سِبَالة السِّنَّور[1].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «يخرج قوم في آخر الزمان، سفهاء الأحلام، أحداث ـ أو حدثاء ـ الأسنان، يقولون من خير قول الناس، يقرؤن القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، فمن أدركهم فليقتلهم، فإن في قتلهم أجراً عظيماً عند الله لمن قتلهم»، وقد رواه الترمذي وأخرجه ابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن مسعود مات قبل ظهور الخوارج بنحو من خمس سنين، فخبره في ذلك، من أقوى الأسانيد.

وروى أحمد عن أبي المغيرة، عن معاذ بن رفاعة، ثنا أبو الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن بالجعرانة، قام رجل من بني تميم فقال: اعدل يا محمد، فقال: «ويلك ومَنْ يعدل إن لم أعدل؟ لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل»، قال: عمر: يا رسول الله، ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟ قال: «معاذ الله أن يتسامع الأمم، أن محمداً يقتل أصحابه»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا وأصحاباً له، يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»، وقد رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: «بعث عليّ وهو باليمن، إلى رسول الله ﷺ بذُهَيْبَة في تربتها، فقسمها رسول الله ﷺ بين الأقرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بني مجاشع، وبين عيينة بن حصن الفزاري، وبين علقمة بن عُلاثَة أو عامر بن الطفيل أحد بني كلاب، وبين زيد الخيل الطائي ثم أحد بني نبهان، قال: فغضبت قريش والأنصار قالوا: تعطي صناديد أهل نجد وتَدعنا؟ قال: إنما أتألفهم، قال: فأقبل رجل غائر العينين، ناتىء الجبين، كثُّ اللحية، مشرف الوجنتين، محلوق الرأس، فقال: يا محمد، اتق الله، فقال: «من يطيع الله إذا عصيته؟ يأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟»، قال: فسأل رجل من القوم قَتْلَه النبيَّ ﷺ ـ أُراه خالد بن الوليد ـ

---

(١) «سبالة السِّنور» بكسر السين فيهما أي: طرف ذيله.

فمنعه، فلما ولّى قال: إن من ضِئْضِىءِ هذا، قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرَّمِيَّة، يقتلون أهل الإسلام، وَيَدَعُون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلهم قتل عاد». ورواه البخاري، ورواه أحمد من طريق أخرى، وفيه الجزم بأن خالداً سأل أن يقتل ذلك الرجل، ولا ينافي سؤال عمر بن الخطاب.

وهو في الصحيحين من حديث عمارة بن القعقاع من سيرته، وقال فيه: إنه سيخرج من صلبه ونسله، لأن الخوارج الذين ذكرنا، لم يكونوا من سلالة هذا، بل ولا أعلم أحداً منهم من نسله، وإنما أراد: من ضِئْضِىء هذا، أي: من شكله وعلى صفته فالله أعلم، وهذا الرجل هو: «ذو الخُوَيصرة التميمي»، وسماه بعضهم حُرْقُوصاً فالله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «يخرج أناس من قبل المشرق، يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم على فُوقه»[1] قيل: ما سيماهم؟ قال: «سيماهم التحليق والتَّسْبيد»[2] ورواه البخاري.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ابن الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أتأذن لي فيه، فأضربَ عنقه؟ فقال: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، فينظر قُذَذه[3] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نَضِيِّه[4] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في رَصَافه[5] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفَرْثَ والدمَ،

---

(١) يقال: «وما ارتد على فُوقه» بضم الفاء، أي: مضى ولم يرجع، والمعنى: أنهم لا يعودون إلى الدين كما لا يعود السهم بعد انطلاقه.

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية»: في حديث الخوارج: «التسبيد فيهم فاشٍ» هو: الحلق واستئصال الشعر، وقيل: هو ترك التدهن وغسل الرأس، وفي حديث آخر: «سيماهم التحليق والتسبيد».

(٣) «قذذه» جمع «قُذَّة» بضم القاف وهي: ريش السهم.

(٤) «نَضِيِّه»، النَّضي كغَنِيّ، هو: السهم بلا نصل ولا ريش.

(٥) «رَصَافه» بفتح الراء والصاد المهملة يقال: «رَصَفَ السهم»، إذا شَدَّ على رُعْظِهِ عَقَبَةً، و«رُعْظُ السَّهم» بالضم هو: مدخل سنخ السهم وفوقه لفائف العقب.

آيتهم رجل أسود، إحدى يديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البَضْعَة تَدَرْدَرُ[1]، يخرجون على حين فترة من الناس، فنزلت فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[2]» قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ. ورواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد عن بُسْر بن عمرو قال: دخلت على سهل بن حنيف فقلت: حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: في الحرورية؟، قال: أحدثك ما سمعت من النبي ﷺ، لا أزيدك عليه شيئاً، سمعت رسول الله ﷺ، يذكر قوماً يخرجون من ههنا، وأشار بيده نحو العراق، «يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»، قال: قلت: هل ذكر لهم علامة؟ قال: هذا ما سمعت لا أزيدك عليه. وقد أخرجاه في الصحيحين.

وروى مسلم بن الحجاج، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بعدي من أمتي ـ أو سيكون بعدي من أمتي ـ قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرَّمِيَّة لا يعودون فيه، شر الخلق والخليقة»، قال ابن الصامت: فلقيت زلفع بن عمرو الغفاري، أخا الحاكم الغفاري، قال: ما حَدَثَ؟ سمعتُ من أبي ذر كذا كذا، فقال: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ. لم يروه البخاري.



(١) «البضعة تدردر» «البضعة» بفتح الباء الموحدة هي: القطعة من اللحم، و «تدردر» بفتح التاء والدالين المهملتين يقال: تدردرت اللحمة إذا اضطربت.

(٢) الآية «٥٨» من سورة «التوبة».

الفصل السادس

مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

(عام «أربعين» للهجرة «٦٦٠» م)



كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قد تنغصت عليه الأمور، واضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن القيام معه، واستفحل أمر أهل الشام، وصالوا وجالوا يميناً وشمالاً، زاعمين أن الإمرة لمعاوية بمقتضى حكم الحكمين، في خلعهما علياً، وتولية عمرو بن العاص معاوية، عند خلو الإمرة عن أحد، وقد كان أهل الشام بعد التحكيم، يسمون معاوية الأمير، وكلما ازداد أهل الشام قوة، ضعف جأش أهل العراق، هذا وأميرهم علي بن أبي طالب، خير أهل الأرض في ذلك الزمان، أعبدهم وأزهدهم، وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل، ومع هذا كله خذلوه وتخلوا عنه، حتى كره الحياة وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن، فكان يكثر أن يقول: ما يَحْبس أشقاها، أي: ما ينتظر؟ ما له لا يَقْتُل؟[1] ثم يقول: والله لَتُخْضَبَنَّ هذه، ويشير إلى لحيته، من هذه، ويشير إلى هامته، كما روى البيهقي عن الحاكم عن ثعلبة بن يزيد قال: قال علي: «والذي فلق الحبة وبَرَأَ النَّسَمَة، لَتُخْضَبَنَّ هذه من هذه، للحيته، من رأسه، فما يحبس أشقاها؟» فقال عبد الله بن سبع: والله يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً فعل ذلك، لأبدنا عترته: فقال أنشدكم بالله أن لا يقتل غير قاتلي، فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا تستخلف؟ فقال: لا، ولكن أتركك كما ترككم رسول الله، قالوا: فما تقول لربك إذا لقيته وقد تركتنا هملاً؟ أقول: اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم.

وروى أبو داود في «كتاب القدر»: أنه لما كان أيام الخوارج، كان أصحاب عليّ يحرسونه، كل ليلة عشرة، يبيتون في المسجد بالسلاح، فرآهم عليّ فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: نحرسك، فقال: مِنْ أهل السماء؟ ثم قال: إنه لا يكون في الأرض شيء، حتى يُقْضَى في السماء، وإن عليّ من الله جُنَّةٌ حصينة، وفي رواية: وإن الرجل جُنَّةٌ محصونة، وإنه ليس من الناس أحد، إلا وقد وُكِّل به ملك، فلا تريده دابة ولا شيء إلا قال: اتَّقِهْ، اتَّقِهْ، فإذا جاء القدر خلَّى عنه، وفي رواية: ملكان يدفعان عنه، فإذا جاء القدر خَلَّيا عنه، وإنه لا يجد عبد حلاوة الإيمان، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

---

(١) يعني علي رضي الله عنه بهذا: أن شخصاً ما سيقتله، فهو يستعجله.

صفة مقتله رضي الله عنه

ذكر ابن جرير، وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس: أن ثلاثة من الخوارج وهم: «عبد الرحمن بن عمرو»، المعروف بابن مَلْجَم الحميري ثم الكندي، حليف بني حنيفة من كندة المصري، وكان أسمر حسن الوجه أبلج، شعره مع شحمة أذنيه، وفي وجهه أثر السجود، «والبَرْكُ بن عبد الله التميمي»، و «عمرو بن بكرالتميمي» أيضاً، اجتمعوا فتذاكروا قتل عليّ إخوانهم من أهل النهروان، فترحموا عليهم وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟ كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا، فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم، فأرحنا منهم البلاد، وأخذنا منهم ثأر إخواننا؟ فقال ابن مَلْجَم: أما أنا فأكفيكم عليَّ بن أبي طالب، وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا، أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه، حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فَسَمُّوها، واتعدوا لسبع عشرة من رمضان، أن يُبَيِّت كل واحد منهم صاحبه، في بلده الذي هو فيه، فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة، فدخلها وكتم أمره، حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها، فبينما هو جالس في قوم من بني الرباب، يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان، إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها: قطام بنت الشجنة، قد قتل علي يوم النهروان أباها وأخاها، وكانت فائقة الجمال مشهورة به، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه، فلما رآها ابن ملجم، سلبت عقله ونسي حاجته التي جاء لها، وخطبها إلى نفسها، فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم وخادماً وقينة، وأن يقتل لها علي بن أبي طالب، قال: فهو لك، ووالله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل علي، فتزوجها ودخل بها، ثم شرعت تحرضه على ذلك، وندبت له رجلاً من قومها، من تيم الرباب يقال له: وردان، ليكون معه ردءاً، واستمال عبد الرحمن بن ملجم رجلاً آخر يقال له: شبيب بن نجدة الأشجعي الحروري، قال له ابن ملجم: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ فقال: وما ذاك؟ قال: قتل علي، فقال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئاً إِدّاً، كيف تقدر عليه؟ قال:

أكمن له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغداة، شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا، فقال: ويحك، لو غير عليّ كان أهون عليّ، قد عرفت سابقته في الإسلام، وقرابته من رسول الله ﷺ، فما أجدني أنشرح صدراً لقتله، فقال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان؟ فقال: بلى، قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا، فأجابه إلى ذلك بعد لأي، ودخل شهر رمضان، فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت، وقال: هذه الليلة التي واعدت أصحابي فيها، أن يثأروا بمعاوية وعمرو بن العاص.

فجاء هؤلاء الثلاثة وهم: ابن ملجم، ووردان، وشبيب، وهم مشتملون على سيوفهم، فجلسوا مقابل السُّدة التي يخرج منها عليّ، فلما خرج، جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة، ويقول: الصلاة الصلاة، فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه، فسال دمه على لحيته رضي الله عنه، ولما ضرب ابن ملجم قال: لا حكم إلا لله، ليس لك يا علي، ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾[1] ونادى علي: عليكم به، وهرب وردان، فأدركه رجل من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس، ومسك ابن ملجم، وقدَّم عليٌّ جعدة بن هبيرة بن أبي وهب، فصلى بالناس صلاة الفجر، وحمل عليّ إلى منزله، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم، فأوقف بين يديه وهو مكتوف ـ قبحه الله ـ فقال له: أيْ عدو الله، ألم أحسن إليك؟ قال: بلى، قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً، وسألت الله يقتل به شرخلقه، فقال له علي: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله، ثم قال: إن مت فاقتلوه، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به، فقال جندب بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، إن مت نبايع الحسن؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

ولما احتضر عليٌّ، جعل يكثر من قول: لا إله إلا الله، لا يتلفظ بغيرها، وقد قيل: إن آخر ما تكلم به: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾[2]، وقد أوصى ولديه الحسن والحسين، بتقوى الله والصلاة والزكاة، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش، ووصاهما بأخيهما محمد بن الحنفية، ووصاه بما وصاهما به، وأن يعظمهما ولا يقطع أمراً دونهما، وكتب ذلك كله في كتاب وصيته رضي الله عنه وأرضاه، وصورة الوصية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب: أنه يشهد أن

---

(١) الآية «٢٠٧» من سورة «البقرة».

(٢) «الآيتان «٧ و ٨» من سورة «الزلزلة».

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، أوصيك يا حسن، وجميعَ ولدي ومَنْ بلغه كتابي، بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»، انظروا إلى ذوي أرحامكم فَصِلُوا، ليُهَوِّنَ الله عليكم الحسابَ، اللَّهَ اللَّهَ في الأيتام، فلا تَعْفوا[1] أفواههم، ولا يَضِيعُنَّ بحضرتكم، واللَّهَ اللَّهَ في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم، والله الله في القرآن، فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم، فلا يخلون منكم ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تُنْظَروا، والله الله في شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، والله الله في الزكاة فإنها تطفىء غضب الرب، والله الله في ذمة نبيكم لا تظلمن بين ظهرانيكم، والله الله في أصحاب نبيكم، فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم، والله الله فيما ملكت أيمانكم، فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «أوصيكم بالضعيفين: نسائكم وما ملكت أيمانكم»، الصلاة الصلاة، لا تخافُنَّ في الله لومة لائم، يكفكم من أرادكم وبغى عليكم، وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي الأمر شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم، وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ عليكم نبيكم، أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله».

ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله، حتى قبض في شهر رمضان سنة أربعين، وقد غسله ابناه: الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن، فكبر عليه أربع تكبيرات[2]، وقيل: تسع تكبيرات.

---

(١) «لا تعفوا أفواههم» أي: لا تنسوها ولا تهملوها.

(٢) قوله: «أربع تكبيرات»، لم يذكره ابن كثير هنا، بل اقتصر على ذكر التكبيرات التسع، وكذلك فعل في موضع آخر كما سيأتي، ولكنه ذكر التكبيرات الأربع في موضع ثالث حيث قال ابن كثير: [وصلى عليه ابنه الحسن وكَبَّر أربعاً، وقيل: أكثر من ذلك].
ونقول: إن مثل هذا الاختلاف عند ابن كثير كثير.

وأما صاحب معاوية، وهو: البَرْكُ، فإنه حمل عليه وهو خارج إلى صلاة الفجر، في هذا اليوم، فضربه بالسيف، وقيل: بخنجر مسموم، فجاءت الضربة في وركه، فجرحت إليته، ومسك الخارجي فقتل، وقد قال لمعاوية: اتركني فإني أبشرك ببشارة، فقال: وما هي؟ فقال: إن أخي قد قتل في هذا اليوم علي بن أبي طالب، قال: فلعله لم يقدر عليه، قال: بلى، إنه لا حرس معه، فأمر به فقتل، وجاء الطبيب فقال لمعاوية: إن جرحك مسموم، فإما أن أكويك، وإما أن أسقيك فيذهب السم، ولكن ينقطع نسلك، فقال معاوية: أما النار فلا طاقة لي بها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقر به عيني، فسقاه شربة، فبرأ من ألمه وجراحه، واستقل وسَلِمَ رضي الله عنه، ومن حينئذ، عملت المقصورة في المسجد الجامع، وجعل الحرس حولها في حال السجود، فكان أول من اتخذها معاوية لهذه الحادثة.

وأما صاحب عمرو بن العاص، وهو عمرو بن بكر، فإنه كمن له ليخرج إلى الصلاة، فاتفق أن عرض لعمرو بن العاص مغص شديد في ذلك اليوم، فلم يخرج إلا نائبه إلى الصلاة، وهو خارجة بن أبي حبيبة من بني عامر بن لؤي، وكان على شرطة عمرو بن العاص، فحمل عليه الخارجي فقتله، وهو يعتقده عمرو بن العاص، فلما أُخذ الخارجي قال: أردت عمراً، وأراد الله خارجة، فأرسلها مثلاً، وقتل قبحه الله، وقد قيل: إن الذي قالها عمرو بن العاص، وذلك حين جيء بالخارجي فقال: ما هذا؟ قالوا: قتل نائبك خارجة، ثم أمر به فضربت عنقه.

والمقصود: أن علياً رضي الله عنه لما مات، صلى عليه ابنه الحسن، فكبر عليه تسع تكبيرات[1] ودفن بدار الإمارة بالكوفة، خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته، هذا هو المشهور، ومن قال: إنه حمل على راحلته فذهبت به، فلا يدرى أين ذهب، فقد أخطأ وتكلف ما لا علم له به، ولا يسيغه عقل ولا شرع، وما يعتقده كثير من جهلة الروافض، من أن قبره بمشهد النجف، فلا دليل على ذلك ولا أصل له، ويقال: إنما ذاك قبر المغيرة بن شعبة، حكاه الخطيب البغدادي، عن أبي نعيم الحافظ، عن أبي بكر الطلحي، عن محمد بن عبد الله الحضرمي الحافظ، عن مطر الوراق، أنه قال: لو علمت الشيعة قبر هذا الذي يعظمونه بالنجف، لرجموه بالحجارة، هذا قبر المغيرة بن شعبة.

قال الواقدي: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر، كم كان سن علي يوم

---

(١) ارجع إلى التعليق السابق.

قتل؟ قال: ثلاثاً وستين سنة، قلت: أين دفن؟ قال: دفن بالكوفة ليلاً، وقد غُبِّي عن دفنه، وفي رواية عن جعفر الصادق: أنه كان عمره ثمانياً وخمسين سنة، وقد قيل: إن علياً دفن قبلى المسجد الجامع من الكوفة، قاله الواقدي، والمشهور بدار الإمارة، وقد حكى الخطيب البغدادي، عن أبي نعيم الفضل بن دكين: أن الحسن والحسين حولاه فنقلاه إلى المدينة، فدفناه بالبقيع عند قبر فاطمة، وقيل: إنهم لما حملوه على البعير، ضل منهم فأخذته طيء يظنونه مالاً، فلما رأوا أن الذي في الصندوق ميت ولم يعرفوه، دفنوا الصندوق بما فيه، فلا يعلم أحد أين قبره، حكاه الخطيب أيضاً.

وعن جعفر بن محمد الصادق قال: صُلِّي على عليّ ليلاً، ودفن بالكوفة، وعمي موضع قبره، ولكنه عند قصر الإمارة، وقال ابن الكلبي: شهد دفنه في الليل الحسن والحسين وابن الحنفية وعبد الله بن جعفر، وغيرهم من أهل بيتهم، فدفنوه في ظاهر الكوفة، وعموا قبره، خيفة عليه من الخوارج وغيرهم.

وحاصل الأمر: أن علياً قتل يوم الجمعة سحراً، وذلك لسبع عشرة خلت من رمضان من سنة أربعين، وقيل: إنه قتل في ربيع الأول، والأول هو الأصح الأشهر والله أعلم، ودفن بالكوفة عن ثلاثة وستين سنة، وصححه الواقدي وابن جرير وغير واحد، وقيل: عن خمس وستين، وقيل: عن ثمان وستين سنة رضي الله عنه، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

فلما مات علي رضي الله عنه، استدعى الحسن بابن ملجم، فقال له ابن ملجم: إني أعرض عليك خصلة قال: وما هي؟ قال: إني كنت عاهدت الله عند الحطيم، أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما، فإن خليتني ذهبت إلى معاوية، على أني إن لم أقتله أو قتلته وبقيت، فلله عليّ أن أرجع إليك، حتى أضع يدي في يدك، فقال له الحسن: كلاً والله حتى تعاين النار، ثم قدمه فقتله، ثم أخذه الناس فأدرجوه في بواري، ثم أحرقوه بالنار.

وروى ابن جرير قال: حدثني الحارث، ثنا ابن سعد، عن محمد بن عمر قال: ضرب علي يوم الجمعة، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت، وتوفي ليلة لأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، سنة أربعين، عن ثلاث وستين سنة، قال الواقدي: وهو المثبت عندنا والله أعلم بالصواب.

الفصل السابع

مما وقع من الحوداث في خلافة عليٍّ رضي الله عنه

* حَوَادث السَّنة السابعة والثلاثين.
* حَوَادث السَّنة الثامنة والثلاثين.
* حَوَادث السَّنة التاسعة والثلاثين.
* حَوَادث السَّنة الأربعين.



حوادث السنة السّابعة والثلاثين

قال ابن جرير: وحج بالناس في هذه السنة - يعني: سنة سبع وثلاثين - عبيد الله بن عباس، نائب عليّ على اليمن ومخاليفها.

وكان نائب مكة: قُثَم بن العباس، وعلى المدينة تمام بن عباس، وقيل: سهل بن حنيف، وعلى البصرة: عبد الله بن عباس، وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي، وعلى مصر: محمد بن أبي بكر، وعليٌّ بن أبي طالب أمير المؤمنين مقيم بالكوفة، ومعاوية بن أبي سفيان، مستحوذ على الشام، قلت: ومن نيته أن يأخذ مصر من محمد بن أبي بكر، وقد فعل ذلك، فأخذها كما سيأتي في حوادث السنة الثامنة والثلاثين.



حوادث السنة الثامنة والثلاثين

* فيها: بعث معاوية عمرو بن العاص إلى ديار مصر، فأخذها من محمد بن أبي بكر، واستناب معاوية عمراً عليها، وذلك كما سنبينه، وقد كان علي رضي الله عنه استناب عليها قيس بن سعد بن عبادة، وانتزعها من يد محمد بن أبي حذيفة، حين كان استحوذ عليها ومَنَعَ عبد الله بن سعد بن أبي سرح من التصرف فيها، حين حُصِر عثمان، ـ وقد كان عثمان استخلفه عليها، وعزل عنها عمرو بن العاص ـ وعمرو كان هو الذي افتتحها كما قدمنا ذكر ذلك.

ثم إن علياً عزل قيس بن سعد عنها، وولى عليها محمد بن أبي بكر، وقد ندم عليّ، على عزل قيس بن سعد عنها، وذلك أنه كان كفؤاً لمعاوية وعمرو، ولما ولّى محمد بن أبي بكر، لم يكن فيه قوة تعادل معاوية وعمراً، وحين عزل قيس بن سعد عنها، رجع إلى المدينة ثم سار إلى عليّ بالعراق فكان معه، وكان معاوية يقول: والله لقيس بن سعد عند عليّ، أبغض إليَّ من مائة ألف مقاتل بدله عنده، فشهد معه صفين، فلما فرغ عليّ من صفين، وبلغه أن أهل مصر، قد استخفوا بمحمد بن أبي بكر، لكونه شاباً ابن ست وعشرين سنة أو نحو ذلك، عزم على رد مصر إلى قيس بن سعد، وكان قد جعله على شرطته، أو إلى الأشتر النخعي، وقد كان نائبه على الموصل ونصيبين، فكتب إليه بعد صفين، فاستقدمه عليه ثم ولاه مصر، فلما بلغ معاوية تولية عليّ للأشتر النخعي ديار مصر، بدل محمد بن أبي بكر، عَظُم ذلك عليه، وذلك أنه كان قد طمع في مصر، واستنزاعها من يد محمد بن أبي بكر، وعلم أن الأشتر سيمنعها منه لحزمه وشجاعته، فلما سار الأشتر إليها، وانتهى إلى القُلْزُم[1]، استقبله الخانسار وهو مُقَدَّمٌ على الخراج، فقدم إليه طعاماً، وسقاه شراباً من عسل فمات منه، فلما بلغ ذلك معاوية وعمراً وأهل الشام قالوا: إن لله جنوداً من عسل.

---

(١) «القلزم» بضم القاف هو المعروف في عصرنا بالبحر الأحمر.

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأن معاوية، كان قد تقدم إلى هذا الرجل، في أن يحتال على الأشتر ليقتله، ووعده على ذلك بأمور، ففعل ذلك، وفي هذا نظر، وبتقدير صحته، فمعاوية يستجيز قتل الأشتر، لأنه من قتلة عثمان رضي الله عنه.

والمقصود: أن معاوية وأهل الشام، فرحوا فرحاً شديداً بموت الأشتر النخعي، ولما بلغ ذلك علياً تأسف على شجاعته وغنائه، وكتب إلى محمد بن أبي بكر، باستقراره واستمراره بديار مصر، غير أنه ضعف جأشه، مع ما كان فيه من الخلاف عليه، من العثمانية الذين ببلد خَرِبْتَا[1] وقد كانوا استفحل أمرهم حين انصرف علي من صفين، وحين كان من أمر التحكيم ما كان، وحين نكل أهل العراق عن قتال أهل الشام، وقد كان أهل الشام حين انقضت الحكومة بدومة الجندل، سَلّموا على معاوية بالخلافة، وقوي أمرهم جداً، فعند ذلك جمع معاوية أمراءه: عمرو بن العاص، وشرحبيل بن السِّمْط، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والضحاك بن قيس، وبُسْر بن أبي أرطاة، وأبا الأعور السلمي، وحمزة بن سنان الهَمَدَاني وغيرهم، فاستشارهم في المسير إلى ديار مصر، فاستجابوا له وقالوا: سر حيث شئت فنحن معك، وعين معاوية نيابتها لعمرو بن العاص إذا فتحها، ففرح بذلك عمرو بن العاص، ثم قال عمرو لمعاوية: أرى أن تبعث إليهم رجالاً مع رجل مأمون عارف بالحرب، فإن بها جماعة ممن يوالي عثمان، فيساعدونه على حرب من خالفهم، فقال معاوية: لكن أرى أن أبعث إلى شيعتنا ممن هنالك، كتاباً يعلمهم بقدومهم عليهم، ونبعث إلى مخالفينا كتاباً ندعوهم فيه إلى الصلح.

وقال معاوية: إنك يا عمرو، رجل بورك لك في العجلة، وإني امرؤ بورك لي في التؤدة، فقال عمرو: افعل ما أراك الله، فوالله ما أمرك وأمرهم، إلا سيصير إلى الحرب العوان، فكتب عند ذلك معاوية، إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، وإلى معاوية بن خديج السَّكوني ـ وهما رئيسا العثمانية ببلاد مصر، ممن لم يبايع علياً، ولم يأتمر بأمر نوابه بمصر، في نحو من عشرة آلاف ـ، يخبرهم بقدوم الجيش عليهم سريعاً، وبعث به مع مولى له يقال له: سبيع، فلما وصل الكتاب إلى مسلمة ومعاوية بن خديج، فرحا به وردا جوابه، بالاستبشار والمعاونة، والمناصرة له ولمن يبعثه من الجيوش والجند والمدد إن شاء الله تعالى، فعند ذلك جهز معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف، وخرج معاوية مودعاً، وأوصاه بتقوى الله والرفق والمهل

(١) «خربتا» هي بلدة كانت بنواحي الإسكندرية، اندثرت، واختلف في ضبطها، ومنه: أنها بفتح الخاء المعجمة وكسر الراء وسكون الباء الموحدة.

والتؤدة، وأن يقتل من قاتل، ويعفو عمن أدبر، وأن يدعو الناس إلى الصلح والجماعة، فإذا أنت ظهرت، فليكن أنصارك آثر الناس عندك، فسار عمرو بن العاص إلى مصر، فلما قدمها اجتمعت عليه العثمانية فقادهم.

وكتب عمرو بن العاص إلى محمد بن أبي بكر: أما بعد، فَتَنَحَّ فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر، فإن الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد، على خلافك ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، فهم مُسْلموك لو قد التقت حَلْقَتَا البِطَانِ[1]، فاخرج منها، فإني لك لمن الناصحين والسلام، وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه: أما بعد: فإن غِبَّ البغي والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام، لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا، والتبعة الموبقة في الآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان أشد خلافاً على عثمان منك، حين تطعن بمشاقصك بين حشاشته وأوداجه، ثم إنك تظن أني عنك نائم، أو ناسٍ ذلك لك، حتى تأتي فَتَأَمَّرَ على بلادٍ، أنت بها جاري، وجُلُّ أهلها أنصاري، وقد بعثت إليك بجيوش، يتقربون إلى الله بجهادك، ولن يسلمك الله من القصاص أينما كنت والسلام.

قال: فطوى محمد بن بكر الكتابين، وبعث بهما إلى علي، وأعلمه بقدوم عمرو إلى مصر، في جيش من قبل معاوية، فإن كانت لك بأرض مصر حاجة، فابعث إليَّ بأموال ورجال والسلام، فكتب إليه يأمره بالصبر وبمجاهدة العدو، وأنه سيبعث إليه الرجال والأموال، ويمده بما أمكنه من الجيوش.

وكتب محمد بن أبي بكر كتاباً إلى معاوية، في جواب ما قال وفيه غلظة، وكذلك كتب إلى عمرو بن العاص، وفيه كلام غليظ، وقام محمد بن أبي بكر في الناس، فخطبهم وحثهم على الجهاد، ومناجزة من قصدهم من أهل الشام.

وتقدم عمرو بن العاص إلى مصر في جيوشه، ومن لحق به من العثمانية المصريين، والجميع في قريب من ستة عشر ألفاً، وركب محمد بن أبي بكر في ألفي فارس، الذين انتدبوا معه من المصريين، وقدم على جيشه بين يديه كنانة بن بشر، فجعل لا يلقاه أحد من الشاميين إلا قاتلهم، حتى يلحقهم مغلوبين إلى عمرو بن العاص، فبعث عمرو بن العاص إليه، معاوية بن خديج، فجاءه من ورائه، وأقبل إليه الشاميون حتى أحاطوا به من كل جانب، فترجل عند ذلك كنانة وهو يتلو ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن

---

(١) «حلقتا البطان» بالحاء المهملة بعد لام ساكنة، هو هنا: الحبل، و «البطان» بكسر الباء الموحدة هو: حزام قتب الدابة، وهذا مثل معناه: سيسلمونك عند أول فرصة.

تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[1] ثم قاتل حتى قتل، وتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر عنه، ورجع يمشي، فرأى خربة فأوى إليها، ودخل عمرو بن العاص فُسْطَاط مصر، وذهب معاوية بن خديج في طلب محمد بن أبي بكر، فمر بعلوج في الطريق، فقال لهم: هل مر بكم أحد تستنكرونه؟ قالوا: لا، فقال رجل منهم: إني رأيت رجلاً جالساً في هذه الخربة، فقال: هو هو ورب الكعبة، فدخلوا عليه فاستخرجوه منها، وقد كاد يموت عطشاً، فانطلق أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان قد قدم معه إلى مصر، فقال: أيقتل أخي صبراً؟ فبعث عمرو بن العاص، إلى معاوية بن حُدَيْج، أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر ولا يقتله، فقال معاوية: كلاً والله، أيقتلون كنانة بن بشر، وأترك محمد بن أبي بكر، وقد كان ممن قتل عثمان، وقد سألهم عثمان الماء، وقد سألهم محمد بن أبي بكر، أن يسقوه شربة من الماء، فقال معاوية: لاسقاني الله إن سقيتك قطرة من الماء أبداً، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء، حتى قتلتموه صائماً محرماً، فتلقاه الله بالرحيق المختوم.

وقد ذكر ابن جرير وغيره: أن محمد بن أبي بكر، نال من معاوية بن حُدَيج هذا، ومن عمرو بن العاص، ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضاً، فعند ذلك غضب معاوية بن خديج، فقدمه فقتله، ثم جعله في جيفة حمار فأحرقه بالنار، فلما بلغ ذلك عائشة، جزعت عليه جزعاً شديداً، وضمت عياله إليها، وكان فيهم ابنه القاسم، وجعلت تدعو على معاوية وعمرو بن العاص دبر الصلوات.

وذكر الواقدي: أن عمرو بن العاص قدم مصر في أربعة آلاف، فيهم أبو الأعور السلمي، فالتقوا مع المصريين بالمسناة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى قتل كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي، فهرب عند ذلك محمد بن أبي بكر، فاختبأ عند رجل يقال له: جبلة بن مسروق، فدل عليه، فجاء معاوية بن خديج وأصحابه فأحاطوا به، فخرج إليهم محمد بن أبي بكر فقاتل حتى قتل، قال الواقدي: وكان ذلك في صفر من هذه السنة.

قال الواقدي: ولما قتل محمد بن أبي بكر، بعث عليّ الأشتر النخعي إلى مصر، فمات في الطريق فالله أعلم.

وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية، يخبره بما كان من الأمر، وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر، ورجعوا إلى السمع والطاعة واجتماع الجماعة، بما عهد لهم من الأمر، واستقرت بيد معاوية، فاستناب عليها عمرو بن العاص.

---

(١) الآية «١٤٥» من سورة «آل عمران».

حوادث السنة التاسعة والثلاثين

* فيها: جهز معاوية بن أبي سفيان جيوشاً كثيرة، ففرقها في أطراف معاملات علي بن أبي طالب، وذلك أن معاوية، رأى بعد أن ولاه عمرو بن العاص، بعد اتفاقه مع أبي موسى على عزل علي، أن ولايته وقعت الوقع، فهو الذي يجب طاعته فيما يعتقده، ولأن جيوش عليّ من أهل العراق، لا تطيعه في كثير من الأمر، ولا يأتمرون بأمره، فلا يحصل بمباشرته المقصود من الإمارة والحالة هذه، فهو يزعم أنه أولى منه إذا كان الأمر كذلك، وكان ممن بعث في هذه السنة، النعمان بن بشير في ألفي فارس إلى «عين التَّمر»، وعليها مالك بن كعب الأرحبي في ألف فارس مَسْلَحَة[1] لعليّ، فلما سمعوا بقدوم الشاميين ارفضوا عنه، فلم يبق مع مالك بن كعب إلا مائة رجل، فكتب عند ذلك إلى عليّ، يعلمه بما كان من الأمر، فندب عليّ الناس إلى مالك بن كعب، فتثاقلوا ونكلوا عنه، ولم يجيبوا إلى الخروج، فخطبهم عليٌّ عند ذلك فقال في خطبته:

«يا أهل الكوفة، كلما سمعتم بمنسر[2] من مناسر أهل الشام، انجحَرَ كلُّ منكم في بيته، وغلق عليه بابه، انجحار الضَّبِّ في جُحْره، والضَّبُع في وِجَارِهِ[3]، المغرور والله من غررتموه، ولمن فارقكم فاز بالسهم الأصيب، لا أحرار عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النَّجاءِ، إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا مُنِيتُ به منكم، عميٌ لا تبصرون، وبُكم لا تنطقون، وصُمٌّ لا تسمعون، إنا لله وإنا إليه راجعون».

ودهمهم النعمان بن بشير، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وليس مع مالك بن كعب إلا مائة رجل، قد كسروا جُفُون سيوفهم واستقتلوا، فبينا هم كذلك، إذ جاءهم نجدة من جهة مِخْنَف بن سليم، مع ابنه عبد الرحمن بن مِخْنَف، في خمسين رجلاً، فلما

---

(١) «مسلحة» بفتح الميم وسكون السين المهملة أي: جماعة ذوو سلاح.

(٢) «بمنسر» كمَجْلِس ومِنْبَر، هو: قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكثير.

(٣) «وجاره» بكسر الواو وفتحها هو: جحر الضبع وغيرها.

رآهم الشاميون، ظنوا أنهم مدد عظيم، ففروا هراباً، فتبعهم مالك بن كعب، فقتل منهم ثلاثة أنفس، وذهب الباقون على وجوههم، ولم يتم لهم أمر من هذا الوجه.

* وفيها: بعث معاوية، سفيان بن عوف في ستة آلاف، وأمره بأن يأتي هِيت، فيغير عليها، ثم يأتي الأنبار والمدائن؛ فسار حتى انتهى إلى هِيت، فلم يجد بها أحداً، ثم إلى الأنبار وفيها مَسْلَحَةٌ[1] لعلي نحو من خمسمائة، فتفرقوا ولم يبق منهم إلا مائة رجل، فقاتلوا مع قلتهم، وصبروا حتى قتل أميرهم، وهو: أشرس بن حسان البكري، في ثلاثين رجلاً من أصحابه، واحتملوا ما كان بالأنبار من الأموال، وكروا راجعين إلى الشام، فلما بلغ الخبر علياً رضي الله عنه، ركب بنفسه فنزل بالنخيلة، فقال له الناس: نحن نكفيك ذلك يا أمير المؤمنين، فقال: والله ما تكفونني ولا أنفسكم، وسَرَّح سعد بن قيس في أثر القوم، فسار وراءهم حتى بلغ هِيت، فلم يلحقهم فرجع.

* وفيها: بعث معاوية، عبد الله بن مسعدة الفَزَاري، في ألف وسبعمائة إلى تيماء، وأمره أن يُصَدِّقَ[2] من مَرَّ به من أهل البوادي، ومن امتنع من إعطائه فليقتله، ثم يأتي المدينة ومكة والحجاز، فسار إلى تيماء، واجتمع عليه بشر كثير، فلما بلغ علياً، بعث المسَيَّب بن نَجَبَةَ الفَزَاري في ألف رجل، فالتقوا بتيماء، فاقتتلوا قتالاً شديداً عند زوال الشمس، وحمل المسيب بن نَجَبَةَ على ابن مسعدة، فضربه ثلاث ضربات وهو لا يريد قتله، بل يقول له: النَّجَاءَ النَّجَاء، فانحاز ابن مسعدة في طائفة من قومه إلى حصن هناك، فتحصنوا به، وهرب بقيتهم إلى الشام، وانتهبت الأعراب ما كان جمعه ابن نَجَبَةَ من إبل الصدقة، وحاصرهم المسيب بن نَجَبَةَ ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب على الباب، وألهب فيه النار، فلما أحسوا بالهلاك، أشرفوا من الحصن، ومَتُّوا إليه بأنهم من قومه، فَرَقَّ لهم وأطفأ النار، فلما كان الليل، فتح باب الحصن، وخرجوا هراباً إلى الشام، فقال عبد الرحمن بن شبيب للمسيَّب بن نَجَبَةَ: سر حتى ألحقهم، فقال: لا، فقال: غششت أمير المؤمنين داهنت في أمرهم.

* وفيها: وجه معاوية، الضحاك بن قيس في ثلاثة آلاف، وأمره أن يغير على أطراف جيش عليّ، فجهز علي حُجْر بن عدي في أربعة آلاف، وأنفق فيهم خمسين درهماً خمسين درهماً، فالتقوا بتَدْمُرَ، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً،

---

(١) «مسلحة» أي: جماعة ذوو سلاح.

(٢) «أن يصدق» أي: يأخذ منهم الصدقات.

ومن أصحاب حجر بن عدي رجلان، وغشيهم الليل فتفرقوا، واستمر الضحاك بأصحابه فاراً إلى الشام.

* وفيها: سار معاوية بنفسه في جيش كثيف حتى بلغ دلجة، ثم كر راجعاً، ذكره محمد بن سعد، عن الواقدي بإسناده، وأبو معشر أيضاً.

* وفي هذه السنة: ولّى علي بن أبي طالب، زيادَ بن أبيه على أرض فارس، وكانوا قد منعوا الخراج والطاعة، وسبب ذلك حين قُتل ابن الحضرمي وأصحابه بالنار، حين حَرّقهم جارية بن قدامة، فلما اشتهر هذا الصنيع في البلاد، تشوش قلوب كثير من الناس على عليّ، واختلفوا على عليّ، ومنع أكثر أهل تلك النواحي خراجهم، ولا سيما أهل فارس، فإنهم تمردوا وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف من بين أظهرهم، فاستشار عليّ الناس فيمن يوليه عليهم، فأشار ابن عباس وجارية بن قدامة، أن يولي عليهم زياد بن أبيه، فإنه صليب الرأي، عالم بالسياسة، فقال علي: هو لها، فولاه فارس وكرمان، وجهزه إليهما في أربعة آلاف فارس، فسار إليها في هذه السنة، فدوخ أهلها وقهرهم، حتى استقاموا وأدوا الخراج، وما كان عليهم من الحقوق، ورجعوا إلى السمع والطاعة، وسار فيهم بالمعدلة والأمانة، حتى كان أهل تلك البلاد يقولون: ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان، من سيرة هذا العربي، في اللين والمداراة والعلم بما يأتي، وصفت له تلك البلاد، بعدله وعلمه وصرامته، واتخذ للمال قلعة حصينة، فكانت تعرف بقلعة زياد، ثم لما تحصن فيها منصور اليشكري فيما بعد ذلك، عُرفت به، فكان يقال لها: قلعة منصور.

* قال الواقدي: وفي هذه السنة: بعث علي بن أبي طالب، عبد الله بن عباس على الموسم، وبعث معاوية يزيد بن سَخْبرة الرهاوي، ليقيم للناس الحج، فلما اجتمعا بمكة تنازعا، وأبى كل واحد منهما أن يسلم لصاحبه، فاصطلحا على شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الحَجْبِيّ، فحج بالناس، وصلى بهم في أيام الموسم، قال أبو الحسن المدائني: لم يشهد عبد الله بن عباس الموسم، في أيام علي حتى قتل، والذي نازعه يزيد بن سخبرة، إنما هو قُثَم بن العباس، حتى اصطلحا على شيبة بن عثمان، قال ابن جرير: وكما قال أبو الحسن المدائني، قال أبو مصعب.

حوادث السّنة الأربعين

* قال ابن جرير: فمما كان في هذه السنة من الأمور الجليلة، توجيه معاوية، بُسْر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز، فذكر عن زياد بن عبد الله البكائي عن عوانة، قال: أرسل معاوية بعد تحكيم الحكمين، بُسْرَ بن أبي أرطاة - وهو: رجل من بني عامر بن لؤي - في جيش، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة، وعامل علي عليها يومئذ أبو أيوب، ففر منهم أبو أيوب، فأتى علياً بالكوفة، ودخل بُسْر المدينة ولم يقاتله أحد، فصعد منبرها فنادى على المنبر: يا دينار، ويا نجار، ويا رزيق، شيخي، شيخي، عهدي به ههنا بالأمس، فأين هو؟ - يعني: عثمان بن عفان - ثم قال: يا أهل المدينة، والله لولا ما عهد إليّ معاوية، ما تركت بها محتلماً، إلا قتلته، ثم بايع أهل المدينة، وأرسل إلى بني سَلَمَة فقال: والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة، حتى تأتوني بجابر بن عبد الله - يعني: حتى يبايعه - فانطلق جابر إلى أم سَلَمة[1] فقال لها: ماذا ترين؟ إني خشيت أن أُقتل، وهذه بيعة ضلالة، فقالت: أرى أن تبايع، فإني قد أمرت ابن عمر، وخَتني عبدَ الله بن زَمْعة - وهو: زوج ابنتها زينب - أن يبايعا، فأتاه جابر فبايعه، قال: وهدم بُسْرٌ دوراً بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى الأشعري أن يقتله، فقال له بسر: ما كنت أفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك، فخلّى عنه وكتب أبو موسى قبل ذلك إلى أهل اليمن، أن خيلاً مبعوثة من عند معاوية، تقتل من أبى أن يقر بالحكومة، ثم مضى بسر إلى اليمن، وعليها عبيد الله بن عباس، ففر إلى الكوفة حتى لحق بعليّ، واستخلف على اليمن عبد الله بن عبد الله بن المدان الحاوي، فلما دخل بسر اليمن، قتله وقتل ابنه، ولقي بسر ثِقْلَ[2] عبيد الله بن عباس وفيه ابنان صغيران له فقتلهما وهما: عبد الرحمن وقُثَم.

---

(١) «أم سلمة» هي: أم المؤمنين أم سلمة: هند المخزومية زوج النبي ﷺ، توفيت في زمن يزيد بن معاوية.

(٢) «ثقل»، أي: أهل.

ويقال: إن بُسْراً قتل خلقاً من شيعة علي في مسيره هذا، وهذا الخبر مشهور عند أصحاب المغازي والسير، وفي صحته عندي[1] نظر والله تعالى أعلم.

ولما بلغ علياً، خبر بُسر، وجه جارية بن قدامة في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين، فسار جارية حتى بلغ نجران، فحرق بها وقتل ناساً من شيعة عثمان، وهرب بسر وأصحابه، فاتبعهم حتى بلغ مكة، فقال لهم جارية: بايعوا، فقالوا: لمن نبايع، وقد هلك أمير المؤمنين؟ فلمن نبايع؟ فقال: نبايع لمن بايع له أصحاب عليّ، فتثاقلوا ثم بايعوا من خوف، ثم سار حتى أتى المدينة، وأبو هريرة يصلي بهم، فهرب منه فقال جارية: والله لو أخذت أبا سِنَّوْرٍ لضربت عنقه، ثم قال لأهل المدينة: بايعوا للحسن بن عليّ، فبايعوا وأقام عندهم، ثم خرج منصرفاً إلى الكوفة، وعاد أبو هريرة يصلي بهم.

* قال ابن جرير: وفي هذه السنة: جرت بين علي ومعاوية المهادنة، بعد مكاتبات يطول ذكرها، على وضع الحرب بينهما، وأن يكون ملك العراق لعلي ولمعاوية الشام، ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله، بجيش ولا غارة ولا غزوة.

ثم ذكر ابن جرير عن زياد عن ابن إسحاق، ما هذا مضمونه: أن معاوية كتب إلى عليّ: أما بعد فإن الأمة قد قتل بعضها بعضاً، يعني: فَلَكَ العراقُ ولي الشام، فأقر بذلك علي رضي الله عنه، وأمسك كل واحد منهما عن قتال الآخر، وبعث الجيوش إلى بلاده، واستقر الأمر على ذلك.

* قال ابن جرير: وفي هذه السنة: خرج ابن عباس من البصرة إلى مكة، وترك العمل في قول عامة أهل السِّير، وقد أنكر ذلك بعضهم، وزعم أنه لم يزل عاملاً على البصرة، حتى صالح عليّ معاوية، وأنه كان شاهداً للصلح، وممن نص على ذلك أبو عبيدة.

ثم ذكر ابن جرير، سبب خروج ابن عباس عن البصرة، وذلك أنه كلم أبا الأسود الدؤلي القاضي، بكلام فيه غض من أبي الأسود، فكتب أبو الأسود إلى عليّ، يشكو إليه ابن عباس وينال من عرضه، فإنه تناول شيئاً من أموال بيت المال، فبعث عليّ إلى ابن عباس، فعاتبه في ذلك، وحرر عليه التَّبِعة، فغضب ابن عباس

(١) قوله: «وفي صحته عندي نظر» لم يبين ابن كثير رحمه الله تعالى وجه النظر، فيما رواه أصحاب المغازي من مخازي بسر هذا، والصحيح أنه ارتكب شناعات، وإلى الله المصير.

من ذلك، وكتب إلى عليّ: ابعث إلى عملك من أحببت، فإني ظاعن عنه والسلام، ثم سار ابن عباس إلى مكة، مع أخواله بني هلال، وتبعهم قيس كلها، وقد أخذ شيئاً من بَيت المال، مما كان اجتمع له من العمالة والفيء، ولما سار، تبعته أقوام أخر، فلحقهم بنو غنم، وأرادوا منعهم من المسير، فكان بينهم قتال، ثم تحاجزوا ودخل ابن عباس مكة.

* وفيها: قُتل أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما تقدم في «الفصل الخامس».

* وفيها: نزل الحسن بن علي عن الخلافة، لمعاوية بن أبي سفيان، على المشهور، ولكن المشهور عند ابن جرير وغيره من علماء السِّير، أن ذلك كان في أوائل سنة إحدى وأربعين، كما سيأتي في «القسم الخامس» التالي، وسمي هذا العام «عام الجماعة» لاجتماع الكلمة فيه على معاوية.



القسم الخامس

خلافَةُ الحَسَنِ بن عليّ رضي الله عنهما

وتسليمه الأمر إلى معاوية

رضي الله عنه



قد ذكرنا: أن علياً رضي الله عنه، لما ضربه ابن ملجم، قالوا له: استخلف يا أمير المؤمنين، فقال: لا، ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله ﷺ - يعني: بغير استخلاف - فإن يرد الله بكم خيراً، يجمعكم على خيركم، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ، فلما توفي، وصلى عليه ابنه الحسن، لأنه أكبر بنيه رضي الله عنهم، ودفن كما ذكرنا بدار الإمارة، على الصحيح من أقوال الناس، فلما فرغ من شأنه، كان أول من تقدم إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، قيس بن سعد بن عبادة، فقال له: ابسط يدك، أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فسكت الحسن، فبايعه، ثم بايعه الناس بعده، وكان ذلك يوم مات علي، وكان موته يوم ضُرب على قول، وهو: يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وقيل: إنما مات بعد الطعنة بيومين، وقيل: مات في العشر الأخير من رمضان، ومن يومئذ ولي الحسن ابن علي، وكان قيس بن سعد على إمرة أذربيجان، تحت يده أربعون ألف مقاتل، قد بايعوا علياً على الموت، فلما مات عليّ، ألح قيس بن سعد على الحسن في النفير لقتال أهل الشام، فعزل قيساً عن إمرة أذربيجان، وولى عبيد الله بن عباس عليها، ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحداً، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يسمع بمثله، فأمر الحسن بن علي، قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة، في اثني عشر ألفاً بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصداً بلاد الشام، ليقاتل معاوية وأهل الشام، فلما اجتاز بالمدائن، نزلها وقدم المقدمة بين يديه، فبينما هو في المدائن معسكراً بظاهرها، إذ صرخ في الناس صارخ: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قتل، فثار الناس، فانتهبوا أمتعة بعضهم بعضاً، حتى انتهبوا سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطاً كان جالساً عليه، وطعنه بعضهم حين ركب، طعنة أثبتوه وأَشْوَوْه[1]، فكرههم الحسن كراهية شديدة، وركب فدخل القصر الأبيض من المدائن فنزله وهو جريح، وكان عامله على المدائن، سعد بن مسعود الثقفي، أخو أبي عبيد صاحب يوم الجسر، فلما استقر الجيش بالقصر، قال المختار بن أبي عبيد قبحه الله، لعمه سعد بن مسعود: هل لك في الشرف والغنى؟ قال: ماذا؟ قال: تأخذ الحسن بن علي، فتقيده وتبعثه إلى معاوية، فقال له عمه: قبحكم الله وقبح ما جئت به، أَغدر بابن بنت رسول الله ﷺ؟.

ولما رأى الحسن بن علي تفرق جيشه عليه مقتهم، وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان قد ركب في أهل الشام، فنزل مسكن، يراوضه على الصلح بينهما، فبعث إليه معاوية عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة، فقدما

---

(١) «أشوَوه»، «الشَّوَى»: ما كان غير مقتل، وأَشْوَاه وشَوَّاه: أصاب شواه لا مقتله.

عليه الكوفة، فبذلا له ما أراد من الأموال، فاشترط أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم، وأن يكون خراج دار أَبْجَرد له، وأن لا يُسَبَّ عليّ وهو يسمع، فإذا فعل ذلك، نزل عن الإمرة لمعاوية، ويحقن الدماء بين المسلمين، فاصطلحوا على ذلك، واجتمعت الكلمة على معاوية، على ما سيأتي بيانه وتفصيله.

وقد لام الحسين لأخيه الحسن على هذا الرأي، فلم يقبل منه، والصواب مع الحسن رضي الله عنه كما سنذكر دليله قريباً.

وبعث الحسن بن علي، إلى أمير المقدمة قيس بن سعد أن يسمع ويطيع، فأبى قيس بن سعد من قبول ذلك، وخرج عن طاعتهما جميعاً، واعتزل بمن أطاعه، ثم راجع الأمر فبايع معاوية بعد قريب كما سنذكره.

ثم المشهور: أن مبايعة الحسن لمعاوية، كانت في سنة أربعين، ولهذا يقال له: عام الجماعة، لاجتماع الكلمة فيه على معاوية، والمشهور عند ابن جرير وغيره من علماء السير: أن ذلك كان في أوائل سنة إحدى وأربعين كما سنذكره إن شاء الله.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة ـ أي: سنة أربعين ـ بويع لمعاوية بايلياء، يعني: لما مات علي، وقام أهل الشام، فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين، لأنه لم يبق له عندهم منازع، فعند ذلك، أقام أهل العراق الحسن بن علي رضي الله عنه، ليمانعوا به أهل الشام، فلم يتم لهم ما أرادوه وما حاولوه، وإنما كان خذلانهم، من قبل تدبيرهم وآرائهم المختلفة، المخالفة لأمرائهم، ولو كانوا يعلمون، لعظموا ما أنعم الله به عليهم، من مبايعتهم ابن بنت رسول الله ﷺ، وسيد المسلمين، وأحد علماء الصحابة وحلمائهم وذوي آرائهم.

والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين، حديث سُفَيْنَة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً»[1]، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة، صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً.

وقد مدحه رسول الله ﷺ على صنيعه هذا، وهو: تركه الدنيا الفانية، ورغبته في الآخرة الباقية، وحقنه دماء هذه الأمة، فنزل عن الخلافة، وجعل الملك بيد معاوية، حتى تجتمع الكلمة على أمير واحد، وهذا المدح قد جاء في حديث أبي بكرة الثقفي، أن رسول الله ﷺ صعد المنبر يوماً، وجلس الحسن بن علي إلى جانبه، فجعل ينظر إلى الناس مرة وإليه أخرى ثم قال: «أيها الناس، إن ابني هذا سَيِّدٌ، وسَيُصْلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» رواه البخاري[2].

---

(١) الحديث رواه: أحمد والترمذي وابن حبان، وهو حديث صحيح.

(٢) وسيأتي تخريجه في سياق كلام ابن كثير بعد أسطر.

وقال ابن جرير: فيها ـ أي: سنة إحدى وأربعين ـ سَلَّم الحسن بن علي الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، ثم رَوَى عن الزهري أنه قال: لما بايع أهل العراق الحسن بن علي، طفق يشترط عليهم، أنهم سامعون مطيعون، مسالمون من سالمت، محاربون من حاربت، فارتاب به أهل العراق وقالوا: ما هذا لكم بصاحب؟ فما كان عن قريب حتى طعنوه فأَشْوَوْه[1]، فازداد لهم بغضاً وازداد منهم ذعراً، فعند ذلك عرف تفرقهم واختلافهم عليه، وكتب إلى معاوية يسالمه، ويراسله في الصلح بينه وبينه على ما يختاران.

وقال البخاري في كتاب الصلح: حدثنا عبد الله بن محمد ثنا سفيان ـ هو: ابن عيينة ـ عن أبي موسى قال: سمعت الحسن ـ البصري ـ يقول: «استقبل والله الحسن بن علي، معاوية بن أبي سفيان، بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب، لا تولِّي حتى تَقْتُلَ أقرانها، فقال معاوية ـ وكان والله خير الرجلين ـ: إن قَتَلَ هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، مَنْ لي بأمور الناس؟ مَنْ لي بَضَعَفتهم؟ من لي بنسائهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمن بن سَمُرة، وعبد الله بن عامر، قال: اذهبا إلى هذا الرجل، فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه، فأتياه فدخلا عليه، فتكلما وقالا له، وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب، قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها، قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسالمك، قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به، فصالحه، قال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يُقْبل على الناس مرةً، وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»».

قال البخاري: قال لي علي بن المديني: إنما ثبت عندنا سماع الحسن من أبي بكرة بهذا الحديث.

قلت: وقد رَوَى هذا الحديث البخاري أيضاً في «كتاب الفتن»، عن علي بن عبد الله ـ وهو: ابن المديني ـ وفي «فضائل الحسن» عن صدقة بن الفضل، ثلاثتهم عن سفيان، وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائي، من حديث حماد بن زيد، عن علي بن زيد، عن الحسن البصري به، ورواه أبو داود أيضاً والترمذي، من طريق أشعث عن الحسن به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو يعلى عن سعيد بن أبي سعيد المدني قال: كنا مع أبي هريرة، إذ جاء الحسن بن علي قد سلم علينا، قال: فتبعه فلحقه وقال: وعليك السلام يا سيدي، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سَيِّد».

وقال أبو الحسن علي بن المديني: كان تسليم الحسن الأمر لمعاوية في الخامس من

---

(١) «فأشوره» أي: أصابوا منه غير مقتل، وقد تقدم بيانه قبل تعليقين.

ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقال غيره: في ربيع الآخر، ويقال: في غرة جمادى الأولى فالله أعلم، قال: وحينئذ دخل معاوية إلى الكوفة، فخطب الناس بها بعد البيعة.

وذكر ابن جرير: أن عمرو بن العاص أشار على معاوية، أن يأمر الحسن بن علي، أن يخطب الناس، ويعلمهم بنزوله على الأمر لمعاوية، فأمر معاوية الحسن، فقام في الناس خطيباً، فقال في خطبته، بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله ﷺ:

«أما بعد: أيها الناس، فإن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾﴾»[1].

فلما قالها، غضب معاوية وأمره بالجلوس، وعتب على عمرو بن العاص في إشارته بذلك، ولم يزل في نفسه لذلك والله أعلم.

ولما تسلم معاوية البلاد، ودخل الكوفة وخطب بها، واجتمعت عليه الكلمة في سائر الأقاليم والآفاق، ورجع إليه قيس بن سعد أحد دهاة العرب، وقد كان عزم على الشقاق، وحصل على بيعة معاوية عامئذ الإجماع والاتفاق، ترحل الحسن بن علي، ومعه أخوه الحسين، وبقية إخوتهم، وابن عمهم عبد الله بن جعفر، من أرض العراق إلى أرض المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وجعل كلما مر بحيّ من شيعتهم، يبكتونه على ما صنع من نزوله على الأمر لمعاوية، وهو في ذلك هو البار الراشد الممدوح، وليس يجد في صدره حرجاً ولا تلوماً ولا ندماً، بل هو راض بذلك مستبشر به، وإن كان قد ساء هذا، خَلْقاً من ذويه وأهله وشيعتهم، ولا سيما بعد ذلك بمُدَدٍ، وهلم جرّا إلى يومنا هذا، والحق في ذلك اتباع السنة، ومدحه فيما حقن به دماء الأمة، كما مدحه على ذلك رسول الله ﷺ كما تقدم في الحديث الصحيح ولله الحمد والمنة.

وسيأتي فضائل الحسن، عند ذكر وفاته[2] رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنات الفردوس متقلبه ومثواه، وقد فعل.

* * *

تَمَّ بعونه تعالى الجزء الرابع من كتابنا:
«خلاصة البداية والنهاية لابن كثير»
ويليه الجزء الخامس المشتمل على:
«تاريخ الدولة الأُمَوية»
والحمد لله رب العالمين

---

(١) الآية «١١١» من سورة «الأنبياء».

(٢) سيأتي هذا في وفيات سنة تسع وأربعين، في «وفيات المشاهير والأعيان» في «الجزء السابع» بعونه تعالى.

الفهرس

والحمد لله رب العالمين

